

شرح إمامنا أبي عبد الله

المسمى
فتح الرحيم الرحمن

شرح نصيحة الإخوان ومُرْسَدَةُ الْخُلَدَانِ



تأليف

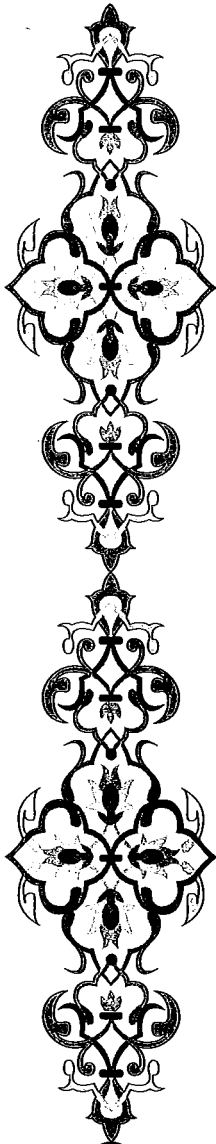
العالم الفقيه الأديب

الشريف مسعود بن حسن بن أبي بكر القناوي

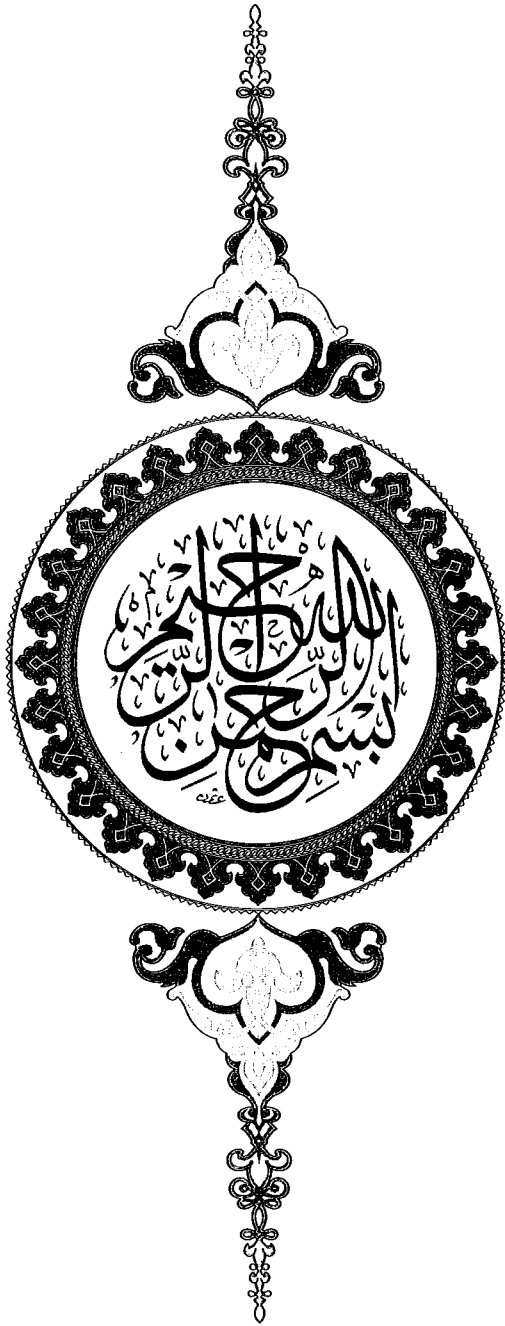
الحسيني الشافعي

رحمة الله تعالى





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



شرح أمير المؤمنين

المسمى

فتح الرحيم الرحمن

شرح نصيحة الاخوان ومُرشدة الخُلائ

تأليف

العالم الفقيه الأديب

الشريف مسعود بن حسن بن أبي بكر القناوي

الحسيني الشافعي

رحمة اللطائف

(الترقي سنة ١٢٠٥ هـ)

عني به

بوجع عبد القادر مكري

دار المنهاج

بَيْنَ يَدَيْ الْكِتَابِ

ابن الوردي البكري الصديقي الشافعي ، إمام في الفقه ، مبرز في الأدب ، متوشح بالزهد والورع ، ولو لم يكن له إلا « بهجة الحاوي » . . لكفته فخراً ، ورفعته ذكراً . ومن غريب الاتفاق أن منظومة ابن رسلان « صفوة الزبد » تتساقق في بعض الأبيات مع « البهجة » والناظران متعاصران .

وهذه « اللامية » الحكمية تنفث بالسحر الحلال ، وتتجلى فيها براعة هذا الإمام ، فكان لها حلاوة متميزة ، وبهاء أخاذ ، وحسن سبك ، فالتقى سمو الأسلوب وعلو المضمون ، فذاعت وذاعت ، وشرقت وغربت ؛ لقوة وقعها في القلوب ، وما دام الحال كما يقول أمير الشعراء :

وَصَادِقُ الْحُبِّ يُمْلِي صَادِقَ الْكَلِمِ

فإن الإمام ابن الوردي رحمه الله كان على درجة كبيرة من الزهد والورع والمراقبة ، فأملئ صادق الكلم ، وأتى بجوامع الحكم ، ووعظ فيها وذكر ، ورغب في معالي الأمور ومن سفاسفها حذر ، فكانت هذه المنظومة تحفة سنئية ، وجوهرة يتيمة ؛ فلهذا ألبست من محاسن الأدب حُللاً ، ومن تيجان الفضائل محاسناً ، وهي من أجمل ما أنتجه فكر هذا العبقري المحنك ، الألمعي البازل ، البكري الصديقي .

وكان ممن اعتنى بهذه « اللامية » الفريدة الشيخ المتبحر الأثري مسعود القناوي الشافعي ، فسبح في يمِّها ، واستخرج جوهرها ، واستخلص يتيمة ، وأظهر خفاياها ، وأبان كنوزها ، ووشاها بكل معنى لطيف ، ووشحها بكل أثر شريف ، وأتى لمعانيها بالأشباه والنظائر ، وحلاها بالعقيان والجواهر ، وأكثر من العظات والتذكير ، وأردفها بأحاديث البشير النذير صلى الله عليه وسلم .

وفي أثناء ذلك بحوث فقهية ، ونقول عن أئمة المذاهب ، فهو يتنقل بك من حسن إلى

أحسن ، ومن مهمّ إلى أهم ، غررُ الفوائد في هذا الشرح ظاهرة ، وعزيز الفوائد فيه دائرة ، ونفسُ الشيخ نفسُ صوفيٍّ محبٍّ ، فهو يأتي بأخبار هؤلاء العظماء ، ويقتطف من آثارهم ما كان سيّاراً في فلك السماء ، ومن تحلّى بشيء . . أكثر من ذكره ، ومال إليه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ولا غرابة في ذلك ؛ فهنالك ارتباط بين مضمون القصيدة وسمات أهل الوجد .

والخلاصة : أن هذا الشرح اسم طابق المسمى ، وسفرٌ فاخر السُّها ، فهو بحق « فتح الرحيم الرحمن » ، وأضواء من البيان ، وفتوحات أفاض بها الملك الديان على الماتن والشارح معاً .

وقد كان للرجال الأقدمين الاهتمام الشديد بحفظ الأشعار التي ترشد إلى مكارم الأخلاق ، والولع المتزايد بكل شعر سامٍ في موضوعه ، شريف في مضمونه ، حتى إن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يحث على حفظ قصيدة الشنفرى ، وهي لامية جاهلية مطلعها :

أَقِيمُوا بَيْتِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمِيلُ

وما ذاك إلا لأن فيها التفاخر بإباء الضَّيم ، والصبر على الشدائد ومقارعة الأهوال ، والتمدح بأخلاق الكرام ، ثم صارت القصائد الروائع التي سجلها التاريخ لأعلام عظام في مختلف الأزمان محلّ اهتمام القوم ؛ كـ « مقصورة ابن دريد » و « لامية العجم » ، وأضرابهما من القصائد المتميزة بالجودة العالية والأسلوب الأدبي الراقي .

وما دام أن الشيء بالشيء يذكر ؛ فإن دار المنهاج أتحت قراء العربية ، بل أهدت إلى المراكز الأدبية شرحاً عزيزاً نفيساً لـ « لامية العجم » رزح قروناً في ظلمات الإهمال حتى انتشلتها اليد الجخيفية ، وحققته اللجنة الشامية ، إنه « شرح الإمام الدميري » لهذه « اللامية » ، وهو يتهدى اليوم في حلق سندسية ، بطباعة فنية وتحقيق واف .

وحين جاء دورُ المناظيم الرجزية المؤلفة في كل فن ، والقصائد الحكمية . . هرعت نحو هلذين النوعين طلبة العلم ، وعكفوا عليهما حفظاً ودراسة ، وأسرعت أقلام أهل المعرفة إلى وضع الشروح والحواشي عليها ، حتى إنه من أيام فقط أخرجت لنا دار المنهاج حاشية نفيسة على « متن صفوة الزيد » للسيد العلامة سيوطي عصره محمد بن أحمد عبد الباري الأهدل

الموسومة بـ «إفادة السادة العمدة» ، وهذا منضم إلى حسنات هذه الدار النشطة بقيادة راعيها الشيخ عمر بن سالم باجخيف أعلى الله تعالى مقامه .

وللمناظير الرجزية أثرها النافع ، وفوائدها الظاهرة ، وقديماً تناقل أهل العلم هذه الجملة الرصينة : (من حفظ المتون . . حاز الفنون) .

والمرء لا يستحضر في كل وقت صور المسائل ولا سيما الفقهية منها ؛ لوفرتها وتشعبها ، وقد تخونه الذاكرة ، ولَمَّا كان حفظ النظم أسهل . . صار مُعيناً على الاستدكار ، منبهاً صاحبه إذا وقع في وهدة العثار ، أو عصفت به ريح النسيان .

وقبل يومين فقط من كتابة هذه الكلمة حَدَّثَ أن شيخنا وأستاذنا الدكتور محمد عبد الرحمن الأهدل والشيخ عمر باجخيف صلياً خلف إمام صلاة الظهر ، فقام إلى الثالثة ونسي التشهد الأول وانتصب ، فسبح له مَنْ خلفه وقد تلبس بالقيام ، فرجع وتشهد ، وحصل بعد الصلاة المذاكرة في المسألة ، وهل العود مطلوب أو منهي عنه ، فأنشد الدكتور الأهدل من حفظه من « زيد ابن رسلان » هذين البيتين :

وَمَنْ نَسِيَ التَّشَهُدَ الْمُقَدَّمَ وَعَادَ بَعْدَ الْإِنْتِصَابِ حَرَمًا
وَجَاهِلُ التُّحْرِيمِ أَوْ نَاسٍ فَلَا يُبْطِلُ عَوْدُهُ وَإِلَّا أَبْطَلَا
فقطعت جهيزة قول كل خطيب .

ونحن وإلى وقت قريب أدركنا المشايخ المتمكنين وهم يحثون الطلبة على حفظ المناظير ، ويرغبونهم في ذلك ترغيباً أكيداً ، ولا زالت بعض المعاهد العلمية حتى الآن تجعل من ضمن منهجها الحفظ الإلزامي لبعض الأراجيز الفقهية وغيرها ، لوفرة الدواعي إلى ذلك ، ولا أدل على اعتناء العلماء بهذه المناظير من استشهادهم بأبياتها في شروحهم وحواشيهم ، فإذا كان المبحث نحوياً . . برزت أبيات من « ألفية ابن مالك » ، وإذا كان الموضوع ميراثاً . . تردت على الألسن أبياتٌ من « الرحيبة » ، وإذا كان الموضوع متعلقاً بأصول الحديث . . استشهد بأبيات من « ألفية الحديث للعراقي » ، وهلم جرأً .

وكم موطن كانت المذاكرة فيه شائكة ، والمسألة مستعصية على الأفهام ، وإذا بأحدهم يتذكر أبياتاً من محفوظه في المسألة ، فتنتشع سحابة التحير ، وتحصل الإفادة .

وإنما أطلنا في هذه النقطة ؛ لتحفيز الهمم التي عزفت في عصرنا الحاضر عن الحفظ الذي كان شعار طلبة الأربطة والمساجد ، وديدن المنخرطين في تلك المعاهد .

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى رِجَالَ الْحَيِّ غَيْرَ رِجَالِهَا

وقد طبع الكتاب قديماً طبعة عريّة عن التحقيق ، خالية من التوثيق ، لم يبرأ من التصحيف ، ولم يخلص من معرة التحريف ، إلا أنه لقي قبولاً واسعاً ، وانتشر انتشاراً ملحوظاً حتى انقطع خبره ، واختفى مظهره ، فقيّض الله تعالى له أبا المكارم ، الشيخ الموفق عمر بن سالم باجخيف الذي تطلعت همته الفعساء إلى إعادة طبعه محققاً ، ونشره موثقاً ، بعد استجلاب أصوله ، وتحديد مصادره وموارده ، ووكّل ذلك إلى لجنته العلمية المتخصصة ، فأعطى القوس باريها ، فاستقرأت أحاديث الشرح وخرجتها ، وتبعت الآثار وعزتها لمصادرها ، ووثقت النصوص وقومت ما أفسدته يد النساخ ، وعدّلت ما اقتضى التعديل ، وأبحرت في قوافيه ، وميزت بين قوادمه وخوافيه ، فأنت بالعجب العجاب ، وأضافت استكمالاً للفائدة مهمات ذات بال ؛ فإذا بالكتاب يمس في جديد الحل ، ويزهو زهو من شرب نهلاً بعد عُلل ، ولسان حاله يقول :

هَذَا الْمَكَارِمُ لَا قَبَانَ مِنْ لَبَنِ شِيَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً

المشرف على أعمال البحوث والنشر
مركز دار المنهاج للدراسات والبحوث العلمي

- وشرحها : الشيخ أبو الإخلاص جاد الله الغنيمي الفيومي المتوفى بعد سنة (١١٠١هـ) ، وسماه : « التحفة المرضية في شرح القصيدة الوردية » .
- وشرحها : الشيخ خليل بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الشهير بالفتال المتوفى سنة (١١٨٦هـ) .
- وشرحها : الشيخ عطاء الله بن أحمد بن عطاء الله الأزهرى المتوفى بعد سنة (١١٨٦هـ) ، وسماه : « تحفة الخلان بشرح نصيحة الإخوان » .
- وشرحها : الشيخ مسعود بن حسن بن أبي بكر القنائي المتوفى سنة (١٢٠٥هـ) ، وسماه : « فتح الرحيم الرحمن في شرح نصيحة الإخوان » ، وهو كتابنا هذا .
- وشرحها : الشيخ حمزة بن محمود بن قيران الكلاعي التونسي المتوفى بعد سنة (١٢٠٧هـ) .
- وشرحها : الشيخ يحيى مؤذن بن محمد بن جعفر المكي المتوفى سنة (١٢٦٠هـ) .
- وشرحها : الشيخ عبد الفتاح بن إبراهيم بن محمد الجارم المتوفى سنة (١٣٠٠هـ) ، وسماه : « فتح المبدي على لامية ابن الوردى » .
- وشرحها : الشيخ أبو عياشة محمد البيومي بن محمد بن علي الدمنهوري المتوفى سنة (١٣٣٥هـ) ، وسماه : « القول المجدي على لامية ابن الوردى » .
- وشرحها : الشيخ حكمت بن محمد شريف الطرابلسي المتوفى سنة (١٣٦٤هـ) ، وسماه : « النفع الوردى على لامية ابن الوردى » .
- وعلى « لامية ابن الوردى » عدة تخميسات لجماعة من العلماء :
- تخميس للشيخ يوسف بن زكريا المغربي نزيل مصر المتوفى سنة (١٠١٩هـ) ، وسماه : « بغية الأريب وغنية الأديب » ، أو « إهداء المهتدي في تخميس لامية ابن الوردى » .
- تخميس للشيخ عبد الرحمن بن يحيى الملاح المتوفى سنة (١٠٤٤هـ) .

- تخميس للشيخ محمد بن عثمان بن محمد الهوش الدمشقي المتوفى سنة (١٠٩١هـ) .
- تخميس للشيخ محمد بن عمر بن عبد القادر الكفيري الدمشقي المتوفى سنة (١١٣٠هـ) ، سماه : « العرف الندي في تخميس لامية ابن الوردى » .
- تخميس للشيخ عطية بن سيد أحمد البنا الشبراويتي المتوفى بعد سنة (١٣٠٤هـ) .
- تخميس للشيخ أحمد مرزوق أفندي المتوفى سنة (١٣١٢هـ) ، سماه : « النصائح الشرعية في تخميس القصيدة الوردية » .
- تخميس للشيخ محمد أفندي محمد .
- تخميس للشيخ كمال الدين محمد بن محمد بن عبد القادر الأدهمي المتوفى بعد سنة (١٣٥٣هـ) .
- تخميس للشيخ علي بن أحمد الصيرفي الأحمدى الرشيدى ، سماه : « التخميس الندي على لامية ابن الوردى » .
- وعلى « لامية ابن الوردى » تشطيران :
- تشطير للشيخ سالم بن علي نجم .
- تشطير للشيخ أحمد بن داوود بن سليمان العاني البغدادى المتوفى سنة (١٣٦٧هـ) .
- وعليها أيضاً : محاكاة في لاميتين للشيخ علي بن عبد الله الأزهرى الشهير بالطحان المتوفى سنة (١٢٠٧هـ) .

* * *

ترجمة الإمام ابن الوردي

رحمه الله تعالى^(١)

اسمه ونسبه

هو الإمام العالم ، الأديب الشاعر ، الفقيه النبيه ، القاضي المؤرخ ، النحوي اللغوي ، الشافعي مذهباً ، المعري بلداً ، البكري نسباً ، الشهير بابن الوردي ، زين الدين ، أبو حفص ، عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس بن علي بن أحمد بن عمر بن قطامي بن سعيد بن القاسم بن النصر بن محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق .

ولد في معرة النعمان سنة (٦٩١ هـ) .

حياته العلمية والعملية

تفنن ابن الوردي في العلوم ، وأجاد في المنثور والمنظوم ، فتلقى علومه عن جملة من العلماء في أماكن متعددة ، فأخذ عن الشيخ الزاهد عيس السرحاوي العليمي بقرية قرب المعرة يقال لها : سرحة ، وعن الشيخ شرف الدين البارزي بحماه ، كما ذكر المؤلف في « تاريخه » (٤٥٧ / ٢) حيث قال : (وفي سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة في ذي القعدة توفي شيخني المحسن إلي ، ومعلمي المتفضل علي) ، ثم ذكر أنه أجاز به بطريقتين في أخذ المذهب الشافعي ، كما أخذ عن فخر الدين الطائي الشهير بابن خطيب جبرين ، وصدر الدين العثماني بحلب ، وعن الشيخ شهاب الدين الحنبلي بالقدس ، واجتمع بالشيخ تقي الدين ابن تيمية

(١) انظر ترجمته في « أعيان العصر » (٦٧٧ / ٣) ، و « فوات الوفيات » (١٥٧ / ٣) ، و « طبقات الشافعية الكبرى » (٣٧٣ / ١٠) ، و « السلوك » (٧٩٥ / ٢ ج ٣ / ٣) ، و « الدرر الكامنة » (١٩٥ / ٣) ، و « النجوم الزاهرة » (٢٤٠ / ١٠) ، و « المنهل الصافي » (٣٣١ / ٨) ، و « الدليل الشافي » (٥٠٧ / ١) ، و « بغية الوعاة » (٢٢٦ / ٢) ، و « شذرات الذهب » (٢٧٥ / ٨) ، و « البدر الطالع » (ص ٥١٥) .

بدمشق ، وبحث معه في التفسير والفقه والنحو ، فأعجبه كلامه ، وقبل وجهه ، يقول ابن الوردی : وإني لأرجو بركة ذلك .

أما عن حياته العملية : فكان ينوب في الحكم في كثير من معاملات حلب ، ثم ولي قضاء منبج ، لكن الذي يقرأ شعره يجده دائم الشكوى من زمانه ، كثير العتب على قضائه ، له مع ابن الزملكاني معاتبة في قصيدة مشهورة ، ثم رام العود إلى حلب ، لكن تعذر عليه ذلك ، فلما مات ابن الزملكاني . . تعين مكانه فخر الدين البارزي ، وكان هذا شيخ ابن الوردی ، فعينه قاضياً في شيزر ، ولم يزل قاضياً عليها حتى توفي البارزي ، ثم سكن حلب آخر حياته ، واستوطنها إلى أن مات بها .

هذا ولا بد من الإشارة إلى الإنجاز الذي أسسه في بلده المعرة ، وهو بناء المدرسة الشافعية والجامع الكبير ، فكان على مثال الجامع الأعظم في حلب .

شيوخه

تتلمذ الإمام ابن الوردی على كبار علماء عصره ، ونهل من معينهم ، وفيما يلي نذكر أبرز مشايخه ، مرتبين على تاريخ وفياتهم :

- الإمام عيس بن عيسى بن علي السرحاوي العليمي الدمشقي المتوفى سنة (٧٠٧هـ) .
- الإمام صدر الدين محمد بن عمر بن مكي الشهير بابن المرحل المتوفى سنة (٧١٦هـ) .
- الإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن جبارة المرادوي المتوفى سنة (٧٢٨هـ) .
- الإمام شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن عبد الرحيم البارزي المتوفى سنة (٧٣٨هـ) .
- الإمام فخر الدين عثمان بن علي بن عثمان الطائي الحلبي الشهير بابن خطيب جبرين المتوفى سنة (٧٣٩هـ) .

تلاميذه

أخذ عن ابن الوردی جماعة من العلماء ، نذكر أبرزهم فيما يلي :

- الشيخ كمال الدين إبراهيم بن عمر بن أحمد الحلبوني الحلبي المتوفى سنة (٧٣٣هـ) .

- ابنه الشيخ شرف الدين أبو بكر بن عمر بن المظفر المعري ثم الحلبي المتوفى سنة (٧٨٧هـ) .

- الشيخ بدر الدين خليل بن محمد بن سليمان الحلبي المتوفى سنة (٧٩٨هـ) .

- الشيخ أبو اليسر محيي الدين أحمد بن عبد الله بن محمد الدمشقي المتوفى سنة (٨٠٧هـ) .

- الشيخ شمس الدين المزين محمد بن إبراهيم بن بركة العبدلي الدمشقي المتوفى سنة (٨١١هـ) .

ثناء العلماء عليه

قال الإمام الصفدي رحمه الله تعالى في « أعيان العصر » : (٦٧٧ / ٣) : (أحد فضلاء العصر وفقهائه ، وأدبائه وشعرائه ، تفنن في علومه ، وأجاد في منثوره ومنظومه ، شعره أسحر من عيون الغيد ، وأبهى من الوجنات ذات التوريد ، قام بفن التورية فجاءت معه قاعدة ، وخطها في الطروس وهي فوق النجوم صاعدة) .

وقال الإمام ابن شاكر الكتبي رحمه الله تعالى في « فوات الوفيات » (١٥٧ / ٣) : (تفنن في العلوم ، وأجاد في المنثور والمنظوم ، نظمه جيد إلى الغاية ، وفضله بلغ النهاية) .

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى في « طبقات الشافعية الكبرى » (٣٧٤ / ١٠) : (شعره أحلى من السكر المكرر ، وأغلى قيمة من الجواهر) .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في « الدرر الكامنة » (١٩٥ / ٣) : (ونظم « البهجة الوردية » في خمسة آلاف بيت وثلاث وستين بيتاً ، أتى على « الحاوي الصغير » بغالب ألفاظه ، وأقسم بالله ؛ لم ينظم أحد بعده الفقه إلا وقصر دونه) .

وقال الإمام ابن العماد رحمه الله تعالى في « شذرات الذهب » (٢٧٥ / ٨) : (كان إماماً

بارعاً في اللغة والفقه ، والنحو والأدب ، مفنناً في العلم ، ونظمه في الذروة العليا ، والطبقة القصوى) .

مؤلفاته

صنف الإمام ابن الوردي تصانيف نافعة ، وتنوعت في عدة فنون ، وفيما يلي سردها مرتبة على حروف المعجم :

- « أبكار الأفكار في مشكل الأخبار » في الشعر والأدب .
- « أحوال القيامة » مستخلص من كتابه « خريدة العجائب » الآتي ذكره .
- « بهجة الحاوي » المعروف بـ « البهجة الوردية » منظومة في الفقه .
- « تنمة المختصر في أخبار البشر » المعروف بـ « تاريخ ابن الوردي » في التاريخ .
- « تحرير الخصاصة في تيسير الخلاصة » ، نشر فيه « ألفية ابن مالك » في النحو .
- « التحفة الوردية » أرجوزة نظم فيها كتاب « اللمحة البدرية » لأبي حيان في النحو .
- « تذكرة الغريب » منظومة في النحو .
- « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » في ذكر الأقاليم والبلدان والمعادن والنبات والحيوان .
- « الدراري السارية في مئة جارية » أو « الكواكب السارية » .
- « ديوان شعر » .
- « الرسائل المهذبة في المسائل الملقبة » في الفرائض .
- « رسالة السيف والقلم » في الأدب .
- « شرح تذكرة الغريب » وهو شرح لمنظومته « تذكرة الغريب » في النحو .
- « شرح اللباب في علم الإعراب » وهو شرح لمنظومته « اللباب في علم الإعراب » .
- « الشهاب الثاقب » في التصوف .

- « صفو الرحيق في وصف الحريق » وهي « المقامة الدمشقية » في وصف حريق وقع بدمشق سنة (٧٤٠هـ) .

- « ضوء درة الأحلام في تعبير المنام » المعروف بـ « الألفية الوردية » منظومة في تعبير الرؤيا .

- « ضوء الدرّة » وهو شرح لـ « ألفية ابن معط » في النحو .

- « الكلام على مئة غلام » .

- « اللباب في علم الإعراب » منظومة في الإعراب .

- « مختصر ألفية ابن مالك » أرجوزة اختصر فيها « ألفية ابن مالك » في خمسين ومئة بيت .

- « مختصر ملحّة الإعراب » في النحو .

- « المقامات الوردية » في الأدب .

- « الملقبات الوردية » منظومة في الفرائض .

- « منطق الطير بإرادة الخير » نظم ونثر في التصوف .

- « نصيحة الإخوان » المعروفة بـ « لامية ابن الوردي » التي عليها كتابنا هذا .

وفاته

في آخر أيامه سكن حلب ، وذلك بعد استعفائه من منصب القضاء ، قال الإمام الصفدي رحمه الله تعالى في « أعيان العصر » (٦٧٨/٣) : (فأرصد نفسه للإفادة ، وتلفع برداء الزهادة ، واختص بسيادة العلم وهي السيادة ، وتخرج به جماعة وتنبهوا ، وحاكوا طريقه وتشبهوا ، إلى أن افترس الورديّ وَرَدُ المنيّة ، وأصبح في حفرة القبر من وراء الثنية ، وتوفي رحمه الله تعالى في سابع عشري ذي الحجة سنة تسع وأربعين وسبع مئة في طاعون حلب) .
رحمه الله رحمة الأبرار ، وأفاض علينا من بركاته وأحواله ، آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

ترجمة العلامة القناوي

رحمه الله تعالى^(١)

هو السيد الشريف ، الحسيب النسيب ، مسعود بن الحسن بن أبي بكر بن سباط الحسني الحسيني القنائي ، ويقال : القناوي ، نسبة إلى مدينة (قنا) بصعيد مصر ، الأديب الشافعي ، له غير « فتح الرحيم الرحمن » كتاب : « الإرشاد لحل نظم بانة سعاد » .
توفي بعد سنة (١٢٠٥هـ) ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، ونفع بكتابه هذا كما نفع بأصله ، والحمد لله أولاً وآخراً .

* * *

(١) انظر ترجمته في « هدية العارفين » (٤٦٣/٢) ، و « الأعلام » (٢١٧/٧) ، و « معجم المؤلفين » (٨٤٧/٣) .

وَصْفُ النَّسْخِ الْخَطِّيَّةِ

اعتمدنا في إخراج هذا الكتاب على ثلاث نسخ خطية كاملة ومطبوع :

الأولى : نسخة المكتبة الأزهرية ذات الرقم (٣٤١٧٠) .

عدد أوراقها (١٩١) ورقة ، ومتوسط عدد أسطر الورقة الواحدة (١٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات ، خطها نسخي جميل ، وكان الفراغ من كتابتها يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأنور من شهر سنة (١٢٧٣هـ) على يد أحمد بن يوسف تركي .

ورمزنا لها بـ (أ) .

الثانية : نسخة المكتبة الأزهرية أيضاً .

عدد أوراقها (٢٤٣) ورقة ، ومتوسط عدد أسطر الورقة الواحدة (١٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٧) كلمات ، خطها نسخي معتاد ، وكان الفراغ من كتابتها يوم الأربعاء لأربعة أيام خلت من شهر جمادى الأولى من شهر سنة (١٢٨١هـ) على يد بدوي المرزوقي .

ورمزنا لها بـ (ب) .

الثالثة : نسخة مصورة لدى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ذات الرقم

(٦٢١٥) .

عدد أوراقها (٩٣) ورقة ، ومتوسط عدد أسطر الورقة الواحدة (٢١) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١١) كلمة ، خطها نسخي مستعجل ، تمت نساختها على يد علي بن سيد أحمد السرياقوسي بلداً ، الشافعي مذهباً ، الأحمدي طريقة .

وهذه النسخة أفدنا منها فقط في حل الأماكن المشككة .

النسخة المطبوعة : تقع في (١٧٦) صفحة ، طبعت في المطبعة اليمينية بمصر في شهر
رجب سنة (١٣١٠هـ) ، وهو المراد بقولنا : (وفي المطبوع) أو نحو ذلك من
العبارات .

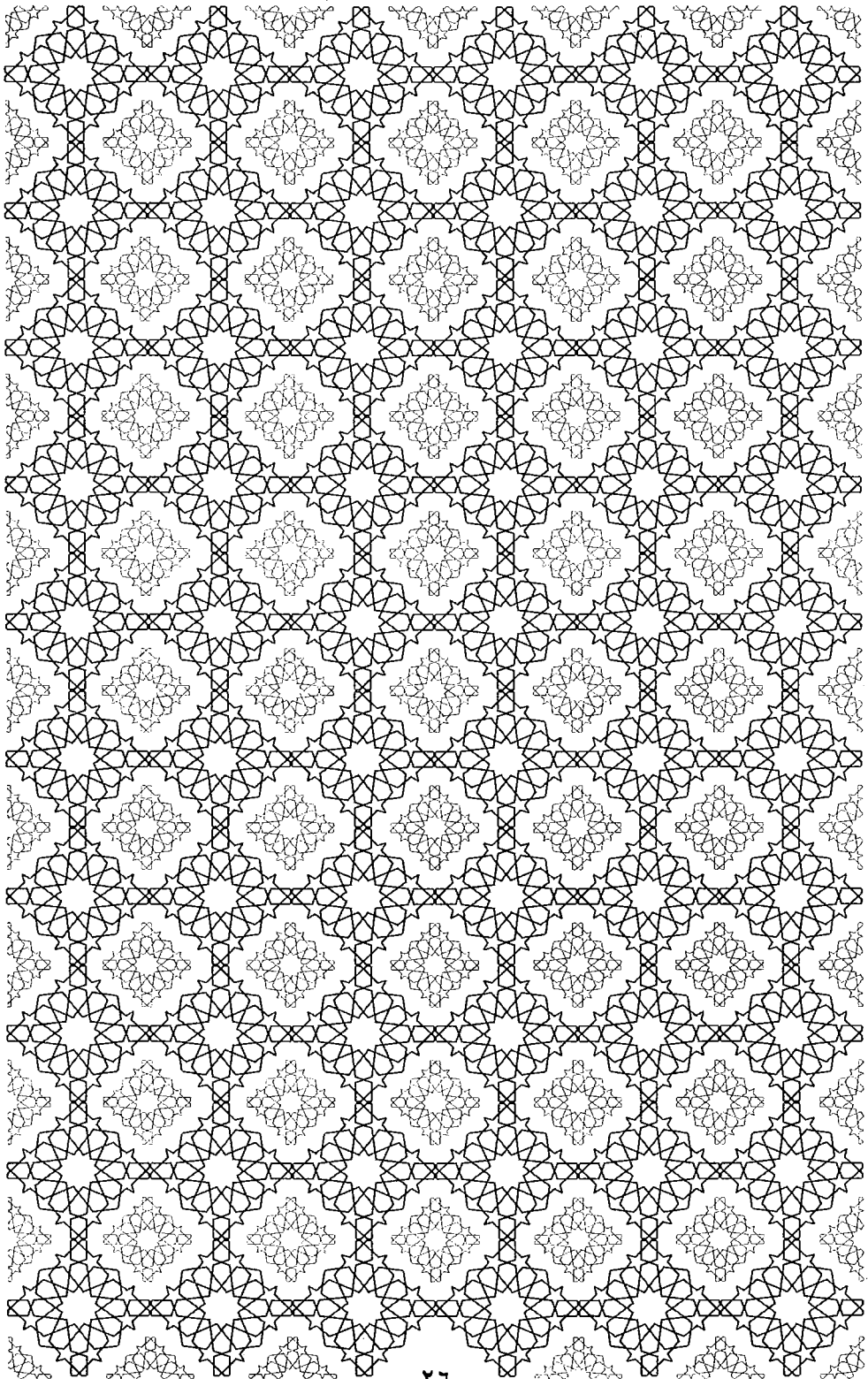
* * *

مَنْهَجُ الْعَمَلِ فِي الْكِتَابِ

- عارضنا المطبوع على النسخ الخطية ، وأثبتنا الفروق المهمة ، وهي قليلة ، كما أثبتنا فروقات المطبوع المفيدة .
 - حصرنا الآيات القرآنية الكريمة بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ ، وأثبتناها برسم المصحف الشريف على رواية حفص بن عاصم .
 - خرجنا معظم الأحاديث الشريفة والآثار ، وذلك بحسب الوسع والطاقة .
 - أثبتنا علامات الترقيم المناسبة وفق المنهج المتبع في الدار .
 - خرجنا معظم الأبيات الشعرية من دواوين قائلها إن وجدت ، وإلا . . فمن الكتب المعتمدة ، مع ذكر البحر العروضي .
 - شرحنا بعض الكلمات الغامضة .
 - علقنا على بعض المواضع في الكتاب إذا مست الحاجة إلى ذلك .
 - أضفنا بين معقوفين [] ما لا تستقيم العبارة إلا به .
 - خرجنا معظم النصوص التي نقلها الشارح عن العلماء .
 - أثبتنا - أحياناً - في الهامش رواية « الديوان » .
 - جعلنا أبيات « اللامية » ضمن إطار مرقمة بأرقام متسلسلة .
 - عنونا الفوائد والتتمات والتنبيهات .
 - والله نسأل أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ؛ إنه سميع مجيب .
- والحمد لله رب العالمين

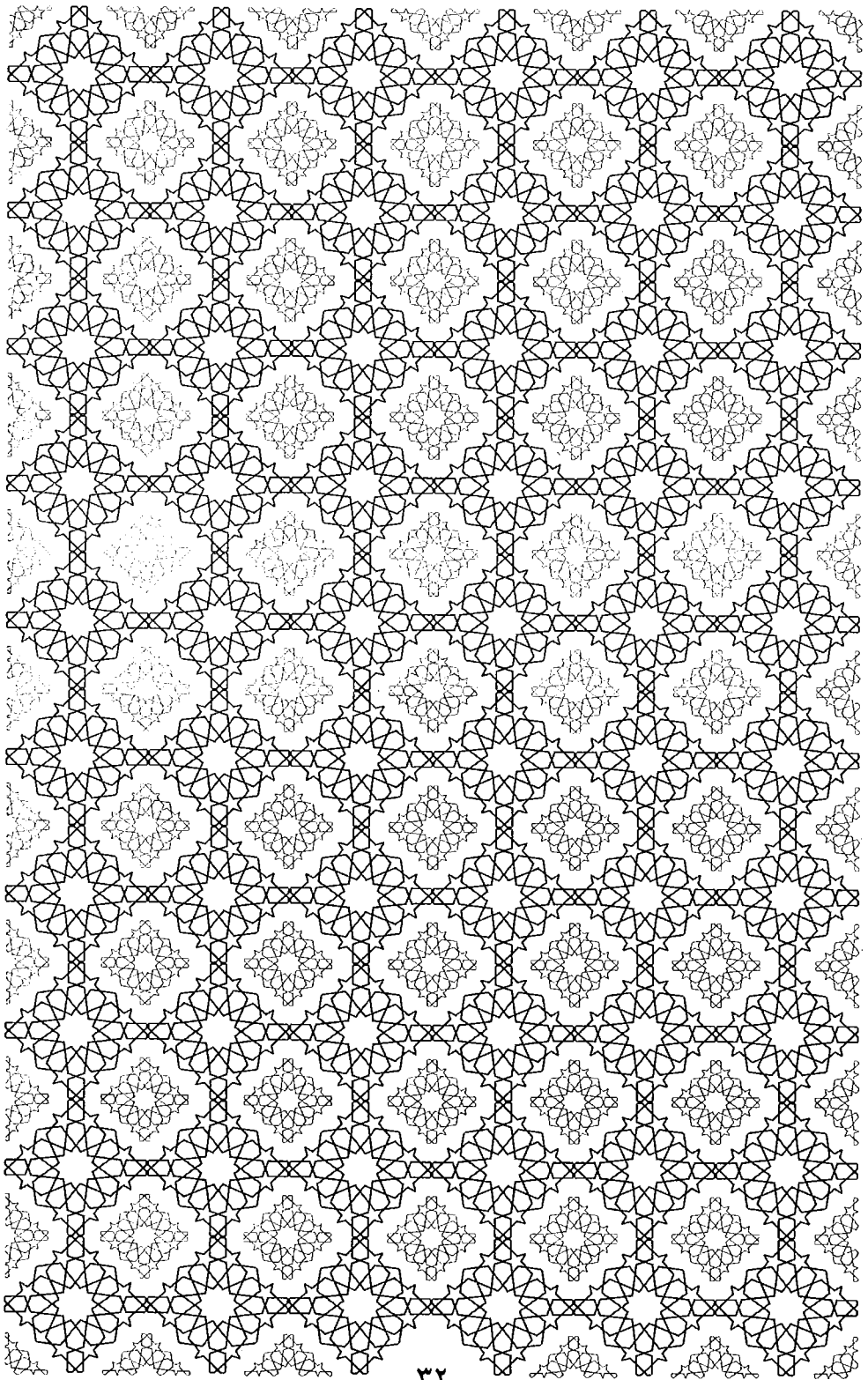


صُورُ الْمَخْطُوطَاتِ الْمَسْتَعَانَ بِهَا





مَنْظُومَةٌ
نَضِيحَةُ الْإِخْوَانِ وَمُرْسَدَةُ الْخُلَّانِ



إِعْتَزِلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْعَزَلْ
 وَدَعِ الذُّكْرَى لِأَيَّامِ الصَّبَا
 إِنَّ أَهْنَا عَيْشَةَ قَضَيْتَهَا
 وَأَتْرَكَ الْغَادَةَ لَا تَحْفَلْ بِهَا
 وَالْهَ عَنِ آلَةِ لَهْوٍ أَطْرَبَتْ
 إِنَّ تَبَدَّى تَنْكِسِفُ شَمْسُ الضُّحَى
 زَادَ إِنْ قِسْنَاهُ بِالشَّمْسِ سَنًا
 وَأَفْتَكِرْ فِي مُتْتَهَى حُسْنِ الَّذِي
 وَأَهْجِرِ الْحُمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتَى
 وَأَتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهِ مَا
 لَيْسَ مَنْ يَفْطَعُ طُرْقًا بَطْلًا
 صَدَّقِ الشَّرْعَ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى
 حَارَتِ الْأَفْكَارِ فِي قُدْرَةِ مَنْ
 كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ
 أَيْنَ نُمْرُودُ وَكَنْعَانُ وَمَنْ
 أَيْنَ عَادُ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ
 أَيْنَ مَنْ شَادُوا وَسَادُوا وَبَنَوْا
 أَيْنَ أَرْبَابِ الْحِجَا أَهْلُ النَّهْيِ
 سَيَعِيدُ اللَّهُ كُلًّا مِنْهُمْ
 أَيُّ بُنَيَّ أَسْمَعُ وَصَايَا جَمَعَتْ

١ وَقَلِ الْفُضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلْ
 ٢ فَلِأَيَّامِ الصَّبَا نَجْمِ أَفَلْ
 ٣ ذَهَبَتْ لِدَاتُهَا وَالْإِثْمُ حَلْ
 ٤ تُمَسِّ فِي عِزٍّ وَتُرْفَعُ وَتُجَلْ
 ٥ وَعَنِ الْأَمْرِدِ مُرْتَجٍ الْكُفَلْ
 ٦ وَإِذَا مَا مَاسَ يُزْرِي بِالْأَسَلْ
 ٧ وَعَدَلْنَاهُ بِغُضْنٍ فَأَعْتَدَلْ
 ٨ أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدُ أَمْرًا جَلْ
 ٩ كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ
 ١٠ جَاوَرَتْ قَلْبَ أَمْرِيءِ إِلَّا وَصَلْ
 ١١ إِنَّمَا مَنْ يَنْتَقِي اللَّهَ الْبَطْلْ
 ١٢ رَجُلٍ يَرْصُدُ بِاللَّيْلِ رُحْلْ
 ١٣ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا عَزَّ وَجَلْ
 ١٤ قَلَّ مَنْ جَمَعَ وَأَفْنَى مِنْ دَوْلْ
 ١٥ مَلِكِ الْأَرْضِ وَوَلَّى وَعَزَلْ
 ١٦ رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ يَحْلْ
 ١٧ هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقَلْلْ
 ١٨ أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوْنْ
 ١٩ وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ
 ٢٠ حِكْمًا خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ الْمَلَلْ

أَبْعَدَ الْخَيْرِ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ
 تَشْتَغِلُ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلٍ
 يَعْرِفُ الْمَطْلُوبَ يَخْفِرُ مَا بَدَلُ
 كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلُ
 وَجَمَالَ الْعِلْمُ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ
 يُحْرَمُ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتِبَلِ
 فَاطْرَاحُ الرَّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقَلُّ
 أَحْسَنَ الشُّعْرِ إِذَا لَمْ يُتَنَدَلِ
 مُتَرَفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلِ
 قَطَعَهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقُبَلِ
 رَفَّهَا أَوْ لَا فَيَكْفِينِي الْخَجَلِ
 وَأَمْرٌ اللَّفْظِ نَطْقِي بِدَلْعَلِ
 وَعَنِ الْبَحْرِ أُجْتِزَاءُ بِالْوَشَلِ
 تَلَقَّه حَقًّا وَبِالْحَقِّ نَزَلِ
 لَا وَلَا مَا فَاتَ يَوْمًا بِالْكَسَلِ
 تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلِ
 عَيْشَةُ الزَّاهِدِ بَلْ هَذَا أَدَلِ
 وَعَلِيمَ مَاتَ مِنْهَا بِالْعَلَلِ
 وَجَبَانَ نَالَ غَايَاتِ الْأَمَلِ
 إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحَيْلِ

أَطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلِ فَمَا
 وَأَحْتَفِلِ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا
 وَأَهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ
 لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ
 فِي أَرْيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَا
 جَمَلِ الْمَنْطِقِ بِالنَّحْوِ فَمَنْ
 وَأَنْظِمِ الشُّعْرَ وَلَازِمِ مَذْهَبِي
 فَهَوَ عِنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا
 مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى
 أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْيِيلَ يَدِ
 إِنْ جَزَيْتَنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي
 أَعْدَبُ الْأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ (خُذْ)
 مُلْكُ كَسْرِي عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةَ
 إِعْتَبِرْ ﴿ نَحْنُ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ ﴾
 لَيْسَ مَا يَخْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ
 إِطْرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا
 عَيْشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِهَا
 كَمْ جَهُولٍ وَهُوَ مُثْرٍ مُكْثِرٍ
 كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنْلِ مِنْهَا الْمُنَى
 فَاتْرِكْ الْحِيلَةَ فِيهَا وَأَتَيْدْ

٢١

٢٢

٢٣

٢٤

٢٥

٢٦

٢٧

٢٨

٢٩

٣٠

٣١

٣٢

٣٣

٣٤

٣٥

٣٦

٣٧

٣٨

٣٩

٤٠

أَيُّ كَفٍّ لَمْ تُفِذْ مِمَّا تُفِذُ
لَا تَقُلْ أَصْلِي وَفَضْلِي أَبَدًا
قَدْ يَسُودُ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبِي
وَكَذَا الْوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ وَمَا
مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَيَّ
قِيمَةُ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ
أَكْثَمِ الْأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَى
وَأَدْرِعْ جَدًّا وَكَدًّا وَاجْتَنِبْ
بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلِ رُبَّةً
لَا تَخْضُ فِي سَبِّ سَادَاتٍ مَضَوْا
وَتَغَافِلَ عَنْ أُمُورٍ إِنَّهُ
لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدِّهِ وَإِنْ
مِلَّ عَنِ النَّمَامِ وَأَهْجَرَهُ فَمَا
دَارَ جَارَ الدَّارِ إِنْ جَارَ وَإِنْ
جَانِبِ السُّلْطَانِ وَأَحْذَرِ بَطْشَهُ
لَا تَلِ الْحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا
إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءُ لِمَنْ
فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لِدَاتِهِ
إِنَّ لِلنَّقْصِ وَالِاسْتِثْقَالِ فِي
لَا تَسَاوِي لَذَّةَ الْحُكْمِ بِمَا

فَرَمَاهُ اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلِ
إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلَ
وَيُحْسِنُ السَّبِّكَ قَدْ يُنْفَى الرِّغْلُ
يَطْلُعُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلٍ
نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكَرٍ اتَّصَلَ
أَكْثَرَ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَوْ أَقْلُ
وَأَكْسِبِ الْفُلْسَ وَحَاسِبِ مَنْ بَطَلَ
صُحْبَةَ الْحَمَقَى وَأَرْبَابِ الْخَلَلِ
وَكَلا هَلْذَيْنِ إِنْ دَامَ قَتْلُ
إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ لِلزَّلَلِ
لَمْ يَفْزُ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ
حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ
بَلَّغَ الْمَكْرُوهَ إِلَّا مَنْ نَقَلَ
لَمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النَّقْلُ
لَا تُخَاصِمِ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلَ
رَغْبَةً فِيكَ وَخَالَفَ مَنْ عَدَلَ
وَلِي الْأَحْكَامِ هَذَا إِنْ عَدَلَ
وَكَلا كَفَيْهِ فِي الْحَشْرِ تَغْلُ
لَفْظَةَ (الْقَاضِي) لَوْعْظًا وَمَثَلُ
ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ أَنْعَزَلَ

٤١

٤٢

٤٣

٤٤

٤٥

٤٦

٤٧

٤٨

٤٩

٥٠

٥١

٥٢

٥٣

٥٤

٥٥

٥٦

٥٧

٥٨

٥٩

٦٠

ذَاقَهَا فَالْسُّمُّ فِي ذَاكَ الْعَسَلِ
وَعَنَائِي مِنْ مُدَارَاةِ السِّفْلِ
فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلِ
غِرَّةٌ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلِ
أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاهُ الْمَمَلِ
وَأَعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلَلِ
لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطِّفْلِ
فَاعْتَرِبْ تَلَقَّ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلِ
وَسَرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ أَكْتَمَلِ
إِنَّ طِيبَ الْوَرْدِ مُؤَذِّبٌ بِالْجَعَلِ
لَا يُصَيِّنُكَ سَهْمٌ مِنْ ثَعْلِ
إِنَّ لِلْحَيَاتِ لِينًا يُعْتَزَلُ
وَمَتَى سُخِّنَ آذَى وَقَتْلُ
وَهُوَ لَيْنٌ كَيْفَمَا شِئْتَ أَنْتَمَلِ
فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الْأَجَلِ
وَقَلِيلُ الْمَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلِ
مِنْهُمْ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجَمَلِ
لِلنَّبِيِّ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الدُّوَلِ
وَعَلَى الْأَصْحَابِ وَالْقَوْمِ الْأَوَّلِ
أَيْمَنَ الْحَيِّ وَمَا غَنَى رَمَلِ

فَالْوَلَايَاتِ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ
نَصَبُ الْمَنْصِبِ أَوْهَى جَسَدِي
قَصِّرِ الْأَمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفْزُ
إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى
غَيْبٍ وَرَزَّ غَيْبًا تَزِدُ حُبًّا فَمَنْ
خُذْ بِحَدِّ السِّيفِ وَأَتْرُكْ غِمْدَهُ
لَا يَضُرُّ الْفَضْلَ إِقْلَالُ كَمَا
حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجْزُ ظَاهِرِ
فَبِمُكْثِ الْمَاءِ يَبْقَى أَسْنَأُ
أَيُّهَا الْعَائِبُ قَوْلِي عَائِبًا
عُدَّ عَنِ أَسْهَمٍ لَفْظِي وَأَسْتَبِرْ
لَا يَغُرَّتْكَ لَيْنٌ مِنْ فَتَى
أَنَا مِثْلُ الْمَاءِ سَهْلٌ سَائِغُ
أَنَا كَالْحَيْزُورِ صَعْبٌ كَسْرُهُ
غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنْ يَكُنْ
وَاجِبٌ عِنْدَ الْوَرَى إِكْرَامُهُ
كُلُّ أَهْلِ الْعَصْرِ غَمْرٌ وَأَنَا
وَصَلَاةٌ وَسَلَامٌ أَبَدًا
وَعَلَى آلِ الْكِرَامِ السَّعْدَا
مَا نَوَى الرَّكْبُ بَعْشَاقٍ إِلَى

(٦١)

(٦٢)

(٦٣)

(٦٤)

(٦٥)

(٦٦)

(٦٧)

(٦٨)

(٦٩)

(٧٠)

(٧١)

(٧٢)

(٧٣)

(٧٤)

(٧٥)

(٧٦)

(٧٧)

(٧٨)

(٧٩)

(٨٠)

شَيْخُ الْأَمِيرِ الْفَرْدِيِّ

المَسْمُوعِي

فَتْحَ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ

سُرْعَ نَصِيحَةِ الْإِخْوَانِ وَرُشْدَةَ الْخُلَدَانِ

تَأَلِيفُ

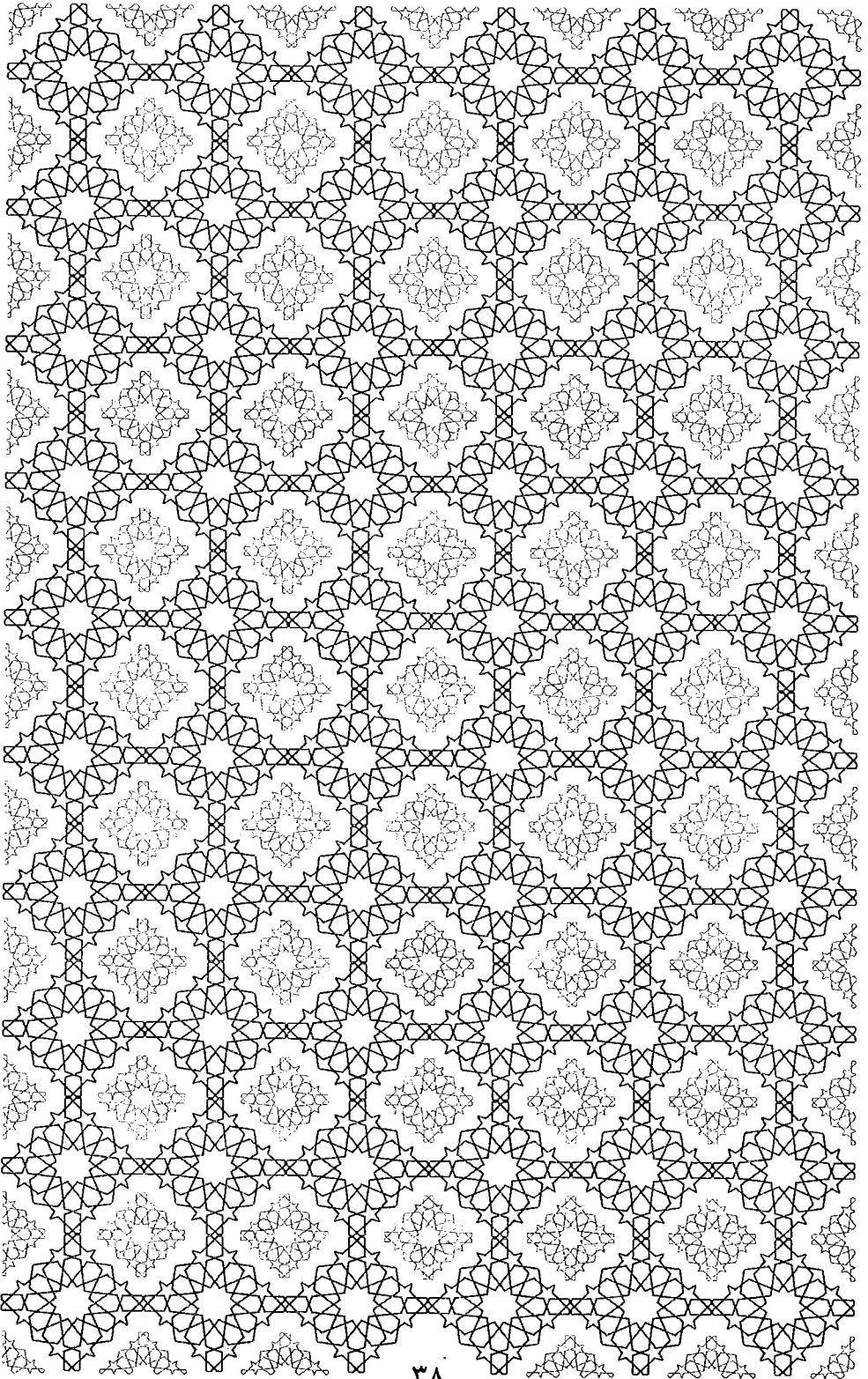
الْعَالِمِ الْفَقِيهِ الْأَدِيبِ

الشَّرِيفِ مَسْعُودِ بْنِ حَسَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْقَنَاوِيِّ

الرُّجَيْسِيِّ الشَّافِعِيِّ

رَحْمَةُ اللَّهِ تَمَلِّكُ

(الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٢٠٥ هـ)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقتي

الحمد لله الذي جعل النصيحة من شأن العارفين ، ووصف بها بعض الأنبياء المرسلين ، فقال تعالى حكاية عنه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

والصلاة والسلام على أشرف الخليفة ، القائل في السنة الصحيحة : « أَلَدِّينُ النَّصِيحَةُ »^(١) ، وعلى آله وأصحابه صلاةً وسلاماً دائماً متلازمين ما أخلص ناصح في النصيحة ، وما فهم فاهم بالقريحة .

وبعد :

فيقول العبد الفقير مسعود بن حسن بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن حسن بن سباط الحسيني الحسيني^(٢) القنائي^(٣) الشافعي : هذا شرح على « القصيدة الوردية اللامية » المنظومة من بحر الرمل ، ووزنه : (فاعلاتن فاعلاتن فاعلن) ، المسماة بـ :

« نَصِيحَةُ الْإِبْرَاهِيمِ وَرُسُودَةُ الْخُلْدَانِ »

وهي خمسة وسبعون بيتاً ، المشتملة على المواعظ والحكم ، نظمها الفاضل الأديب ، الشيخ الإمام الهمام ، شيخ الإفتاء والتدريس ، المحقق المدقق ، المتبحر في الفقه والآداب وسائر العلوم ، زين الدين أبي حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المَعَرِّي الحلبي الشافعي البكري الصديقي ، منسوب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٤) .

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ، كتاب الإيمان ، باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة ، ومسلم (٥٥) .

(٢) في النسخ : (الحسيني) وفي المطبوع : (الحسيني) فلعله حسيني الأب حسيني الأم ، والله أعلم .

(٣) نسبة إلى (قنا) من صعيد مصر ، وفي المطبوع : (القناوي) وكلاهما صحيح .

(٤) انظر (ص ١٤) .

كان الشيخ زين الدين عمر ابن الوردي رجلاً صالحاً ، كثير الخيرات ، حسن الخُلُق ، سيد شعراء عصره ، جمع في شعره بين الحلاوة والطلاوة والجزالة ، له مقام عظيم عند الناس ، ومهابة كثيرة ؛ لما كان عليه من الزهد والورع والخشية والخوف من الله تعالى ، برع في سائر العلوم ، وصنف تصانيف حميدة ، ونظم فيها منظومات فائقة مجيدة ، وكفاه شرفاً هذه المنظومة العظيمة ، وما حوته من المسائل الجليلة ، وكذلك منظومته المسماة بـ « البهجة » في الفقه ، وما أحسن قوله في آخرها :
[من الرجز]

فَهِيَ عَرُوسٌ بِنْتُ عَشْرِ بَكْرٍ بَكْرِيَّةٌ لَهَا الدُّعَاءُ مَهْرٌ

وفضائله ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصي ، فهو الغاية والنهاية . وكانت وفاته في سابع عشر ذي الحجة الحرام ، ختام عام تسع وأربعين وسبع مئة ، وهو في عشر السبعين رحمه الله تعالى ونفعنا به أمين . وسميته :

« فتح الرحيم الرحمن في شرح نصيحة الإخوان »

وأعلم : أنَّ الشعر مُجْمَعٌ على جوازه ، خصوصاً إذا كان متعلقاً بتوحيد ؛ كـ « الجوهرة » للإمام اللَّقَّانِي رحمه الله تعالى ، أو بمدحه صلى الله عليه وسلم ؛ كـ « الهَمْزِيَّة » و « الميمية » و « اللامية » للإمام البوصيري رحمه الله تعالى ، أو بفقهِ ؛ كـ « البهجة » للناظم رحمه الله تعالى ، أو بنصيحة ؛ كهذه « اللامية » له نفعنا الله به .

ثمَّ إنَّ الشعر لا يحصل إلا لذي الفطنة السليمة ، ولا يكون في الغالب إلا لمن مارس علمي المعاني والبيان ؛ لإدراك معرفة الفصيح والأفصح ، ومما يعين عليه أيضاً : مطالعة الرسائل والخطب والأشعار والدواوين ، فتتولد له دراية ومَلَكة وعين تنبع في القلب بسبب هذه الأمور .

وأعلم : أنَّه تعترية الأحكام ؛ فيكون حراماً إن كان متعلقاً بهجوٍ أو ذمٍّ ، ويكون مندوباً إن كان متعلقاً بخير ؛ كمدحه صلى الله عليه وسلم ، ويكون مكروهاً إن كان متعلقاً بأمرٍ مكروه ، ويكون مباحاً إن كان متعلقاً بأمرٍ مباح ، ولا يكون واجباً .

* * *

ولمّا كانت هذه القصيدة من الأمور ذوات البال . . أفتتحها الناظم رحمه الله تعالى بالبسملة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) . . فَهُوَ أَقْطَعُ وَأَجْذَمُ وَأَبْتَرُ »^(١) ، والكلام على هذا الحديث مذكور في المطوّلات ، وذكر رحمه الله تعالى البسملة دون الحمدلة ؛ لأن المقصود ب (الحمدلة) الثناء على الله تعالى ، وقد حصل بالبسملة ، فقد اختار الناظم خبر : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِذِكْرِ اللَّهِ »^(٢) الشامل لكلِّ مِنَ البسملة والحمدلة .

ولمّا كانت النساء أصلاً لكلِّ فتنة ؛ لأنهنَّ حبائلُ الشيطانِ . . حذر الناظم رحمه الله تعالى من ذكرهنَّ والتغرُّلِ فيهنَّ ، فقال :

١
إِعْتَزَلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْعَزَلْ وَقُلِ الْفَضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلْ

أي : أترك ذكر الأغاني من النساء ؛ أي : المستغنيات بحسنهنَّ وجمالهنَّ عن الزينة ، وأترك التغرُّلَ فيهنَّ بغير حاجة .

ولكن المراد هنا : مطلق النساء ولو لم يكنَّ غانيات ؛ لأنَّ التعلق بهنَّ يجرُّ إلى المفساد ، ويعلِّق خاطر بما لا طائل تحته ولا فائدة فيه ؛ فقد نُقلَ عن كثير من الناس أنَّه مات بذلك ، ومنهم مَنْ مات بمجرّد التغرُّلِ ، ومنهم مَنْ مات بالسماع ، أمّا إذا كان ذكْرُ الأغاني لحاجة ؛ كأنَّ يستشيرهُ مَنْ يثقُ بدينه أو رأيه في خطبة امرأة أو تزوّجها أو معاملتها . . فيجوزُ له ذلك ولا إثمَ عليه .

وأعلم : أن المرأة لشدة فتنتها جعلها صلى الله عليه وسلم قسماً مقابلاً للعالم في قوله : « وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ أَمْرَأَةٍ يَبْكُهَا . . فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »^(٣) .

- (١) الحديث بلفظ البسملة أخرجه الخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٢٣٢) ، والسبكي في « طبقات الشافعية » (١٢/١) ، وانظر « الأقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة » .
(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١٦٣/١١) ، وانظر « الأقاويل المفصلة » (ص ٧٠) .
(٣) أخرجه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

وكذلك روى أسامةُ بن زيدٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا تَرَكَتُ بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضْرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » (١) .

وقال بعضُ العارفين : (ما أيسرَ الشيطانُ من إنسانٍ قطُّ إلا أتاهُ من قبْلِ النساءِ) (٢) .

وقال سفيان : (قال إبليس : سهمي الذي إذا رميت به لم يخطيء : النساء) .

وفي خبر الإمام أحمد : (النظر إلى محاسن المرأة من سهام إبليس) .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (أيُّها الناس ؛ لا تطيعوا النساء في أمر ، ولا تدعهنَّ يدبِرْنَ أمرَ عيشٍ ؛ فإنَّهنَّ إنْ تُرِكَنَّ وما يَرَيْنَ . . أفسدنَ الملُكَ وعصينَ المالِك ، وجدناهنَّ لا دينَ لهنَّ في خلواتهنَّ ، ولا ورعَ لهنَّ عند شهواتهنَّ ، اللذاتُ بهنَّ يسيرةٌ ، والحيرةُ بهنَّ كثيرةٌ ، فأما صوالحهنَّ . . ففاجراتُ ، وأما طوالحهنَّ . . فعاهراتُ ، وأما المعصوماتُ . . فهنَّ المعدوماتُ ، فيهنَّ ثلاثُ خصالٍ من خصال اليهود : يتظلمنَ وهنَّ الظالماتُ ، ويحلفنَ وهنَّ الكاذباتُ ، ويتمنعنَ وهنَّ الراغباتُ ، فأستعيذوا بالله من شرارهنَّ ، وكونوا على حذرٍ من خيارهنَّ ، والسلام) اهـ (٣)

وهذا باعتبار الغالب ، وإلا . . ففيهنَّ نسوةٌ لهنَّ أحوالٌ وزهدٌ وصلاحٌ كأكابر الرجال ؛ مثل : رابعة العدوية ، وريحانة ، وأم الخير ، وغيرهنَّ من النساء المشهورات ؛ كما قيل عن رابعة العدوية رضي الله عنها : إنها كانت إذا صلت العشاء . . قامت إلى سطحٍ لها ، وشدَّت عليها درعها وخمارها ، ثم تقول : إلهي ؛ غابت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك ، ثم تُقبلُ على صلاتها ، فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر . . قالت : هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري ؛ أقبلت مني ليلتي فأهناً ، أم رددتها عليّ فأعزى ، وعزَّتكَ ؛ لو طردتني عن بابك . . ما برحت عنه ؛ لما وقع في قلبي من محبتك ، ثم تنشد وتقول : [من الخفيف]

يَا سُرُورِي وَمُنِيِّي وَعَمَّادِي وَأَنْبِيسِي وَغَايَتِي وَمُرَادِي

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤٠) .

(٢) أخرجه من قول سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى أبو نعيم في « الحلية » (١٦٦/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠٦٩) .

(٣) انظر « ربيع الأبرار » (٢٨٦/٥) .

أَنْتَ لِي مُؤْنَسٌ وَشَوْقَكَ زَادِي
مَا تَشَكَّتُ فِي فَيْحِ الْبِلَادِ
مِنْ عَطَاءٍ وَنِعْمَةٍ وَأَيَادِي
وَجَلَاءٍ لِعَيْنِ قَلْبِي الصَّادِي
يَا مُنَى الْقَلْبِ قَدْ بَدَا إِسْعَادِي^(١)

أَنْتَ رُوحُ الْفُؤَادِ أَنْتَ رَجَائِي
أَنْتَ لَوْلَاكَ يَا حَيَاتِي وَأَنْسِي
كَمْ بَدَتْ مِنْهُ وَكَمْ لَكَ فَضْلٌ
حُبُّكَ الْآنَ بُغِيَّتِي وَنَعِيمِي
إِنْ تَكُنْ رَاضِيًا عَلَيَّ فَإِنِّي

وقال بعض الصلحاء رحمه الله تعالى : رأيت جارية وهي تضرب بالطار ، فمرت يوماً بقاريء يقرأ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، قال : فرمت الطار من يدها وصرخت ، ثم سقطت إلى الأرض ، فلما أفاق . . كسرت الطار ، وأخذت في العبادة حتى شاع ذكرها ؛ فقال ذلك البعض : فدخلت عليها يوماً ، فكلمتها في الرفق بنفسها ، فبكت وقالت : ليت شعري ؛ أهل النار من قبورهم كيف يخرجون ؟ وعلى الصراط كيف يعبرون ؟ ومن هول القيامة كيف يخلصون ؟ وللحميم كيف يتجرعون ؟ ولتوبخ المولى كيف يسمعون ؟ ثم سقطت إلى الأرض مغشياً عليها ؛ فلما أفاق . . قالت : مولاي وسيدي ؛ عصيتك وأنا غضة رطبة ، وأطعتك وأنا يابسة خشنة ، أترأى تقبلني ؟ ثم قالت : أوآه ؛ كم من فضيحة تكشفها القيامة غداً ، ثم صرخت وبكت ، فلم يبق أحد في المجلس حتى غشي عليه من شدة البكاء مما صنعت بنفسها ، ثم أنشدت تقول :

أَمَّا وَالَّذِي قَدْ قَدَّرَ الْبُعْدَ بَيْنَنَا
وَحَصَّكُمْ بِالصَّبْرِ دُونِي وَخَصَّنِي
لَقَدْ ذَابَ قَلْبِي مِنْ دُمُوعِي عَلَيْكُمْ
وَعَذَّبَنِي بِالشَّوْقِ وَهُوَ شَدِيدٌ
بُحْزِنَ عَلَيْكُمْ يَتَدِي وَيُعِيدُ
عَلَى أَنَّهُ فِي النَّائِبَاتِ جَلِيدُ^(٢)

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : (بلغني أن بالجبل جارية متعبدة ، فأحببت أن أزورها ، فخرجت إلى الجبل أطلبها فلم أجدها ، فلقيت جماعة من المتعبدين ، فسألتهم عنها ، فقالوا : تسأل عن المجانين وترك العقلاء ؟! فقلت : دلوني عليها وإن كانت

(١) القصة مع الأبيات في « الروض الفائق » (ص ١٩٠) .

(٢) القصة مع الأبيات في « الروض الفائق » (ص ١٩٢) .

مجنونة ، فقالوا : نراها تجوز بنا ، تقع مرّة وتقوم أخرى ، وتصيح مرّة وتبكي مرّة وتضحك مرّة ، فقلت : دلوني عليها ، فقال أحدهم : تجدها بالوادي الفلاني ، فخرجت في طلبها ، فلمّا أشرفت عليها . . سمعت لها صوتاً ضعيفاً ، وهي تنشد وتقول : [من الكامل]

يَا ذَا الَّذِي أَنَسَ الْفُؤَادُ بِذِكْرِهِ أَنْتَ الَّذِي مَا إِنْ سِوَاكَ أُرِيدُ

فأتبعْتُ الصوت ، فإذا أنا بالجارية جالسة على صخرة عظيمة ، فسلمت عليها ، فردّت عليّ السلام وقالت : يا ذا النون ؛ ما لك والمجانين ؟ فقلت لها : أمجنونة أنت ؟ فقالت : لولا أنني مجنونة ما نودي عليّ بالجنون ، قلت : وما الذي جنّك ؟ قالت : حبُّه جنّني ، ووجدته أقلقني ، وشوقه يئمني ، فقلت : وأين محلُّ الشوق منك ؟ قالت : يا ذا النون ؛ الحبُّ في القلب ، والشوق في الفؤاد ، والوجد في السرِّ ، ثم بكت بكاء شديداً حتى غُشيَ عليها ، فلمّا أفاقت . . قالت : أوّاه من فرط المحبة ، يا ذا النون ؛ هكذا موت المحبين ، ثم صاحت صيحة عظيمة ، ثم سقطت إلى الأرض ، فحركتها ، فإذا هي ميتة ، رحمة الله تعالى عليها) (١) .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : (حججت وجاورت بمكة شرفها الله تعالى ، فكنت إذا جنّ الليل دخلت الطواف ، فبينما أنا أطوف بالبيت إذا بجارية تطوف بالبيت وهي تقول :

أَبَى الْحُبُّ أَنْ يَخْفَى وَكَمْ قَدْ كَتَمْتُهُ فَاصْبَحَ عِنْدِي قَدْ أَنَاخَ وَطَنَبَا
إِذَا أَشْتَدَّ شَوْقِي هَامَ قَلْبِي بِذِكْرِهِ وَإِنْ رُمْتُ قُرْباً مِنْ حَبِيبِي تَقَرَّبَا
وَيَمْنَحْنِي وَصَلاً فَأَحْيَا لَهُ بِهِ وَيُسْكِرْنِي حَتَّى أَلْدَّ وَأَطْرَبَا

قال الجنيد : فقلت لها : يا جارية ؛ أما تتقين الله ، تتكلمين مثل هذا الكلام في مثل هذا المقام ؟ فالتفت إليّ وقالت : يا جنيد ؛ لا تدخل بينه وبين محبيه ، وأنت يا جنيد تطوف بالبيت ، فهل ترى ربّ البيت ؟ فقلت : هذه دعوى تحتاج إلى إقامة بينة ، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : سبحانك سبحانك ! ما أعظم شأنك ! وما أعلى قدرك ! خلق

(١) القصة في «الروض الفائق» (ص ١٩٥) .

كالأحجار يطوفون بالبيت يعترضون على أهل السرائر ، ثم أنشدت تقول : [من الطويل]

يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ تَقَرُّباً
فَلَوْ يُخْلِصُونَ أَسْرَّ جَادَتْ صِفَاتُهُمْ
وَإِيكَ وَهُمْ أَقْسَى قُلُوباً مِنَ الصَّخْرِ
وَقَامَتْ صِفَاتُ الْحَقِّ مِنْهُمْ عَلَى الذِّكْرِ

قال الجنيد : فأغمي عليّ من كلامها ، فلما أفقت . . طلبتها فلم أجدها (١) .
فمثل هؤلاء النسوة عليهنّ الرضوان لا يعتزلن ذكرهنّ ، بل يُذكرن تبركاً بهنّ .
ولنرجع إلى كلام الناظم فنقول :

الأغاني : جمع غانية ، كفاعلة (٢) ، وتجمع أيضاً على غوانٍ ، كما في قول الشاعر : [من الطويل]

دَعَانِي الْغَوَانِي عَمَّهْنَّ وَخَلَّتْنِي
لِي أَسْمٌ فَلَا أَدْعَى بِهِ وَهُوَ أَوْلُ (٣)
والغانية : المرأة اللطيفة الحسنة الخلق والخلق .

والغزل : كلامٌ رقيقٌ لفظاً ومعنى ، متضمّنٌ لمعانٍ رقيقةٍ وأستعاراتٍ دقيقةٍ ، كما
قيل :

لَهَا كَفَلٌ تَعَلَّقَ فِي ضَعِيفِ
فِيَقْلُقُنِي إِذَا فَكَّزْتُ فِيهِ
وَذَاكَ أَلْرُدْفُ لِي وَلَهَا ظَلُومٌ
وَيُقْعِدُهَا إِذَا هَمَّتْ تَقُومُ

قال بعضهم : ولا يختص ذلك بغير الصوفية ، بل شعراء الصوفية كغيرهم يستعملون
الغزل في نظمهم كثيراً ، وقد تغزّل كثيرٌ منهم - كالشيخ محيي الدين ابن العربي (٤) ، والشيخ

(١) القصة في «الروض الفائق» (ص ١٩٦) .

(٢) ما هو في «التاج» وغيره : أغاني : جمع أغنية ، وهي الغناء المعروف .

(٣) البيت للنمر بن تولب رضي الله عنه في «ديوانه» (ص ١٠١) .

(٤) كقوله رحمه الله تعالى :

[من الطويل]

وَحُقٌّ لِمَثَلِي رِقَّةٌ أَنْ يُسَلِّمًا
فَقَلَّتْ لَهَا صَبًا غَرِيبًا مَتِيمًا
لَهُ رَاشِقَاتُ النَّبِيلِ أَيْبَانُ يَمِمًا
فَلَمْ أَدْرَ مَنْ شَقَّ الْحَنَادِسَ مِنْهُمَا
يُشَاهِدُنِي فِي كُلِّ وَقْتٍ أَمَّا أَمَّا

سَلَامٌ عَلَيَّ سَلِمِي وَمَنْ حَلَّ بِالْحَمِي
سَرُوا وَظَلَامُ اللَّيْلِ أَرَخِي سَدُولَهُ
أَحَاطَتْ بِهِ الْأَشْوَاقُ صَوْتًا وَأَرَصَدَتْ
فَأَبَدَتْ ثَنَائِيهَا وَأَوْمَضَ بَارِقُ
وَقَالَتْ : أَمَّا يَكْفِيهِ أَنِّي بِقَلْبِهِ

شرف الدين بن الفارض^(١) وغيرهما من السادات - تغزلات كثيرة رقيقة ؛ فمنهم مَنْ تغزَّل بالديار المكيَّة الشريفة والصفاء والمروة ونحو ذلك ، ومنهم مَنْ تغزَّل بالمدينة النبوية وَمَنْ نَزَلَ بها ، ومنهم من تغزَّل بالديار والربوع ونحو ذلك ، والمراد بذلك أصحابها ، ومنهم مَنْ تغزَّل بذكرِ عَزَّةِ وسلمى وليلي وسعدى وزينب وما أشبه ذلك ، وهذا أبلغ عندهم وأبدع وأرقُّ وأظرف وأحلى وأعلى وأغلى ، ومنهم من أظهر ، ومنهم مَنْ كنى وأضمر ، ومرادهم بذلك : ستر الألفاظ عن غير أهلها ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تُعْطُوا الحكمةَ غيرَ أهلِها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم »^(٢) .

والسَّتر والكتمان دأب المحبين والعاشقين كيلا يطلع الغير على ما بينهم وبين المعشوقين .

قال في « روضة القلوب » للإمام الشيرازي ما نصه : (أعلم : أن الناس قد كثُرَ كلامهم في وصف المحبَّة ونعت الشوق ، فسلك كلُّ واحد منهم مسلكاً أَدَاهُ إليه نظرُهُ وأجتهادُهُ ؛ فأهلُ الطبِّ يجعلونَ العشقَ مرضاً دماغياً يتولَّدُ عن النظر والسماع ، ويجعلون له علاجاً كسائر الأمراض الدماغية ، وهو مراتبُ ودرجاتٌ بعضها فوقَ بعضٍ ، فأوَّلُ مرتبةٍ منه تسمَّى الاستحسان ؛ وهي المتولِّدةُ عنِ النظر والسماع ، ثمَّ تقوى هذه المرتبةُ بطولِ الفكرة في محاسنِ المحبوب وصفاته الجميلة فتصيرُ مودَّةً ؛ وهي الميلُ إليه ، ثمَّ تتأكَّدُ المودَّةُ فتصيرُ محبَّةً ؛ وهي الائتلافُ الروحاني ، فإذا قويت . . صارت حُلةً ؛ وهي بين الآدميين تمكِّنُ محبَّةً أحدهما مِنْ قلبِ الآخرِ حتى تسقط بينهما السرائر ، ثم تقوى الحُلةُ فتصيرُ هوىً ؛ وهو

[من الرمل]

(١) كقوله رحمه الله تعالى في أول قصيدة من « ديوانه » (ص ١٣) :

لا ولا مستحسنٌ من بعد مَني
وظمما قلبي لذئاك اللُّمَني
سكرةً واطرباً من سكرتني
والحششا مني عمرو وحيي
منه حالٍ فهو أبهى حُلَّتني
مثمرٌ بدرٌ دجى فرع ظمَني
حُسْنها كالذكر يُنلى عن أبني

لم يرقني منزل بعد النقا
آه واشوقي لضاحي وجهها
فبكلِّ منه والألحاظ لني
ذو الفقار اللحظ منها أبداً
أنحلت جسمي نحولاً خصرها
إن تثنيت ففضيبٌ في نقأ
وأبى يتلو وإلا يوسفأ

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥٨/٤٧) .

أَنَّ المحبَّ لا يخالطه في محبةً محبوبه تَغَيَّرُ ولا يُدْخِلُه تَلَوُّنٌ ، ثم يزيد الحال فيصير عِشْقاً ؛ وهو إفراط المحبة حتى لا يخلو العاشق من تخيُّل معشوقه وفكره وذكره ، ولا يغيب عن خاطره وذهنه ، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الشهوانية ، فيمتنع من الطعام والنوم ، فإذا قوي العشق . . صار تَكَيْمًا ؛ وفي هذه الحالة لا يوجد في قلبه فضلٌ لغير صورة المعشوق ، ولا ترضى نفسه سواها ، فإذا تزايد الحال . . صار ذلك وَلَهًا ؛ وهو الخروج عن الحدود والترتيب حتى تختل أفعاله ، وتتغير صفاته ، فلا يدري ما يقول .

وسئل بعضهم عن المحبة فقال : هي حلوة المبدأ ، مُرَّة العقبى .

وقيل لبعض المحبين : كيف وجدت الحب ؟ قال : نارًا لا يخبو سعيها ، ولا يخمدُ

[من الوافر]

زفيرها ، ثم أنشد :

رَأَيْتُ الْحُبَّ نِيرَانًا تَلَطَّى
قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ لَهَا وَقُودُ
فَلَوْ فَنَيْتَ إِذَا أَحْتَرَقْتَ لَفَازَتْ
وَلَكِنْ كُلَّمَا نَضِجَتْ تَعُودُ
كَأَهْلِ لَطَى إِذَا نَضِجَتْ جُلُودُ
أُعِيدَتْ لِلشَّقَاءِ لَهُمْ جُلُودُ^(١)

وحكى الأصمعي قال : (حججت ، فبينما أنا أطوف ليلة حول البيت . . إذ أقبلت جاريتان لم أر أحسن منهما ، فطافنا سبعاً ، ثم وقفنا تتحدثان ، فأنصت إليهما ، فإذا إحداهما تقول :

[من البسيط]

لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مَعْشُوقَةٍ عَمَلًا
يَوْمًا وَعَاشِقُهَا غَضَبَانُ مَهْجُورُ

[من البسيط]

قال : فأجابتها الأخرى وقالت :

وَلَيْسَ يَأْجُرُهَا فِي قَتْلِ عَاشِقِهَا
لَكِنَّ عَاشِقَهَا فِي ذَاكَ مَآجُورُ

قال : فقلت لهما : يا حزب الشيطان ؛ أفي مثل هذا الموضع تقولان هذا القول ؟! فنظرت إليَّ إحداهما وقالت : لا أرهقك الحب ، فقلت لها : وما الحب ؟ فقالت : جلَّ عن أن يخفى ، وخفي عن أن يُرى ، فهو كامنٌ في الأحشاء مثل كُمون النار في الحجر ؛ إن قدحته . . أورى ، وإن تركته . . توارى ، فقلت لها : قاتلك الله فما أوصفك للحب ،

(١) الأبيات لمجنون ليلى قيس بن الملوِّح في « ديوانه » (ص ٧٣) .

فَقَالَتْ : أَسْمَعُ يَا شَيْخُ ، نَحْنُ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :

[من الكامل]

حُورٌ حَرَائِرُ مَا هَمَّ مَنْ بِرَيْبَةٍ كَطَبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامٌ
يُحْسَبَنَّ مِنْ لَيْنِ الْحَدِيثِ زَوَانِيَا وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الْخَنَا الْإِسْلَامُ (١)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمَحَبَّةُ : مِثْلُكَ إِلَى رِضَا مَحْبُوبِكَ وَلَوْ بِهَلَاكِ نَفْسِكَ ، ثُمَّ أُنْشِدُ : [من الوافر]

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيَّ غَضِبْتُ أَيْضًا عَلَى نَفْسِي وَرِضِيْنِي رِضَاهَا
وَمَا غَضِبِي عَلَى نَفْسِي لِذَنْبٍ وَلَكِنِّي أَمِيلُ إِلَيْ هَوَاهَا

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمَحَبَّةُ : مَحْوُ الْأَشْبَاحِ وَذُوبُ الْأَرْوَاحِ ، وَلِلَّهِ دُرُّ الْقَائِلِ : [من الكامل]

يَا مُشْبِهَ الْبَدْرِ إِذَا مَا قَدْ مَضَى خَمْسٌ وَخَمْسٌ بَعْدَهُنَّ أَرْبَعُ
مَا كَانَ ذَنْبِي حِينَ قَدْ صَيَّرْتَنِي أَنْتَ شَيْبَةَ الْبَدْرِ أَوَّلَ يَطْلُعُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمَحَبَّةُ : قُوَّةٌ غَرِيزِيَّةٌ تُحَدِّثُ لِلشَّجَاعِ جُبْنَ ، وَلِللَّجْبَانِ شَجَاعَةً ، وَتُوَدِّي
إِلَى الدَّاءِ العُضَالِ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمَحَبَّةُ : أَلَّا يَنْظُرَ المَحَبُّ لِعَيُوبِ المَحْبُوبِ ؛ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ » (٢) .

[من البسيط]

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَحُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي عَنْ قَبَائِحِهِ وَيَمْنَعُ الْأُذْنَ أَنْ تُصْغِيَ إِلَيَّ الْعَدْلَ (٣)

[من الطويل]

وَقَالَ آخَرُ :

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا (٤)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الحُبُّ حَرْفَانِ : حَاءُ وَبَاءُ ، فَحَاؤُهُ : حَيْفٌ (٥) ، وَبَاؤُهُ : بَلَاءٌ .

(١) انظر « مصارع العشاق » (١٧٧/٢) ، و« المجلس الصالح » (١٦٣/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٣٠) ، وأحمد (١٩٤/٥) .

(٣) البيت للخطيب البغدادي كما في « معجم الأدباء » (٢٧/٢) .

(٤) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كما في « الكامل » للمبرد (٢٧٧/١) ، و« العقد الفريد »

(٢٩٦/٢) .

(٥) وقع في المطبوع : (فحَاؤُهُ : حيرة وحزن) .

وما أحسن ما قال بعضهم :

[من المتقارب]

حُرُوفُ الْمَحَبَّةِ مَرْمُوزُهَا يَيْشُّرُزْنَا بِيْلُوغِ الْمُنَى
فَمِيمُ الْمَمَاتِ وَحَاءُ الْحَيَاةِ وَبَاءُ الْبَلَاءِ وَهَاءُ الْهَنَاءِ
فَمْتُ مِثْلَ مَا مَاتَ أَهْلُ الْهَوَى وَذَابُوا أَشْتِيَاقاً فَنَالُوا الْمُنَى

وقال سفيان الثوري في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ : (هو الحب) .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان داوود عليه الصلاة والسلام يقول : اللهم ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَحُبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ ، اللهم ؛ أَجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ » (١) .

وكان أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى يقول في مناجاته : (إلهي ؛ لست أعجب من حبي لك وأنا عبد حقير ، وإنما أعجب من حبي لك لي وأنت ملك قدير) (٢) .

وعن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه كان يقول في بعض مناجاته : (سيدي ؛ لئن طالبتني بذنوبي .. لأطالبنك بعفوك ، ولئن طالبتني ببخلي .. لأطالبنك بجودك وكرمك ، ولئن طالبتني بإساءتي .. لأطالبنك بإحسانك ، ولئن أدخلتني النار .. لأخبرن أهل النار بأنني أحبك يا رب ، فنوديت : يا أبا سليمان ؛ لا تدخل النار ، بل تدخل الجنة ، فتخبر أهلها بمحبتنا ؛ فإن مكان المحبين الجنة ، ومكان الأعداء النار) .

وحكي عن محمد بن أحمد المفيد قال : سمعت الجنيد رحمه الله تعالى يقول : (كنت نائماً عند السري رحمه الله تعالى ، فأيقظني وقال : يا جنيد ؛ رأيت كأني وقفت بين يدي الله تعالى وقال لي : يا سري ؛ خلقت الخلق كلهم فأدعوا محبتي ، فخلقت الدنيا ، فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي العشر ، فخلقت الجنة ، فهرب مني تسعة أعشار العشر ، وبقي معي عشر العشر ، فسلطت عليهم ذرة من البلاء ، فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر ، فقلت للباقيين : لا للدنيا أردتم ، ولا للجنة طلبتم ، ولا من البلاء هربتم ، فما الذي تريدون ؟ وما الذي تطلبون ؟ قالوا : أنت المراد ، ولو قطعنا بالبلاء .. لم نحل عن المحبة والوداد ،

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٤٣٣/٢) ، والترمذي (٣٤٩٠) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣٤/١٠) .

فقلت لهم : إني مُسلِّطٌ عليكم من البلاء والأهوال ما لا تقوم به الجبال ، أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : بلى ، إذا كنت أنت المبتلي لنا . فافعل ما شئت بنا ، فهؤلاء عيالي حقاً ، وأحبابي صدقاً^(١) .

وأعلم : أنه ينشأ عن المحبة أمور كثيرة ؛ من السهر والقلق ، بل والموت ؛ فقد حكى المدائني : أن امرأة من أهل المدينة تزوجها رجلٌ من أهل الشام ، فخرج إلى بلده على كرهٍ منها ، فسمعتُ منشداً يقول :

إِذَا بَرَقَتْ نَحْوَ الْجِجَارِ سَحَابَةٌ دَعَا الشَّقِيقَ مِنِّي بَرَقَهَا الْمُتَبَايِنُ
فَلَمْ أَتْرُكْهَا رَغْبَةً عَنِ بِلَادِهَا وَلَكِنَّهُ مَا قَدَّرَ اللَّهُ كَائِنُ

فلما سمعتُ . . . قالت : واشوقاهُ إلى ما ذكرت ، ثمَّ تَنَفَّسَتْ وَخَرَّتْ عَلَيَّ وَجْهَهَا مِيْتَةً^(٢) .

وحكى الهيثم بن عدي عن أبي مسكين قال : حَدَّثَنَا فَتَى مِنَّا ، قال : (خرجت حتى كنتُ عند بئر ميمون وإذا جماعة فوق تلك الجبال ، وإذا معهم فتىً طويلٌ أبيضٌ ، جَعَدُ الشعر ، حسنُ الوجه ، كأحسن ما رأيتُ من الرجال ، على هزالٍ منه وُصْفرة ، وإذا هم يتعلّقون به ، فسألتهم عنه ؟ فقيل : هذا قيسُ المجنون ، خرج به أبوه يستجير له بالبيت الحرام ، ويأتي به قبر النبي عليه الصلاة والسلام ليدعوه له هناك ، لعلَّ الله تبارك وتعالى يكشف ما به ، وإنه ليصنع بنفسه صنعاً يرحمه منه عدوه ، فتقدمتُ إليه وإذا هو يقول : أخرجوني لعلِّي أتَنَسَّمُ صبا نجدٍ ، فيخرجونه ، فيتوجّه نحو نجدٍ ، فيخافون أن يلقي نفسه من الجبل فيمسكونه ، فدنوت منه وأخبرته أنني قدمتُ من نجدٍ ، فتنفّسَ نفساً ظننتُ أن كبده قد أنصدعتُ ، ثمَّ قال : واشوقاهُ إلى نجدٍ ، وجعل يسألني عن وادٍ وادٍ ، وموضع موضع ، وأنا أخبره ، وهو يبكي أحراً بكاءً وأوجعاً للقلب ، ثمَّ إنَّه أغمي عليه حتى ظننا أنه قد مات ؛ فلما أفاق . . . قال : واشوقاه ؛ قال : ثمَّ إنَّهم حملوه وأرتحلوا به إلى مكة ، وإنَّ كبدي لتصدعُ حزناً وأسفاً ، ولا أدري ما صنع الله به بعد ذلك) .

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨٧/٢٠) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨٥/٧٠) ، والبيتان لأبي قطفة عمرو بن الوليد كما في « تاريخ دمشق »

(٤٤٧/٤٦) .

وحكي عن بعضهم أنه قال : (كانت لي أبنة ، وكانت تهوى شاباً ونحن لا نعلم بحالها ، وكان الشاب يهوى قينةً ، وكانت القينة تهوى أبنتي ، فحضرت بعض الأيام مجلساً فيه ذلك الشاب والقينة ، فغنت :

عَلَى الْعَاشِقِينَ الْبُكَاءُ عَلَامَةٌ ذُلُّ الْهَوَى
وَلَا سِيمَاءَ عَاشِقٌ إِذَا لَمْ يَجِدْ مُشْتَكِيًا

فقال لها الشاب : أحسنت والله يا سيدتي ، أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت : نعم ، مُت راشداً إن كنت عاشقاً ؛ قال : فوضع رأسه على وسادة وعمَصَ عينيه ، فلمَّا بلغ القدح إليه .. حرَّكناه فإذا هو ميت ، فاجتمعنا له ، وتكدَّر علينا السرورُ ، وأفترقنا من ساعتنا ، فلمَّا سرتُ إلى منزلي .. أنكرني أهلي ؛ حيث جئتُ في غير الوقت المعتاد ، فأخبرتهم بما كان من الشاب ، فكثُرَ تعجُّبهم من ذلك ، فسمعت أبنتي كلامي إلى آخره ، فدخلت مجلساً لي ، فأنكرنا مبادرتها ، فقمْتُ خلفها ، فدخلت إلى المجلس ، فوجدتها متوسدة على مثال ما وصفتُ من حال الشاب ، فحرَّكته فإذا هي ميتة ، فأخذنا في جهازها ، وغدونا لجنائزها و جنازة الشاب ، فلمَّا صرنا إلى طريق الجنازة .. إذا نحن بجنازة ثالثة ، فسألنا عنها ، فإذا هي جنازة القينة ، بلغها موت أبنتي ، ففعلتُ مثل ما فعلتُ ، فدفنا الثلاثة في يوم واحد ، وهذا من عجيب ما سُمعَ في هذا الأمرِ .

وقوله : (وَقُلِ الْفِصْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلُ) المراد به : أتباع الحق في الأقوال والأفعال ، وأجتناب الباطل فيهما ، وهذا مقتبس من قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ أي : باللعب ، وقيل : بالباطل ، ويطلق الهزل على ما يقع بين أراذل الناس من كلمات مضحكة أو رقص أو نحو ذلك ، ويقرب منه ما يقع بين الناس من المزاح ؛ فإنه منهجي عنه قديماً وحديثاً ، شرعاً وعرفاً ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَضْحَكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ .. فَقَدْ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » ، أو كما قال (١) .

وأما ما ورد من مزاحه صلى الله عليه وسلم من قوله للمرأة العجوز التي أراد أن يطيب

(١) أخرجه بهذا اللفظ موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه هناد في « الزهد » (١١٤٢) ، وأخرجه ابن حبان (٥٧١٦) ، وأحمد (٤٠٢/٢) مرفوعاً بلفظ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها من أبعده من الثريا » .

خاطرَهَا بِمِزَاحِهِ مَعَهَا : « لَا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ »^(١) ، ونحو ذلك . . فليس مِنْ هَذَا
البَابِ ، ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الْبَيَانِ الْمَأْمُورِ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَيْخٌ وَلَا عَجُوزٌ ، بَلْ تَدْخُلُ النَّاسُ أَبْنَاءَ
ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَى صُورَةِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَفِي « الْجَامِعِ الصَّغِيرِ » : قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنِّي لَا أَمْزُحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا »
رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنِ [ابْنِ عَمْرِو ، وَالْخَطِيبِ عَنْ] أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٢) .

* * *

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي « الشَّمَاةِلِ » (٢٤٠) ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي « الْأَوْسَطِ » (٥٥٤١) .

(٢) « الْجَامِعِ الصَّغِيرِ » (٢٦٢٨) ، وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي « الْكَبِيرِ » (٢٩٩/١٢) ،
وَ« الْأَوْسَطِ » (٩٩٩) ، وَ« الصَّغِيرِ » (٧/٢) ، وَأَخْرَجَهُ عَنِ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخَطِيبُ فِي « تَارِيخِ بَغْدَادِ »
(١٤٩/٤) .

قَالَ النَّاطِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَفَعْنَا بِهِ آمِينَ :

٣-٢

وَدَعِ الذُّكْرَى لِأَيَّامِ الصَّبَا
فَلِأَيَّامِ الصَّبَا نَجْمٌ أَفْلٌ
إِنَّ أَهْنَا عِيشَةً قَضَيْتَهَا
ذَهَبَتْ لَذَائِهَا وَالْإِثْمُ حَلٌ

البيت الأول مترتبٌ على الثاني ، والمعنى : أن أطيّب وأحلى - كما في نسخة^(١) -
والذّ عيشة قضيتها يا مخاطبٌ في أقتراف الذنوب والسيئات ذهبت ومرّت وأنقضت
لذاتها ؛ أي : العيشة ؛ أي : لذة الذنوب التي فعلتها فيها ، بدليل قوله : (والاثم حل)
أي : ثبت عليك ، وحينئذ ينبغي لك عدم الذكرى لأيام الصبا التي وقعت فيها الذنوب
والخطايا ، وقد مرّت كأنها طيف خيالٍ أو نجمٌ أفل ؛ أي : غاب ؛ لأنه ليس في ذكر تلك
الأيام إلا التفاخرُ بالمعصية ، وقد قيل : إنَّ التحدّثَ بالمعصية والسرورَ بها يزيدُ في
الاثم ، كما أنّ التحدّثَ بالنعمة والسرورَ بها يزيدُ في الأجر ؛ قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « كلُّ الناس مُعافى إلاّ المجاهرين »^(٢) يعني : بالمعاصي ، وقال تعالى : ﴿ لَئِنْ
شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وأعلم : أنه إذا كان السرورُ بكبيرةٍ .. عَظُمَ وزرّها وتزايدَ أمرّها ، وإذا كان بصغيرةٍ ..
ألحقتُ بالكبيرة .

ويقال : خمسةُ أشياء إذا قارنت الصغائر ألحقتها بالكبائر :

الأول : السرور بالذنب ؛ فإن القلب يسودُّ بقدر الفرح بالذنب .

الثاني : إظهار الذنب ؛ بأن يفعله متجاهراً ، أو يتحدث به ويفتخر به ، فإنّ من نِعِمَّ الله
تعالى إظهارَ الجميل وسَتَرَ القبيح ، وفيما ذُكِرَ من التّجاهر والتحدّث والافتخار ترغيبٌ من

(١) وهي رواية « الديوان » .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

عَلِمَ بذنبه في الوقوع في مثله ، وفي الأثر : (لا تذب ، فإن أذبت . . فلا تُرغب غيرك فيكتب عليك ذنبان) .

الثالث : أن يستصغر الذنب ؛ فإنه يكثرُ إثمُهُ على قدر أستصغاره له ، فإن في تصغير الذنب تصغيرَ أمر الله سبحانه وتعالى ، وفي تعظيمه تعظيمَ أمر الله تعالى ؛ قال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه : (إنكم تعملون أشياء هي عندكم أدقُّ من الشعر ، كنا نعدُّها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الموبقات)^(١) أي : المهلكات .

الرابع : الإصرار ؛ وهو العزم على العود لمثل الذنب ، ولهذا قيل : لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار ؛ وليس المراد به : استغفار أمثالنا باللسان ، وإنما المراد به : الواقع مع التوبة والندم والإقلاع والالتجاء إلى الله تعالى بالقلب .

الخامس : أن يكون فاعلُ الذنب عالماً يُقتدى به ، كما ورد في الحديث : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً . . فَعَلَيْهِ وَزُرْهَا وَوَزُرْ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ »^(٢) اهـ

فصل في التوبة

[في استحباب تدارك ما فات بالتوبة]

يستحبُّ للإنسان أن يتدارك ما فاتهُ وما أهمله فيما مضى من عمره ، وأن يرجع بالتوبة إلى ربِّه ؛ فقد ورد : « إِنَّ مَنْ أَحْسَنَ فيما بقي . . غَفِرَ لَهُ ما مضى وما بقي ، ومن أساء فيما بقي . . عُوِّبَ بما مضى وما بقي »^(٣) .

[من الطويل]

ويعجبي قول القائل :

فَطَمْتُ هَوَى نَفْسِي صَغِيرًا فَعِنْدَمَا
أَطَعْتُ الْهَوَى عَكْسَ الْقَضِيَّةِ لَيْتَنِي
أَتَّيْتُ الْيَالِي بِالْمَشِيبِ وَبِالْكِبَرِ
خَلَقْتُ كَبِيرًا ثُمَّ عُدْتُ إِلَى الصَّغَرِ

قال بعضهم : والفئات على قسمين : فئات مستدرِك ، وفئات غير مستدرِك .

(١) أخرجه أحمد (٣/٣) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧) ، وابن خزيمة (٢٤٧٧) ، وابن جبان (٣٣٠٨) .

(٣) أخرجه الطبراني مرفوعاً في « الأوسط » (٦٨٠٢) ، و« مسند الشاميين » (٦٦٤) .

فالفائت المستدرک : كما إذا كان للإنسان وِرْدٌ أو تهَجُّدٌ يفعله بالليل ، ثم نام عنه في وقته ، ثم فعله بعد ذلك ؛ فإنه يكون مدرکاً له ومحصلاً لما هو مترتّب عليه من الأجر والثواب .

وأما الفائت غير المستدرک : فهو كالشباب ، فلا يمكن تداركه ، ولا ينبغي لمن ذهب شبابه وأدرکه الشيب إلا الاجتهاد في الأعمال الصالحات ، والاستعداد ليوم المعاد ، قال الله تعالى : ﴿ أُولُو نُعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ ، قيل : الشيب : وقيل : الهرم ، وقيل غير ذلك ، وقد قيل : إن الشيب رسول الموت ؛ ففي الحديث : « ما مِنْ شَعْرَةٍ تَبَيَّضُ إِلَّا قَالَتْ لِأَخْتِهَا : أَسْتَعْدِي ؛ فَقَدْ قُرِبَ الْمَوْتُ » ، وما أحسن ما قيل في ذلك :

[من الخفيف]

وَبَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ أَخَذُ الْفِصَاصِ
عَمَلٌ أَرْتَجِيهِ يَوْمَ الْخَلَاصِ
فِيهِ أَخْلَصْتُ غَايَةَ الْإِخْلَاصِ

ذَهَبَتْ لَذَّةُ الصَّبَا فِي الْمَعَاصِي
وَمَضَى الْحُسْنُ وَالْجَمَالُ وَمَا لِي
غَيْرَ ظَنِّي فِي اللَّهِ فَهُوَ جَمِيلٌ

وقال بعضهم :

وَأَتَى الْمَشِيبُ فَأَيْنَ مِنْهُ الْمَهْرَبُ^(١)

ذَهَبَ الشَّبَابُ فَمَالَهُ مِنْ عَوْدَةٍ

[من الكامل]

[من الوافر]

فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ^(٢)

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يُعُودُ يَوْمًا

[من الطويل]

قَرِينُ أَلْفَتِي فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
يُقِيمُ قَلِيلًا عِنْدَهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ^(٣)

تَزَوَّدَ جَمِيلًا مِنْ فِعَالِكَ إِنَّمَا
أَلَا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ ضَيْفٌ لِأَهْلِهِ

وقال الآخر :

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس من قصيدة مطلعها :

والدهر فيه تصرم وتقلب

صرمت حبالك بعد وصل زينب

انظر « معجم الأدباء » (٣٣٧/٤) .

(٢) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤٦) .

(٣) البيتان للصلصال بن الدهمسي رضي الله عنه كما في « الإصابة » (١٨٦/٢) ، و « ربيع الأبرار » (٢٣١/٢) .

[فيما ورد من الأخبار في فضل طول عمر المؤمن]

ورد في فضل طول عُمرِ المؤمن أخبارٌ ؛ منها : ما روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ مُعَمَّرٍ يُعَمَّرُ فِي الإِسْلَامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً . . إِلَّا صَرَفَ اللهُ عَنْهُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْبَلَاءِ : الْجُنُونُ وَالْجَذَامُ وَالْبُرْصُ ، فَإِذَا بَلَغَ الْخَمْسِينَ . . سَهَّلَ اللهُ لَهُ الْحَسَنَاتِ ، فَإِذَا بَلَغَ السِّتِينَ . . رَزَقَهُ اللهُ الْإِنَابَةَ بِمَا يَحِبُّ ، فَإِذَا بَلَغَ السَّبْعِينَ . . أَحَبَّهُ اللهُ تَعَالَى وَأَحَبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، فَإِذَا بَلَغَ الثَّمَانِينَ . . تَقَبَّلَ اللهُ حَسَنَاتِهِ وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ ، فَإِذَا بَلَغَ التَّسْعِينَ . . غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَسُمِّيَ أَسِيرَ اللهِ فِي الأَرْضِ ، وَشَفَعَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَإِذَا بَلَغَ مِئَةَ سَنَةٍ . . سُمِّيَ حَبِيسَ اللهِ فِي الأَرْضِ ، وَحُقِّ عَلَى اللهِ أَلَّا يَعْذَّبَ حَبِيسَهُ فِي الأَرْضِ » (١) .

[من الخفيف]

وللشيخ الإمام صالح بن شريف الأندلسي :

| | |
|---|--|
| رُفِعَتْ عَنْ نَظِيرِهِ الأَقْلَامُ | إِبْنُ عَشْرٍ مِنَ السِّنِينَ غَلَامٌ |
| لَيْسَ يُثْنِيهِ عَنْ هَوَاهُ مَلَامٌ | وَأَبْنُ عَشْرِينَ لِلصَّبَا وَالتَّصَابِي |
| وَهِيَامٌ وَلَوْعَةٌ وَغَرَامٌ | وَالثَّلَاثُونَ قُوَّةٌ وَشَبَابٌ |
| فَكَمَالَ وَشِدَّةٌ وَتَمَامٌ | فَإِذَا زَادَ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرًا |
| فَيَرَاهُ كَأَنَّهُ أَحْلَامٌ | وَأَبْنُ خَمْسِينَ مَرَّةً عَنْهُ صِبَاهُ |
| هَدَفًا لِلْمُنُونِ وَهِيَ سِهَامٌ | وَأَبْنُ سِتِينَ صَيَّرَتْهُ أَلْيَالِي |
| فَأَبْنُ سَبْعِينَ مَا عَلَيْهِ كَلَامٌ | وَأَبْنُ سَبْعِينَ لَا تَسْلُنِي عَنْهُ |
| بَلَغَ الغَايَةَ الَّتِي لَا تُرَامُ | فَإِذَا زَادَ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرًا |
| وَأَعْتَرَتْهُ وَسَاوِسٌ وَسِقَامٌ | وَأَبْنُ تِسْعِينَ عَاشَ مَا قَدْ كَفَاهُ |
| فَهُوَ حَيٌّ كَمِيَّتٍ وَالسَّلَامُ | فَإِذَا زَادَ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرًا |

وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ أيُّ الناس خيرٌ ؟

(١) أخرجه أحمد (٢١٧/٣) ، وأبو يعلى (٤٢٤٦) ، وانظر « القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد » (ص ٢٢) .

قال : « مَنْ طَالَ عَمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ » ، قال : فَأَيُّ النَّاسِ شَرُّ ؟ قال : « مَنْ طَالَ عَمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ » رواه الترمذي وقال : حديث صحيح^(١) .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ بَلَغَ الثَّمَانِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . . لَمْ يُعْرَضْ وَلَمْ يُحَاسَبْ ، وَقِيلَ لَهُ : أَدْخِلِ الْجَنَّةَ »^(٢) .

وفي الخبر : (إِنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ الشَّيْخِ كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَيَقُولُ : أَبْنُ آدَمَ ؛ كَبِرَ سِنَّكَ ، وَوَهَنَ عَظْمُكَ ، وَقَرُبَ أَجْلُكَ ، فَأَسْتَحِي مِنِّي ؛ فَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أُعَذَّبَ ذَا شَبِيَّةٍ) . ذكره القرطبي في « تذكرته »^(٣) .

* * *

(١) « سنن الترمذي » (٢٣٣٠) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢١٥ / ٨) ، وابن عدي في « الكامل » (٣٥٤ / ٥) .

(٣) « التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة » (٢١١ / ١) .

قال الناظمُ رحمه الله تعالى [ونفعنا به آمين] :

٤

وَأَتْرُكُ الْغَادَةَ لَا تَحْفَلُ بِهَا تُمَسِّ فِي عِزٍّ وَتُرْفَعُ وَتُجَلُّ

أي : أترك الجارية الغادة ؛ أي : الغانية ، فالغادة والغانية على حدٍّ سواء ، ولا تكرارَ بين هذا البيتِ والبيتِ الذي هو أوَّل القصيدة ؛ لأنَّ النهيَ هناك عن الذكرِ لها والتغزُّلِ بها ، وهنا عن طلبها والتعلُّقِ بها ، ثمَّ إنَّ كان ذلك على وجهٍ محرِّمٍ . . فالنهيُّ ظاهرٌ ، وإنَّ كان على وجهٍ جائزٍ ؛ كأنَّ طلب التزوُّجِ بها . . فهو محمودٌ على ما إذا لم تدعُ الحاجةُ إلى الزواجِ ؛ كأنَّ يكون عاجزاً عن الوطاء أو الإنفاقِ أو المهرِ أو نحو ذلك ، وعليه يحملُ قوله صلي الله عليه وسلم : « خيركم بعد الممتئين الخفيفُ الذي لا أهلَ له ولا ولدٌ »^(١) ، وحيث كان عاجزاً عما ذكِرَ وترك ذلك . . فقد أستراح ، وكان عزيزاً بين أقرانه ، جليلاً بين الناسِ ، وهذا معنى قوله : (تُمس في عزٍّ وترفع وتجلُّ) ، ومن لم يتركها واحتفل بها ؛ أي : طلبها من غير حاجة لها . . فقد أتعب نفسه ، وحملها ما لا طاقة لها به من الدلِّ والاحتياج ونحو ذلك .

أمَّا إذا دعت الحاجةُ إلى الزواجِ ؛ بأنِ اشتاقت نفسه إليه ، وكان واجداً الأهبة . . فالأفضلُ له طلبها والاحتفالُ بها ؛ لقوله صلي الله عليه وسلم : « يا معشرَ الشبابِ ؛ مَنْ أَسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ . . فليتزوّجْ ؛ فإنَّهُ أغضُّ للبصرِ ، وأحصنُ للفرجِ ، ومن لم يستطع . . فعليه بالصومِ ؛ فإنَّهُ له وِجَاءٌ »^(٢) بكسر الواو والمد ؛ أي : قاطعٌ لتوقانه وشهوته .

وفي « الجامع الصغير » : قال صلي الله عليه وسلم : « إنَّ الرجلَ إذا نظرَ إلى امرأته ونظرتُ إليه . . نظرَ اللهُ تعالى إليهما نظرَ رحمةٍ ، فإذا أخذَ بكفِّها . . تساقطتْ ذنوبُهُما مِنْ حَلَالِ أَصَابِعِهِمَا »^(٣) .

(١) عزاه السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٤٥٢) إلى أبي يعلى في « مسنده » .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٥) ، ومسلم (١٤٠٠) .

(٣) « الجامع الصغير » (١٩٧٧) ، والحديث عزاه السيوطي إلى ميسرة بن علي في « مشيخته » .

وقد ذكر الفقهاء : أنَّ النكاحَ تعتريه الأحكامُ الخمسة ؛ فالأصلُ فيه الإباحةُ ؛ كما في واجدِ الأهبة مع عدم احتياجه إليه ، وقد يجب ؛ كأن خافَ العنتَ لو لم يتزوَّج ، فيتعيَّنُ الزواجُ لدفع الزنا ، وقد يسُنُّ لتأنيُّ واجدِ للأهبة ؛ أي : المهر وكسوة الفصل والسكنى ونفقة اليوم والليلة ، وقد يكره لمنْ فقدها ولم يحتج إليه ، وقد يحرم وهو كثير ؛ كنكاح المتعة - وهو النكاح إلى أجل - ونكاح الشُّغار - بكسر الشين وبالغين المعجمتين ، مِنْ شَغَرَ البلدُ عن السلطان : إذا خلا عنه - لَحَلَّوْهُ عن المهر ؛ وهو أن يقول : زَوَّجْتُكَ بِنْتِي عَلَى أَنْ تَزَوَّجَنِي بِنْتِكَ ، وبضعُ كلِّ منهما صدق الأخرى ، فيقبل ذلك .

وخرج بقولنا في جانب الكراهة : (ولم يحتج إليه) : ما إذا فقدها واحتاج إليه ، فالنكاح خلاف الأولى في حقِّه ، والأولى : أن يكسر شهوته بالصوم . اهـ

فصل في بيان الغاية من الزواج

[في بيان الغاية من الزواج]

التزوُّجُ عبادةٌ وقربةٌ ؛ لِما فيه مِنَ التحصين له ولزوجته مِنَ الوقوعِ في المحرمات ، ولِما فيه مِنْ كَفِّ الفرجِ والنظرِ عن الوقوعِ فيما لا يجوز ، ولِما فيه مِنَ النفقة على العيالِ وغير ذلك .

قال رجل لإبراهيم بن أدهم : طوبى لك ؛ تفرَّغْتَ إلى إِلْهِكَ بالعزوبة ، فقال : (لَرَوْعَةٌ مِنْكَ بسبب العيالِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ ما أَنَا فِيهِ) .

ولِما حضرت معاذاً الوفاةً . . قال : (زَوَّجُونِي لا أَلْقَى اللهُ عَزَباً)^(١) .

وينبغي للإنسان أن يقصدَ به النسلَ والولدَ لا قضاءَ الشهوة ؛ لأنَّ البركةَ تحصل بدعاء الولد الصالح ، ولأنَّ الولد الصغير إذا مات طلب الشفاعة لوالده الحيِّ ، وللسعي في محبة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بتكثيرِ أُمَّتِهِ ؛ فقد روي أنَّه صلى الله عليه وسلم ذمَّ المرأةَ التي لا تلد^(٢) ، كما ورد عن معبد بن يسار رضي الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله

(١) عزاه الحافظ ابن حجر في « تلخيص الحبير » (٩٥/٣) إلى البيهقي من حديث الحسن عنه مرسلًا .

(٢) أو إن شئت . . قلت : لم يرغب في نكاح غير الولود كما يفيد الخبر .

صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبتُ امرأةً ذاتِ حُسنٍ وجمالٍ ، وإنَّها لا تلدُ ، أفأتزوَّجُها ؟ قال : « لا » ، ثمَّ أتاهُ الثانيةُ ، فنهاهُ ، ثمَّ أتاهُ الثالثةُ ، فقال : « تزوَّجُوا الولودَ الودودَ ؛ فإنِّي مُكاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ »^(١) ، فهذا يدلُّ على أنَّ المقصودَ طلبُ الولدِ لا مجردُ الشهوةِ ، ولما يترتَّبُ على الزواجِ مِنْ دعاءِ الولدِ له بعدَ موتهِ ، كما ورد في الحديث : « أو ولدٍ صالحٍ يدعو له »^(٢) .

قال بعضهم : لا يشترطُ صلاحه ؛ لأنَّ دعاءَ الولدِ المؤمنِ لوالديه مفيدٌ مطلقاً - صالحاً كان أو فاجراً - ولما يترتَّبُ على الزواجِ أيضاً مِنْ أنَّ للوالدِ مثلَ حسناتِ ولده ؛ لأنَّه من سعيه وكسبه ، ولا يؤاخذُ بسيئاته ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المولودُ حتى يبلغَ الحنثَ : ما عملَ مِنْ حسنةٍ . . كتبتُ له ولوالديه ، وما عملَ مِنْ سيئةٍ . . لم تكتبُ عليه ولا على والديه ، فإذا بلغَ الحُلُمَ أُجِري عليه القلمُ »^(٣) .

وأما ما جاء في بكاء المولود : فروى عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تضربوا أطفالكم على بُكائهم سنةً ؛ فإنَّ أربعةَ أشهرٍ منها يشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأربعةَ أشهرٍ يصلي عليّ ، وأربعةَ أشهرٍ يدعو لوالديه » ، وفي روايةٍ أخرى : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « بكاءُ الصبيِّ في المهدِ أربعةَ أشهرٍ توحيدٌ ، وأربعةَ أشهرٍ صلاةٌ على نبيِّكم ، وأربعةَ أشهرٍ استغفارٌ لأبويه »^(٤) .

وروى أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما مِنْ مسلمٍ يموتُ له ثلاثةٌ مِنَ الولدِ لم يبلغوا الحنثَ . . إلَّا أدخله اللهُ الجنةَ بفضلِ رحمتهِ إيَّاهم » أخرجه البخاري ومسلم^(٥) .

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) ، والنسائي (٦٥/٦) .

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١) ، وأبو داود (٢٨٨٠) ، والترمذي (١٣٧٦) .

(٣) عزاه السيوطي في « اللآلئ المصنوعة » (١٤٤/١) إلى أبي يعلى ، وجاء نحوه عن وائلة بن الأسقع أخرجه ابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٣٤٨/٥٩) .

(٤) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٣٦/١١) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١٠٣/١) ، وانظر « لسان الميزان » (٤٧٧/٥) ، و« اللآلئ المصنوعة » (٩٨/١) ، و« تنزيه الشريعة » (١٧١/١) .

(٥) أخرجه البخاري (١٢٤٨) و(١٣٨١) ، والنسائي (٢٤/٤) ، وابن ماجه (١٦٠٥) .

وقد ذكر الشريف الحسيني في « شرحه على منظومة ابن العماد في الأنكحة »^(١) في هذا المقام كلاماً مبسوطاً يخرجنا تتبُّعه عن إرادة الاختصار ، فمن أراد . . . فليراجعه .

* * *

(١) ابن العماد : هو الإمام أحمد بن عماد بن يوسف الأقفهسي المتوفى سنة (٨٠٨هـ) ، والشريف الحسيني : هو الإمام حسن بن محمد بن أيوب الحسيني النسابة المتوفى سنة (٨٦٦هـ) ، انظر « الضوء اللامع » (٤٧/٢) و(١٢١/٣) .

قَالَ النَّاطِمُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَنَفَعْنَا بِهِ آمِينَ :

وَأَلَّهُ عَنِ آلَةٍ لَهُوَ أَطْرَبَتْ وَعَنِ الْأَمْرَدِ مُزْتَجِّ الْكَفَلِ

قال في « المصباح » : (اللهو : معروف ، تقول أهل نجد : لهوتُ عنه ألهو لهياً ، والأصل فعولاً ، من باب قعد ، وأهل العالية : لهيتُ عنه ألهي ، من باب تعب ، ومعناه : السُّلوان والترك ، ولهوتُ به لهواً ، من باب قتل : أولعتُ به وتلهيتُ به أيضاً ، وألهاني الشيءُ بالألف شغلني) اهـ

ثم قال في السنين مع اللام : (السُّلُوُ : طيبُ نفسِ الإلفِ عن إلفِهِ) اهـ
ومعنى البيت : تسلَّ وتصبَّرَ عن آلهِ لهوٍ ؛ بأن تترك آلاتِ الملاهي المطربة .
والطَّرْبُ : خِفَّةُ تصيبُ الإنسانَ لشِدَّةِ السرور .

وقرَّرَ الفقهاءُ : أَنَّهُ يَحْرَمُ اسْتِعْمَالُ آلَاتِ الْمَلَاهِي ؛ كَطَنْبُورٍ وَجُنْكٍ وَعُودٍ وَسِنطِيرٍ وَمِزْمَارٍ عِرَاقِيٍّ^(١) ، وكذلك يحرمُ الضربُ بالكُوبَةِ ؛ وهي طبلٌ صغيرٌ ضيقُ الوسطِ واسعِ الطرفين .
عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ إبليسَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ . . قال : يَا رَبِّ ؛ أَنْزَلْتَنِي إِلَى الْأَرْضِ وَجَعَلْتَنِي رَجِيماً ، فَأَجْعَلْ لِي بَيْتاً ، قال : الْحَمَامُ ، قال : أَجْعَلْ لِي مَجْلِساً ، قال : الْأَسْوَاقُ وَمَجَامِعُ الطَّرِيقِ ، قال : فَأَجْعَلْ لِي طَعَاماً ، قال : مَا لَمْ يَذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قال : فَأَجْعَلْ لِي شَرَاباً ، قال : كُلُّ مَسْكَرٍ ، قال : فَأَجْعَلْ لِي قِرْآنًا ، قال : الشُّعْرُ ، قال : فَأَجْعَلْ لِي مَوْذَنًا ، قال : الْمِزْمَارُ ، قال : فَأَجْعَلْ لِي حَدِيثًا ، قال : الْكُذْبُ ، قال : فَأَجْعَلْ لِي رِسَالًا ، قال : النِّسَاءُ » رواه ابن أبي الدنيا^(٢) .

(١) الطنبور : آله طرب ، ذات عنق طويل ، لها ستة أوتار ، أخذها العرب عن الفرس بعد الفتح الإسلامي ، والجنك : آلة موسيقية من الفصيلة البوترية ، معروفة منذ العصر الفرعوني ، والسنطير : آلة طرب تشبه القانون ، أوتارها من نحاس يضرب عليها .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكائد الشيطان » ، والطبري في « تهذيب الآثار » (٦٤٤/٢) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠٧/٨) .

وأعلم : أنه يكره غناء المرأة وأستماع الرجل له وإن أمن الفتنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « الغناء يُنبئُ النفاقَ في القلبِ كما يُنبئُ الماءُ الزرعَ » رواه البيهقي عن جابر (١) ، وهذا بخلاف أذانها ؛ فإنه حرامٌ بحضرة الأجنبي .

والفرق بينهما : أن في الأذان تشبهاً بالرجال ، بخلاف الغناء ؛ فإنه من شعائر النساء ، ولأنه يُستحبُّ النظر للمؤذن حال أذانه ، فلو أستحيناها للمرأة . . لأمر السامع بالنظر إليها ، وهذا مخالفٌ لمقصود الشارع (٢) .

فصل في الأذلة

[في سبب زغردة المرأة إذا حصل لها سرور]

ذكر الشريف الحسيني في « شرحه على منظومة ابن العماد » : (أنه لما التقى آدم بحواء ورأته من بعيد . . رفعت صوتها فرحاً به بكلام غير مفهوم يشبه الزغاريد ، فلذلك جرت عادة المرأة أنها إذا فرحت وحصل لها سرور . . زغردت ، وإذا حزنت . . ولولت) اهـ

ويجوز استعمال طبل كبير لنحو فرح ؛ كعرسٍ وحجٍّ وجهادٍ ونحو ذلك ؛ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها : أنها زفت امرأة من الأنصار إلى رجل من الأنصار ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما كان معكم من لهو ؟ » (٣) اهـ

وقول الناظم : (وعن الأورد) أي : الغلام الذي لم يبلغ أو ان نبات اللحية ، وأما الذي بلغ أو ان طلوع لحيته ولم تطلع . . فيقال له : أنط - بالمثلثة - لا أورد .

وقوله : (مرتج) أي : عظيم (الكفل) بفتحين ؛ أي : العجيزة ، هكذا يؤخذ من « المصباح » .

وأختلف النووي والرافعي رحمهما الله تعالى في هذه المسألة : والذي تحصل فيها من كلامهما : أنه يحرم النظر إلى الأورد بشهوة وإن كان غير حسن بالإجماع ، ولو انتفت الشهوة

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٤٧٤٦) ، وأخرجه بنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه أبو داود (٤٩٢٧) ، والبيهقي في « السنن » (٢٢٣ / ١٠) .

(٢) انظر « تحفة المحتاج » (٤٦٦ / ١) ، و« نهاية المحتاج » (٤٠٦ / ١) ، و« مغني المحتاج » (٢١٠ / ١) .

(٣) أخرجه البخاري (٥١٦٢) .

وخيفت الفتنة.. حَرَمَ النظر أيضاً ، قال ابن الصلاح : ليس المراد بخوف الفتنة : غلبة الظنِّ بوقوعها ، بل يكفي ألا يكون ذلك نادراً .

وكذا يحرم النظرُ إلى الأُمردِ بلا شهوةٍ عند النوويِّ رحمه الله تعالى ؛ لأنه مَظَنَّةُ الفتنة ، فهو كالمرأة ، بل هو أشدُّ إثماً مِنَ المرأة الأجنبية ؛ لعدم حِلِّه بحالٍ .

وكذا يحرمُ اللمسُ للأُمردِ وإن حلَّ النظر^(١) ؛ لأنه أفحشُ ، وكذا الخلوةُ به إن حَرُمَ النظرُ ؛ فإنها أفحشُ وأقربُ إلى المفسدة .

والمعتمد من مذهب إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه : الذي قاله الرافعيُّ ؛ وهو : أنَّ النظرَ إلى الأُمردِ لا يحرمُ إلاَّ بشهوةٍ ، لهذا هو المفتيُّ به ، والذي قاله الإمام النوويُّ رحمه الله تعالى من أختياراته ؛ سدّاً للباب في ذلك الزمان ، وأما زماننا هذا : فقد كثر فيه الفساد كما هو ظاهر لكلِّ أحدٍ ، نسألُ الله تعالى السلامة والعافية ممَّا يُوجبُ عقابه^(٢) .

وضابطُ الشهوة المحرَّمة كما قال الإمام السبكي : (أن ينظرَ إلى الوجه الجميل فيلتدُّ به ، فإذا نظرَ ليلتدُّ بذلك الجمال .. فهو النظرُ بالشهوة ، وهو حرامٌ بإجماع ، قال : وليس المرادُ أن يشتهي زيادةً على ذلك من الوقاع أو مقدماته ؛ فإنَّ ذلك ليس بشرط ، بل زيادةً في الفسق ، قال : وكثيرٌ من الناس لا يُقدِّمون على الفاحشة ويقتصرون على مجردِ النظرِ والمحبة ، ويعتقدون أنَّهم سالمون من الإثم ، وليسوا بسالمين) اهـ^(٣)

ولنذكر لك شيئاً في هذا الشأن فنقول : قد قصَّ الله علينا في كتابه العزيز ما فعله بقوم لوطٍ ، فقلبَ عليهم مدائنهم ، وأرسلَ عليهم حجارةً من سجيلٍ منضودٍ مسومةً عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ؛ أي : ما هذه العقوبة التي فعلتها بقوم لوطٍ من ظالمي هذه الأمة الذين يعملون كأعمالهم ببعيدٍ .

(١) أي : بلا شهوة - عند الرافعي - على المعتمد .

(٢) هذا في زمان المصنف ، فكيف في زماننا الذي تكثر فيه الفتن والمفاسد وما من يوم يأتي إلا والذي بعده شر منه ؟ أجازنا الله تعالى وسلمنا .

(٣) انظر «الشرح الكبير» (٤٧٦/٧) ، و«منهاج الطالبين» (ص٣٧٣) ، و«مغني المحتاج» (١٧٧/٣) ، و«نهاية المحتاج» (١٩٣/٦) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط »^(١) .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « سبعة يلعنهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ويقال لهم : أدخلوا النار مع الداخلين ؛ الفاعل والمفعول به - يعني : اللائط والملوط به - وناكح البنت وأمها ، والزاني بأمرأة جارِه ، وناكح المرأة في دبرها ، وناكح يده ، إلا أن يتوبوا »^(٢) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (إن اللوطي إذا مات يُمسح في قبره خنزيراً)^(٣) .

وإن الشيطان إذا رأى الذكر قد ركب الذكر هرب خشيةً من معاجلة العذاب .

وإذا ركب الذكر الذكر .. أهتزَّ العرشُ والكرسيُّ ، وتكادُ السمواتُ أن تقع على الأرض ، فتمسكُ الملائكةُ بأطرافها وتقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ سبعين مرةً حتى يسكن غضبُ الجبارِ عزَّ وجلَّ^(٤) .

وقال الحسنُ بنُ ذكوانَ : (لا تُجالسوا أولاد الأغنياء ؛ فإنَّ لهم صوراً كصورِ العذارى ، وهم أشدُّ فتنةً من النساء)^(٥) .

ودخل سفيانُ الثوريُّ رحمه الله تعالى حماماً ، فدخل عليه صبيٌّ حسنُ الوجه ظاهرُ الوضاعةِ ، فقال سفيان لأصحابه : (أخرجوه عني ، أخرجوه عني ، أرى مع كلِّ امرأةٍ شيطاناً ، ومع هذا بضعة عشر شيطاناً)^(٦) .

وذكر الشعبيُّ رحمه الله تعالى : أن وفدَ عبد القيس قدموا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم صبيٌّ حسنٌ ظاهرُ الوضاعةِ ، فأجلسه النبيُّ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣٥٧/٤) ، والترمذي (١٤٥٧) ، وابن ماجه (٢٥٦٣) .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٥٠٨٧) ، والدليمي في « الفردوس » (٣٤٩٧) ، والسمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ١٤٠) .

(٣) أخرجه عن ابن عباس مرفوعاً ابن الجوزي في « الموضوعات » (٣٠٣/٢) ، وانظر « لسان الميزان » (١٨٩/٢) .

(٤) انظر « تنزيه الشريعة » (٢٣١/٢) .

(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥٠١٤) .

(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥٠٢١) .

خلف ظهره وقال : « إنما كانت فتنة داوود من النظر »^(١) .

فإذا كان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلسه خلف ظهره وهو سيد الأولين والآخرين ، وهو معصومٌ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَإِثْمٍ ، وخاف فتنة النظرِ إلى صبيٍّ أمرَدَ ، وأجلسه خلفَ ظهرِهِ حتى لا ينظرَ إليه . . فكيف بغيره ممن ليس بمعصومٍ !؟

وقال فتح الموصلي رحمه الله تعالى : (صحبتُ ثلاثين كلهم يُعدُّونَ مِنَ الأبدال ، وكلهم يَنهونَ عن صحبة الأحدث) يعني : المردان .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : (النظرُ إلى أبناء الملوك حرامٌ ؛ لأنَّ لهم شهوةَ كشهوة النساء العذارى) .

أقول : (أبناء الملوك) ليس بقيد ، بل المراد : كلُّ مَنْ كان جميلاً حسناً ، وإنما قيَّدَ (أبناء الملوك) ؛ لأن غالب أولادهم حسان .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَبَلَ غلاماً بشهوةٍ . . عَذَّبَهُ اللهُ في نارِ جهنمِ ألفَ سنةٍ »^(٢) .

وكان الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه يمنع الأُمرد من الدخول إلى مجلسه ، فأحتال صبيٌّ حسنٌ ودخل بين الرجال ، فلمَّا علم به الإمام مالكٌ . . أخرجهُ .

وقال بعضهم : رأني الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله تعالى عنه ومعني ابن أختي وهو يمشي معي وكان صبيًّا حسناً ، فقال لي : مَنْ هذا الذي معك ؟ فقلتُ : ابنُ أختي ، قال : لا تمسِّ معه ولا تماشِهِ مرَّةً أُخرى ؛ لئلاَّ تظنَّ الناسُ بك الظنونَ .

وروي : أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام مرَّ في سياحته على نارٍ تشتعلُ على رجلٍ ، فأخذَ ماءً ليطفئها عنه ، فأنقلبت النار صبيًّا ، وأنقلب الرجلُ ناراً ، فوقفَ عيسى عليه الصلاة والسلام متعجباً مِنْ ذلك ، فسأل رَبَّهُ عزَّ وجلَّ أن يرُدَّهُما إلى حالهما أو يخبرَهُ بحالهما ، فأوحى اللهُ إليه : سلهما عن حالهما ، فرجعَ الرجلُ إلى حاله ، ورجع الصبيُّ ناراً تُحرِّقُهُ ،

(١) عزاه الحافظ ابن حجر في « تلخيص الحبير » (١٤٨/٣) إلى ابن شاهين في « الأفراد » ، وفتنة سيدنا داوود عليه الصلاة والسلام أخرجها ابن أبي شيبه في « المصنف » (٤٦٥/٧) في حديث طويل .

(٢) أخرجها ابن الجوزي في « الموضوعات » (٣٠٢/٢) .

فقال عيسى عليه الصلاة والسلام للرجل : ما أنتما ؟ فقال الرجل : يا روح الله ؛ إنِّي كنتُ في الدنيا مبتليّ بحبِّ هذا الصبيِّ ، فلمَّا كان في بعض الأيام أو الأوقات . . فعلتُ به الفاحشةَ ، فلمَّا مُتُّ ومات الصبيُّ . . صار الصبيُّ ناراً يحرقني مرّةً ، وأصير ناراً أحرقه مرّةً ، فهذا عذابنا إلى يوم القيامة يا نبيَّ الله ، فتركهما ومضى إلى حاله ، وأستعاذ بالله من ذلك .
فسأل الله تعالى العفو والعافية والحماية من الوقوع في الفواحش ، ونسأله النجاة من النار بجاه النبيِّ المختار صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو سهل - من التابعين - : (يكون في هذه الأمة قومٌ يقال لهم : اللوطيون ، على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصفاحون ، وصنف يعملون ذلك الخبيث)^(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « زنا العين النظر »^(٢) ، فلذلك بالغ الصالحون من السلف في الغضِّ والإعراض عن مجالسة المردان ؛ حذراً من فتنة النظر وخوفاً من عقوبته .
وقال بعضهم : إياكم والنظر ؛ فإنَّه يَنْقُشُ في القلب صورة المنظور إليه ، ولا حِيْلَةَ كَحِيْلَةِ عَيْنٍ كَحِيْلَةِ .

وذكر عن رجل من الصالحين : أنه نظر إلى صبيٍّ حسن الوجه وقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فجاءه سهمٌ فقلع عينه ، فبات تلك الليلة وهو مهموم بسبب ذلك ، فرأى الحق سبحانه وتعالى في منامه وهو يعاتبه بسبب نظره ، فقال : يا ربِّ ؛ إنَّما نظرتُ بعين الاعتبار والتفكر في خلقك ! فقال له الحق جلَّ وعلا : نظرتُ بعين الاعتبار فرميناك بسهم الأدب ، ولو نظرتُ بعين الشهوة . . رميناك بسهم الحرمان .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نظر إلى صبيٍّ حسنٍ بشهوةٍ . . حبسهُ الله في النار أربعين عاماً » ، فإذا كان هذا في النظر . . فكيف حال مَنْ يفعلُ الفاحشة ؟! حمانا الله تعالى من ذلك ، آمين بجاه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

وكان الربيع بن خيثم من شدَّة غضِّ بصره وإطراقه يظنُّ الناس أنه أعمى ، وكان يختلف إلى ابن مسعود رضي الله عنه مدَّة عشرين سنةً ، فإذا طرق الباب . . خرجت إليه الجارية ،

(١) أخرجه ابن الجوزي في « ذم الهوى » (١١٦/١) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) .

فتراه مطرقاً غاضباً بصره ، فترجع إلى سيدها وتقول : صديقك ذاك الأعمى قد جاء ، فكان ابن مسعود رضي الله عنه يتبسّم من قولها ، وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا نظر إليه يقول : ﴿ وَيَشْرِ الْمُحْصِتِينَ ﴾ ، أما والله لو رآك سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . لفرح بك وأحبك^(١) .

وقال محمد بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى : (كنتُ مع أستاذي أبي بكر رحمه الله تعالى ، فمرّ صبيّ حديث السنّ ، فنظرتُ إليه ، فرآني أستاذي وأنا أنظرُ إليه فقال : يا بنيّ ؛ لتجدنّ غيبها - بالكسر ؛ أي : عاقبتها - ولو بعد حين ، فبقيتُ عشرين سنةً وأنا أراعي ذلك الغيب ، فنمتُ ليلةً وأنا متفكّرٌ فيه ، فأصبحت وقد نسيت القرآن كلّهُ وقائل يقول : هلذا غيبُ تلك النظرة)^(٢) .

وقال أبو بكر الكناني رحمة الله عليه : (رأيتُ بعض أصحابنا في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : عرض عليّ سيئاتي وقال : فعلتَ كذا وكذا ؟ فقلت : نعم ، قال : وفعلتَ كذا وكذا ؟ فقلت : نعم ، قال : وفعلتَ كذا وكذا ؟ فأستحييت أن أقرّ ، فقلتُ له^(٣) : ما كان ذلك الذنب ؟ فقال : مرّ بي غلامٌ حسنُ الوجه ، فنظرتُ إليه ، فأقمتُ بين يدي الله سبعين سنةً أتصبّبُ عرقاً من خجلي منه ، ثمّ عفا عني) .

وروي عن أبي عبد الله رحمه الله تعالى : أنه رأى في المنام بعض أصحابه فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي كلّ ذنب أقررتُ به إلا ذنباً واحداً أستحييت أن أقرّ به ، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي ، فقلتُ : ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرتُ إلى شخص جميل ، فعوقبت بذلك .

وأعلم : أن اللواط حرامٌ ، أجمع المسلمون وغيرهم من أهل الملل على أنّه من الكبائر ، وأختلف في حكمه :

فعند إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه : أنّه حكمُ الزنا ، فيُرجمُ المحصنُ ، ويُجلدُ

(١) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (١٨٢/٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٤/٨ ، ٣٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (١٥١/١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠٦/٢) .

(٢) أخرجه عن أبي بكر الزقاق رحمه الله تعالى الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦٢/٣) .

(٣) أي : قال الكناني لمن رآه في منامه .

غيره مئة جلدة ويغربُّ عن وطنه فوق مسافةِ القصر ؛ وأمَّا المفعول به : فإن كان صغيراً أو مجنوناً أو مكرهاً . فلا حدَّ عليه ، وإن كان مكلفاً مختاراً . جلد وغرَّب محصناً كان أو غيره^(١) .

وعند السادة الحنفية رضي الله تعالى عنهم : أنه لا يجب به الجلد إلا إذا تكرَّر ، فيقتل على المفتي به^(٢) .

وعند الإمام أحمد ابن حنبلٍ رضي الله تعالى عنه : يتحتم قتله - وهو قول بعض فقهاءنا رضي الله تعالى عنهم - محصناً كان أو غير محصن^(٣) ؛ لحديث : « مَنْ وجدتموه يعملُ عملَ قومِ لوطٍ . . فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ بهِ »^(٤) .
وعلى هذا : فيقتل بالسيف كالمتردِّ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (يُنظرُ إلى أعلى بناءٍ في القرية فيرمى اللوطيُّ منكساً ، ثم يُتبعُ بالحجارة)^(٥) .

فصل في إحصاء اللواط

[في بيان سبب إحداث اللواط]

ذكر بعضهم : أن سبب إحداث اللواط : أن قوم لوط عليه الصلاة والسلام كانت لهم مدائن لم يكن في الأرض مثلها ، فقصدهمُ الناس فأذوهم ، فتعرَّض لهم إبليس - لعنه الله - في صورة شيخ وقال لهم : إن فعلتم بهم كذا - أي : لطمتم - نجوتم منهم ولم يعودوا يقصدونكم ، فأبوا ذلك ؛ فلما ألحَّ الناس عليهم . . قصدوهم ، فأصابوا غلماناً ، فأفحشوا فيهم ، فأستحكم ذلك فيهم ، وصار دينهم حتى صاروا يحلفون به .

وعن الكعبي : (إنَّ أوَّلَ مَنْ عَمَلَ عَمَلَ قومِ لوطٍ إبليسُ ؛ أعترضَ في صورة أمردٍ

(١) انظر « تحفة المحتاج » (١٠٣/٩ ، ١٠٤) ، و « نهاية المحتاج » (٤٢٤/٧) .

(٢) انظر « شرح فتح القدير » (٤٣/٥) .

(٣) انظر « الإنصاف » (١٧٦/١٠) .

(٤) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣٥٥/٤) ، وأبو داوود (٤٤٦٢) ، والترمذي (١٤٥٦) .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٩٤/٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٠٠٤) .

حسن ، ودعاهم إلى دبره ، فأمر الله سبحانه وتعالى السماء أن تمطر عليهم حجارة من سجيل ، وأمر الأرض أن تخسف بهم^(١) .

خاتمة

تتعلق بهذا المحل

وهي أن طريقة المُطَاوِعَةِ : صحبتهم للمردان ، ويجلسونهم خلف ظهورهم ويسمونهم بالبدايات ، وتراهم يفتخرون بذلك ، ولا يصحبون إلا الأُمرد الجميل ، مع أن طريقتهم مرضية ؛ لأنها فرعٌ من طريقة السادة الصوفية ، وإنما سموا مُطَاوِعَةً ؛ لطاعتهم لربهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه ؛ إذ شدّدوا على أنفسهم في الطاعة والعبادة ، فنالوا بذلك السيادة ، ولم يتبّعوا الرّخَصَ ، بل جعلوا في حقهم المستحبّ كالواجب ، والمكروه كالمحرّم ، والمحرّم كأنّه كُفْرٌ ، ولزموا الأدب مع سيّدهم ، فلهذا بلغوا مرادهم لما أخلصوا لربهم وداّدهم .

وأما صحبتهم للمردان : فكان في الزمن السابق لا يصحبه إلاّ العارف به وبمكائد الشيطان ، ولهذا يصير عنده بمنزلة ولده بل أعزّ .

فإن قلت : ما الحكمة في جعلهم البدايات خلف ظهورهم ؟

قلت : لشدة اجتنابهم المكروهات والمحرمات ، فجعلوهم خلف ظهورهم ؛ لأجل ألاّ ينظروا إلى وجوههم ولا يمشوهم ، ولذلك أمرهم بغضّ البصر ، وإطراق الرأس ، وخفض الأصوات ، وأرشدوهم إلى طريق الخيرات ، فإذا رأوا من الأُمرد خيراً ورشداً وسلوكاً . . أحبّوه لأجل ذلك ، وكنتموا عنه المحبّة ، ولم يُعلّموه بها حتى يكمل عقله ، ويطلع شعره في وجهه ؛ لأنّ الصغير ما دام في سنّ الصبا . . لا يوثق به ؛ لأنّه ناقصٌ سريع التغيّر ، فإذا طلع الشعر في وجهه ، وكَمَلَ عقله ، وثبت قدمه في الطريق . . أمّنوا عليه ، فأعلّموه بالمحبّة له ، ونظروا في وجهه .

(١) أخرجه بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما الحاكم في «المستدرک» (٥٦٢/٢) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣١٣/٥٠) .

وحكي عن سويد المالكي - وهو من مشايخ هذه الطريقة التي أسسوها - : أنه ربي صغيراً وأدبه خلف ظهره حتى طلعت لحيته وبدرة الشيب وما رآه قط ، فقال له يوماً : يا عم ؛ أشرت لي مشطاً ، فقال له : ما تصنع به ؟ قال : أسرح به لحيتي ، فعند ذلك نظر إليه وقدمه ، فمثل هذا الذي يجوز له أن يربي الأمد خلف ظهره رضي الله عنه .

ويجاب أيضاً عن جعلهم البدايات خلف ظهورهم : بأن النظر إلى الأمد من غير شهوة مختلف فيه ، فعلى المعتمد : أنه لا يحرم حينئذ ، سواء كان للتعليم أو غيره ، فلمعلمه أن ينظر إليه من غير شهوة ومن غير مماسّة بينهما ، وله أن يختلي به إن أمن الفتنة ؛ فلمّا كان النظر مختلفاً فيه ، وتقدم أنهم نزلوا السنّة في حقهم منزلة الواجب ، والمكروه منزلة المحرّم ، والمحرّم منزلة الكفر . . جعلوهم خلف ظهورهم ؛ حسماً للباب ، وخروجاً من الخلاف ، رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم .

ويجاب أيضاً : بأنهم إنّما فعلوا ذلك اقتداءً بفعله صلى الله عليه وسلم كما تقدم في وفد عبد القيس ، وقال : « إنّما كانت فتنة داوود من النظر »^(١) ، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان معصوماً ، فغير المعصوم أولى أن يجتنب ما يجرّ إلى الفتنة .

وأيضاً : الأمد لا بدّ له من مُرشد يُرشده ، فلمّا تعرّضوا لإرشاده . . جعلوه خلفهم ، وعلموه الخير من غير أن يمسّوه أو يناموا معه ، وإذا كانوا في سفر . . أناموه وحده ، وإذا كانوا في الحضر . . أناموه في الخلوة ، ويكون بالنهار خلفهم ، وبالليل في الخلوة وحده ، ولا ينظرون إليه حتى تطلع لحيته كما تقدم عن سويد المالكي رضي الله تعالى عنه ، فهذه طريقة المُطاوعة المرضيّة ، وعليها يُحمل قول الشيخ محمد بن داود الشربيني : (أنا صوفي سلكت جميع الطرق ، فما رأيت أحسن من طريقة المُطاوعة) اهـ

فكلّ من وُجدت فيه الأوصاف المتقدمة . . جاز له أن يربي الأمد ، وكلّ من كان خلاف ذلك . . لا يجوز له أبداً ، وإن خالف . . فهو هالك ممقوت .

ومن المخالفين الهالكين : مُطاوعة أهل هذا الزمان ؛ فإنهم مُطاوعون للشيطان ، وعاصون للرحمن ؛ لأنهم ينامون مع المردان ، ويجلسون معهم كأنهم نسوان ، ويأمرونهم

(١) تقدم تخريجه (ص ٦٦) .

بتكبيسهم وتجسيسهم ، ويجعلونهم في اجتماعهم خلف ظهورهم صورةً ، وهي في الحقيقة معانقة بالظهور والصدور وغير ذلك ، وهذا خلاف ما كان عليه المتقدمون من أهل هذه الطريقة ، فنعلم هؤلاء الأكابر ، ولكن بئسما خلفوا ؛ فقد لبس عليهم الشيطان ، وأوقعهم في الطغيان ، وقال لهم : هذه طريقة الدين ، كذب عدو الله ، بل هي طريقة الشياطين ، فإن أعتقدوا حل ما يفعلونه في هذا الزمان من القبائح مع المردان . . فقد كفروا ووجب لهم النيران .

قال القطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني : (النظر في محاسن الأمد كله شر ، ما فيه ذرة من خير) اهـ

وأقبح هذه الأمور معانقة البدايات بالظهور والصدور مع إرخاء ساتر عليهما ؛ لأن أحدهم يجد بذلك لذة وراحة عظيمة ، ويسمونها راحة الفقراء ، وهو مع ذلك يزعم أن هذه محبة الله ، وليس كما زعم ، بل هي معصية له ، تغضب الله تعالى وتوجب عقابه ، حمانا الله من كل فعل يُبعدنا عن الرحمن ، ومن كل خصلة تُرضي الشيطان ، آمين ، بجاه سيّد ولد عدنان عليه أفضل الصلاة والسلام .

[تَتِمَّة]

[في وظيفة البدايات والنهايات مع بعضهم البعض]

من وظيفة البدايات بالنهار : خدمة الفقراء ، وتفلية ثيابهم ، وغسل أيديهم ، وحمل الأباريق والنعال ، وغير ذلك ، مع غضّ أبصارهم ، وإطراق رؤوسهم ، وخفض أصواتهم ، وطلبهم الدعاء من الفقراء الكبار ، وبالليل : تهجدهم فيه على قدر نشاطهم . ومن وظيفة كبارهم معهم : تعليمهم الخير ، والشفقة عليهم ، وترغيبهم في الخصال الحميدة والأفعال السديدة ، ولين الكلام لهم ، وتأليفهم للطريق ، إلى غير ذلك مما يُرضي الرحمن ويُغضب الشيطان ، وهذا لا يكون إلا من عالم عارف رباني ؛ كالمقدمين من مشايخ أهل هذه الطريقة ، وقد أحوجنا الحال إلى الخروج عن الاختصار في هذا المقام ، نسأل الله تعالى العفو والعافية ، وأن يجيرنا من النار ، وألا يهتك أستارنا بين يديه ؛ إنه جواد كريم غفار .

ولله درُّ القائل حيث قال :

لَا تَصْحَبَنَّ أَمْرَدًا يَا ذَا النُّهَى
فَهُوَ مَحَلُّ النَّقْصِ دَوْمًا وَالْبَلَاءِ

وقال بعضهم :

لَا تَرْتَجِي أَمْرَدًا يَوْمًا عَلَى ثِقَةٍ
فَذَلِكَ دَاءٌ غُضَّالٌ لَا دَوَاءَ لَهُ

* * *

[من الرجز]

وَأَتْرُكُ هَوَاهُ وَأَرْتَجِعُ عَنْ صُحْبَتِهِ
كُلُّ الْبَلَاءِ أَصْلُهُ مِنْ فِتْنَتِهِ

[من البسيط]

مِنْ حُسْنِهِ طَامِعًا فِي الْخَصْرِ وَالْكَفْلِ
مُسْتَجَلِبُ الْهَمِّ وَالْأَسْقَامِ وَالْعَلَلِ

إِنْ تَبَدَّى تَنكَسِفُ شَمْسُ الضُّحَى وَإِذَا مَا مَاسَ يُزْرِي بِالْأَسْلِ
زَادَ إِنْ قَسَنَاهُ بِالشَّمْسِ سَنًا وَعَدَلْنَاهُ بِعُضْنٍ فَأَعْتَدَلُ^(١)

الغرض من هذين البيتين : وصف الأرمذ المذكور في البيت الذي قبلهما ، وإنما وصفه بذلك ؛ لحسنه وجماله الفائق ، حتى إنه إن تبدَّى ؛ أي : ظهر . . تنكسِفُ شمسُ الضحَى ؛ أي : تسودُ ويذهب ضوؤها - وخصَّ (الضحَى) بالذكر ؛ لأنَّ شمسَهُ أضوُّاً مِنْ غيره - وحتى إنه إذا ماس ؛ أي : حلق رأسه بالموسى . . يُزري ؛ أي : يتهاونُ بِالْأَسْلِ ، يقال : أزرى بالشيء إزرأً : تهاون به ، والأسل بالمهملة محرَكَاً : الرماح ؛ لدقَّة أطرافها ، ومنه أسلة اللسان : لطفه المُستدقُّ ، وأصل الأسل : نبات تُتخذُ منه الحُصْرُ ، شُبِّهتْ به الرماحُ ، قاله في « شرح لامية الطغرائي »^(٢) عند قوله :

[من البسيط]

فَالْحُبُّ حَيْثُ أَلْعَدَا وَالْأَسْدُ رَابِضَةٌ حَوْلَ الْكِنَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الْأَسْلِ

وفي « الأشموني على الألفية » عند قوله : (وَشَدَّ إِيَّايَ وَإِيَّاهُ أَشَدُّ) ما نصه : (وَشَدَّ « إِيَّايَ » في قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : « لِيُذَكَّ لَكُمْ - أي : لتذبح لكم - الأسلُ والرماحُ والسهامُ ، وَإِيَّايَ وَأَنْ يَحْدِفَ أَحَدُكُمْ الْأَرْنَـبَ »^(٣) ، والأصل : إِيَّايَ باعدوا عن حدفِ الأرنبِ) اهـ^(٤) ، قال في « حواشي الأشموني » : (الأسل : ما رَقَّ من الحديد ؛ كالسيف والسكين) اهـ ، ومقتضى عطف الرماح على الأسل أنه غيرها .

والمعنى هنا : إذا حلق رأسه بالموسى . . أزداد جمالاً على جمالٍ ، وزاد قتله للناظرين له على قتل الرماح أو ما رَقَّ من الحديد للمضروبين بها ، فأزرى بالرماح أو بما رَقَّ من

(١) في « الديوان » والمطبوع : (بالبر) بدل : (بالشمس) ، ولعله الأنسب ؛ لذكر الشمس سابقاً .

(٢) « غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم » للصفدي (٣٨٢/١) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبه في « المصنف » (٦٢٩/٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠/٤٤) .

(٤) « شرح الأشموني » باب التحذير والإغراء (١٩١/٣) .

الحديد ، وصارت دونه تأثيراً ، هكذا ظهر لنا ، والله أعلم^(١) .

وقد ذكر العلامة الشيرازي في « روضة القلوب » : (أَنَّهُ رَأَى بِحِمَاةِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ حَمِصٍ يُقَالُ لَهُ : ابْنُ الدَّوْرِيِّ ، وَكَانَ فَاضِلًا فِي فَنِّهِ ، وَعِنْدَهُ صَبِيانٌ يَعْلَمُهُمُ الْخَطَّ ، فَأَقْتَنَتْ بَغْلَامٌ مِنْهُمْ وَأَسْتَهَامَ بِهِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَاهُ ، فَمَنَعَهُ مِنَ الْمُضِيِّ إِلَيْهِ ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى مُؤَدِّبٍ آخَرَ وَكَانَ عَدُوًّا لَهُ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ الْخَبْرُ . . . أَرْتَاعَ لِدَلِكِ وَاشْتَدَّ بِهِ الْغَمُّ وَالْأَسْفُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِي الْغْلَامِ رُقْعَةً يَسْأَلُهُ أَنْ يَعِيدَهُ إِلَيْهِ وَيَسْتَعْفِفَهُ بِكَلَامٍ لَطِيفٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو الْغْلَامِ يَقُولُ : هِيَاهُ ؛ لَا تَطْمَعُ نَفْسُكَ بِعَوْدِ الْغْلَامِ إِلَيْكَ أَبَدًا بَعْدَ أَنْ بَلَغْنِي عَنْكَ مَا بَلَغْنِي ، وَلِئِنْ ذَكَرْتَ وَلَدِي بَعْدَ ذَلِكَ . . . رَفَعْتُكَ إِلَى السُّلْطَانِ ؛ فَلَمَّا قَرَأَ الرُّقْعَةَ . . . أَطْرَقَ سَاعَةٌ إِلَى الْأَرْضِ ، وَأَحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَوَجْهَهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يَقْطُرَ مِنْهُمَا الدَّمُ ، ثُمَّ جَاشَتْ نَفْسُهُ ، وَجَاءَهُ الْقِيَاءُ ، فَخَرَجَ إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ وَتَقَايَا دَمًا أَسْوَدَ ، وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ ، فَأَضْطَجَعَ وَالدَّمُ يَخْرُجُ مِنْ حَلْقِهِ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ، فَجَاءَهُ الطَّيِّيبُ وَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَحَكَّمَ عَلَيْهِ أَنَّ كِبْدَهُ أَنْفَطَرَتْ ، ثُمَّ عَالَجَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمْ يَنْقَطِعِ الدَّمُ ، وَمَاتَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ) اهـ

فائدة : (ما) بعد (إذا) زائدة^(٢)

وقوله : (زاد إن قسناه) أي : شَبَّهناه بالشمس (سَنًا) بالقصر ؛ أي : ضوءاً ؛ أي : زاد ضياءً على الشمس إن شَبَّهناه بها .

وقوله : (وَعَدَلْنَاهُ بَعْضِينَ فَأَعْتَدَلُ) أي : سَوَّيْنَاهُ وَأَقْمَنَاهُ مَقَامَ الْغَصَنِ فَأَعْتَدَلُ ؛ أي : أَسْتَوَى وَقَامَ مَقَامَهُ ؛ أي : أَنَّهُ مِنْ كَثْرَةِ أَعْتَدَالَ قَدَّهُ . . . يَقُومُ مَقَامَ الْغَصَنِ فِي ذَلِكَ .

وهذا التفسير الذي فسّرنا به البيتين غالبه مأخوذ من « المصباح » .

(١) لكن جاء في مادة (ماس) في كتب اللغة : أَنَّ الْمَيْسَ هُوَ التَّبَخْتَرُ فِي الْمَشْيَةِ ، وَالرِّمَاحُ الْأَسْلُ يَضْرِبُ بِهَا الْمَثَلُ بِاعْتِدَالِهَا وَاسْتِقَامَتِهَا وَدَقَّتْهَا ، فَعَلِيهِ يَكُونُ الْمَعْنَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ : أَنَّهُ إِذَا تَبَخْتَرَ وَمَشَى ، فَلِدَقَّةِ قَدِّهِ وَجَمَالِ قَوَامِهِ وَاعْتِدَالِهِ . . . أَرَزَى بِالرِّمَاحِ ، وَهَزَأَ بِهَا ، فَكَانَتْ دُونَهُ حَتَّى لَا تَكَادُ تَذَكَّرُ ، عَلَيَّ نَحْوُ قَوْلِ أَمِينِ الْجَنْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : [من البسيط]

تُزْرِي الْغَصُونَ فَيَا لَللَّهِ كَمْ هَرَأَتْ
بِضْيَاءِ مَيْسَاةٍ تَسْبِي الْعُقُولَ إِذَا
يَا قَوْمُ قَامَتْهَا الْهَيْفَاءُ بِالْأَسَلِ
مَا أَقْبَلْتُ تَنْجَلِي بِالْحُلِّيِّ وَالْحُلِّ

(٢) كما في قول الناظم : (وإذا ما ماس) .

والمقصود من كلام الناظم رحمه الله تعالى: أنه يجب التغافل والتلاهي عن الأمر الجميل جداً، الجامع للصفات الخمسة التي ذكرها في قوله: (وعن الأمر مرتجّ الكفل)، (وإن تبدئ... إلخ)، (وإذا ما ماس... إلخ)، (وإن قسناه... إلخ)، (وعدلناه... إلخ)؛ لأنه هو الذي يخاف منه الفتنة كالمراة؛ لجمال وجهه، وأعتدال قدّه، وأما غيره ممّن ليس فيه الصفات المذكورة.. فالواجب التغافل عنه أيضاً؛ لأنه تقدّم أنّه يحرم النظر إلى الأمر بشهوة وإن كان غير حسنٍ باتّفاق النويّ والرافعي^(١)، وإنّما لم يذكره الناظم؛ لأنّ الغالب عدم الافتتان به، هكذا ظهر لنا، والله أعلم.

* * *

(١) انظر (ص ٦٣) وما بعدها.

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٨

وَأَفْتِكِرْ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدُ أَمْرًا جَلِيلًا

هذا معطوف على قوله :

(وَأَلَهُ عَنِ آلَةٍ لَهُوَ أَطْرَبَتْ وَعَنِ الْأَمْرِدِ)

أي : أرح نفسك عن الاشتغال بآلة لهو وبالأمرد ، فإذا غلبت عليك نفسك ، ودعتك إلى محبة شيء من زينة الحياة الدنيا . . فأفكر^(١) وتذكر في منتهى ؛ أي : في نهاية وأخرة حُسن ذلك الشيء الذي أنت تهواه وتحبه وتميل إليه ، تجده أماً جلاً - بفتحيتين - أي : هيئاً غير عظيم ؛ لأن الدنيا فانية ، عاقبتها إلى الزوال ، فأمرها حقير ، وغنيها فقير ، وعزيزها ذليل ، فإذا تفكرت في عاقبة الشخص الذي أنت تحبه . . تجد عاقبته الموت ، ثم يصير جيفةً قدرة لا يطيق أحد الجلوس عندها ، ثم يفنى ويصير تراباً ، وكذا كل من عليها من خلق وإبل وبقر وخيل وأشجار ودور مزخرفة ، فسبحان الباقي بعد فناء خلقه !

قال تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴿ أي : هي في إعجابها لكم وذهابها كمثل غيث ؛ أي : مطر ﴾ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ ﴿ أي : الزراع ﴾ نَبَاهُ ﴿ أي : الناشء عنه ﴾ ثُمَّ يَهِيحُ ﴿ أي : يبس ﴾ فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴿ أي : فتاتاً يذهب بالرياح ﴾ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿ أي : لمن آثر الدنيا على الآخرة ﴾ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴿ أي لمن لم يؤثر الدنيا على الآخرة ﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتٌّ مِّنَ الْعُرُورِ .

وخرج بما ذكره الناظم : ما إذا كان تفكره في نهاية ما عند الله عز وجل من الملك الذي

(١) أي : تفكر ، وفي « تاج العروس » مادة (فكر) : أن (افكر) من استعمال العامة .

لا يبلى ، والنعيم الذي لا يفنى ، وما أعدَّ الله للمتقين من عباده في الجنة ممَّا لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ فِيهِ عَظِيمٌ وليس بهيِّنٌ ، بل هو من باب الاعتبار المنصوص عليه بقول الله تعالى : ﴿ فَأَعْتَبِرُوا يَأْتُوا فِي الأَبْصَرِ ﴾ .

تَنْبِيْهِ

[في الفرق بين الجَلَلِ والجَلَلِ]

قال الخليل والجوهري رحمهما الله تعالى : الأمر الجلل بضم الجيم : العظيم ، وبفتحها : الحقير^(١) ، وهذه اللفظة وقعت في بعض غزواته صلى الله عليه وسلم من امرأة قُتِلَ أبوها وابنها وزوجها في تلك الغزوة ، ورأتهم صرعى على الأرض ، ورأت النبي صلى الله عليه وسلم راكباً على فرسه ، فقالت له : يا رسول الله ؛ كلُّ شيء دونك جَلَلٌ ؛ أي : هيِّنٌ حقيرٌ ، رضي الله تعالى عنها ونفعنا بها أمين^(٢) .

فَصَائِلُ

[في معاني الهوى]

الهوى يطلق بمعنى المحبَّة ؛ كما في قول الناظم : (أنتَ تهواه) أي : تحبُّه ، وكما في قول البوصيري :

لَوْلَا أَلْهَوَى لَمْ تُرُقْ دَمْعاً عَلَى طَلِّهِ وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ أَلْبَانِ وَأَلْعَامِ
ويطلق بمعنى الباطل ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ أَلْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَطِّقُ عَنِ أَلْهَوَى ﴾ أي : بالباطل ، فـ (عن) في الآية بمعنى (الباء) .
قال بعضهم : وإنما سُمِّيَ الهوى هوىً ؛ لأنَّه يهوي بصاحبه إلى ما لا مردَّ له .

(١) الذي في « الصحاح » للجوهري مادة (جلال) ، و« العين » للخليل (١٩/٦) ، وغيرهما من كتب اللغة : أنَّ الجَلَلِ بالفتح يطلق على العظيم والحقير ، وأنه من الأضداد ، وأما بالضم : فهو جمع جُلَّى ؛ وهي الأمر العظيم ، ككِبْرِي وكِبْرٍ ، ويكون المعنى في أنَّ الجلل الأمر العظيم : تأمل في نهاية حسن الذي تهواه وتميل إليه . . تجده أمراً عظيماً مفزِعاً تنفر عنه الطباع ، على أن ما ذكره المصنف رحمه الله لا يبعد ، والله أعلم .

(٢) أخرجه الواقدي في « المغازي » (٢٩٢/١) ، والطبري في « التاريخ » (٥٣٢/٢) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣٠٢/٣) .

روى البزار عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ منجياتٌ ، وثلاثٌ مهلكاتٌ ؛ فالمنجياتُ : خشيةُ الله تعالى في السرِّ والعلانية ، والحكمُ بالعدل في الرضا والغضب ، والاقتصادُ في الغنى والفقر ، والمهلكاتُ : شحُّ مطاع ، وهوى مُتَّبِع ، وإعجابُ المرءِ برأيه » (١) .

وكان على خاتمِ بعض الحكماء مكتوب : (مَنْ غلبَ هواه على عقله . . أفتضح) .

وعن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام : (الغالب لهواه أشدُّ من الذي يفتح المدينة وحده) (٢) .

وعن حذيفة بن قتادة قال : (كنتُ في مركب ، فكسرت بنا ، فوقعت أنا وأمرأة على لوح ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : عطشنا ، فسألت الله أن يسقيها ، فنزلت عليها من السماء سلسلة فيها كوز معلقٌ فيه ماء ، فشربتُ ، فرفعتُ رأسي أنظرُ إلى السلسلة ، فرأيت رجلاً جالساً في الهواء ، فقلت : ممَّن أنت ؟ فقال : منَ الإنس ، فقلت : فما الذي بلغك هذه المنزلة ؟ قال : آثرتُ مراد الله على هواي ، فأجلسني كما تراني) (٣) .

وعن عبد الواحد بن محمد الفارسي قال : (سمعت بعض أصحابنا يقول : رأيت غرفة في الهواء وفيها رجل ، فسألته عن حاله التي بلغتهُ إلى تلك المنزلة ؟ فقال : تركتُ الهوى ، فأدخلت في الهواء) .

وقال رجل للحسن : يا أبا سعيد ؛ أيُّ الجهاد أفضل ؟ قال : جهادُك هواك .

وقيل ليحيى بن معاذ : مَنْ أصحُّ الناس عزماً ؟ فقال : الغالبُ لهواه .

ودخل خلف بن خليفة على سليمان بن عبد الملك وعنده جاريةٌ يقال لها : البدر ، من أحسن الجوارى وجهاً ، وأكملهنَّ خلقاً ، فقال سليمان لخلف : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال : أصلحَ اللهُ أمير المؤمنين ، ما رأيتُ عيناى أحسنَ منها ، فقال : خذُ بيدها ، فقال :

(١) أخرجه البزار كما في « مجمع الزوائد » (٩٦/١) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، والقضاعي في « مسنده » (٣٢٥) .

(٢) أخرجه ابن جميع في « معجم الشيوخ » (٢٢٦/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٢٦/٩) .

(٣) أخرج القصة ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٨٨/٤) .

ما كنتُ لأفعل ولا أسلبها الأميرَ وقد عرفتُ عجبَهُ بها ، فقال : خُذْهَا عَلَيَّ عَجَبِي بِهَا ؛ لِيَعْلَمَ
هَوَايَ أَنِّي غَالِبٌ لَهُ ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ :

[من البسيط]

لَقَدْ حَبَانِي وَأَعْطَانِي وَفَضَّلَنِي مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ مِنِّي سُلَيْمَانُ
أَعْطَانِي الْبَدْرَ جُوداً فِي مَحَاسِنِهَا وَالْبَدْرُ لَمْ يُعْطَهُ إِنْسٌ وَلَا جَانُ
وَلَسْتُ حَقّاً بِنَاسٍ عُرِفَهُ أَبَداً حَتَّى يُعَيِّنِي لِحُدِّ وَأَكْفَانِ^(١)

وأعلم : بأنَّ الهوى - بالقصر - هو المراد هنا ، ويجمع على : أهواء ، وأما الهواء - بالمد - :

فهو ما بين السماء والأرض ، ويجمع على : أهوية ، ويجمعهما قولُ بعضهم : [من الكامل]

جُمِعَ الْهَوَاءُ مَعَ الْهَوَى فِي أَضْلَعِي فَتَكَامَلَتْ فِي مُهْجَتِي نَارَانِ
فَقَصِرْتُ بِالْمَمْدُودِ عَنِ نَيْلِ الْمُنَى وَدُرِجْتُ بِالْمَقْصُورِ فِي أَكْفَانِي^(٢)

* * *

(١) القصة والأبيات أخرجهما الزبيدي في « أماليه » (ص ٢٢٢) ، ووقع في الأصل : أنه دخل على سليمان بن حبيب ، ولعل

الصواب ما أثبت من أنه دخل على سليمان بن عبد الملك الخليفة ، كما في « أمالي الزبيدي » .

(٢) البيتان لبليغ الدين القسطيني كما في « الوافي بالوفيات » (٥٥٦ / ١٧) ، لكن وقع البيت الثاني فيه :

فقصرت بالمقصود عن وصل الظبا ومددت بالممدود في أكفاني

وتعقبه الصفدي فقال : (لو قال : فقصرت بالممدود ، ومددت بالمقصود . . لكان أغزل وأشعر وأصنع) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٩

وَأَهْجُرِ الْخُمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتَىٰ كَيْفَ يَسْعَىٰ فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلَ^(١)

أي : أترك الخمر وتجنبها إن كنت فتى ؛ أي : شاباً قوياً حاذقاً كاملاً مستجمعاً لخصال الكمال ، وجمعه : فتية وفتيان ، كما قرىء بهما في السبع في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِفَتَىٰهِ ﴾ الآية^(٢) ، وسمى الله تعالى يوشع بن نون عليه الصلاة والسلام فتى في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهِ ﴾ ؛ لأنه كان سيِّداً عظيماً ملازماً لمن يأخذ عنه العلم .

ثم أظهر الناظم رحمه الله تعالى التعجب ممَّن أعطاه الله عزَّ وجلَّ جزءاً من العقل الذي هو أحبُّ المخلوقات إليه تعالى ، ومع ذلك يصدُرُ منه هذا الفعل الذمِّم الذي لا يصدُرُ إلاَّ من المجانين ، فقال : (كيف يسعى) أي : يذهب ويتسبَّب (في جنونٍ) أي : زوال عقلٍ (من عَقَلَ) بفتحين ؛ أي : من تدبَّر ونظَّر في العواقب ، قال في « المصباح » : (عقلتُ الشيءَ عقلاً ؛ من باب ضرب : تدبَّرتُه) اهـ

وأعلم : أنَّ حقيقة الخمر هي المتخذة من عصير العنب خاصة ، واتفق العلماء رضي الله تعالى عنهم على أنَّ هذا خمر نجس يحدُّ شاربه ويفسق ، ويكفر مستحلُّه ولو لم يسكر ، وأمَّا غيره كالمتخذ من التمر والحنطة والشعير والذرة والزبيب . . فلا يكون له حكم الخمر إلا إذا أسكر ، فحينئذ يكون نجساً ويحدُّ شاربه ويفسق ، ويكفر مستحلُّه . اهـ

وكانت مباحة في صدر الإسلام يحلُّ تناولها لكلِّ أحد كسائر المباحات ، ولمَّا حرَّمها الله تعالى . . سلب منها جميع المنافع .

قال البغوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الآية ما نصه : (وجملة القول على تحريم الخمر : أنَّ الله أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة ، [وهي] :

(١) رواية « الديوان » تأخير هذا البيت عن الذي بعده .

(٢) قرأ حفص وحزمة والكسائي من السبعة ، وخلف من العشرة : ﴿ وَقَالَ لِفَتَىٰهِ ﴾ ، وقرأ الباقون : ﴿ وَقَالَ لِفَتَىٰهِ ﴾ .

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتُخَذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ ، فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال يومئذ ؛ ثم إنَّ عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار رضي الله عنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ؛ أفتنا في الخمر والميسر ؛ فإنَّهما مذهبة للعقل مسلبة للمال ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ، فتركها قوم لقوله : ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ، وشربها قوم لقوله : ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾^(١) ، إلى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً ، فدعا أناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتاهم بخمر ، فشربوا وسكروا ، وحضرت صلاة المغرب ، وتقدم بعضهم ليصلي بهم ، فقرأ : « قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون » بحذف « لا » النافية ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ، فحرم الشكر في أوقات الصلاة ؛ فلما نزلت هذه الآية . . تركها قوم وقالوا : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة ، وتركها قوم في أوقات الصلاة ، وشربوها في غير أوقاتها حتى كان الرجلُ يشرب بعد صلاة العشاء ، فيصبح وقد زال عنه السكر ، ويشرب بعد صلاة الصبح ، فيصحو إذا جاء وقت الظهر^(٢) ، وأتخذ عتبان بن مالك طعاماً ودعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص ، وكان قد شوى لهم رأس بعير ، فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم ، ثم إنَّهم أفتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار ، فأنشد سعد قصيدة فيها هجواً للأنصار وفخرٌ لقومه ، فأخذ رجل من الأنصار لخي البعير ، فضرب به رأس سعد ، فشجّه شجّة موضحة ، فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الأنصاري ، فقال عمر : اللهم ؛ بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فأنزل الله تعالى تحريم الخمر في « سورة المائدة » في قوله تعالى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْمِنُونَ﴾ وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام ، فقال عمر : انتهينا يا ربّ^(٣) اهـ^(٤)

- (١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (١٤٣/٤) ، وأبو داود (٣٦٧٠) ، والترمذي (٣٠٤٩) .
- (٢) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (١٤٢/٤) ، وأبو داود (٣٦٧١) ، والترمذي (٣٠٢٦) .
- (٣) أخرجه مسلم (١٧٤٨) ، وابن حبان (٦٩٩٢) ، والبيهقي (٢٨٥/٨) .
- (٤) « تفسير البغوي » (٢٥٥/١) .

وفي « الخازن » عند تفسير هذه الآية : (عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شرب الخمر . . لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب . . تاب الله عليه ، فإذا عاد . . لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب . . تاب الله عليه ، فإن عاد . . لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب . . لم يتب الله عليه ، وسقاه من نهر الخَبال » ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن ؛ وما نهر الخَبال ؟ قال : صديد أهل النار .

أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن (١) .

وعن ابن عمر أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله الخمر وشاربها وساقبها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » أخرجه أبو داود (٢) .

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب الخامس عشر ما نصه : (عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُجاء بشارب الخمر يوم القيامة مسوداً وجهه ، مزرقة عيناه ، خارجاً لسانه على صدره ، يسيل لعابُه ، يتقدَّره كلُّ مَنْ رآه ، فلا تسلموا على شاربِي الخمر ، ولا تعودوهم إذا مرضوا ، ولا تصلُّوا عليهم إذا ماتوا » (٣) .

أقول : هذا محمول على المستحلِّ لها ، والله أعلم .

وقال كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه : « لَأَنْ أَشْرَبَ قَدْحاً مِنْ نَارِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَشْرَبَ قَدْحاً مِنْ خَمْرٍ » .

(١) « سنن الترمذي » (١٨٦٢) ، وأخرجه بنحوه أحمد (١٨٩/٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وعنه أيضاً ابن حبان (٥٣٥٧) ، والحاكم في « المستدرک » (١٤٦/٤) ، والنسائي (٣١٧/٨) ، وابن ماجه (٣٣٧٧) ، وأحمد (١٧٦/٢) ، لكن بدون قوله : « فإن تاب . . لم يتب الله عليه » ، وكذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، وقد قال السندي - رحمه الله - عنه : (وهذا مشكل ، إلا أن يراد بعدم قبول التوبة : أنه لا يوفق للتوبة غالباً ، والله تعالى أعلم) ، وقال أبو بكر ابن العربي رحمه الله في « العارضة » (٥٣/٨) : (وهذا مما لم يثبت ، ولا يعول عليه ، فإن الله قد مدَّ التوبة إلى المعاينة عند الموت ، وثبت الخبر والإجماع على قبولها قطعاً إلى ذلك الحدِّ ، فهذا الخبر وأمثاله لا يلتفت إليه) .

(٢) « تفسير الخازن » (١٤٧/١) ، وانظر حديث أبي داود في « سننه » (٣٦٧٤) .

(٣) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٢١٤/٢) ، والديلمي في « الفردوس » (٧٤٦٥) ، ووقع في المخطوط : عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كلُّ مسكرٍ حرامٌ ، وكلُّ مسكرٍ خمرٌ ، فمن شربَ الخمرَ في الدنيا ومات وهو مدمنها ولم يتب منها . . لم يشربها في الآخرة » (١) .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أسكر كثيرةً . . فقليله حرامٌ » (٢) .

وعن الزهري رضي الله عنه : أن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قام خطيباً فقال : « يا أيها الناس ؛ أتقوا الخمرَ ؛ فإنها أمُّ الخبائث ، وإن رجلاً ممَّن كان قبلكم مِنَ العُبَاد ، وكان يختلف إلى مسجده ، فلقينته امرأةٌ سوءٍ ، فأمرت جاريتها ، فأدخلته المنزل وأغلقت الباب ، وعندها خمرٌ وصبيٌّ ، فقالت : لا تفارقني حتى تشرب كأساً من هذا ، أو تواقني ، أو تقتل هذا الصبي ، وإلا . . صحتُ وقلتُ : هذا دخلَ عليَّ في بيتي ، فمن الذي يصدِّقُك ؟! فقال الرجل : أمَّا الفاحشةُ . . فلا آتيها ، وأمَّا النفسُ . . فلا أقتلها ، فشرَب كأساً مِنَ الخمرة ، والله ؛ ما برحَ حتى واقعَ المرأةَ وقتلَ الصبي ، فقال عثمان رضي الله عنه : فأجنبوها ؛ فإنها أمُّ الخبائث ، وإنه - والله - لا يجتمع الإيمانُ والخمرُ في قلب رجلٍ . . إلاَّ يوشكُ أن يُذهَبَ أحدهما الآخرُ » (٣) يعني : أن شارب الخمر يجري على لسانه كلمة الكفر ، فيُخاف عليه أن يقولها عند الموت ، فيخرج من الدنيا على الكفر ، فيبقى في حسرةٍ وندامة .

وروي في بعض الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يخرج يوم القيامة شارب الخمر من قبره وهو أنتنٌ مِنَ الجيفة ، والكوزُ معلقٌ في عنقه ، والقدحُ بيده ، ويملاً ما بين جلده ولحمه حيات وعقارب ، ويلبس نعلًا يغلي منها رأسه ، ويجد قبره حفرةً من حفرة النار ، ويكون في النار قرينَ فرعون وهامان » (٤) .

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) ، وابن حبان (٥٣٦٦) ، وأبو داوود (٣٦٧٩) ، والترمذي (١٨٦١) .

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٦٨١) ، والترمذي (١٨٦٥) ، وابن ماجه (٣٣٩٣) .

(٣) أخرجه النسائي (٣١٥/٨) ، والبيهقي (٢٨٧/٨) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٣٦/٩) .

(٤) يشهد لحاله تلك - أن الكوز معلق في عنقه ، والقدح بيده - ما في « صحيح مسلم » (٢٨٧٨) وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » ، وما في « مستدرک الحاكم » (١٤٤/٢) ، وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات على مرتبة من هذه المراتب . . بعث عليها يوم القيامة » .

وأعلم : أن في شربها عشر خصال مذمومة :

أولها : إذا شربها يصير بمنزلة المجنون ، ويصير مضحكة للصبيان ، ومذموماً عند العقلاء ، كما ذكر عن ابن أبي الدنيا أنه قال : رأيت سكران في بعض سكك بغداد يبول ويمسح بثوبه^(١) ويقول : اللهم ؛ أجعلني من التوابين وأجعلني من المتطهرين .

وذكر : أن سكران تقياً في الطريق ، فجاء كلب فجعل يلحس فاه وهو يقول : يا سيدي ؛ حاشاك ، لا تفسد المنديل بارك الله فيك ، ثم إن الكلب رفع رجله وبال في وجهه وهو يقول : وماء جار .

الثانية : أنها مذهبة للعقل ، متلفة للمال ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : « اللهم ؛ أرنا رأيك في الخمر ؛ فإنها متلفة للمال ، مذهبة للعقل » .

الثالثة : أن شربها سبب للعداوة بين الإخوان والأصدقاء والناس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ ، وهو القمار .

الرابعة : أن شربها يمنع من ذكر الله تعالى ومن الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ .

الخامسة : أن شربها يحمل على الزنا ، وعلى طلاق أمراته وهو لا يدري .

السادسة : أنها مفتاح كل شر ؛ لأنه إذا شرب الخمر . . سهل عليه جميع المعاصي .

السابعة : أن شربها يؤدي الحفظ الكرام بالرائحة الكريهة .

الثامنة : أن شاربها أوجب على نفسه ثمانين جلدة ، فإن لم يضرب في الدنيا . . ضرب في الآخرة بسياط من نار على رؤوس الأشهاد ، والناس ينظرون إليه والآباء والأصدقاء .

التاسعة : أنه أغلق باب السماء على نفسه ، فلا ترفع حسناته ولا دعاؤه أربعين يوماً .

العاشرة : أنه مخاطر بنفسه ؛ لأنه يخاف عليه أن يُنزع الإيمان منه عند موته .

(١) وقع في « تنبيه الغافلين » (ص ١٤٨) بدل قوله : (ويمسح بثوبه) : (وهو يتمسح ببوله) .

وأما العقوبات التي له في الآخرة : فإنَّها لا تحصى ؛ كشرِّب الحميم ، والزَّقُّوم ، وفوت الثواب .

وعن أسماء بنت زيد رضي الله تعالى عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ شَرِبَ الخمرَ فجعلت في بطنه . . لم يقبلِ اللهُ منه صلاةَ سبعةِ أيَّامٍ ، فإنَّ هِيَ أذهبت عقلَهُ . . لم يقبلِ اللهُ منه صلاةَ أربعينَ يوماً » (١) .

وروي عن بعض الصحابة أنه قال : « مَنْ زَوَّجَ ابنتَهُ لشاربِ الخمرِ . . فكأنما ساقها إلى الزنا » معناه : أنَّ شاربِ الخمرِ يجري الطلاق على لسانه ، فربَّما حرِّمت عليه أمراته وهو لا يشعر .

وروي عن ابن مسعود أنه قال : « إذا مات شاربِ الخمرِ . . فأدفنوه ، ثم أجلسوني ، ثم أنبشوه ، فإن لم تجدوه مصروفاً عن القبلة . . فأقتلوني » .

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حلف ربي بعزته ؛ لا يشرب عبدٌ من عبيدي الخمر في الدنيا . . إلَّا حرَّمتها عليه في الآخرة ، ولا يتركها عبدٌ من عبيدي في الدنيا . . إلَّا شربها في حظيرة القدس » ، قيل : وما حظيرة القدس ؟ قال : « الجنة » (٢) .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « حقُّ على الله ألا يشرب الخمر عبدٌ من عبيده في الدنيا . . إلَّا شرب من طينة الخبال » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما طينة الخبال ؟ قال : « صديدُ أهل النار » (٣) .

وروي عن ابن عباس أنه قال : « لمَّا نزلت آية تحريم الخمر . . قالوا : كيف إخواننا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ

(١) أخرجه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١١٠/١) ، والسمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ١٥٢) مطولاً ، وأصله عند أحمد (٤٦٠/٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٦٨/٢٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٨٥٨٧) بلفظ : « إنه لا يلج حظيرة القدس مدمن خمر » ، ولفظ مقارب للمتن أخرجه عن أبي أمامة رضي الله عنه أحمد (٢٥٧/٥) ، والطيالسي في « مسنده » (١٥٤/١) ، والطبراني في « الكبير » (١٩٧/٨) .

(٣) سبق تخريجه (ص ٨٣) .

فِيمَا طَعُمُوا ﴿ الآية ﴾^(١) ؛ يعني : لا إثم على الذين شربوا الخمر قبل تحريمها ، والله أعلم^(٢) .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَزِيدَ . . فعليه بالكتاب المذكور^(٣) .

فصل ثالث

[في بيان حكم شرب الدخان]

ذكر سيدي علي الأجهوري المالكي في « غاية البيان لحلِّ شُرْبِ ما لا يغيِّب العقل من الدخان » نقلاً عن الشيخ خليل ما نصُّه : (قاعدةٌ تنفع الفقيه يعرف بها الفرق بين المسكر والمفسد والمرقد ؛ فالمسكر : ما غيَّب العقل دون الحواس مع نشأة^(٤) وطرب وفرح ، والمفسد : ما غيَّب العقل دون الحواس لا مع نشأة وطرب وفرح ، والمرقد : ما غيَّب العقل والحواس .

وينبني على الإسكار ثلاثة أحكام : الحدُّ ، والنجاسة ، وتحريم القليل .

إذا تقرَّر ذلك . . فللمتأخِّرين في الحشيشة قولان :

قيل : إنَّها مُسكرة ، وبه قال الشيخ عبد الله المنوفي ، قال : لأنَّ رأينا مَنْ يتعاطاها يبيع أمواله لأجلها ، فلولا أنَّ لهم فيها طرباً . . لَمَا فعلوا ذلك ، قلت : وبهذا قال الزركشي من الشافعية ، فقال : لا يجوز من الحشيشة لا قليل ولا كثير .

وقيل : إنَّها من المفسدات ، وصحَّ هذا القول الشيخ أبو الحسن في « شرح المدونة » ، والعلامة ابن مرزوق ، والشهاب القرافي^(٥) ، وتبعه عليه المحققون ؛ لأنَّ المتعاطين لها لا يميلون إلى القتال والنصرة ، بل عليهم الذلَّة والمسكنة ، قلت : وبهذا قال ابن دقيق العيد من الشافعية ، فقال : « والأفيون - وهو لبن الخشخاش - أقوى فعلاً من الحشيشة ؛ لأنَّ القليل منه يسكر مع أنَّه طاهر بالإجماع ، وكذلك الحشيشة طاهرة » .

(١) أخرجه الحاكم في « المستدك » (١٤٣/٤) ، والترمذي (٣٠٥٢) ، وأحمد (٢٣٤/١) .

(٢) « تنبيه الغافلين » (ص ١٤٥-١٥٤) .

(٣) أي : كتاب « تنبيه الغافلين » للسمرقندي .

(٤) النشأة : النشوة ، وهي بالواو أفصح من الهمز ، وهي : الشدة والقوة والنشاط .

(٥) انظر « الفروق » (٣٦١/١) .

وقال النووي في « شرح المذهب » : « لا يحرم أكل القليل الذي لا يسكر من الحشيشة ، بخلاف الخمر ؛ فيحرم قليلها الذي لا يسكر » اهـ^(١)

ومثل الحشيشة : البنج والأفيون ، فيجوز أكل القليل الذي لا يسكر من الثلاثة ، وأما الواصل إلى التأثير في العقل والحواس منها . . فحرام^(٢) .

ثم قال : إذا تقرر هذا . . فنقول : شرب الدخان المعروف ليس ممّا يغيّب العقل أصلاً ، وليس بنجس ، وما كان كذلك . . لم يحرم استعماله لذاته ، بل لما يعرض عنه من ضرر ونحوه ، فمن لم يضره . . لم يحرم عليه ، ومن ضره بإخبار عارف يوثق به أو بتجربة في نفسه . . حرم عليه ، وقد جرى الخلاف في الأشياء التي لم يرد في الشرع حكمها ، والمرجح منه : تحريم الضارّ دون غيره ؛ وأنت خبير بأنّ ما يحصل منه لبعض مبتدئي شربه من الفتور ، كما يحصل لمن ينزل في الماء الحارّ ، أو لمن يشرب مسهلاً . . ليس من تغييب العقل في شيء كما يظنّه بعض من لا معرفة له ، وإن سلّم أنّه ممّا يغيّب العقل . . فليس من المسكر قطعاً ؛ لأنّه ليس مع نشأة وفرح كما علم ، وحينئذ : فيجوز استعماله لمن لا يغيّب عقله ، كأستعمال الأفيون لمن لا يغيّب عقله ، وهذا يختلف باختلاف الأمزجة والقلة والكثرة ، وقد يغيّب عقل شخص ولا يغيّب عقل آخر ، وقد يغيّب منه استعمال الكثير دون القليل ، فلا يسع عاقلاً أن يقول : إنّ حرام لذاته مطلقاً ، إلّا إذا كان جاهلاً أو مكابراً معانداً ؛ فإنّه بعد الوقوف على كلام أهل المذهب ومعرفته . . يصير الحكم بحلّ ما لا يغيّب العقل منه لذاته من قسم البديهي الذي لا يسع عاقلاً إنكاره .

ولنذكره بصورة الشكل الأوّل من القياس الذي هو بديهي الإنتاج فنقول : إنّ شرب الدخان على الوجه المذكور لا يغيّب العقل مع نشأة وفرح وهو طاهر ، وكل ما كان كذلك يجوز استعمال القدر الذي لا يغيّب العقل منه ، فشرّب الدخان يجوز استعمال القدر الذي

(١) عبارة الإمام النووي رحمه الله تعالى في « المجموع » (٩/٣) : (وأما ما يزيل العقل من غير الأشربة والأدوية كالبنج وهذه الحشيشة المعروفة . . فحكمه حكم الخمر في التحريم ووجوب قضاء الصلوات ويجب فيه التعزير دون الحد ، والله أعلم) .

(٢) انظر « تحفة المحتاج » (٢٨٩/١) (١٦٨/٩) ، و« الإنصاف » (٢٢٨/١٠) ، و« حاشية الدسوقي » (٤٩/١) (٣٥٢/٤) ، و« حاشية ابن عابدين » (١٣٨/١٢) ، و« الزواجر » (٣٥٤/١) (٢٦٣/٢) ، و« الفتاوى الفقهية الكبرى » (٢٢٣/٤) لابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى .

لا يغيب العقل منه ، فالصغرى بيّنة ؛ إذ هي من الوجدانيات والمشاهدات ؛ والكبرى دليلها ما سبق من كلام الأئمة ، والنتيجة بديهية ، فمنكرها منكر البديهي .

فإن قلت : قولك : إن الدخان المذكور طاهر . . ممنوع ؛ لأنه يُبَلُّ بالخمير .

قلت : إن تحقّق هذا . . فحرمته لأمر عارض لا لذاته ، وإن لم يتحقّق ذلك . . فالأصل الطهارة ، وهذا - على فرض صحته - إنّما هو فيما يأتي من بلاد النصارى ونحوها ؛ وأمّا ما يأتي من بلاد التكرور ونحوها . . فهو محقّق السّلامة من هذا ، على أن ابن رُشدٍ جازمٌ بطهارة دخان النجس^(١) .

فإن قلت : أستخدم هذا سرف ، وهو حرام .

قلت : صرف المال في المباحات على هذا الوجه ليس بسرف .

فإن قلت : هو مضرٌّ ، فيحرم لضرره .

قلت : إن تحقّق هذا . . فحرمته لأمر عارض كما سبق ، فيحرم على من يضره خاصة دون غيره ، ودعوى أنه مضرٌّ مطلقاً دعوى بلا دليل ، كيف وقد وجد نفعه بالمشاهدة في بعض الأمراض ؛ كإزالة الطحال ؟!

هذا ؛ وقد أفتى العلامة الشيخ عبد الله بن العلامة الشيخ محمد النحريري الحنفي بأنّ شرب الدخان إنّما يحرم على من يضره بإخبار طيب عارف مسلم يوثق به ، أو بتجربة ، وإلا . . فهو حلال . اهـ

وأفتى مرّة أخرى على سؤالٍ رُفِعَ إليه بأنه لا يحرم إلا على من يغيب عقله أو يضره .

ونصّ السؤال : ما قولكم - رضي الله عنكم - في شرب الدخان الحادث في هذا الزمان ، هل يحرم على من لا يغيب عقله ولا يضر جسده ، وهل ورد حديث في ذمّه ولو ضعيفاً أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

ونصّ الجواب : « الحمد لله ربّ العالمين ، ربّ زدني علماً ، لا يحرم إلا على من

(١) وهو ما ذهب إليه الحنفية في الصحيح ، والمعتمد عند المالكية ، واختيار بعض من متأخري الشافعية ، وغير ظاهر المذهب عند الحنابلة . « الموسوعة الفقهية » (١١٧ / ٢) .

يَغِيْبُ عَقْلَهُ أَوْ يَضْرِبُهُ ، وَمَنْ لَا . . فلا ، وَأَمَّا وَرُودُ حَدِيثٍ فِي شَأْنِ ذَلِكَ . . فغير منقول في شيء مِمَّا وَقَفْنَا عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِ الْحَدِيثِ ، لَا عَلَى طَرِيقِ الصَّحَّةِ ، وَلَا عَلَى طَرِيقِ الضَّعْفِ ، بَلْ وَلَا عَلَى طَرِيقِ الْوَضْعِ مِمَّنْ أَلْتَزَمَ ذِكْرَ الْمَوْضُوعَاتِ ؛ وَأَمَّا مَا يُنْقَلُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ . . فَهُوَ مِنْ أَكَاذِيبِ أَهْلِ عَصْرِنَا ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ . وَكُتِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّحْرِيُّ الْحَنْفِيُّ حَامِداً مُصْلِياً .

وَأَفْتَى شَيْخُ الشَّافِعِيَّةِ فِي زَمَنِ الشَّيْخِ عَلِيِّ الرَّيَّادِيِّ عَلَى سَوْأَلِ رُفْعٍ إِلَيْهِ : أَنَّهُ يَحْرَمُ شَرْبَهُ لِمَنْ يَغِيْبُ عَقْلَهُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَكَذَا أَفَادَهُ الشَّيْخُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ تَعَالَى الْعَلَامَةُ عَبْدُ الرَّؤُوفِ الْمُنَاوِي الشَّافِعِيُّ .

وَكَذَلِكَ الشَّيْخُ الْفَقِيهَ الْمُتَقَنَ الْمُحَرَّرَ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ الشُّوْبَرِيَّ الشَّافِعِيَّ ، وَنَصُّ مَا كُتِبَ : « لَيْسَ شَرْبُ الدِّخَانِ حَرَاماً لِذَاتِهِ ، بَلْ هُوَ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمُبَاحَاتِ ، وَدَعْوَى كَوْنِهِ حَرَاماً لِذَاتِهِ مِنْ الدَّعَاوِي الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا مَنْشُؤُهَا إِظْهَارُ الْمَخَالَفَةِ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازَفَةِ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ . وَكُتِبَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الشُّوْبَرِيَّ الشَّافِعِيُّ » اهـ

وَقد أَفَادَ ذَلِكَ الْعَالِمَ الْكَامِلَ الشَّيْخَ مَرْعِيَّ الْحَنْبَلِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ؛ فَإِنَّهُ كُتِبَ عَلَى سَوْأَلٍ يَتَضَمَّنُ حَكْمَ شَرْبِ الدِّخَانِ الْمَذْكُورِ مَا نَصُّهُ : « شَرْبُهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ لِذَاتِهِ حَيْثُ لَمْ يَتَرْتَبْ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ ، بَلْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ شَرْبِ دِخَانِ النَّارِ الَّتِي لَمْ يَنْفَخْهَا نَافِخٌ ، وَبِاتِّفَاقٍ لَا قَائِلَ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ ، وَلَا تَقْتَضِي قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ تَحْرِيمَ شَرْبِ الدِّخَانِ الْمَذْكُورِ ؛ وَلَا شَبَهَةٌ أَنَّهُ مِنَ الْبَدْعِ ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْبَدْعَ الْحَادِثَةَ تُعْرَضُ عَلَى قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ ؛ فَإِنْ أَشْبَهَتْ الْمُبَاحَ . . فَمُبَاحَةٌ ، أَوْ الْحَرَامَ . . فَمَحْرَمَةٌ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَحْكَامِ ، وَإِذَا تَدَبَّرَ الْعَاقِلُ أَمْرَ الدِّخَانِ . . وَجَدَهُ مَلْحَقاً بِالْبَدْعِ الْمُبَاحَةِ إِنْ لَمْ يَتَرْتَبْ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ ، وَلَمْ يَرِدْ فِي ذِمَّةِ حَدِيثٍ عِنْدَ فُقَهَاءِ الْحَنْبَلَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَكُتِبَ الْفَقِيرُ مَرْعِيَّ الْحَنْبَلِيُّ الْمَقْدِسِيُّ .

وَأَفْتَى بِذَلِكَ الشَّيْخَ الْعَلَامَةَ الْعَارِفَ بِاللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخَ أَحْمَدَ الْمَالِكِيَّ ، وَنَصُّ مَا كُتِبَ : « الدِّخَانُ الْمَذْكُورُ حَرَامٌ لِمَنْ يَغِيْبُ عَقْلَهُ أَوْ يُؤْذِي جَسَدَهُ إِذَا أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ طَيِّبٌ عَارِفٌ يُوَثِّقُ بِهِ ، أَوْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ بِتَجْرِبَةٍ ، وَإِلَّا . . فَهُوَ غَيْرُ حَرَامٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ » اهـ

وأما ما يورد من الأحاديث المتعلقة بدمه . فهو باطل لا أصل له ، وقد ذكر الشيخ العلامة عبد الرؤوف المناوي المذكور : أنه ورد عليه أسئلة كثيرة تشتمل على أحاديث في ذم الدخان لا أصل لها ، وأنه لم يوجد حديث بدمه أصلاً ، والله أعلم .

فقد اتضح لك أن شرب ما لا يعيب العقل من الدخان غير محرّم لذاته باتفاق المذاهب الأربعة .

وإذا ثبت هذا : فلا يحرم بمنع ولي الأمر على من علم أنتفاعه به ولم يغيبه ؛ لأنه حينئذ صار مطلوباً بأستعماله ، فترك أستعماله ترك لما طلب منه ، وطاعة الإمام لا تجب في مثل هذا على أحد القولين الآتين ، وكذا إن لم يعلم ذلك ولم يضره ولم يغيب عقله إن علم أن سبب منع ولي الأمر من أستعماله أعتقاد حرمة ، وإن علم أن سبب المنع من أستعماله مصلحة أخرى مع أعتقاد إباحته . . حرم ؛ لأنه تجب طاعة السلطان في غير المعصية ، فإذا منع من مباح . . وجبت طاعته ، وإن لم يعلم سبب ذلك . . فإنه يُحمل على الأوّل ؛ لأنّ المظنون بل المتحقّق : أنه لا يمنع الناس من المباح الذي لا يعتد حرمة ، على أنه قد يقال : إن منع الإمام من المباح لا يعمل به إلا إذا كان مذهبه ذلك .

وأفتى الشيخ عبد الله الحنفي المذكور بأن منع الإمام من المباح لغو لا يوجب حرمة ، وليس له منع الناس منه .

وأفتى العلامة ابن قاسم الشافعي بأن منع الإمام من المباح إنّما يوجب المنع ظاهراً فقط ، ونص ما كتبه : « نهى الإمام يمنع ارتكاب المنهي عنه وإن كان مباحاً على ظاهر كلام أصحابنا ، ويكفي الانكفاف ظاهراً » (١) .

وهذا آخر ما أردنا إيراده من « رسالة سيدي علي الأجهوري » المذكور رحمه الله .

(١) داعي كلامه في وجوب طاعة أمر السلطان ووقتها هو الرد على ما استدل به من قال بتحريم الدخان ؛ وهو أنه صدر أمر سلطاني من الخليفة العثماني في وقته بناء على فتاوى علماء عصره بمنع استعمال الدخان ومعاقبة شاربيه ، وحرق ما وجد منه ، فيعتبر من وجوه تحريمه : الخروج عن طاعة السلطان ، فإن امتثال أمره واجب في غير ما أجمع على تحريمه ، ومخالفته محرمة . « الموسوعة الفقهية » (١٠٤/١٠) .

[في بيان حكم أحاديث نقلت في شرب الدخان]

ذكر الزرقانيُّ على « العزية » ما نصَّه : (سئل سيدي علي الأجهوري عن الدخان ، وأنَّ شخصاً ينقل فيه أحاديث ؛ وهي : « إِيَّاكُمْ وَالْخَمْرَ وَالْخَضِرَةَ » ، وأنَّ حذيفة قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى شجرة ، فهزَّ رأسه ، فقلت : يا رسول الله ؛ لم هزيت^(١) رأسك ؟ فقال : « يأتي ناس في آخر الزمان يشربون من أوراق هذه الشجرة ، ويصلُّون وهم سُكَّارِي ، أولئك هم الأشرار ، هم بريئون منِّي ، والله بريء منهم » ، وعن عليٍّ : « مَنْ شربها.. فهو في النار أبداً ، ورفيقه إبليس ، فلا تعانقوا شارب الدخان ولا تصافحوه ولا تسلموا عليه ؛ فإنه ليس من أمّتي » ، وفي خبر : « إنَّهم من أهل الشمال ، وهو شراب الأشقياء ، وهي شجرة خلقت من بول إبليس حين سمع قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ الآية ، فدُهِسَ فبال ، فخلقت من بوله » ، بيَّنوا لنا الجواب عن هذه الأحاديث ، وهل هي واردة ؟ وماذا يترتَّب على رآويها بالكذب ؟ وماذا يلزمه حيث نفى الإيمان والإسلام عن شاربيها من غير أصل ؟ وهل يحرم استعماله أم لا ؟

فأجاب بما نصَّه : دعوى أنَّ هذه الأحاديث واردة في الدخان كذبٌ وأفتراء كما بيَّنه الحفاظ الأعيان ، وركاكَةُ تلك الألفاظ دالَّةٌ أيضاً على ذلك ، قال الربيع بن خثيم : « إنَّ للحديث ضوئاً كضوء النهار ، ولغيره ظلمةٌ كظلمة الليل »^(٢) ، ومن كذب عليه صلى الله عليه وسلم متعمداً.. فهو في النار ، كما في خبر « الصحيحين » : « مَنْ كذب عليَّ متعمداً.. فليتبوأ مقعده من النار »^(٣) ، والكذب عليه صلى الله عليه وسلم كبيرة إجماعاً حتى في الترغيب والترهيب ، ولا التفات لقول إمام الحرمين بتكفير الكاذب عليه ، ولا لمن شدَّ فجوزه في الترغيب والترهيب ، ويلزمه التعزيرُ اللائق بحاله بحسب اجتهاد الحاكم ؛ بسبب

(١) الصحيح : (هزرت) ، وهذا تعبير ركيك من أدلة وضع الحديث كما سيأتي بعد قليل .

(٢) أخرجه هناد في « الزهد » (٢٩٣/١) .

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧) ، ومسلم (٣) .

كذبه على الوجه المذكور ، وبنفيه الإيمان والإسلام عن شاربه ، ولا يحرمُ استعماله إلا لمن يغيبُ عقله ، أو يضرُّه في جسده ، أو يؤدِّي استعماله إلى ترك واجب عليه ؛ كنفقة مَنْ تلزمه نفقته ، أو تأخير الصلاة عن وقتها ، أو نحو ذلك ، والله أعلم .

وسئل أيضاً عن جواز بيع الأفيون ونحوه ، فأجاب بما نصُّه : « يجوز بيع الأفيون ونحوه من المفسدات التي لا تغيبُ العقل لا مع نشأة وطرب لمن يأكل منه القدر الذي لا يغيب عقله ، وكذا لمن اعتاد أكله حتى صار يحصل له الضرر الشديد بالترك ، وكذا لمن يستعمله في غير الأكل من الأدوية ونحوها ، ثم قال : وأما بيع العشب المسمَّى بالدخان في هذا الزمان - وإن كان اسمه في كتب الطبِّ : الطَّبَّاق ، بكسر الطاء المهملة وفتح الموحدة المشددة - : فلا يمتنع بيعه إلا لمن تحقَّق أو غلب على الظنُّ أنه إذا استعمله . . غيَّب عقله ، وهو نادرٌ جداً كما هو مشاهد » (١) اهـ

* * *

(١) قد ذهب إلى القول بإباحة الدخان غير العلامة علي الأجهوري من المالكية : الدسوقي ، والصاوي ، والأمير ، وذهب إليه من الشافعية : الحفني ، والحلي ، والرشيدي ، والشبراملسي ، والبابلي ، وعبد القادر الطبري المكي ، وله رسالة تسمى : « رفع الاشتباك عن تناول التباك » ، ومن الحنفية : الشيخ عبد الغني النابلسي ، وألف فيه رسالة : « الصلح بين الإخوان في إباحتهم شرب الدخان » ، وصاحب « الدر المختار » ، وابن عابدين ، والحموي ، ومن الحنابلة : الكرعي ، وله رسالة : « البرهان في شأن شرب الدخان » ، والشوكاني . علماً أن جميع من قال بإباحة الدخان أو بکراهته قيده بعدم الضرر وتغييب العقل وإيذاء الجسد ، وأن يكون - إن وجد - بإخبار طبيب عارف يوثق به ، وعليه فينضم القائلون بإباحته إلى جمع العلماء المعاصرين ، والكثرة من المتأخرين القائلين بتحريمه ؛ كالسنهوري واللقاني ، وله : « نصيحة الإخوان باجتناب الدخان » ، والفكون - وألف في ذلك - وابن حمدون وغيرهم من المالكية ، والقلبي - وألف في ذلك - وابن علان وله : « إعلام الإخوان بتحريم الدخان » ونجم الدين الغزي وغيرهم من الشافعية ، والشرنبلالي والحصكفي واللكنوي - وله : « ترويح الجنان بتشريح حكم شرب الدخان » و« زجر أرباب الريان عن شرب الدخان » - والمسيري من الحنفية ، والبهوتي وبعض علماء نجد من الحنابلة ، وذلك أنه قد ثبت ضرره ، وتضافرت الأدلة على ذلك ، والأطباء مجمعون على أنه مضر ، للتوسع أكثر ينظر « الموسوعة الفقهية » (١٠/١٠٢) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

١٠

وَأَتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَى اللَّهِ مَا جَاوَرَتْ قَلْبَ أَمْرِي إِلَّا وَصَلْ

أي : أتبع الأمر وأجتنب النهي ؛ لأن أتباع الأمور وأجتنب المنهي ما جاور قلب شخص سواء كان ذكراً أو أنثى إلا وصل لربه سبحانه وتعالى .
فالمراد بـ (التقوى) : أتباع الأوامر وأجتنب النواهي .

فمن المأمور به : أنواع الطهارة ؛ كالوضوء والغسل والتميم وإزالة النجاسة ، ومنه أيضاً الصلاة بأنواعها فرضاً ونفلأً عيناً وكفاية ؛ ومنه أيضاً : الزكاة بأنواعها ، والصوم بأنواعه ، والحج والعمرة بأنواعهما ؛ ومنه أيضاً : المعاملات ؛ كالبيع والسلم والصلح والحوالة والإجارة ونحو ذلك ؛ ومنه أيضاً : الأنكحة والأصدقة والطلاق والرضاع والنفقات ونحو ذلك ؛ ومنه أيضاً : فروض الكفایات ؛ كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحياء الكعبة بالحج كل عام وغير ذلك ؛ ومنه أيضاً : ما كمل الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من مكارم الأخلاق ؛ كالزهد والورع والتوكل والقناعة وحسن الخلق وكظم الغيظ والعفو عند القدرة وقضاء حوائج المسلمين وغير ذلك .

ومن المنهي عنه : الشرك بالله تعالى ، وقتل النفس بغير حق ، والزنا ، والربا ، وشرب الخمر ، والسرقة ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والغيبة ، والنميمة ، وأكل أموال الناس ظلماً وعدواناً ؛ كالغصب ونحو ذلك .

قال : وكل هذه الأمور والمنهيات داخله تحت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَلْنَكُمُ الرَّسُولَ فخذوه وما نهكم عنه فإنه هو ﴾ ، وإذا أتبع الإنسان الأمر وأجتنب النهي . . فقد جاورت التقوى قلبه ، وصار في كل وقت يشاهد ربه ، فيكون حينئذ سامعاً بالله ، ناطقاً بالله ، باطشاً بالله ، ماشياً بالله ، متحركاً بالله ، وهو

معنى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : « وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أفضل ممَّا أفرضتُه عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحببته ، فإذا أحببته . . كنتُ سمعهُ الذي يسمع به ، وبصرهُ الذي يبصر به ، ويدهُ التي يبطش بها ، ورجلهُ التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » (١) اهـ

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) ، وابن حبان (٣٤٧) ، وأحمد (٢٥٦/٦) .

لَيْسَ مَنْ يَقَطُّعُ طُرُقًا بَطَلًا
إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ الْبَطْلُ

أي : ليس الشخص الذي يقطع الطرق^(١) - أي : يمنع الناس من المرور فيها - بطلاً ؛ أي : شجاعاً ماهراً ، سُمِّيَ بذلك ؛ لبطلان الحياة عند ملاقاته ؛ بل البطل والشجاع هو الشخص المتَّقِي الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه من شجاعته قهر نفسه وأبطل كيدها التي هي أقوى من سبعين شيطاناً ، حيث جعلها متبَعَةً للمأمورات ومجتنبَةً للمنهيات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم حين رجوعه من بعض الغزوات : « رجعت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب »^(٣) ، وفي « الجامع الصغير » : قال صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلكم على أشدكم ؟ أملككم لنفسه عند الغضب » رواه الطبراني عن أنس^(٤) .

وأعلم : بأن التقوى - وإن قلَّ لفظها - كلمةٌ كثيرة المعنى ، شاملة لخير الدارين ؛ إذ هي تجنّب كل منهيٍّ عنه ، وفعل كل مأمور به كما سبق^(٥) .

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن التقوى فقال : (هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل) .

(١) الطرق - بضم الراء ، وسكن لضرورة الوزن - : جمع طريق ، وهو الممر الواسع الممتد .

(٢) أخرجه البيهقي في « الزهد » (٣٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤٩٨ / ١٣) عن جابر رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .

(٤) عزاه السيوطي في « الجامع الصغير » (٢٨٧٤) إلى الطبراني في « مكارم الأخلاق » ، وأخرجه عن أنس رضي الله عنه

العسكري في « تصحيقات المحدثين » (٣٥٠ / ١) ، وأخرجه أيضاً عن علي رضي الله عنه (٣٤٩ / ١) ، وجاء عن ابن

عجلان رحمه الله مرسلأ عند البيهقي في « الشعب » (٧٩٢٢) ، وأبي عبيد في « غريب الحديث » (١٥ / ١) .

(٥) انظر (ص ٩٤) .

وقال عمر بن عبد العزيز : (التقوى : ترك ما حرم الله ، وأداء ما أفترض الله ، فما رزق الله بعد ذلك . . فهو خير إلى خير)^(١) .

وقيل : تقوى الله : ألا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك ، ولهذا قال بعضهم لشخص : إذا أردت أن تعصي الله . . فأعصه حيث لا يراك ، وأخرج من داره ، وكل رزقاً غير رزقه .

وقال أكثر المفسرين في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ : إنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، أسر المشركون ابناً له يسمي سالماً ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا الفاقة إليه وقال : إن العدو أسر ابني ، وجزعت الأُم ، فما تأمرنا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « أتق الله وأصبر ، وأمرك وإياها أن تكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ، فعاد لبيته وقال لامرأته : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وإياك أن نكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، قالت : فنعم ما أمرنا به ، فجعلنا يقولانها ، فغفل العدو عن ابنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه ، وهي أربعة آلاف شاة ، فنزلت الآية^(٢) .

وقال مقاتل : (أصاب غنماً ومتاعاً)^(٣) .

وكتب [عمر] لابنه عبد الله : (أما بعد ؛ فإنني أوصيك بتقوى الله عز وجل ؛ من أتقاه . . وقاه ، ومن أقرضه . . جازاه ، ومن شكره . . زاده ، فاجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك) .

ولمّا ولي علي رضي الله تعالى عنه الخلافة . . بعث رجلاً على سرية فقال : (أوصيك بتقوى الله الذي لا بُدَّ لك من لقائه ، ولا تنتهي لك من دونه ، وهل تملك الدنيا والآخرة إلا بالتقوى ؟ !) .

(١) أخرجه البيهقي في « الزهد » (٩٦٤) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٢٣٠ / ٤٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٤٩٢ / ٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨٥ / ٩) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٣٣٥٩ / ١٠) .

(٣) « تفسير مقاتل بن سليمان » (٢٦٤ / ٤) ، وفيه : (أصاب إبلاً ومتاعاً) .

وفي « منهاج العارفين » : أن بعض الصالحين قال لبعض أشياخه : أوصني بوصية ، قال : أوصيك بوصية رب العالمين للأولين والآخرين ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ . . فليَتَّقِ اللَّهَ » (١) ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى ﴾ .

[من الرجز]

ولبعضهم رضي الله عنه :

مَعْرِفَةُ اللَّهِ فَذَاكَ الشَّقِي
وَأَعِزُّ كُلِّ أَعِزٍّ لِلْمُتَّقِي

مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَلَمْ تَغْنِهِ
مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعِزِّ الْغِنَى

[من الطويل]

وقال بعضهم :

تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَلَوْ كَانَ كَاسِيًا (٢)
وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ اللَّهُ عَاصِيَا

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التَّقَى
وَخَيْرُ لِبَاسِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ

[من الوافر]

ولأبي الدرداء رضي الله تعالى عنه :

وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا (٣)

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُعْطَى مِنْهَا
يَقُولُ الْمَرْءُ فَايْدَتِي وَمَالِي

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . . يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لِي نَسَبًا وَلَكُمْ نَسَبًا ، فَوَضَعْتُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُمْ نَسَبَكُمْ ؛ قُلْتُ : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ ، وَأَبَيْتُمْ إِلَّا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، فَالْيَوْمَ

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٢٧٠/٤) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٦٧٥) ، وأحمد في « الزهد » (١٧٠٧) .

(٢) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤٨٢) .

(٣) البيتان لأبي الدرداء رضي الله عنه كما أخرج أبو نعيم في « الحلية » (٢٢٥/١) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (١٨٣/٤٧) .

أضعُ نسبكم وأرفعُ نسبي ، أينَ المَتَّقونَ ؟ فيُنصَبُ للمتَّقينَ لواءٌ ، فيتبعونَ لواءهم ، فيدخلونَ
الجنةَ بغيرِ حسابٍ» (١) .

وإذا تأمَّلتَ ما تقدم.. ظهرتْ لك ثمرةُ التقوى ، وعلمتَ أنَّها كافلةٌ للسعادة في
الدارين ، نسألُ الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المتقين المنسويين إليه آمين .

* * *

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤٦٣/٢) ، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٧٥) ، وأخرجه الطبراني في «الأوسط»
(٤٥٠٨) ، و«الصغير» (٢٣٠/١) ، والبيهقي في «الزهد» (٧٦٥) .

صَدَّقِ الشَّرْعَ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى رَجُلٍ يَرْصُدُ بِاللَّيْلِ زُحْلًا

الكلام على حذف مضاف ؛ أي : صدَّق صاحب الشرع وهو النبي صلى الله عليه وسلم في جميع ما جاء به من عند الله ، وصار معلوماً بالضرورة .

والأمر في عبارة الناظم للوجوب ؛ لأنه يجب التصديق بالقلب والإقرار باللسان لكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ من الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج والجهاد ، والمعاملات بأنواعها ، والجنة والنار ، واللوح والقلم ، والحوض والصراف والميزان ، وعذاب القبر ونعيمه ، وسؤال منكر ونكير ، والشفاعة العظمى ، وإخراج قوم من النار بشفاعة الشافعين ، والبعث بعد الموت ، وأن الجنة والنار خلقهما الله تعالى للبقاء ، وأن أهل الجنة فيها منعمون أبداً ، وأن أهل النار - غير أهل الكبائر من المؤمنين فيها - معذبون أبداً .

ويحتمل أن المراد بـ(الشرع) : الدين المبعوث به المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعليه : فليس في عبارته حذف ؛ أي : صدَّق الشرع فيما جاء به من أمر ونهي ووعد ووعيد ، وفي كونه ناسخاً لجميع الشرائع القديمة ، وغير ذلك .

فَصَلِّ إِلَى

[في بيان ماهية الدين والملة والشريعة]

الدين والملة والشريعة ألفاظ مترادفة مختلفة اعتباراً ؛ وذلك لأن الأحكام من حيث أشتهاؤها وظهورها وتشريعها . . تسمى شرعاً وشريعة ، ومن حيث إملاء الشارع إيائها لنا . . تسمى ملةً ، ومن حيث أنقياد الخلق لها . . تسمى ديناً .

وقوله :

(..... ولا تركزن إلى رجل يرصد بالليل زحل)

أي : ولا تعتمد على رجل يرصد ؛ أي : يترقب وينظر في الليل زحل ؛ أي : لا تصدق قول المنجمين ؛ لأن أقوالهم كاذبة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ، فمن صدقهم . . فقد سلك طريقاً مهلكاً .

وتخصيص الناظم رحمه الله تعالى النهي عن الإرصاء بزحل ليس بقيد ، بل الكواكب السبعة السيارة كذلك ، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل ، وكل واحد منها له فلك يختص به ، فالفلك الأول للقمر ، والثاني لعطارد ، والثالث للزهرة ، والرابع للشمس ، والخامس للمريخ ، والسادس للمشتري ، والسابع لزحل ، وكل فلك منها في سماء ، وقد جمع ذلك بعضهم مبتدئاً بما في السماء السابعة فما دونها على الترتيب في قوله :

زُحَلُّ شَرِيٍّ مَرِيخُهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدِ الْأَقْمَارِ^(١)

قال الثعالبي رحمه الله تعالى : (سعة القمر ألف فرسخ في ألف فرسخ مكتوب في وجهه : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طوبى لمن أجرى الله الخير على يديه ، والويل لمن أجرى الله الشر على يديه) .

وفي « الجامع الصغير » : قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ النَّاسِ نَاساً مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ نَاساً مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَيْلَ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ » رواه ابن ماجه عن أنس^(٢) .

(١) هذا مستند إلى الرأي القديم الذي يعد السيارات سبعاً ، وبحسب منها الشمس والقمر ، ويقول : إن الأرض قائمة في مركز الفلك ، وإن السيارات السبع تدور حولها ، وإن لكل واحد فلكاً ، وكل فلك في سماء . لكن العلم الحديث أثبت أن الشمس نجم مضيء كثير من النجوم يدور في فلكه مجموعة كواكب ، وهي : عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، وأورانوس ، ونبتون ، وبلوتو ، والعاشر اكتشف حديثاً ، وسمي ابتداء (اكس) ، وأن بعض الكواكب يدور في فلكها قمر أو أقمار ، وتسمى : المجموعة الشمسية ، ومجموعتنا الشمسية هي واحدة من مئات الملايين من المجموعات الشمسية التي هي ضمن مجرة واحدة ؛ هي مجرة (درب التبانة) ، ومجرتنا (درب التبانة) هي واحدة من مليارات المجرات .

(٢) « الجامع الصغير » (٢٤٦٥) ، والحديث أخرجه ابن ماجه (٢٣٧) ، والطيلبسي في « مسنده » (٢٠٨٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٧) .

وأما الشمس : فقال الثعالبي أيضاً : (سعتها سبعة آلاف فرسخ وأربع مئة فرسخ في مثلها ، مكتوب في وجهها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، سبحان من رضاه كلام ، وغضبه كلام ، ورحمته كلام ، وعقابه كلام ، سبحان القادر الحكيم الخالق المقدر) اهـ

فقد عُلم مِنْ كَلامِ الناظِمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لِهَذِهِ الْكَوَاكِبِ الْمَذْكُورَةِ وَلَا لغيرها مِنَ المَخْلُوقَاتِ ؛ فَقد ذَكَرَ الشَّيْخُ عَلِيُّ « الأربَعِينَ النُّوِيَّةِ »^(١) مَا نُصِّهُ : (عَنِ عَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ لِقَاءَ الْخَوَارِجِ . . قَالَ لَهُ مَسَافِرُ بْنُ عَوْفٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لَا تَسِرْ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ، وَسِرْ بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ تَمْضِي مِنَ النَّهَارِ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّكَ إِنْ سَرْتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ . . أَصَابَكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ بِبَلَاءٍ عَظِيمٍ وَضُررٍ شَدِيدٍ ، وَإِنْ سَرْتَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَمَرْتُكَ بِهَا . . ظَفَرْتَ وَظَهَرْتَ وَأَصَبْتَ مَطْلُوبَكَ ، فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : مَا كَانَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْجَمٌ وَلَا لَنَا مِنْ بَعْدِهِ ، فَمَنْ صَدَّقَكَ فِي هَذَا الْقَوْلِ . . أَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَمَنْ اتَّخَذَ مَعَ اللهِ نَدَاءً أَوْ ضِدًّا ، اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرِكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرِكَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : نَكْذِبُكَ وَنُخَالِفُكَ ، وَنَسِيرُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الَّتِي تَنْهَانَا عَنْهَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنِّي أَتَاكُمْ وَتَعَلَّمْتُ النُّجُومَ ، إِلَّا مَا تَهْتَدُونَ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، إِنَّمَا الْمَنْجَمُ كَالسَّاحِرِ ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ ، وَاللهُ ؛ لَنْ بَلِّغُنِي أَنَّكَ تَنْظُرُ فِي النُّجُومِ وَتَعْمَلُ بِهَا . . لِأَخْلَدَنَّكَ فِي الْحَبْسِ مَا بَقِيَتْ ، وَلَا مَنَعَنَّكَ الْعَطَاءُ مَا بَقِيَ لِي مِنْ سُلْطَانٍ ، ثُمَّ سَارَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي نَهَاهُ عَنْهَا ، فَلَقِيَ الْقَوْمَ وَقَتَلَهُمْ ، وَهِيَ وَاقِعَةُ النَّهْرَوَانِ) اهـ^(٢)

وذكر الجلال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » : (أنه في سنة اثنتين وثمانين وخمسة مئة اجتمعت الكواكب في الميزان ، فحكمت المنجمون بخراب العالم في جميع البلاد بريح عظيمة ، فشرع الناس في حفر مغارات في الأرض وتوثيقها وسد منافذها على الريح ، ونقلوا إليها الماء والزاد ، وانتقلوا إليها ، وانتظروا الليلة التي أخبروا فيها بريح كريح عاد ، وهي

(١) هو كتاب « الفتوحات الوهبية في شرح الأربعين حديثاً النووية » لبرهان الدين إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي المتوفى سنة ١١٠٩ هـ .

(٢) أخرج قصة سيدنا علي رضي الله عنه الحارث بن أبي أسامة كما في « زوائد مسنده » للهيثمي (٥٦٤) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (١٢٣٠ / ٤) .

الليلة التاسعة من جمادى الآخرة ، فلم يأت فيها شيء ، ولا هبَّ فيها نسيم ، بحيث أوقدت الشموع ، فلم يتحرَّك فيها ريح تطفئها ، فظهر بذلك كذب المنجِّمين (اهـ^(١))

والأحاديث في النهي عن تصديقهم كثيرة :

منها : ما ذكره في « الجامع الصغير » : عن الإمام أحمد عن بعض أمهات المؤمنين : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أتى عَرَّافاً فسأله عن شيء . . لم تقبل صلاته أربعين ليلة »^(٢) .

قال العلامة المُنَاوي : (العَرَّاف - بفتح العين المهملة وتشديد الراء المهملة أيضاً - : مَنْ يخبر بالأمر الماضي أو بما خفي ، وقوله : « فسأله عن شيء » أي : مِنْ نحو المغيبات ، وإنَّما خصَّ الأربعين ؛ على عادة العرب في ذكر الأربعين والسبعين والتسعين للتكثير ، وخصَّ الليلة ؛ لأنَّ عادتهم ابتداء الحساب بالليالي ، وخصَّ الصلاة بعدم القبول ؛ لكونها عماد الدين ، فصومه كذلك ، ومعنى عدم القبول : عدم الثواب وإن كانت مُجَزَّئَةً في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة ، ونظير هذا : الصلاة في الأرض المغصوبة ؛ فإنَّها مسقطه للقضاء ، ولكن لا ثواب فيها) اهـ^(٣)

ومنها : ما ذكره في « الجامع الصغير » أيضاً : عن الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أتى عَرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول . . فقد كفر بما نزل على محمد »^(٤) .

قال العلامة المُنَاوي بعد قوله : « أو كاهناً » : (وهو مَنْ يُخْبِرُ عَمَّا يَحْدُثُ ، وقوله : « فصدَّقه » أي : أتاه وسأله معتقداً صدِّقه ، فلو سأله معتقداً كَذِبُهُ . . لم يلحقه الوعيد) اهـ^(٥)

ومنها : ما ذكره في « الجامع الصغير » أيضاً : عن واثلة بن الأسقع : أنَّه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أتى كاهناً يسأله عن شيء . . حُجِبَتْ عنه التوبة أربعين ليلة ، فإن صدَّقه بما

(١) « تاريخ الخلفاء » (ص ٥٣٥) .

(٢) « الجامع الصغير » (٨٢٨٤) ، والحديث أخرجه مسلم (٢٢٣٠) ، والبيهقي (١٣٨/٨) ، وأحمد (٦٨/٤) .

(٣) « فيض القدير » (٢٢/٦) .

(٤) « الجامع الصغير » (٨٢٨٥) ، والحديث أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٨/١) ، وأبو داود (٣٩٠٤) ، والترمذي (١٣٥) .

(٥) « فيض القدير » (٢٣/٦) .

قال . . . « كفر »^(١) ، قال العلامة المُنَاوي بعد قوله : « كفر » : (أي : ستر النعمة ، فإن أعتقد صدقة في دعواه الاطلاع على الغيب . . . كفر حقيقة) اهـ^(٢)
 وقال العلقمي^(٣) : (قال النووي : قال القاضي عياض : « كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب :

أحدها : أن يكون للإنسان وليٌّ من الجنِّ يخبرُهُ بما يَسْتَرِقُ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ ، وهذا القسم بطل من حين بعث نبيُّنا صلى الله عليه وسلم .

وثانيها : أن يخبرُهُ بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض ، وما خفي عنه ممَّا قَرَّبَ أو بَعُدَ ، وهذا لا يبعُدُ وجودُهُ ، ونفتِ المعتزلةُ وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحاليهما ، ولا استحالة في ذلك ولا بَعُدَ في وجودِهِ .

وثالثها : المنجَّمون ، وهذا الضرب يخلقُ الله تعالى فيه لبعض الناس قوَّةَ ما ، لكنَّ الكذب فيه أغلب ، ومن هذا الفنُّ العرافة ، وصاحبها عرَّاف ، وهو الذي يستدُّ على الأمور بأسباب ومقدمات يدَّعي معرفتها بها ، ومنه : الضرب بالحصى الذي تفعله النساء ، ومنه أيضاً : الخطُّ بالرمل والنجوم ، وهذه الأضرب كلُّها تسمَّى : كهانة ، وقد كذَّبهمُ الشرعُ ونهى عن تصديقهم وإتيانهم ، وقال الخطَّابي وغيره : العرَّاف : هو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما) اهـ^(٤)

* * *

(١) « الجامع الصغير » (٨٢٨٩) ، والحديث أخرجه الطبراني في « الكبير » (٦٩/٢٢) .

(٢) « فيض القدير » (٢٤/٦) .

(٣) العلقمي : هو شمس الدين محمد بن العلقمي المتوفى سنة (٩٢٩ هـ) تلميذ الإمام السيوطي ، نقلاً عن شرحه لـ « الجامع الصغير » المسمى بـ « الكوكب المنير » .

(٤) وقول القاضي في « إكمال المعلم » (١٥٣/٧) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

١٣

حَارَتِ الْأَفْكَارُ فِي قُدْرَةِ مَنْ قَدَّ هَدَانَا سُبُلَنَا عَزَّ وَجَلَّ

أي : تحيرت الأفكار في قدرة الله تعالى الذي هدانا ، وبيّن لنا الطرق الموصلة إلى النعيم الدائم ؛ وذلك كالإيمان والصلاة والزكاة والصيام والحجّ وغير ذلك من الأعمال الصالحة التي لا تنحصر ، فهذه الطرق بيّنها لنا المولى سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهي موصلة إلى الجنة ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وأعلم : أنّ دخول الجنة بمحض فضل الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمّدني الله برحمته »^(١) .

وأما القصور والحدود والولدان وغير ذلك من النعيم : فعلى قدر الأعمال قلّة وكثرة .

وما ذكره الناظم رحمه الله تعالى من أنّ الأفكار تحيرت في قدرة الله تعالى مأخوذة : من قوله صلى الله عليه وسلم : « تفكّروا في آلاء الله ، ولا تفكّروا في الله » رواه الطبراني في « الأوسط » عن ابن عمر^(٢) ، قال المناوي : (« تفكّروا في آلاء الله » أي : نعمه التي أنعم بها عليكم)^(٣) ، ولا تفكّروا في الله ، فإنّ كلّ ما يخطر بالبال فهو بخلافه .

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٣١٥) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٢١٠/١) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص ١٥٩) .

(٣) « فيض القدير » (٢٦٣/٣) .

وَمِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ » رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(١) ، قَالَ الْمُتَاوِي : (لِأَنَّهُ لَا تَحِيْطُ بِهِ الْأَفْكَارُ) ^(٢) ، بَلْ تَتَحَيَّرُ فِيهِ الْعُقُولُ وَالْأَنْظَارُ .

وَمِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَفَكَّرُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ ؛ فَإِنَّ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى كُرْسِيِّهِ سَبْعَةَ آلَافِ نُوْرٍ ، وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ » رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي كِتَابِ « الْعِظْمَةِ » عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(٣) .

وَمِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ » رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ^(٤) ، قَالَ الْمُتَاوِي : (« تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ » أَي : مَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي يَعْرِفُ الْعِبَادُ أَسْلَمَهَا جَمَلَةٌ لَا تَفْصِيْلًا ؛ كَالسَّمَاءِ بِكَوَاكِبِهَا وَحَرَكَتِهَا ، وَالْأَرْضِ وَمَا فِي جِبَالِهَا وَأَنْهَارِهَا وَحَيَوَانَاتِهَا وَنَبَاتِهَا وَمَعْدِنِهَا ، فَلَا تَتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إِلَّا وَاللَّهُ فِيهَا حِكْمَةٌ دَالَّةٌ عَلَى عِظْمَتِهِ) ^(٥) .

وَمِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ قَدْرَهُ » رَوَاهُ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ^(٦) ، قَالَ الْمُتَاوِي : (« تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ » أَي : تَأَمَّلُوا فِي الْمَخْلُوقَاتِ ، وَدَوْرَانَ هَذَا الْفَلَكَ ، وَمَجَارِي هَذِهِ الْأَنْهَارِ ، فَمَنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ . . عَلِمَ أَنَّ لَهَا صَانِعًا لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ، « وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ قَدْرَهُ » أَي : لَا تَعْرِفُونَهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ) ^(٧) .

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٦٦/٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَطْوَلًا ، وَأَصْلُ الْحَدِيثِ عِنْدَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، لَكِنْ بَغْيَرِ هَذِهِ اللَّفْظَةَ ، وَهُوَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بَلْفِظِهِ عِنْدَ أَبِي الشَّيْخِ فِي « الْعِظْمَةِ » (٢١٦/١) كَمَا سَيَأْتِي .

(٢) « فَيْضُ الْقَدِيرِ » (٢٦٣/٣) .

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي « الْعِظْمَةِ » (٢٤٠/١) .

(٤) أَخْرَجَهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي « الْعِظْمَةِ » (٢١٥/١) .

(٥) « فَيْضُ الْقَدِيرِ » (٢٦٢/٣) .

(٦) أَخْرَجَهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي « الْعِظْمَةِ » (٢١٦/١) .

(٧) « فَيْضُ الْقَدِيرِ » (٢٦٢/٣) .

قال رجل لعليّ : يا أمير المؤمنين ؛ أين الله ؟ قال : « أين » سؤالٌ عن مكان ، وكان الله ولا مكان .

وأعلم : أن (مَنْ) في كلام الناظم أسمٌ موصولٌ بمعنى الذي كما تقرر ، و (الأفكار) : جمع فكر - بالكسر - وهو : تردُّد القلب بالنظر والتدبُّر لطلب المعاني ، يقال : لي في الأمر فكر ؛ أي : نظرٌ ورويةٌ ، ويقال : هو ترتيب أمور في الذهن يُتوصَّل بها إلى مطلوب يكون علماً أو ظناً ، كذا في « المصباح » .

وما مشى عليه الناظم رحمه الله تعالى مِنْ عدم تعدّي (هدى) بالحرف . . هو لغة الحجازيين ، قال في « المصباح » : (هديته الطريق أهديه هداية ، هذه لغة الحجاز ، ولغة غيرها يتعدّى بالحرف ، يقال : هديته إلى الطريق وللطريق) اهـ^(١)

وقوله : (عزّ) أي : غلب وقوي فلا يساويه أحد في ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ ، و (جلّ) أي : عَظُمَ ، فالعزّة : القوّة ، والجلال : العظمة ، كذا في « المصباح » .

قال بعض العارفين : النظر في المخلوقات مِنْ أقرب القربات ، قال تعالى : ﴿ أَوْلَئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية ، فالمصنوعات المعلومة بالضرورة شيئان : علوية ، وسفلية .

فالعلوية : كالشمس ، والقمر ، والسموات السبع ، وسكانها مِنَ الملائكة على اختلافهم ، والعرش ، والكرسي ، والبيت المعمور ، وما فيه مِنَ الملائكة الذين يعبدون الله عزّ وجلّ ويسبحونه ولا يفترون عن عبادته طرفة عينٍ ، والجنة وما فيها مِنَ القصور والأنهار والحُور والولدان والنعيم الذي أعدّه الله فيها لأوليائه المؤمنين ، ممّا لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والنار وما أعدّه الله فيها لأعدائه الكافرين مِنَ العذاب والنكال والسلاسل والأغلال والحيات والعقارب وغير ذلك ، ممّا لا عين رأت ، ولا أذن

(١) وبكلّ جاء الذكر الحكيم ، فبلغة الحجاز قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ وهي مُقتبسٌ البيت ، وبلغة غيرها من العرب : في المتعدي (بِ) إلى (قولهُ تعالى : ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْسِئْ ﴾ ، وفي المتعدي (بِ) اللام) قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ ، وغيرها من الآيات .

سمعت ، ولا خطر على قلب بشر من أنواع العذاب ، نسأل الله العافية والسلامة .

والمصنوعات السفلية : كالأرضين السبع ، والجبال ، والأنهار ، والبحار ، والشجر ، والدواب ، وبني آدم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، إلى غير ذلك ممّا خلق الله فيها ، وأوجده على ظهرها ، وأودعه في بطنها من الكنوز والمعادن والنبات وغير ذلك ؛ ففي كلّ جزء من هذه المصنوعات دلالة كافية على أنّ الله هو خالقها وموجدتها من غير شريك ولا معين^(١) ، ولذلك سئل بعض الأعراب عن الدليل على وجود الله تعالى ، فقال : البعرة تدلّ على البعير ، وأثر الأقدام يدلّ على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، أفلا يدلان على اللطيف الخبير !؟

وأقرب المصنوعات إليك نفسك ، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، ففي نظرك إلى نفسك وما أشتملت عليه من سمع وبصر وذوق وشمّ ورضى وغضب وكفر وإيمان وشهوة وعدمها . . كفاية في الاعتبار ، ودلالة على أنّ الله سبحانه وتعالى قادر على كلّ شيء ، وبيده الإعطاء والمنع ، والوصل والقطع ، والخفض والرفع ، والضرب والنفع ، ما شاء الله . . كان ، وما لم يشأ . . لم يكن .

قال بعض العارفين : مَنْ تفكّر في عجائب المخلوقات . . كان من المقربين .

وقال بعضهم : تفكّر ساعة خيراً من قيام ليلة ؛ فإنّ الفكر حجّ العقل .

(١) والله در القائل :

[من الطويل]

وهذي الصحارى والجبال الرواسيا
سلّ الليل والإصباح والطيّر شاديا
وسلّ كلّ شيء تسمع الحمد ساريا

سلّ السواحة الخضراء والماء جاريا
سلّ الروض مُزداناً سلّ الزهر والندى
وسلّ هذه الأنسام والأرض والسما

والقائل :

[من البسيط]

والبر والبحر فيض من عطاياهُ
والموج كبره والحوث ناجاهُ
والنخل يهتف حمداً في خلاياهُ
إنس وجرن وأملاك لعلياهُ
والعبد ينسى وربّي ليس ينساهُ

الشمس والبدر من أنوار حكمته
فالطيّر سيّحه والزرع قدّسه
والنمل تحت الصخور الضمّ مجدهُ
ربّ السماء وربّ الأرض قد خضعت
الناس يعصونه جهراً فيسترهم

وقال بعضهم : الفكرُ مرآةٌ تُريكَ حسناتك وسيئاتك ، وتدلُّك على أن الله هو الصانع المختار ، وغيرُهُ صائرٌ إلى الزوال .

وما أحسن ما قال الأستاذ اللقاني :

للعالم العُلويِّ ثمَّ السُّفلي
لكنْ بهِ قامَ دليلُ العَدَمِ
عليه قطعاً يستحيلُ القدمُ^(١)

فأنظرْ إلى نفسِكَ ثمَّ أنتقل
تجدْ بهِ صنْعاً بديعَ الحِكمِ
وكُلُّ ما جازَ عليه العَدَمُ

* * *

(١) الأبيات من منظومة « جوهرة التوحيد » للإمام برهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني المتوفى سنة (١٠٤١هـ) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

١٤

كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ قَلَّ مِنَ جَمْعِ وَأَفْنَى مِنْ دَوْلٍ^(١)

أي : أوجب سبحانه وتعالى الموت - الذي هو مفارقة الروح للجسد - على جميع الخلق ؛ من صغير وكبير ، وجليل وحقير ، وغني وفقير ، وإنس وجنّ وملك ، وطير ووحش ، وذباب ونمل ، وبعوض وبراعيث ، وغير ذلك من كل ما خلق الله تعالى ، وبسبب ذلك الموت الدالّ على قدرة الله تعالى وقهره لجميع خلقه . . قلت الجموع ، وختلت الربوع ، فكم قلل ذلك الموت من جمع وأفنى من دول ، فأين أهل المدن والحصون ؟ أين أهل المعاني والفنون ؟ أين الأمم الماضية ؟ أين أرباب القصور العالية ؟

تَنْبِيْهِ

[في بيان مادّتين لغويّتين]

قال في « المصباح » : (الموت ضدّ الحياة ، والميّتة ما لم تلحقها الزكاة الشرعية ، والموت - بضم الميم - : الموت ، وبالفتح : الأرض التي لا مالك لها ولا يتنفع بها أحد) اهـ

وقال فيه أيضاً : (تداول القوم الشيء : هو حصوله في يد هذا تارة ، وفي يد هذا تارة أخرى ، والاسم الدولة ، بفتح الدال وضمّها ، وجمع المفتوح : دَوْل بالكسر ، مثل : قَصْعة وقِصْع ، وجمع المضموم : دُول بالضم ، مثل : غُرْفَة وغُرْف) اهـ ، فعلم من عبارته : أنّه يجوز في كلام الناظم كسر الدال وضمّها .

(١) رواية « الديوان » : (فل) بدل : (قل) ، ولعله الصواب ؛ ولم نجد من معاني (قل) ما ذكره الشارح في شرح البيت ، وقل : غلب وهزم ، وأصل الفل : الكسر ، والمراد هنا : أن الموت كثيراً ما فرق الجموع وأهلكهم ، والله أعلم .

[في بيان دول الإسلام]

الدول قبل الإسلام كثيرة ؛ كالفراعنة والعمالقة والقياصرة والأكاسرة والتبابعة ونحوها^(١) ، وأما دول الإسلام من لدن عصره صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . فهي سبع دول :

الأولى : دولة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة بعده رضي الله تعالى عنهم .

الثانية : دولة بني أمية ، وهم اثنا عشر^(٢) .

الثالثة : دولة بني العباس رضي الله تعالى عنه ، وهم ثلاثة وثلاثون^(٣) .

الرابعة : دولة العبيديين ، وهم ثمانية^(٤) .

(١) العمالقة من أبناء عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، ومنهم تفرقت الجبارة والعتاة بأرض الشام ، ومنهم الفراعنة ملوك مصر ، ومنهم الأكاسرة ملوك فارس وخراسان ، وأما القياصرة : فهم من أبناء يافث بن نوح ، وهم ملوك الروم ، والله أعلم .

(٢) بل أربعة عشر ، وهم : معاوية ابن أبي سفيان بن يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، ومروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ، ومروان بن محمد .

(٣) بل هم ثمانية وثلاثون إن اعتبرنا خلافة الرازي عبد الله بن المعتز ، وسبعة وثلاثون إن لم نعتبر خلافته ، وهم : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، وابنه محمد المهدي ، وابنه موسى الهادي ، وأخوه هارون الرشيد ، وابنه محمد الأمين ، وأخوه المأمون ، وأخوه محمد المعتصم ، والوائق هارون ، والمتوكل جعفر بن المعتصم ، والمنتصر بن المتوكل ، والمستعين بن المعتصم ، والمعتز بن المتوكل ، والمهتدي محمد بن الواثق ، والمعتمد أحمد بن المتوكل ، والمعتضد أحمد بن الموفق ، وابنه المكتفي بن المعتضد ، وأخوه المقتدر جعفر بن المعتضد ، والراضي عبد الله بن المعتز إن اعتبرناه ، والقاهر محمد بن المعتضد ، والراضي أحمد بن المقتدر ، والمتقي إبراهيم بن المقتدر ، والمستكفي عبد الله بن المكتفي ، والمطيع بن المقتدر ، والطائع عبد الكريم بن المطيع ، والقادر أحمد بن إسحاق ، والقائم عبد الله بن القادر ، والمقتدي عبد بن محمد ، والمستظهر أحمد بن المقتدي ، والمسترشد فضل بن المستظهر ، والراشد أبو جعفر بن المستظهر ، والمقتفي محمد بن المستظهر ، والمستنجد يوسف بن المقتفي ، والمستضيء الحسن بن المستنجد ، والناصر بن المستضيء ، والظاهر محمد بن الناصر ، والمستنصر أبو جعفر بن الظاهر ، والمستعصم عبد الله بن المستنصر .

(٤) بل جملتهم أربعة عشر ، وهم : المهدي ، وابنه محمد القائم ، وابنه إسماعيل المنصور ، وابنه المعز معد ، وابنه العزيز نزار ، وابنه الحاكم منصور ، وابنه الظاهر علي ، وابنه المستنصر معد ، وابنه المستعلي أحمد ، وابنه الأمر منصور ، وابن عمه الحافظ ، وابنه الظاهر إسماعيل ، وابنه الفائز عيسى ، وابن عمه العاضد عبد الله .

الخامسة : دولة الأتراك ، وهم ثلاثة عشر (١) .

السادسة : دولة الجراكسة ، وهم من برقوق إلى آخر ولاية الغوري ، ولم يوقف لهم على عدد (٢) .

السابعة : دولة بني عثمان ، أدام الله دولتهم ، ومكَّن خلافتهم ، وأيد سلطنتهم ، أولهم مولانا السلطان سليم رحمه الله تعالى ، قدم إلى مصر المحروسة في أواخر سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة - بتقديم المثناة على السين - وهذا بالنسبة لمن ولي الخلافة منهم بمصر المحروسة ، وإلا . . فلهم أسلاف في السلطنة والخلافة في البلاد الرومية قبل السلطان سليم بكثير ، فأولهم : السلطان عثمان الأكبر ، ولي الخلافة في البلاد الرومية في سنة ست وتسعين - بتقديم المثناة على السين - وست مئة من الهجرة النبوية ، وليس منسوباً إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كما يتوهمه كثيرون ، وقد نقل أهل السير أنه كان رجلاً صالحاً مباركاً حافظاً لكتاب الله تعالى ، ملازماً لتلاوة القرآن أثناء الليل وأطراف النهار ، وكان قبل ورود الأمر عليه يعاني حرفة الزراعة ، ويأكل من عمل يده ، فأصطفاه الله تعالى وأختره للخلافة الشرعية ، ثم توفاه الله ، وجعل الخلافة باقية في ذريته ، أدام الله سلطنتهم وخلافتهم ، وأهلك أعداءهم الكافرين ، آمين (٣) .

- (١) وهم : طغرل بك محمد ، وابن أخيه ألب أرسلان سليمان بن داود ، وابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ، وابنه محمود بن ملكشاه ، وأخوه بركيارق بن ملكشاه ، وابنه ملكشاه بن بركيارق ، وعمه محمد شاه بن ملكشاه ، وابنه محمود بن محمد شاه ، وابنه داوود بن محمود ، وعمه مسعود بن محمد شاه ، وسليمان شاه بن محمد شاه ، وابن أخيه أرسلان شاه بن طغرل ، وابنه طغرل شاه بن أرسلان شاه .
- (٢) وهم قرابة اثنين وعشرين ؛ الظاهر برقوق ، وابنه الناصر ، وأخوه المنصور عبد العزيز بن الظاهر برقوق ، والمؤيد شيخ المحمودي ، وابنه المظفر أحمد بن المؤيد ، والظاهر ططر ، وابنه الصالح محمد بن الظاهر ططر ، والأشرف برسبای ، وابنه العزيز يوسف بن برسبای ، والظاهر جقمق ، وابنه المنصور عثمان بن جقمق ، والأشرف إينال ، وابنه المؤيد أحمد بن إينال ، والظاهر خوشقدم ، والظاهر بلباي ، والظاهر تمر بغا ، والأشرف قايتباي ، وابنه الناصر محمد بن قايتباي ، والظاهر قانصوه ، والأشرف جان بلاط ، والعاذل طومان باي ، والأشرف قانصوه الغوري ، وربما عدوا معهم طومان باي الثاني ، وعليه : فعددهم ثلاثة وعشرون .
- (٣) ذكر المصنف رحمه الله تعالى اثنين من سلاطين بني عثمان ؛ وهم خمسة وثلاثون ؛ عثمان بن أرطغرل ، وابنه أورخان ، وابنه مراد الأول ، وابنه بايزيد خان الأول ، وابنه محمد جلبي بن بايزيد خان ، وابنه مراد الثاني ، وابنه محمد الثاني الفاتح ، وابنه بايزيد الثاني ، وابنه سليم الأول ، وابنه سليمان القانوني ، وابنه سليم الثاني ، وابنه مراد الثالث ، وابنه محمد خان الثالث ، وابنه أحمد الأول ، وأخوه مصطفى خان الأول ، وابن أخيه عثمان الثاني بن أحمد الأول ، وأخوه

[في ذكر ما جاء عن الموت وهوله]

ذكر في « تنبيه الغافلين » ممّا جاء في هول الموت وشدّته ما نصّه : (عن أنس بن مالك : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ . . أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ . . كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » ، قيل : يا رسول الله ؛ كلُّنا نكره الموت ، قال : « ليس ذلك كراهة الموت ، ولكن إذا احتضر المؤمن . . جاءه البشير من الله تعالى بما يصير إليه ، فليس شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى ؛ فأحبّ الله لقاءه ، قال : وإنّ الفاجر الكافر إذا احتضر . . جاءه النذير من الله تعالى بما هو صائر إليه من الشرِّ ، فكره لقاء الله ؛ فكره الله لقاءه » (١) .

وروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ؛ فإنّه قد كانت فيهم الأعاجيب » ، ثمّ أنشأ يحدث فقال : خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة ، فقالوا : لو صلينا ثمّ دعونا حتى يخرج لنا بعض الموتى فيخبرنا عن الموت ؟ فصلّوا ثمّ دعوا ربهم ، فبينما هم كذلك إذا برجل قد طلع عليهم من قبره برأسه أسود اللون وقال : يا هؤلاء ؛ ما أردتم ؟ فوالله لقد مُتُّ منذ سبعين أو مئة سنة وإنّ مرارة الموت ما ذهبت مني إلى الآن ، وكان بين عينيه أثر السجود (٢) .

مراد خان الرابع ، وأخوه إبراهيم خان ، وابنه محمد خان الرابع ، وأخوه سليمان خان الثاني ، وأخوه أحمد خان الثاني ، وابن أخيه مصطفى خان الثاني ، وأخوه أحمد خان الثالث ، وابن أخيه محمود الأول ، وعثمان خان الثالث ، ومصطفى الثالث ، وأخوه عبد الحميد الأول ، وابن أخيه سليم خان الثالث ، وابن عمه مصطفى الرابع ، وأخوه محمود الثاني ، وابنه عبد المجيد ، وأخوه عبد العزيز ، وابن أخيه مراد الخامس ، وأخوه عبد الحميد الثاني ، وأخوه محمد رشاد الخامس .

(١) أخرجه البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه (٦٥٠٧) ، ومسلم عن عائشة رضي الله عنها (٢٦٨٤) ، وهو عند السمرقندي بإسناده عن أنس رضي الله عنه (ص ٣٥) .

(٢) أخرج الحديث مع القصة أحمد في « الزهد » (ص ١٧) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (ص ١٣) ، وتمام في « فوائده » (٢٢٩) .

وعن الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « شدة الموت وكرهه على المؤمن أشد من ثلاث مئة ضربة بالسيف » (١) .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له : « أرفق بصاحبي ؛ فإنه مؤمن » ، فقال له ملك الموت : أبشر يا محمد ؛ فإنني بكل مؤمن رقيق ، والله يا محمد ؛ إنني لأقبض روح ابن آدم ، فإذا صرخ صارخ من أهله . . قلت : ما هذا الصارخ ؟ والله ما ظلمناه ولا سبقنا أجله ولا أستعجلنا قدره ، وما لنا في قبضه من ذنب ، فإن ترَضَوْا بما صنع الله تعالى . . توجروا ، وإن تسخطوا وتجزعوا . . تأثموا ، وما لكم عندنا من عتبية ، وإن لنا عليكم لغية وعودة ، فالحذر ثم الحذر ، وما من أهل بيت شعر ولا مدر في بر ولا بحر . . إلا وأنا أتصفح في وجوههم في كل يوم وليلة خمس مرات ، حتى إنني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد ؛ لو أنني أردت أن أقبض روح بعوضة . . ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الذي يأمرني بقبضها (٢) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لكعب الأحبار رضي الله عنه : حدثني عن الموت ، فقال : كأنه غصن شوك أدخل في جوف رجل ، فأخذت كل شوكة بعرق ، ثم أخذها رجل شديد الجذب ، فجذبها جذبة شديدة ، فقطع منها ما قطع ، وأبقى ما أبقى (٣) .

وقال حاتم الأصم : أربعة لا يعرفها إلا أربعة : لا يعرف قدر الشباب إلا الشيوخ ، ولا قدر العافية إلا أهل البلاء ، ولا قدر الصحة إلا المرضى ، ولا قدر الحياة إلا الموتى .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لو علمت البهائم ما تعلمون من الموت . . ما أكلتم منها لحماً سميناً أبداً » (٤) .

وذكر : أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله تعالى ، فقال له بعض الكفرة :

- (١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » عن الحسن رحمه الله رسلاً (٦٢٠) .
- (٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢٠ / ٤) ، وابن أبي عاصم في « الأحاد والمثاني » (٢٢٥٤) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٧٣) ، كلهم عن أبي الحارث بن الخزرج الأنصاري رضي الله عنه .
- (٣) أخرجه ابن أبي شيبه في « المصنف » (٣١٢ / ٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦٥ / ٥) .
- (٤) أخرجه القضاعي في « مسنده » (١٤٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٣) .

إنَّكَ تحيي جديدَ العهد بالموت ، ولعله لم يكن ميتاً ، فأحيى لنا مَنْ مات في الزمن الأوَّل ، فقال لهم : اختاروا مَنْ شئتم ؟ فقالوا : أحيى لنا سام بن نوح ، فجاء إلى قبره ، وصلى ركعتين ، ودعا الله تعالى ، فأحيا الله تعالى سام بن نوح ، فإذا برأسه ولحيته قد أبيضتا ، فقال له : ما هذا الشيب ؛ فإنَّ الشيب لم يكن في زمانك ؟ فقال : سمعت النداء ، فظننت أنَّها القيامة ، فشاب رأسي ولحيتي مِنَ الهيبة ، فقال له : منذ كم أنت ميت ؟ فقال : منذ أربعة آلاف سنة ، فما ذهبت عني سكرات الموت .

ويقال : ما مِنْ ميت يموت .. إلأً وعرض عليه الحياة والرجوع إلى الدنيا ، فيكره الرجوع إلى الدنيا ؛ لِمَا يلقى مِنْ شِدَّة الموت ، إلا الشهداء ؛ فإنَّهم لم يجدوا شِدَّة الموت ، فيتمنون الرجوع لكي يقاتلوا ويقتلوا ثانياً .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : ما مِنْ نفس بارَّة ولا فاجرة ، إلأً والموت خير لها ، فإنَّ كان باراً . . فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ ، وإنَّ كان فاجراً . . فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجلٍ مِنَ الأنصار ، فأنتهينا إلى القبر ولم يلحد بعد ، فجلس النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله وكأنَّ على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ، ورفع رأسه إلى السماء وقال : « أستعينوا بالله مِنْ عذاب القبر » مرَّتين أو ثلاثاً ، ثمَّ قال : « إنَّ العبد المؤمن إذا كان في إقبالٍ مِنَ الآخرة ، وأنقطع مِنَ الدنيا . . تنزل عليه ملائكةٌ بيضُ الوجوه ، كأنَّ وجوههمُ الشمسُ ، ومعهم كفنٌ مِنَ أكفان الجنة ، وحَنُوطٌ مِنَ حَنُوط الجنة ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثمَّ يجيء ملكُ الموت حتى يجلسَ عند رأسه فيقول : أيتها النفسُ المطمئنةُ ؛ أخرجي إلى مغفرةِ الله ورضوانِهِ ، فتخرجُ وتسيل كما تسيل القطرة مِنَ السماء ، فيأخذها ، فلا يدعونها في يده طرفةً عينٍ حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن والحَنُوط ، فيخرج منها ريحٌ كأطيبِ نَفحةٍ مِنْ مسكٍ وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها إلى السماء ، فلا يمرُّون بها على ملاٍّ مِنَ الملائكةِ إلأً قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : روح فلان ، بأحسن أسمائه ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون لها أبواب السماء ،

[يفتح لهم] ، فيشيئُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مَلَائِكَتُهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي مِنْهَا خَلَقْتَهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، فَتُعَادُ الرُّوحُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، يَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ يَقُولُ : رَبِّيَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ يَقُولُ : دِينِي الْإِسْلَامُ ، يَقُولَانِ لَهُ : مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ يَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولَانِ لَهُ : مَا عَلِمْنَاكَ وَمَا عَمَلُكَ ؟ يَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ ، قَالَ : فَيُنَادِي مَنْادٍ مِنَ السَّمَاءِ : صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوا لَهُ فِرَاشًا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَلْبَسُوهُ لِبَاسًا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَفْتَحُوا لَهُ طَاقَةَ مِنَ الْجَنَّةِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رِيحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفَسِّحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصْرِهِ ، وَيَأْتِيهِ شَخْصٌ حَسَنُ الْوَجْهِ ، طَيِّبُ الرِّيْحِ ، يَقُولُ لَهُ : أُبَشِّرُكَ بِالَّذِي بَشَّرَكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ بِهِ ، يَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ يَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي - يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ - قَالَ : وَأَمَّا الْكَافِرُ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَانْقَطَعَ مِنَ الدُّنْيَا . أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَائِكَةً مِنَ السَّمَاءِ ، سَوَدَ الْوَجْوهُ ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، يَقُولُ : أَيَّتْهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ ؛ أَخْرِجِي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ ، فَتَفَرِّقُ فِي أَعْضَائِهِ كُلِّهَا ، فَيَنْزِعُهَا كَمَا يُنْزَعُ الشُّوكُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَيَتَقَطَّعُ مِنْهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا . لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُهَا فِي تَلِكِ الْمُسُوحِ ، فَتَخْرُجُ مِنْهَا رَائِحَةٌ كَأَنَّتِ رِيحَ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلَا يَمْرُؤُونَ بِهَا عَلَى مَلَائِكَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ ؟ يَقُولُونَ : رُوحُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ [الَّتِي كَانَ يَسْمِي بِهَا فِي الدُّنْيَا] ، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ فَلَا يَفْتَحُ لَهَا ، وَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ ، ثُمَّ تَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ ، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيَجْلِسَانِهِ ، يَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ يَقُولُ : هَاهُ

لا أدري ، فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : هاه لا أدري ، فيقولان له : ما تقول في هذا الرجل الذي بُعثَ فيكم ؟ فيقول : هاه لا أدري ، فينادي منادٍ مِنَ السماء : كذب عبدي ، فافرُشوا له فراشاً مِنْ نارٍ ، وألبسوه لباساً مِنْ نارٍ ، وأفتحوا له طاقةً مِنَ النار ، فیدخلُ عليه مِنْ حرِّها وسُمومها ، وَيُضَيِّقُ عليه قبره حتى تختلفَ فيه أضلاعُه ، ويأتيه شخصٌ قبيحُ الوجه ، قبيحُ الثيابِ ، متتِنُ الريحِ ، فيقول له : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت تُوعِدُ به ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملُك [الخبيث] ، فيقول : يا ربِّ ؛ لا تقم الساعة ، يا ربِّ ؛ لا تقم الساعة » (١) اهـ (٢)

وقال الحريفيش في الفصل الثاني ما نصُّه : (روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما الميت في قبره إلا كالغريق ، ينتظر دعوةً تلحقه مِنْ أبٍ أو أخٍ أو صديقٍ له ، فإذا لحقته .. كانت أحبَّ إليه مِنَ الدنيا وما فيها » (٣) .

وعن كعب الأحمبار رضي الله تعالى عنه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمرُّ أحدٌ في المقابر إلا وتناديه أهل القبور : يا غافلاً لو علمت ما نحن فيه .. لذاب لحمك وجسدك كما يذوب الثلج على النار » .

وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : يا أبا حازم ؛ ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمَّرتُم دنياكم وخرَّبتُم أحرآم ، فأنتم تكرهون الثُّقْلَةَ مِنَ العمار إلى الخراب ، فقال : كيف القدومُ على الله ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ أمَّا المحسنُ : فكالغائب يأتي أهله فرحاً مسروراً ، وأمَّا المسيءُ : فكالعبد الآبقِ يأتي مولاهُ خائفاً محزوناً (٤) .

وقال بعض العارفين : كان رجل يحاسب نفسه ، فحسب يوماً سنينه ، فوجدها ستين سنةً ، فحسب أيَّامها ، فوجدها إحدى وعشرين ألف يوم وخمس مئة ، فصرخ صرخةً عظيمةً ، وخرَّ مغشياً عليه ، فلمَّا أفاق .. قال : يا ويلتاه ؛ أنا آتي ربي بإحدى وعشرين ألف

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣٧/١) ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وأحمد (٢٨٧/٤) .

(٢) « تنبيه الغافلين » (ص ٣٥-٤٨) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٧) .

(٤) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦٧/٦) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٢٩/٢٢) .

ذنب وخمس مئة ذنبٍ؟ ثمَّ قال: آهٍ عليَّ؛ عمَّرتُ دنيائي، وخرَّبتُ أخراي، وعصيتُ مولاي، ثمَّ لا أشتَهي النَّقْلَةَ مِنَ العِمرانِ إلى الخراب، ثمَّ شَهِقَ شَهِقَةً عَظِيمَةً ووَقعَ على الأَرْضِ، فَحَرَّكَوهُ، فإذا هو ميتٌ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ^(١)، وإذا كانَ هَذا حَالُ مَنْ يَكسِبُ كُلَّ يَوْمٍ ذَنْباً واحِداً، فكيفَ بَمَنْ لَه ذُنُوبٌ لا تحصى؟!!

ويروى عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: أنه وقف على قبر فبكي، فقيل له: إنك تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلَةٍ مِنَ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ.. فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ.. فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ»^(٢).

ويروى: أن رجلاً جاء إلى مقبرة فصلَّى ركعتين، ثم أضطجع، فرأى صاحب القبر، فقال له: يا هذا؛ إنكم تعملون ولا تعلمون، ونحن نعمل ولا نعمل، ولأن تكون ركعتان في صحيفتي خيراً من الدنيا وما فيها^(٣).

ويروى: أن فارساً مرَّ بـغلام، فسأله: يا غلام؛ أين العُمران؟ فقال له: أصعد تشرف، فصعد فأشرف على مقبرة، فقال: هذا الغلام إمّا جاهل وإمّا حكيم، فرجع إليه فقال: سألتك عن العُمران، فدللتني على المقابر، فقال الغلام: إنِّي رأيتُ أهلَ تلك القرية ينتقلون إلى هذه، ولم أرَ أحداً منهم ينتقل من هذه إلى تلك القرية، وإنما ينتقل من الخراب إلى العُمران، ولو سألتني عمَّن يواريك.. لدللتك.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من يومٍ إلَّا وملك يهتف في المقابر فينادي: يا أهل القبور؛ من تحسّدون اليوم؟ فيجيبونه فيقولون: نحسّد أهل المساجد في مساجدهم؛ يصلُّون ولا نقدر أن نصلي، ويصومون ولا نقدر أن نصوم، ويتصدّقون ولا نقدر أن نتصدّق، ويذكرون ولا نقدر أن نذكر، فيندمون على ما مضى من زمانهم».

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩١٦)، ووقع عنده أن الراوي من ولد طلحة بن عبيد الله، والمحاسب لنفسه: توبة بن الصمة.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٧١/١)، والترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «الاستذكار» (١٦٥/٢).

ولله درُّ القائل :

[من الرمل]

رَبِّ يَا رَبَّاهُ هَلْذَا جَسَدِي تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى مُرْتَهِنَا
مَا أَرَى لِي عَمَلًا لَكِنْ أَرَى يَا إِلَهِي فِيكَ ظَنِّي حَسْنَا
وَعَلَى عَفْوِكَ يَا ذَا الْفَضْلِ قَدْ كُنْتُ فِي دُنْيَايَ أَحْسَنْتُ الثَّنَا
فَأَقْبَلَ عَثْرَةَ عَبْدٍ مُذْنِبٍ وَتَجَاوَزَ وَأَعْفُ عَنْهُ مُحْسِنَا

وعن الأوزاعي رحمه الله تعالى عليه قال : مرَّ ميسرة بن حسين بالمقابر يوماً وقائده يقوده ، وكان كيف البصر ، فقال له قائده : هذه المقبرة ، فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ؛ أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع ، فرحمنا الله وإيّاكم ، وغفر لنا ولكم ، وبارك لنا ولكم في القُدوم عليه إذا صرنا إلى ما صرتم إليه ، قال : فردَّ الله تبارك وتعالى الروح إلى رجل منهم ، فأجابه بلسان فصيح فقال : طوبى لكم يا أهل الدنيا ؛ تحجُّون في الشهر أربع مرَّات ، قال ميسرة : إلى أين نحج في الشهر أربع مرَّات يرحمك الله ؟ قال : إلى الجمعة ، أمَّا تعلمون أنَّها حِجَّة مبرورة متقبَّلة ؟ قال : فقلت له : أخبرنا ما أنفع ما قدمتم عليه يرحمك الله ؟ فقال : الاستغفار يا أهل الدنيا أنفع الأشياء في الآخرة ، قال ميسرة : فما منعك أن تردَّ علينا السلام ؟ قال : السلام حسنةٌ ، والحسنات قد رفعت عنا ، فلا حسنةٌ تزيد ، ولا سيئة تنقص ، قد رضينا منكم يا أهل الدنيا بقولكم : رحم الله فلاناً المتوفى .

وقال الحارث بن نبهان رحمه الله تعالى عليه : كنتُ أخرجُ إلى الجبَّانات فأترحم على أهل القبور ، وأفكر فيهم ، وأعتبر بأحوالهم ، وأنظرهم سكوتاً لا يتكلَّمون ، وجيراناً لا يتزاورون ، قد صار لهم من بطن الأرض وطاءٌ ، ومن ظهرها غطاءٌ ، وأنادي : يا أهل القبور ، مُحيث من الدنيا آثاركم ، وما مُحيث عنكم أوزاركم ، وسكنتم إلى دار البلاء ، فتورمَّت أقدامكم ، قال : ثمَّ بكيتُ بكاءً شديداً ، ثمَّ ملتُ إلى قبَّة فيها قبرٌ ، فنمتُ في ظلِّها ، فبينما أنا نائمٌ إلى جانب القبر ، وإذا بصاحب القبر والسلسلة في عنقه ، وقد أزرقت عيناه ، وأسودَّ وجهه ، وهو يقول : ويلي ما حلَّ بي ، ولو رأني أهل الدنيا . . . لَمَا ركبوا معاصي الله تعالى أبداً ، طولبتُ - والله - باللذات فأوثقتني ، وبالخطايا فأغرقتني ، فهل من شافعٍ أو مخبرٍ أهلي بأمرِي ؟

قال الحارث : فاستيقظت وأنا مرعوب ، وكاد أن يخرج قلبي من هول ما رأيتُ ، فمضيت إلى داري وبتُّ ليلتي وأنا متفكِّرٌ فيما رأيتُ ، فلمَّا أصبحت . . قلتُ : دعني أعود إلى الموضوع لعلِّي أجدُّه أحدًا من زوَّار القبور فأعلمه بالذي رأيتُ ، فلمَّا مضيتُ إلى المكان الذي كنتُ فيه بالأمس . . لم أجدُّه أحدًا ، فمضتُ ، وإذا أنا بصاحب القبر يُسحبُ عليّ وجهه وهو يقول : يا ويلتاه ؛ ماذا حلَّ بي ، ساء في الدنيا عملي ، وطال فيها أجلي ، قد غضب عليَّ ربُّ الأرباب ، فالويل لي إن لم يرحمني وينقذني من العذاب .

قال الحارث : فاستيقظتُ وقد تولَّه عقلي ممَّا سمعتُ ورأيتُ ، فرجعتُ إلى داري وبتُّ ليلتي ، فلمَّا أصبحتُ . . أتيتُ القبر لعلِّي أجدُّ أحدًا ، فأخذني النوم فمضتُ ، فرأيتُ صاحب القبر وقد قيَّد بين قدميه وهو يقول : ما أغفل أهل الدنيا عني ، ضوعف عليَّ العذاب ، وانقطعت عني الحيل والأسباب ، وغضبَ عليَّ ربُّ الأرباب ، وغلَّق في وجهي كلُّ باب ، فالويل لي إن لم يرحمني ربُّ العزَّة الوهاب .

قال الحارث : فاستيقظتُ من منامي مرعوبًا ، وهممتُ بالانصراف ، وإذا بثلاث جوارٍ أقبلن كأنهنَّ الأعمار ، فتباعدتُ عنهنَّ ، وتواريتُ منهنَّ في المقبرة لكي أسمع كلامهنَّ ، فتقدمتِ الصغرى حتَّى وقفتُ على القبر وقالتُ : السلام عليك يا أبتاه ، كيف هدؤوك في مضجعك وقد أنقطعت عنا أخبارك ، فما أشدَّ حزننا عليك وشوقنا إليك ، ثمَّ بكت بكاءً شديدًا ؛ ثمَّ تقدمتِ الاثنتان ، فسلمتا على القبر ثمَّ قالتا : هذا قبر أينا الشفيق علينا والرحيم بنا ، آنسك الله برحمته ، وصرف عنك شرَّ عذابه ونقمته ، يا أبتاه ؛ جرتُ بعدك همومٌ لو عاينتها . . لأهمتك ، ولو أطلعت عليها . . لأحزنتك ، كشف الرجال وجوهنا وقد كنتِ أنتِ تسترها .

قال الحارث : فبكيتُ لمَّا سمعتُ كلامهنَّ ، ثمَّ قمتُ مسرعًا إليهنَّ ، فسلمتُ عليهنَّ ، وقلتُ لهنَّ : أيتها الجوارى ؛ إنَّ الأعمال ربِّما قبلت وربِّما ردت على صاحبها ، فما كان عمل أبيكنَّ المخلَّد في هذا القبر الذي عاينت من أمره ما أحزنني وأبكاني وأهمَّني ؟

قال الحارث : فلمَّا سمعنَ كلامي . . كشفنَ عن وجوههنَّ وقلنَ لي : أيُّها العبد الصالح ؛ وما الذي رأيتَ ؟ قلتُ لهنَّ : لي ثلاثة أيَّام اختلف إلى هذا القبر أسمع صوت المقمعة والسلسلة ؛ قال : فلمَّا سمعنَ ذلك . . قلنَ لي : هذه بشارة ما أضرَّها

ومصيبة ما أحرَّها ، نحن نقضي الأوطار ونعمرُ الديار وأبونا يُحرق بالنار ، فوالله ما يقرُّ لنا قرار حتَّى نتصرَّع إلى الملك الغفار ، فلعلَّه بعفوه وكرمه يُعتق أبانا من النار ، ثمَّ مضين يتعزَّن في أذيالهنَّ ، قال الحارث : فمضيتُ إلى داري ، فبتُّ ليلتي ، فلمَّا أصبحتُ . . أتيتُ القبر فجلستُ عنده وأنا متفكِّرٌ في حاله ، فغلبني النوم فنمتُ ، وإذا أنا بصاحب القبر له حُسنٌ وجمال ، وفي رجليه نعلٌ من ذهبٍ ، ومعه خَدَمٌ وغلَّمان ؛ قال الحارث : فسلمتُ عليه وقلتُ له : يرحمك الله ، مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا الرجل الذي عاينتَ من أمري ما أحزنك ، وأطلعتَ من حالي على ما أوجعك ، فجزاك الله عني خيراً ، فقلتُ له : وكيف كان حالك ؟ قال : لمَّا أطلعك الله عليَّ ، وأخبرتَ بناتي بالأمس بحالي . . أهملنَّ عيونهنَّ ، وأسبلنَّ شعورهنَّ ، وتصرَّعن لمولاهنَّ ، ومرَّغنَ خدودهنَّ في التراب ، واستوهبنني من العزيز الوهاب ، فغفر لي الذنوب والأوزار ، وأسكنني دار القرار ، فإذا رأيتَ بناتي . . فأعلمهنَّ بأمرِي ؛ ليزول عنهنَّ روعهنَّ وحزنهنَّ ، ويعلمنَّ أنّي قد صرتُ إلى جنات وقصور ، وولدان وحوار ، ومِسك وكافور ، وفرح وسرور ، وقد عفا عني العزيز الغفور ، قال الحارث : فأستيقظتُ فرِحاً مسروراً ، ومضيتُ إلى داري ، وبتُّ ليلتي ، فلمَّا أصبحتُ . . أتيتُ المقبرةَ ، فوجدتُهنَّ حافياتِ الأقدام ، عليهنَّ آثارُ الحزن والاعتماد ، فسلمتُ عليهنَّ ، وقلتُ لهنَّ : أبشركنَّ ؛ فقد رأيتُ أباكُنَّ في خيرٍ عظيمٍ ، وقد أخبرني أنّ الله تعالى أستجاب دعاءكنَّ ، وقد وهبَ لكنَّ أباكُنَّ ، قال الحارث : فلمَّا سمعنَ ذلك . . رفعتِ الصغرى يدها وقالتُ : اللهمَّ يا مؤنس القلوب ، يا ساتر العيوب ، يا كاشف الكروب ، يا غافر الذنوب ، يا علام الغيوب ؛ قد علمتَ ما كان من مسكنتي ، وأعتذاري في خلوتي ، وإقالتني من زلَّتي ، وتنصُّلي من خطيئتي ، وأنتَ اللهمَّ المالكُ لي ، والآخذُ بناصيتي ، ورجائي عند شدَّتي ، ومؤنسي في وحدتي ، فإن كنتُ قصرْتُ عمَّا أمرتني ، وأرتكبتُ ما عنه نهيتني . . فبجاهك حميتني ، وبسترك سترتني ؛ فيا أكرم الأكرمين ، [ويا منتهى غاية الطالبين ، ومالك يوم الدين ، أنت تعلم ما أخفي في الضمير ، وتدبِّرُ أمر الصغير والحقير] ؛ إن كنتَ قد قضيتَ حاجتي بفضلك ، وشفعتني في عبدك أبي الفقير الكسير الذليل الحقير . . فأقبضني إليك ، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قدير ، ثمَّ صرختُ صرخةً فارقتِ الدنيا ، قال : ثمَّ قامتِ الثانية ونادتُ بأعلى صوتها : اللهمَّ يا ربَّ الأرباب ، يا معتق الرقاب ؛ خلِّص من الشكِّ قلبي ،

يا مَنْ أَقَالِي مِنْ عَشْرَتِي ، وَأَعَانِي فِي شِدَّتِي ؛ إِنْ كُنْتَ قَبْلَتْ دَعْوَتِي ، وَقَضَيْتَ حَاجَتِي ،
وَعَمَّرْتَ بِذِكْرِكَ وَقْتِي . . فَأَلْحِقْنِي بِأَخْتِي ، ثُمَّ صَاحَتْ صَيْحَةً فَارَقَتْ الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَامَتِ الثَّلَاثَةُ
وَنَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا : يَا أَيُّهَا الْجَبَّارُ الْأَعْظَمُ ، وَالْمَلِكُ الْأَكْرَمُ ، لَكَ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ ،
وَالْوَجْهُ الْكَرِيمُ ، السَّعِيدُ مَنْ أَسْعَدْتَهُ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ أَشَقَيْتَهُ ، وَالْمَحْرُومُ مَنْ حَرَمْتَهُ ، [وَالرَّابِعُ
مَنْ وَهَبْتَهُ ، وَالْخَاسِرُ مَنْ عَذَّبْتَهُ] ؛ أَسْأَلُكَ بِأَسْمِكَ الْعَظِيمِ ، وَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، وَبِأَسْمِكَ
الَّذِي جَعَلْتَهُ عَلَى اللَّيْلِ فَدَجَا ، وَعَلَى النَّهَارِ فَأَضَاءَ ، وَعَلَى الْجِبَالِ فَتَدَكَّدَكَتْ ، وَعَلَى
السَّمَاوَاتِ فَارْتَفَعَتْ ، وَعَلَى الْأَرْضِينَ فَسُطِحَتْ ، وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ فَسَجَدَتْ ، اللَّهُمَّ إِنِّي
أَسْأَلُكَ إِنْ كُنْتَ قَضَيْتَ حَاجَتِي ، وَأَجَبْتَ دَعْوَتِي . . فَأَلْحِقْنِي بِأَخْتِي ، ثُمَّ شَهَقْتُ شَهَقَةً
فَارَقْتُ الدُّنْيَا ، رَحْمَةً اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِنَّ ؛ قَالَ الْحَارِثُ : فَتَعَجَّبْتُ مِنْ أحوالهنَّ وَتَقَارُبِ
أَجَالِهِنَّ (١) اهـ

* * *

(١) « الروض الفائق » (ص ٢٧-٣٨) .

أَيْنَ نُمْرُودُ وَكِنَعَانُ وَمَنْ مَلَكَ الْأَرْضَ وَوَلَّى وَعَزَلَ^(١)

صَدَّرَ الناظمُ رحمه الله تعالى هذا البيت والأبيات الثلاثة التي بعده بلفظ (أين) الاستفهامية ؛ تقريراً للموعظة المذكرة للموت الذي ذكره في البيت السابق ، كالخطيب الذي يقول : أين مَنْ مَضَى مِنَ القرون ؟ أين الأنبياء والمرسلون ؟

قال في « المصباح » : (و « أين » ظرف مكان ؛ يكون استفهاماً ، فإذا قيل : « أين زيد » . . . لزم الجواب بتعيين مكانه ، ويكون شرطاً أيضاً ، ويزاد « ما » فيقال : « أينما تقم . . . أقم ») اهـ

فكأنَّ الناظم رحمه الله تعالى يقول لك : يا أخي ؛ أنت غافلٌ عن ذكر الموت ، وكأنَّك عن قريب وقد نقلت من هذه الدار ؟ فإن كنت تُنكرُ ذلك . . . فأين نمرود وكنعان وعاد وفرعون وغيرهم ممن ذكر لك ، فإنهم مع عتوهم وفسادهم في الأرض وقوتهم وشدة بأسهم وتكبرهم وتجبرهم . . . أخذهم الموت على بغتة وهم لا يشعرون ، ﴿ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ دَاقِقَةٍ ﴾ ، فينبغي لك يا أخي أن تعتبر وتندكر الموت ، وتكثر من ذكره ، وتستعد له ؛ فإنه ليس له أجلٌ محدود ، ولا وقتٌ معروف ، بل يأتي بغتة ، فإن أتاك وأنت مستعد له . . . كنت من السعداء الفائزين ، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، لهذا هو المراد من كلامه رحمه الله تعالى .

ولنتكلم على مَنْ ذكرهم من الجبابرة فنقول :

أما كنعان : فهو أبو النمرود ، من أولاد حام بن نوح كما سيأتي ، وكان من الجبابرة العتاة الذين يعبدون الأصنام .

وأعلم : بأنَّ الجزاء من جنس العمل ، فكلُّ مَنْ تجرَّ على عباد الله في الدنيا . . . أدَّله الله

(١) رواية « الديوان » : (ملك الأمر) بدل : (ملك الأرض) .

يوم القيامة ؛ فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُجاء بالجبارين يوم القيامة رجالاً في صورة الذرِّ ، تطوهمُ الناسُ مِنْ هوانهم على الله تعالى حتَّى يُقضى بين الناس ، قال : ثمَّ يُذهبُ بهم إلى نار الأنيار » ، قيل : يا رسول الله ؛ وما نار الأنيار ؟ قال : « عصارة أهل النار » (١) .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُحشرُ المتكبرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذرِّ في صورةِ الناسِ ، يغشاهمُ الصَّغارُ في كلِّ مكان ، ويساقون إلى سجن يقال له : بولس - بسين مهملة - ويسقون مِنْ طينة الخبال ؛ عصارة أهل النار » (٢) .

وأما نمرود : فهو بالدال المهملة وبالذال المعجمة ، وهو ابن كنعان ، وهو نمرود إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ؛ وذكر في « الخازن » : (أنه كان ابن زنى ، وهو أول مَنْ وضع التاج على رأسه ، وتجبر في الأرض ، وأدعى الربوبية ، وملك الأرض كلها) (٣) .

وذكر الشريف الحسيني النسابة في « شرحه على منظومة ابن العماد في الأنكحة » : أن نمرود إبراهيم عليه الصلاة والسلام مِنْ أولاد نمرود الأكبر ، ونص عبارته : (ومن أولاد حام بن نوح : كوش ، وولد كوش : نمرود الجبار (٤) ، ومن أولاد نمرود هذا : نمرود الذي ابتلي به إبراهيم عليه الصلاة والسلام) اهـ

قال بعضهم : كانت سيرة النمرود هذا مذمومة عند الله تعالى وعند الناس ؛ وذلك أنه كان بخيلاً في قومه ، جائراً في حكمه ، محتجباً عن رعيته ، ولهذا لم يذكره الله تعالى في

(١) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٢١) ، و نار الأنيار : قال ابن الأثير في « النهاية » (١٢٦/٥) : (لم أجده مشروحاً ، فإن صحت الرواية . . فيحتمل أن يكون معناه : نار النيران ، فجمع النار على أنيار ، وأصلها أنوار ؛ لأنها من الواو ، كما جاء في « ربح » و « عيد » ، والله أعلم) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) ، وأحمد (١٧٩/٢) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٥٧) ، والذر : جمع ذرة ، وهي النملة الحمراء الصغيرة ، والصَّغار : الذُّنُّ والهوان ، وعصارة أهل النار : صديدهم .

(٣) « تفسير الخازن » (١٨٧/١) .

(٤) ومن أولاد نمرود الأكبر : سنحاريب ، ومن أولاد سنحاريب : كنعان ، ومن أولاد كنعان : نمرود الذي ابتلي به إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كما سيأتي .

القرآن العظيم بلفظ العَلَم ، وإنما ذكره بلفظ الكناية ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ
إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وغير ذلك .

وحاصل قصته مع سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : أن الله تعالى أعطى إبراهيم عليه الصلاة والسلام الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا في صغره قبل بلوغه حتى تفكر في الرب ، وظهرت له الكواكب ، وأستدل بها على ربه ، فرأى قومه يعبدون الأصنام ، وكانت اثنين وسبعين صنماً ، بعضها من ذهب ، وبعضها من فضة ، وبعضها من نحاس ، وبعضها من حديد ، وبعضها من رصاص ، وبعضها من حجر ، وبعضها من خشب ، وكان كبيرهم من ذهب مطلياً بالجواهر^(١) ، في عينيه ياقوتتان تتقدان تضيئان بالليل ، فقال لهم على سبيل التجاهل : هل هذه الأصنام تستحق أن تعبد؟ فلم يكن لهم جواب إلا التقليد ، فقالوا : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴾ فأقتدينا بهم ، وهذا التقليد الواقع منهم باطل ؛ لعدم أستناد الآباء إلى دليل ، فقال لهم : ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فقالوا له : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ ؟ فقال لهم : هؤلاء الأصنام ليست أرباباً لكم ، ﴿ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ ﴾ الذي قلته لكم ﴿ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ * وتالله لأكيدن أصنمكم بالتكسير ، فكسرها بالفعل بعد ذهابهم إلى عيد لهم ، وقد ذهب إبراهيم عليه الصلاة والسلام معهم ، فلمّا كان ببعض الطريق . . ألقى نفسه وقال : إنني سقيم أشتكى رجلي ، فتركوه ومضوا ، ثم نادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس ، حيث قال بصيغة الحلف : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ ﴾ ، فسمعها الضعفاء منه ، فرجع إبراهيم إلى بيت الأصنام وقبالة البيت صنم عظيم ، وإلى جانبه أصغر منه ، وهكذا كل صنم منها أصغر من الذي يليه ، وكانوا وضعوا عند الأصنام طعاماً يأكلون منه إذا رجعوا من عيدهم إليهم ، فقال لهم : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟ فلم يجيبوه ، فكسرها ؛ فلمّا رجعوا ورأوهم مكسرين . . ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، فقال الضعفاء من قوم إبراهيم - الذين سمعوا حلفه بقوله : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ ﴾ - : ﴿ سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، فقالوا فيما بينهم : ﴿ فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ ﴾ أي :

(١) أي : مرصعاً بها .

ظاهراً مكشوفاً للناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ على فعله ؛ بأن يكون أحدُ رآه يكسرها ، فأتوا به وقالوا له : ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِذْنِ إِبْرَاهِيمَ﴾ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿ ، فَنفَكَّرُوا وَتَذَكَّرُوا وَقَالُوا : مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْمَضْرَبَةِ عَنْ نَفْسِهِ بَوَاحٍ مِنْ الْجَوْه . . . يَسْتَحِيلُ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى دَفْعِ مَضْرَبَةٍ عَنْ غَيْرِهِ ، فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مَعْبُوداً ؟ ! وَأَقْرَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا ، ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي : أنقلبوا إلى المجادلة بعد ما أستمأوا ورجعوا إلى كفرهم ، وقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ، وقال بعضهم لبعض لَمَّا عجزوا عن المجادلة وضاعت عليهم الحيل : حرِّقوه وأنصروا آلهتكم ، - والقائل هو نمروذ بن كنعان بن سنحاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام ؛ وقيل : القائل رجل من فارس أسمه غيون خسف الله به الأرض ، وهلكذا شأن المبطل المغلوب إذا قرعت ^(١) حجته بالحجة القاطعة . . لا يبقى له مَفْزَعٌ إِلَّا الْمَغَالِبَةُ وَالْمَقَاتِلَةُ - فجمعوا له الحطب ، وكانت مدة الجمع شهراً ، ومدة الإيقاد سبعة أيام ، وكانوا يتقربون إلى آلهتهم بجمع الحطب ، حتى كانت المرأة منهم التي لا دراهم عندها . . تبيعُ غزلها وتشتري بثمنه حطباً وتلقيه في النار ، حتى صارت النار من شدة حرِّها على بعدٍ يُقذفُ فيها الطير من كبد السماء ، فعجزوا عن إلقاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيها من شدة حرِّها على بعدٍ ؛ فأمرهم إبليسُ بفعل المَنجنيق ، فوضعه فيه ورموه في النار ، وكان له من العمر حينئذٍ ست عشرة سنة ، وأوجد الله له فيها عين ماءٍ عذبٍ وورداً أحمرَ ونزجساً ، فصارت في حقه روضةً ، وبعث الله له جبريلَ بقميصٍ من حريرٍ وطنفسه ، فألبسه القميص أولاً .

وفي «الرازي» : (أن مدة مكثه فيها أربعون يوماً ، أو خمسون يوماً ، أو سبعة أيام) ^(٢) .

ولمَّا ألقوه فيها . . قال الله سبحانه وتعالى للنار : ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي : أبردي برداً غير ضارٍّ ، ولو لم يقل على إبراهيم . . لَمَّا أحرقت نارٌ ولا أتقدت أصلاً ؛ وذلك لأنه طِفَّتْ جميعُ النيران في ذلك اليوم .

(١) في الأصل : (فرغت) .

(٢) «التفسير الكبير» (١٨٨ / ٢٢) .

قال العلماء رضي الله عنهم : لولا أَنَّ الله عزَّ وجلَّ تدارك إبراهيمَ بالنعمة فقال : ﴿ وَسَلَّمَ عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ ﴾ . . لهلك مِنْ شِدَّةِ البرد اهـ^(١) .

وورد : أَنَّ سيِّدنا جبريل عليه الصلاة والسلام أتى لسيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو في النار فقال له : هل لك مِنْ حاجة ؟ فقال : أمَّا إِيكَ . . فلا ، قال له جبريل : فسل ربَّكَ ، فقال إبراهيم : حَسْبِي مِنْ سؤالي علمه بحالي^(٢) .

قال سيِّدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (ما كنتُ قطُّ بأنعمَ أياماً مِنْ الأيام التي كنتُ فيها في النار) .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

[في الأمر بقتل الوزغ]

ذكر بعض حواشي « البيضاوي » : أَنَّهُ لَمَّا أَلْقَى سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار . . جاء الوزغُ - وهو سام أبرص - فنفخ على إبراهيم ؛ فصمَّ بسبب ذلك .
وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الوزغ وقال : « كان ينفخ على إبراهيم »^(٣) ،
[وقال] : « مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ . . كُتِبَتْ لَهُ مِئَةٌ حَسَنَةٍ ، وفي الثانية دون ذلك ، وفي الثالثة دون ذلك »^(٤) .

وذكر بعض الحكماء : أَنَّ الوزغ لا يدخل بيتاً فيه زعفران ، وَأَنَّهُ يَبْيِضُ . اهـ
وأما من ملك الأرض وولى غيره المناصب وعزل غيره عنها . . فكثيرٌ كما هو معلوم ، فكلُّ زمان لا بُدَّ فيه مِنْ نافذِ الأمر والنهي ، يجلس مدَّةً ثمَّ يزول ، وتداول عليه الأيام حتى يذهبَ رسمُهُ ويُنسى أسمُهُ ، فسبحان مَنْ لا يزول ولا يتغيَّر!

- (١) ذهب الإمام الرازي رحمه الله في « تفسيره » (١٨٩/٢٢) إلى إبعاد هذا فقال : (أفيجوز ما روي من أنه لو لم يقل : ﴿ وَسَلَّمَ ﴾ . . لأتى البرد عليه ؟ والجواب : ذلك بعيد ؛ لأنَّ برد النار لم يحصل منها ، وإنما حصل مِنْ جهة الله تعالى ؛ فهو القادر على الحرِّ والبرد ، فلا يجوز أن يقال : كان البرد يعظم لولا قوله : ﴿ وَسَلَّمَ ﴾) .
- (٢) انظر « تنزيه الشريعة » (٢٥٠/١) ، والذي في « صحيح البخاري » (٤٥٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (« حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى في النار) .
- (٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٩) ، ومسلم (٢٢٣٧) .
- (٤) أخرجه مسلم (٢٢٤٠) ، وأبو داود (٥٢٦٣) ، والترمذي (١٤٨٢) ، وأحمد (٣٥٥/٢) .

قال بعضهم^(١) : ملوك الأرض الذين ملكوها من شرقها إلى غربها ، ومن يمينها إلى شمالها أربعة : اثنان مسلمان ، واثنان كافران .

فأما المسلمان : فسلیمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، وإسكندر ذو القرنين ؛ أما سليمان : فقد ذكره الله تعالى في القرآن العزيز في قوله عز من قائل : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ الآيات ، وأما إسكندر ذو القرنين : فذكره الله تعالى أيضاً في قوله : ﴿ وَيسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ﴿ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآيات ، وهو من أولاد سام بن نوح ، وأسلم على يد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، وكان رجلاً صالحاً ولم يكن نبياً ، وعاش ألف سنة وست مئة سنة رضي الله تعالى عنه ؛ وهو ذو القرنين الأكبر .

وأما الاثنان الكافران : فالنمرود بن كنعان المتقدم ذكره ، والثاني : ذو القرنين الأصغر ؛ وهو من أولاد العيص بن إسحاق ، وكان بينه وبين المسيح عليه الصلاة والسلام ثلاث مئة سنة ، وهو كافر باتفاق ، وهو الذي تنسب إليه الإسكندرية المدينة المشهورة .

وذكر « الخازن » : أن الثاني من الكافرين : بختنصر بدل ذي القرنين الأصغر^(٢) .

* * *

(١) القائل هو الإمام مجاهد بن جبر كما أخرج ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٦٩/٧) ، أو ابن عباس كما أخرج الطبري في « تاريخه » (٢٣٤/١) .

(٢) انظر « تفسير الخازن » (١٨٧/١) .

أَيْنَ عَادُ أَيَّنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ

أي : فتذكر الموت ، وأنظر إلى هؤلاء الجبابرة كيف قصمهم الله تعالى وأبادهم وأهلكهم ، ولم تنفعهم أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم العالية المرتفعة ، كما سيأتي في قول الناظم : (هلك الكل فلم تُغنِ القل) .

وقوله : (أين عادُ) شامل لعادِ الأولى ولعادِ الثانية .

أما عادُ الأولى : فهو عادُ بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وكان جباراً عنيداً ، عاش ألف سنةٍ ومئتي سنةٍ ، وتزوج ألف بكرٍ ، ورزق من صلبه أربعة آلاف ولدٍ من الذكور ، وكان طولُ الطويل منهم أربع مئة ذراع ، ورزقوا من القوة ما لا يُرزقه أحدٌ ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، فانظر إلى قوله عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، فلم تكن قبيلةً في الأرض أشدَّ منهم ؛ لأنه لو كان هناك قبيلة في الأرض أشدَّ منهم . . لردَّ الله عليهم بها ، فلمَّا لم يكن أشدَّ منهم إلا الله الذي خلقهم . . قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ ﴾ الآية .

وكان من قصَّتهم ما ذكره ابن إسحاق ؛ أنهم كانوا ينزلون اليمن ، وكانت مساكنهم بالأحقاف ؛ وهي رمالٌ بين عُمان وحضرموت ، وقهروا الخلق جميعاً ، وكانوا يعبدون صنماً يقال له : صُداء ، وصنماً يقال له : هَبَاء ، وصنماً يقال له : صَمُود ، فبعث الله إليهم أخاهم هوداً نبياً ، وكان من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً ، فأمرهم أن يوحدوا الله تعالى ، ويكفُّوا عن مظلَم الناس ، ولم يأمرهم بغير ذلك ، فكذبوه وقالوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ ! وبطشوا بطشة الجبارين ؛ فلمَّا فعلوا ذلك . . أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتَّى أجهدهم ذلك ، فخرج منهم نحو سبعين رجلاً ، وتوجَّهوا لمكة للاستسقاء ؛ لأنَّ الناس في

ذلك الزمان كانوا يعظمون البيت الحرام مؤمنهم وكافرهم ، وكان فيهم رجل مؤمنٌ يَكْتُمُ
إيمانه ، فقال : والله لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أظعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم . . . سقيتم ،
وأظهر إسلامه في ذلك الوقت ، وأنشد يقول :

عَصَتْ عَادٌ رَسُولَهُمْ فَأَمْسَوْا عَطَّاشًا مَا تَبَلَّهُمُ السَّمَاءُ
لَهُمْ صَنْمٌ يُقَالُ لَهُ : صَمُودٌ يُقَالُ لَهُ صُدَاءٌ وَالْهَبَاءُ
فَبَصَّرْنَا الرَّسُولَ سَبِيلَ رُشْدٍ فَأَبْصَرْنَا الْهُدَى وَجَلَى الْعَمَاءُ
وَإِنَّ إِلَهَ هُودٍ هُوَ إِلَهِي عَلَيْهِ لِي التَّوَكُّلُ وَالرَّجَاءُ^(١)

فلَمَّا سمعوا منه ذلك . . . منعه أن يصحبهم للاستسقاء ، ولَمَّا توجَّهوا إلى مكة وكان فيهم
ولدٌ لعادٍ ، فدعا الله وقال : إلهنا ؛ إن كان هودٌ صادقاً . . . فأسقنا ؛ فإننا قد هلكنا ، فأنشأ الله
سحائب ثلاثاً : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ، ثم ناداه منادٍ من السماء وقال له : اختر لنفسك
وقومك من هذه السحائب ، فقال ولد عاد : اخترت السحابة السوداء ؛ لأنها أكثر السحاب
ماءً ، فناداه منادٍ : اخترت رماداً رمديداً ، لم يبق من آل عادٍ أحداً ؛ وساق الله السحابة
السوداء بما فيها من البلاء على عاد ، حتَّى خرجت عليهم من وادٍ يقال له : الغيث ، فلَمَّا
رأوها . . . استبشروا وقالوا : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ ، فقال الله لهم : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ
فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ * تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريحٌ امرأةٌ
منهم ، فصاحت ثم صَعَقَتْ ، فلَمَّا أفاق . . . قالوا لها : ما رأيت ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها

(١) واسم الرجل المؤمن : مرثد بن سعد بن عُفير كما في « تاريخ الطبري » (٢٢٣ / ١) ، و « جمهرة أشعار العرب » للقرشي
(ص ٣٣) ، وتمتمة الآيات :

وَسَيَّرَ وَفَدَّهُمْ شَهْرًا لِيُسْقَوْا
بِكَفَرِهِمْ بِرَبِّهِمْ جِهَارًا
أَلَا نَنْزِعَ إِلَهُهُ حُلُومَ عَادٍ
مِنَ الْخَبْرِ الْمَبِينِ أَنْ يَعْوَهُ
فَنَفْسِي وَابْتِئَايَ وَأُمَّ وَوَلَدِي
أَتَانَا وَالْقُلُوبَ مَصَّعَاتٍ
فِيئَاتِي سَوْفَ الْحَقِّ آلَ هُودٍ
فَأَرْدَفَهُمْ مَعَ الْعَطَشِ الْعَمَاءُ
عَلَى أُنَارِ عَادِهِمُ الْعَفَاءُ
فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ قَفَرٌ هَوَاءُ
وَمَا تَغْنِي النَّصِيحَةَ وَالشَّفَاءُ
لِنَفْسِ نَبِيِّهَا هُودٍ فِدَاءُ
عَلَى ظَلَمٍ وَقَدْ ذَهَبَ الضِّيَاءُ
وَإِخْوَتَهُ إِذَا جَنَّ الْمَسَاءُ

كشهب النار ، أمامها رجالٌ يقودونها ، فسخرها الله عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسوماً ، فلم تدعُ مِنْ عادٍ أحداً إلاَّ هلك ، ونجا هودٌ وَمَنِ اتبعه .

قال السُّدي : بعث الله عليهمُ الرِّيحَ العقيم ، فلمَّا دنتُ منهم . . نظروا إلى الإبل تطير بها الرِّيح بين السماء والأرض ، فهربوا وأغلقوا بيوتهم ، فجاءت رِيحٌ فقلعت أبوابهم ، ثمَّ دخلت عليهم فأهلكتهم ، ثمَّ أخرجتهم مِنَ البيوت ، فلمَّا أهلكتهم . . أرسل الله عليهم طيراً سوداً ، فنقلتهم إلى البحر ، قالوا : ولم يخرج رِيحٌ قطُّ إلاَّ بمكيال ، إلاَّ في ذلك اليوم ؛ فإنَّها عتتْ على الخزنة فغلبتهم ، فلم يعلموا كم كان مكيالها^(١) .

وأما عادُ الثانية : فهو مِنْ نسل وعقب عادِ الأولى ؛ لأنَّه لَمَّا مات عاد كافراً . . ترك ابناً له يقال له : شدَّاد ، وكان أعتى مِنْ أبيه ، وهو الذي هلك وطائفتهُ بالصيحة .

قال السُّعبي : إنَّ شدَّاد بن عادٍ مَلَكٌ سائر الدنيا ، وكان قومهُ بقيةَ قوم عادِ الأولى الذين زادهم الله بسطةً في الأجسام ، وقوَّةً في الأعضاء ، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام نبياً ، كما بعثه إلى عادِ الأولى ، فدعاهم إلى الله تعالى ، فقال له شدَّادُ بنُ عادٍ : إذا آمنت بربِّك فما لي عنده ؟ قال : يعطيك في الآخرة جنةً مبنيةً مِنْ ذهبٍ وياقوت ولؤلؤ ، وبأرضها أنواع الجواهر والمسك والعنبر ، فقال شدَّاد : أنا أبني مثل هذا ، ولا أحتاجُ إلى ما تعدني به ، ثمَّ أمر شداد ألفَ أميرٍ مِنْ جبابرة قومه أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعةً ، كثيرةَ الماء ، طيبةَ الهواء ، بعيدةً مِنَ الجبال ، ليبنى فيها مدينةً مِنَ الذهب ؛ قال : فخرج أولئك الأمراء ، ومع كلِّ أميرٍ ألفٌ مِنْ خدمه وحشمه ، فساروا في أرض اليمن حتى وصلوا جبل عدن ، فوجدوا هناك أرضاً واسعةً طيبةَ الهواء ، فأمروا البنائين والمهندسين ، فاخترطوا مدينةً طولها أربعون فرسخاً ، مِنْ كلِّ جهةٍ عشرةَ فراسخٍ ، ثمَّ حفروا الأساس إلى الماء ، وبنوه بحجارةِ الجَزَع اليماني - بفتح الجيم وسكون الزاي : خَرَزٌ فيه بياضٌ وسوادٌ ، الواحدة : جَزَعَةٌ ، مثل : تَمْرٌ وتَمْرَةٌ - حتى ظهروا على وجه الأرض ، ثمَّ أحاطوا بها سوراً أرتفاعه خمسُ مئةٍ ذراعٍ ، وصفحوه بصفائح الفضة المطليَّة بالذهب ، حتى صار لا يدركه البصر إذا أشرقت

(١) انظر « تاريخ الطبري » (١/٢١٦-٢٢٦) .

عليه الشمس ، وقد جَمَعَ المعادن من سائر الدنيا ، وأتخذها لِبِنَاءٍ ، حتَّى إِنَّه لم يبقَ في يد أحدٍ شيئاً منها إلاَّ أخذه ، وأستخرج الكنوز المدفونة ، ثمَّ بنى داخل المدينة ألف قصرٍ ، كعدَدِ رؤساء مملكته ، كلُّ قصرٍ على ألفِ عمودٍ من أنواع الزبرجدِ معقود بالذهب والفضة ، طولُ كلِّ عمودٍ مئةُ ذراعٍ ، وأجرئى في وسطها الأنهار ، وأوصل منها جداول لتلك القصور والمنازل ، وجعل حصاها من الذهب والفضة وأنواع الجواهر واليواقيت ، وجعل على حافات الأنهار أشجاراً من الذهب ، وجذوعها من الزبرجد ، وطلئى حيطانها بالمسك والعنبر ، وجعل بها جنةً مزخرفةً لنفسه ، وجعل أشجارها الزبرجد واليواقيت ، ونصب عليها الطيور المطربة وغير ذلك ، ثمَّ بنى حول المدينة ألفَ منارةٍ ، فلَمَّا كُمِّلَ بناؤها . . أمر عماله بمشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا من البلاد بسطاً وستائر وفرشاً من أنواع الحرير المرقوم بالذهب والفضة ؛ لتوضع في تلك الغرف والقصور ، وأمر بأتخاذ أواني الذهب والفضة ؛ ليوضع فيها الأطعمة والأشربة ، فأتخذوا جميع ما أمر به ، فلَمَّا فعلوا ذلك كله . . خرج شداد من أرض حضرموت مع أكابر دولته وأمراء مملكته ، وقصدوا مدينة إرم ذات العماد ، فلَمَّا أشرفوا عليها . . قال : لقد صدقتُ في قولي ، ولا أنتظر ما قاله هود ووعدي به ؛ فإنَّه بعيدٌ وهذا قريب ، وقد قدرتُ عليه في الدنيا ، فلَمَّا أراد دخولها . . أمر الله تعالى ملكاً من الملائكة أن يصيح فصاح بهم صيحةً ، فخرُّوا على وجوههم صرعى ، وقبض ملك الموت أرواحهم جميعهم في طرفة عين ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴾ ، ومدَّةُ بنائها ثلاثُ مئةِ سنةٍ ، كما قاله الشيخ خالد على « البردة » ، وأخفاها الله تعالى عن أعين الناس إلى يوم القيامة .

وقد قيل : إنَّ رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له : عبد الله بن قلابة دخل فيها ؛ وذلك أنه ضلَّتْ له إبلٌ ، فخرج في طلبها ، فنظر إلى المدينة ، فلَمَّا رآها . . دهش لرؤيتها ، فلَمَّا وصل إليها . . أناخ ناقته ودخلها ، فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار ولم ير أحداً ، فقال : أرجع إلى معاوية فأخبره بهذه المدينة وما فيها ، ثم حمل معه شيئاً من تلك اليواقيت والجواهر ، وعلم على المدينة بجهااتها ، ثمَّ سار بعد ما ظفر بإبله إلى معاوية بدمشق وأخبره بما رأى ، فقال له معاوية رضي الله تعالى عنه : في اليقظة رأيتها أم في المنام ؟ فقال : بل في اليقظة وحملتُ من حصائها ، فقال : أرني ، فأخرج له شيئاً

مِنَ الجواهر والياقوت ، فتعجَّب معاويةٌ مِنْ ذلك ، وأرسل إلى كعب الأحمار ؛ فلمَّا دخل عليه . . قال له معاوية : يا أبا إسحاق ؛ هل بلغك أنَّ في الدنيا مدينةً حصاؤها الدرُّ والياقوت ؟ فقال : نعم ، وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز فقال : ﴿ إِمَّ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ أَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿ ١ ﴾ ، وقد أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس إلى يوم القيامة ، وسيدخلها رجلٌ مِنْ هذه الأمة يقال له : عبد الله بن قلابة الأنصاري ، ثمَّ ألتفت كعبٌ فرأى عبد الله فقال : هذا يا أمير المؤمنين ، وصفتهُ وأسمه في التوراة ، ولا يدخلها أحدٌ بعده إلى يوم القيامة ، وقيل : إنَّ ذلك كان في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه . اهـ (١)

وأما فرعون : فأبتداء أمره : أنه كان بمصرَ رجلٌ يقال له : مصعب بن عمير ، وكان يرعى البقر لقومه ، وكانت له امرأةٌ مِنْ أولاد العمالقة ، ولم يكن له ولد ، فبينما هو ذات يوم وإذا ببقرة قد وضعت عجلاً ، فتأوَّه حزناً على أنه عمَّر ولم يرزق ولداً ، فنادته البقرة : يا مصعب ؛ لا تحزن فإنَّك ترزق ولداً يكون ركناً مِنْ أركان جهنم ، فرجع إلى امرأته فأخبرها بذلك ، فحملت بفرعون ، ومات أبوه قبل ولادته ، فلمَّا ولدته . . سمته الوليد بن مصعب ، فربَّته وعلمته النجارة ، ثمَّ ولع بالقمار فعاتبته أمُّه على ذلك ، فقال لها : يا أمَّاه كُفِّي عَنِّي ؛ فإنِّي عون نفسي ، ولزم اللعب ، فلم يكن يدعى إلاَّ عون نفسه ، فخرج يوماً يقامر ، فقمروه بقميصه ، فأخذوه منه ولم يبقَ عليه شيءٌ يواري عورته ، فهرب على وجهه حتَّى صار إلى قريةٍ مِنْ قرى مصر ، فخدم عند رجل بقال ، فكساه البقال ، ثمَّ فرَّ مِنَ البقال ورجع إلى أمِّه ، فقالت له : إنَّك نجار حاذق ، فلو أشتغلت بصنعتك . . لكفتك ، فقال : يا أمَّاه ؛ أنا عون نفسي ، فلقبوه بفرعون نفسه ، وكان يشتري بطيخاً وبقلاً ويبيع على قارعة الطريق ، وجعل يدور في أهل مصر يسرق ويهرب مرَّة ، ويقع مرَّة ، ثمَّ خدم عند رجلٍ مِنَ العمالقة ، وجعل يسوس فرسه حتَّى مات الرجل ولم يخلف ورثة ، فاحتوى فرعون ماله فأكله ، ثمَّ ضاق به

(١) قصة المدينة التي بناها شداد ودخلها ابن قلابة فأخبر بها سيدنا معاوية أخرجها أبو الشيخ في « العظمة » (٩٨٣) ، والثعالبي في « تفسيره » (١٩٦ / ١٠) وغيرهما . وانظر « فتح الباري » (٧٠٢ / ٨) ، و« تفسير ابن كثير » (٥٠٨ / ٤) .

الأمر ، فقعده على مقابر مصر يطالب أصحاب الموتى الكبير والصغير ، فأستمرَّ مدَّة ويُظهر
أنَّهُ بإذن الملك ، حتَّى جمع مالا كثيرا وجعل بين يديه أعوانا ، ولم يعرف الملك بشيءٍ مِنْ
ذلك ، فماتت بنته ، فتعلَّق بها ، فبلغ ذلك الملك ، فغضب منه وهمَّ بقتله ، فقال فرعون :
أئيها الملك ؛ لا تعجل عليّ ، فحمل له مِنَ المال الذي جمعه شيئا كثيرا ، فأخذ له الملك -
فهو أوَّل مَنْ أسَّس البرطيل على وجه الأرض^(١) - فطاب قلب الملك عليه ، وأقره على ما كان
يأخذه مِنَ الجنائز ، فرتب على جنازة الملوك ألف درهم ، وعلى جنازة الوزراء سبع مئة
درهم ، وعلى جنازة الجند خمس مئة درهم ، وأستمرَّ مدَّة على ذلك ، ثمَّ أجمع أشرف
مصر ودخلوا على الملك وقالوا : ما هذه إلا سمعة قبيحة بين الملوك ، تأخذ الحقَّ على
الموتى ، فأستدعى الملك فرعون ، وأخذ جميع ما حصَّله ، فطلب منه فرعون أن يجعله
واليا على حراسة الليل ، وكانت حراسة الليل في ذلك الوقت شديدة ؛ لأنَّ الملك كان يخاف
ممن يقتله ، فقال لفرعون : كلُّ مَنْ لقيته بالليل أقتله ، أي شخص كان ، وخلع عليه الملك
وجعل بين يديه أعوانا ، واتخذ فرعون لنفسه قبة في وسط البلد ، وجعل يفرِّق الأعوان في
نواحي البلد ، فكلُّ مَنْ وجدوه في الليل يقتلونه ، ثمَّ أتفق أن الملك رأى مناما أفرعه ؛ وهو
أنَّهُ رأى أربعة قرون ، في وسط كلِّ قرن شعله من نار ، قد جمع شعاعها جميع أهل مصر ،
ثمَّ جاءت عقربة وصعدت إلى سريره وفتحت فاها ؛ قال : فرأيت لها أنيابا حدادا ، ثمَّ
قالت : أئيها الملك ؛ قد قرَّب أجلك ، فأختر لك واحدة من هذه الثلاث ؛ إمَّا أن أبلعك ،
وإمَّا أن أقطعك ، وإمَّا أن أطرحك ، فقامت العقربة فضربتني ضربة رمثني بها إلى الأرض ،
ثمَّ أستوت جالسة على سريري ، ثمَّ قالت : يا أهل مصر ؛ كونوا لي عبيدا ، ثمَّ رأيت بعد
ذلك عمران بن صهيب وقد خرجت من ظهره حيَّة سوداء ، لها قرون من فضة وذهب ونحاس
وحديد ، فقرن الذهب بلغ السماء ، وقرن الفضة بلغ المشرق ، وقرن الحديد بلغ المغرب ،
وقرن النحاس تعلَّق به ناس بيض الوجوه لهم نور ساطع ، فقال المعبرون : أئيها الملك ؛
لرؤياك شأن عظيم ، فأجَّل لنا شهرا ننظر فيها ، فوقع في قلب الملك ليلا أنه يخرج عند بعض
وزرائه ليسليه عمَّا به ، فخرج سرا وليس معه أحدٌ من الخدم ، فوقع به أعوان فرعون ،

(١) البرطيل : الرشوة .

فحملوه إليه ، فصار يقول : أنا الملك ، فلم يسمعوا منه مخافة أن يكون كاذباً ، حتى أتوا به إلى فرعون ، فقال : أنا الملك ، فلم يسمع منه وأمر بإنزاله عن فرسه فضرب عنقه ، وبادر فرعون من ساعته هو وجميع أعوانه ودخلوا قصر الملك ، فأستوى فرعون على سرير الملك ، ووضع التاج على رأسه ، وأستدعى الأمراء والوزراء وكبار الدولة ، فأمرهم ونهاهم ، فدانوا له بأجمعهم ، فأول من سجد له هامان وكان غلاماً للملك ، ثم الوزراء ، ثم الملوك ، ثم العوام ، ثم بعث إلى أسباط بني إسرائيل فدعاهم إلى الطاعة ، فأمتثلوا له ظاهراً وعبدوا الله سبحانه وتعالى باطناً ، فعلم بذلك فرعون ، فأمر بقدور من نحاس وحديد وملاها زيتاً ، وأضرم تحتها النيران ، وألقاهم فيها ، فجعلوا يقولون : أدركنا يا إلهنا وإله آبائنا إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ؛ فإننا بك مؤمنون ، وعليك متوكلون ، فأقض يا فرعون ما أنت قاض ، فلمّا طرحوا فيها . . طارت أرواحهم إلى الجنة ، وأختفى من بني إسرائيل جماعة يعبدون الله سرّاً .

فبينما فرعون جالس على سريره قبل ولادة موسى بن عمران بن صهيب . . إذ أشرف عليه رجل من جدار قصره وهو عاضٌ على أنامله وهو يقول : يا فرعون ؛ أظنُّ أن إلهك غافل عن سوء فعلك وأستعبادك للناس دون ربِّ العالمين ؛ ففزع فرعون من هذا القول وتحول إلى قصر آخر ؛ فلمّا أستقرَّ به . . أتاه ذلك الرجل بعينه ، فقال له مثل تلك المقالة وقال : هلكت يا ملعون إن لم تؤمن بربِّك الذي خلقك ورزقك ، وانتقل إلى قصر آخر فسمع تلك المقالة ، فلم يزل ينتقل من قصر إلى قصر إلى أن دخل أربعين قصرًا .

ثم إن فرعون خاف من كثرة ما أهلك من الخلق وقال : ما أظنُّ أن يكون هلاكي إلا على يد بني إسرائيل ، فأتوني بعمران ؛ فإنه كبيرهم ، لأصنع إليه ولمن بقي معه معروفًا ، فلمّا دخل عليه عمران . . قال له فرعون : يا عمران ؛ أحبُّ أن تكون لي وزيراً ، فقال : عمران بين يديك ، فخلع عليه ، وتوجّه بتاج ، وجعله سيّد وزرائه ، حتى بقي هامان وغيره تحت نظره .

ثم وُصفت آسية لفرعون ، فأرسل إلى أبيها مزاحم بن صهيب ، ومزاحم أخو عمران ، فأعطاه المال الجزيل ، وأمر باتخاذ قصر وتزيينه ؛ فلمّا دخلت آسية إلى دار فرعون ، ونظرت إلى حسن بنائها . . قالت : ما أحسنها لو كان بناؤها من رجل طائع لله تعالى ، ودخل

عليها فرعون ، فلمَّا همَّ بها . . . خذله الله عنها ، وكان ذلك حاله معها إلى أن ماتت رحمة الله عليها ، ولم يقدر عليها أبداً .

فبينما فرعون مع آسية . . . إذ سمع هاتفاً يقول : ويلك يا فرعون ؛ لقد قرَّب زوال ملكك على يد فتى من بني إسرائيل ، فعند ذلك أستشار وزراءه ، فقالوا : الرأي في ذلك أن توكل بالنساء الحبالى من يحفظهنَّ ، فيذبح البنين ويترك البنات ، ففعل ذلك حتى قتل اثني عشر ألف طفل ، فضجَّت الملائكة إلى ربِّها ، فأوحى الله إليهم : إنَّ له أجلاً محدوداً ؛ فبينما عمران بن صهيب جالس على كرسي فرعون ذات ليلة . . . إذ نظر إلى أمرأته يوحانذ قد دخلت عليه على جناح ملك ، ففزع وقال لها : ما جاء بك ؟ فقال له الملك : إنَّ الله يأمرك أن تواقعها على فراش فرعون ، فواقعها فحملت بموسى عليه الصلاة والسلام .

فلما أصبح فرعون . . . دخل عليه المنجمون وقالوا له : المولود الذي كنت تخاف منه قد حملت به أمُّه الليلة وظهر نجمه ، فشدَّد فرعون في الطلب ؛ فلمَّا تمَّ لموسى تسعة أشهر . . . وضعت أمُّه وهي شديدة الخوف من فرعون ، وسمع فرعون في تلك الليلة هاتفاً يقول : ولد موسى وهلك فرعون ، فاغتمَّ فرعون وشدَّد في الطلب ، فأدخلته أمُّه في التنور وخرجت ، وكانت أخته قد عجنت فسجرت التنور ، فدخل هامان دار عمران ، ففتش فلم يجد فيها شيئاً ، ورأى التنور مسجوراً فانصرف ، ورجعت أمُّ موسى إلى منزلها ، فأسرعت نحو التنور ، فأخرجته ولم تمسه النار ، ثمَّ أقبلت على نجار وكان قريباً لها ، فلذلك أخبرته بمولودها ، فقالت له : أتخذ لي تابوتاً محكماً ، فقال : ما تصنعين به ؟ فقالت : قد ولدت مولوداً ، وأخاف عليه من فرعون ؛ فلمَّا أنصرفت . . . قام ليخبر هامان ، فأخذته الأرض إلى كعبيه ، وسمع الأرض تقول : وعزَّة ربِّي ؛ لئن لم ترجع وتتخذ تابوتاً وإلا . . . أبتلعتك ، فتاب ، فخلته الأرض ، وأتخذ التابوت ، وحمله في الليل إلى دار عمران ، وسلَّمه إلى أمِّ موسى ، وطلب منها أن ترضيه المولود ، فلمَّا رآه . . . قبله ، وكان أوَّل من آمن بموسى ، ومات عمران ، فعمدت أمُّ موسى إلى التابوت ، ووضعت فيه وبكت ، فسمعت النداء : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، فأطبقت عليه باب التابوت ، وطرحته في النيل ، وأمر الله الملائكة بحفظ التابوت ، وبقي أربعين يوماً في البحر ، قاله وهب ، وقيل : ثلاثة أيام ، قاله كعب ، وقال ابن عباس : ليلة ، فبينما فرعون جالس وهو مشرف على النيل . . . فإذا هو

بتابوت والرياح تضربه ، حتَّى أوقفته إلى قصر فرعون ، فلم يزل يجري في النهر حتَّى ركض^(١) في الحوض الذي في دار فرعون ، فنظرت إليه آسية ، وأخرجته وقبّلته وهي لا تعلم أنّه ابن عمّها عمران ، فحملته إلى فرعون ؛ فلمّا رآه فرعون . . فزع منه ، فقالت آسية : أيّها الملك ؛ لا تخف ، هو في أيدينا ، متى رأينا منه شيئاً . . قتلناه ، ولم تزل تشير عليه حتَّى صدق وفعل ما قالت له .

ثمّ إنّ موسى صاح وبكى ، فأتوه بالمراضع كلهنّ ، فلم يقبل ثدي واحدة منهنّ ، فسمعت أمّه بأنّ التابوت صار إلى دار فرعون ، فقامت من ساعتها ودخلت على آسية وموسى بين يديها ، فقربتها آسية حين عرفت أنّها امرأة عمّها عمران ، فقالت لها : خذي هذا المولود ؛ فلمّا أخذته أمّه . . وجد موسى رائحة أمه ، فضحك وقبّل ثديها ، فأرضعته^(٢) ، فقال لها فرعون : إنّي أرى لك لبناً غزيراً ، فهل لك ولد ؟ فقالت : وهل ترك الملك لأحد ولداً ؟ فقالت آسية لأمّ موسى : إنّي أرى أن تكوني عندي إلى أن يُفطم من الرضاع ، فقامت وأتخذت لها مهداً من صفائح الذهب ، فلمّا أرادت أمّ موسى الانصراف إلى منزلها . . أمرت لها آسية بشيء من الذهب ومن القماش الفاخر وغيره .

فلمّا صار لموسى عليه الصلاة والسلام ثلاث سنين . . دعاه فرعون وأقعده في حجره ، وجعل يلاعبه ، فقبض موسى على لحية فرعون وبتف منها شعراً كثيراً ، ثمّ لطمه لطمه ، فقال فرعون : هذا المولود هو الذي أخافه ، وهمّ بقتله ، فجاءته آسية وقالت له : إنّ الصبيان لهم جراءة ولعب من غير عقل ، وأمرت بطشت فيه جمرة ودينار ، فمدّ موسى يده إلى الجمرة ، وجعلها في فيه فأحرقته ، فقالت له : لو كان يعقل . . لمّا كان يُؤثّر الجمرة على الدينار ، فعند ذلك سكن غضبه .

ولمّا تمّ لموسى سبع سنين . . قرصه فرعون وهو قاعد معه ، فغضب موسى ونزل عن السرير ، وضرب قوائمه برجله فتكسر السرير ، فسقط فرعون عن السرير وسال الدم من

(١) في الأصل : (رض) ، وكلاهما بمعنى ؛ أي : دقّ وضرب واصطدم .

(٢) لكن في كتاب الله تعالى : أن أمّ سيدنا موسى أرسلت ابنتها في خبره ، فلمّا نزلت ورأته معهم يبحثون عن مرضع له . .

قالت لهم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ بَيْتٍ يَكْفُلُونَ لَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ تَصْحُورُوا ﴾ * ﴿ رَدَدْنَاهُ إِلَيْكَ أَبِيهِ . كَانَتْ تَمْرًا عَيْنُهَا وَلَا تَحْرُكُ ﴾ .

أنفه ، فغضب فرعون ، فقالت آسية : ألا يسرُّك أن يكون لك ولدٌ بهذه القوَّة يعينك على هؤلاء الجنود ؟ فسكن غضبه .

فلما بلغ موسى ثلاثين سنة ، فإذا هو برجلين يقتتلان ؛ وذلك أن طباحاً لفرعون أمر فتى من بني إسرائيل يحمل معه الحطب إلى دار فرعون ، وخاف أن ينفلت منه ، فلم يقدر عليه حتى أستجار بموسى ، فقال موسى للطباح : أتركه يا قبطني ، فقال : لا أتركه ، فوكزه موسى في صدره فمات ومضى الفتى ، فندم موسى ، وأخبر فرعونُ بفعل موسى فلم يصدِّق ، فلما كان من الغد . . . خرج موسى ﴿ حَافِيًا يَرْقُبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُمُ بِالْأَمْسِ ﴾ إلى آخر الآية ، فدخل قبطني على فرعون ، وأخبره بقتل موسى للرجل بالأمس ، فأرسل فرعون في طلب موسى ، وأذن لأولياء القتيل أن يقتلوه حيثما وجدوه ، فسمع حزقيل - وهو رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه - فأقبل إلى موسى وقال له : ﴿ إِنَّكَ الْمَلَأَ بِأَتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرَجْ إِلَيْنَا لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ، فخرج موسى نحو أرض مدين ، فلم يزل يسير . . . حتى صار إلى أهل مدين وبه جهد من الجوع والعطش ، وإذا بجماعة يسقون من بئر لأغنامهم بدلوا عظيم ، يجره جماعة منهم ، وإذا بامرأتين تذودان غنمهما عن غنم الرعاة ، فسكت موسى حتى فرغوا من سقي أغنامهم ، وأطبَقوا الحجر على البئر وأنصرفوا ، ثم قال موسى للمرأتين : قربا أغنامكما إلى الحوض ، ثم تقدم وضرب الحجر برجله ، فبعد أربعين ذراعاً مع ضعفه من الجوع ، وسقى أغنامهما ، فتمنى موسى في ذلك الوقت شعبة من خبز الشعير ، فأنصرفتا إلى أبيهما وأخبرتا بما كان ، فقال لإحدهما : أذهبي فأتيني به ، فأقبلت إلى موسى وهي شديدة الحياء وقالت له : ﴿ إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ، فقام موسى وهي تمر بين يديه ، فكشفت الريح عن ساقها ، فقال لها موسى : تأخري ، فتأخرت ودلته على الطريق حتى دخل على شعيب عليه السلام وهو يومئذ شيخ كبير ؛ فلما قصَّ عليه القصص . . . دعا له شعيب بالطعام فأكل ، وقالت أخته : ﴿ يَتَأْتِ اسْتَجْرَةٌ إِنَّكَ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ، فرغب فيه وقال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ ﴾ ، فرضي موسى ، فجمع شعيب المؤمنين وزوجه أخته ، وألتمس موسى عصاً ، فقال شعيب : أدخل البيت وخذ لك عصاً ، وكان فيه عصي كثيرة ، فدخل موسى ونظر إلى عصي الأنبياء ، فأخذ من جملتها عصاً حمراء ، فقال شعيب : يا موسى ؛ هذه من أشجار

الجَنَّةَ أَهْدَاهَا اللهُ إِلَى آدَمَ فَلَا تَخْرُجُهَا مِنْ يَدِكَ ، وَإِنِّي مُوَصِّيكُ أَنَّ أَهْلَ مَدِينِ قَوْمِ حُصَادٍ فَلَا تَقْبَلُ قَوْلَهُمْ ، وَإِنْ هَلَهْنَا وَادِيًا كَثِيرَ الْخَيْرِ ، وَفِيهِ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، فَإِنْ دَلُّوكَ عَلَى هَذَا الْوَادِيِ . . . فَلَا تَدْخُلْ فِيهِ .

فخرج موسى بغنم شعيب وهي يومئذ أربعون رأساً ، فعمد موسى إلى الوادي الذي فيه الحية ، فأقبلت تلك الحية على الغنم ، فأخذ موسى عصاه وضربها ضربة فقتلها ، ثم رجع إلى شعيب فأخبره بذلك ففرح ، وأحبه أهل مدين محبة عظيمة ، ولم تزل تزيد غنم شعيب حتى بلغت أربع مئة رأس ، ثم عزم موسى على الخروج فقال : يا شعيب ؛ قد طالت غيبتني عن أمي وخالتي وأخي هارون ، فإنهم في مملكة فرعون ، فبادر إلى موسى وتعانقا ، ثم أقبل على أخته وقال لها : لا تخالفيه ؛ فنعم الصاحب لك ، وودعهما ، ودعا لهما ، وشيعهما مشايخ مدين .

ثم سار موسى بزوجه جاداً في السير حتى بلغ جانب الطور الأيمن في ليلة شديدة البرد ، وجن الليل ، وهبت الرياح ، وغيمت السماء ، فأنزل موسى أهله عن الأتان ، وضرب خيمته على شفير الوادي ، وأدخل أهله فيها ، وأمطرت السماء ، فأخذ أهله الطلُق في ذلك الوقت ، فجمع الحطب ليوقد ناراً ، فضرب الزند بالحجر ، فلم يخرج ناراً ، فغضب من ذلك وبقي متحيراً ، فإذا هو بنار تلمع على البعد ، فأسرع حتى أتاها ، ولم تكن ناراً ، ﴿ فَلَمَّا أَنلَهَا نُودَىٰ يَنمُوسَىٰ * إِنْ أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ ، ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي * يَقْفَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي * أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى * وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴾ يعني : في النبوة والرسالة ، ثم تذكر موسى ما كان منه من قتل القبطي فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ فنودي : ﴿ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ أَذْهَبًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُمُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأَنبَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ﴾ أي : بالبنيان ونقل الحجارة ، وكانت هذه المخاطبة لموسى وحده ، والرسالة له ولأخيه هارون .

وفي ذلك الوقت - أي : وقت مخاطبة الرب لموسى - قد أشتدَّ بأبنة شعيب الطلُق ،

فسمع أئنيها سكان الوادي من الجن ، فحضرها عندها ، وأوقدوا لها ناراً ، وعللوا حتى ولدت ، ثم قيض الله لها راعياً من أهل مدين ، فعرفها وحملها وأتى بها إلى والدها شعيب ، فلم تزل عنده حتى فرغ موسى من أمر فرعون وعاد إلى بلاد التيه ، فبلغ ذلك شعيباً ، فردَّ إليه أمراته (١) .

فلما خاطب الله موسى بالرسالة إلى فرعون . . . سار حتى أتى إلى بلاد مصر ، فأوحى الله إلى هارون بقدم موسى ، وهو يومئذ وزير من وزراء فرعون لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً على مرتبة أبيه عمران ؛ ثم إن الله تعالى أذن لهما بالالتقاء ، فالتقيا وتعانقا ، وبشّره بالشركة في الرسالة ، ثم إنهما أقبلا يريدان أمهما وجبريل معهما ، وهارون خائف يقول : أخفض صوتك يا موسى ، فقال موسى : ذهب الباطل وجاء الحق ، فلا أخاف من فرعون وجنوده ؛ فإن الله تعالى قال لي : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ، وأقبلا حتى أتيا باب أمهما ، فقال هارون : إن أمي لا تعرف قرعك ، فقرع هارون الباب وكانت تصلي ، فأنكرت القرع ؛ لأنه كان في الليل في غير وقته ، ثم قالت : هو قرع أبنني هارون ، فقامت من محرابها وقالت : من هذا ؟ فلم يتمالك موسى نفسه حين سمع صوتها حتى قال : ولدك موسى وهارون ، ففتحت الباب ، فلما نظرت إليهما . . . صاحت صيحة عظيمة وغشي عليها ، وبقيت شاخصة ، فقال جبريل : إنها لا تفيق إلاّ بدموعك يا موسى ، فوضع موسى وجهه على وجهها ، ولم يزل يبكي رحمة لها حتى أفاقت ، فدخلوا الدار ، وذكر لها موسى كيف خرج إلى مدين ، وكيف رعى الغنم لشعيب ، وكيف تزوج بأبنته ، وكيف خرج من هناك ، وكيف صيرّه الله رسولاً ، وكيف سأل ربّه الشركة لأخيه هارون في الرسالة ، فخرّت ساجدة شكراً لله تعالى ، وأقام موسى بقيّة ليلته عند أمّه ، فلما كان من الغد . . . خرج متنكراً ، فجعل ينظر إلى ما أحدثه فرعون من البنيان بأرض مصر ، ثم رجع إلى أمّه حين أقبلت الليلة الثانية .

(١) في حديث السدي كما في « تاريخ الطبري » (٤٠٣/١) : أن سيدنا موسى سار إلى مصر بالرسالة إلى فرعون ومعه أهله لم يخلفه ، وانظر قصة سيدنا موسى فيما أخرجه النسائي في « السنن الكبرى » (١١٢٦٣) ، وفي « التفسير » (٣٤٦) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٦١٨) ، والطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٦٦) ، والطبري في « تاريخه » (٤٣٥-٣٨٥) ، وفي « تفسيره » (٢٤١٣٣) ، وغيرهم كما في « الدر المنثور » (٥٦٩/٥) .

فلَمَّا أَنتَصَفَ اللَّيْلَ . . . خَرَجَ إِلَى فِرْعَوْنَ حَتَّى صَارَ إِلَى بَابِهِ ، فَظَنَرَ إِلَى الْحِجَابِ وَالْجُنُودِ فَوَجَدَهُمْ نِيَامًا مَا فِيهِمْ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ ، فَتَقَدَّمَ مُوسَى فَقَرَعَ بَابَ فِرْعَوْنَ بَعْصَاهُ فَانْفَتَحَ ، فَدَخَلَ الْقَصْرَ وَلَهُ عِدَّةُ أَبْوَابَ ، وَصَارَ مُوسَى يَقْرَعُ كُلَّ بَابٍ قَرَعَةً بَعْصَاهُ وَيَقُولُ : بِاسْمِ اللَّهِ الْفَتْاحِ الْعَلِيمِ ، حَتَّى دَخَلَ الدَّارَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَقَدَّمُ حَتَّى صَارَ إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي فِيهِ فِرْعَوْنُ ، فِإِذَا بِفِرْعَوْنَ نَائِمًا ، وَهَارُونَ جَالِسًا عَلَى رَأْسِهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ . . . قَامَ إِلَيْهِ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْقُبَّةِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَخِي ؛ قَدْ تَعَجَّلْتَ فَأَنْصَرِفِ الْآنَ ، فَأَنْصَرِفْ مُوسَى وَأَنْغَلَقْتَ الْأَبْوَابَ ، فَارْجِعْ مُوسَى وَأَخْبِرْ أُمَّهُ بِجَمِيعِ مَا كَانَ .

فلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ . . . سَارَ مُوسَى إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَالْقَوْمُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ عَرَفَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ وَزِيرٌ مِنْ وَزَرَاتِهِ فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ إِنِّي رَأَيْتُ الْيَوْمَ عَلَى بَابِكَ رَجُلًا أَنْكَرْتُهُ ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ ، فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ فِرْعَوْنَ ، ثُمَّ قَالَ لِذَلِكَ الْوَزِيرِ : وَمَا صَفْتُهُ ؟ فَقَالَ : رَجُلٌ طَوِيلٌ ، تَامٌ ، أَسْمَرٌ ، حَسَنُ الْوَجْهِ ، كَثُّ اللَّحْيَةِ ، عَلَيْهِ جَبَّةٌ مِنْ صُوفٍ ، وَفِي يَدِهِ عَصَاً حُمْرَاءَ ، فَأَقْبَلَ فِرْعَوْنُ عَلَى هَامَانَ وَقَالَ : يَا هَامَانَ ؛ أَلَمْ تَعْرِفْ بِهِ ؟ فَقَالَ : لَا ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ هَامَانَ وَسَأَلَهُ عَنِ اسْمِهِ وَحَسَبِهِ ، فَعَرَفَهُ وَلَمْ يَنْكَرْهُ ، فَقَالَ لِأَعْوَانِهِ : خَذُوا هَذَا وَأَحْبِسُوهُ حَتَّى يَأْتِيَكُمُ أَمْرُ الْمَلِكِ ، فَسُجِنَ ، وَأَخْبَرَ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ مُوسَى ، وَأَنَّهُ أَمَرَ بِحَبْسِهِ ، فَالْتَفَتَ فِرْعَوْنَ إِلَى هَارُونَ وَقَالَ لَهُ : أَخُوكَ مُوسَى قَدْ قَدِمَ مِنْ أَرْضِ مَدْيَنَ وَلَمْ تَخْبِرْنِي بِهِ ؟ فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ أَرَدْتُ أَنْ أَخْبِرَكَ بِهِ فَخَفْتُ أَنْ تَغْضَبَ ، وَالْآنَ هُوَ فِي حَبْسِكَ وَتَحْتَ حَكْمِكَ ، فَاحْمِلْهُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَدَعَا فِرْعَوْنَ بِالْفَرَاشِ بَيْنَ قَصْرِهِ وَمَحَلِّهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَهُوَ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ بِقَوَائِمٍ مِنَ الْفِضَّةِ يَصْعَدُ إِلَيْهِ بِالْمَرْقَاةِ ؛ فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ زِينَتِهِ . . . أَرْسَلَ إِلَى مُوسَى فَأَحْضَرَهُ ، فَلَمَّا أَتَى بِهِ . . . خَافَتْ عَلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَلَمْ يَشْكُوا فِي قَتْلِهِ لَهُ ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ . . . قَالَ : اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ ؛ فَإِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، ثُمَّ دَخَلَ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَعَرَفَهُ فِرْعَوْنُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، وَلَكِنْ قَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَى : أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِيمُهُ ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : إِنَّكَ عَبْدُ فِرْعَوْنَ ، فَقَالَ مُوسَى : اللَّهُ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ نِدٌّ ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : وَلَايِي شَيْءٌ جِئْتَ ؟ فَقَالَ : أَرْسَلَنِي رَبِّي إِلَيْكَ وَإِلَى جَمِيعِ أَهْلِ مِصْرَ ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ : فَبِمَ أَرْسَلْتَهُ ؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَى : بِقَوْلِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُوسَى

عبده ورسوله ، فقال فرعون لموسى : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَاكَ ﴿ يعني : قتلة القبطي ، فقال موسى : ﴿ فَعَلَّهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ عن النبوة ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إليك يا فرعون ، ثم قال له : تَذَكَّرُ يا فرعون إحسانك وتدعُ إساءتك لبني إسرائيل وهم عبيد لربِّ العالمين ؟ وكان فرعون متكئاً فأستوى جالساً فقال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى ﴿ أَوْلَوْجِحَّتْكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ، قال فرعون : ﴿ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، فأضطربت العصا في كفِّ موسى عليه الصلاة والسلام ، وقال له جبريل : ألقها يا نبيَّ الله ، ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ ، قيل : تمثَّلت مثل الجمل البختي ، ثم قام ذلك الثعبان الذي هو على صورة العصا على رجليه حتَّى أشرف برأسه على حيطان قصر فرعون ، ثمَّ رفع القصر على يده وتنفَّس في البيوت والخزائن ، فأشتعلت ناراً وصارت رماداً ، وجعلت تلك العصا لا تمرُّ بشيء إلاَّ أبتلعته ، ثمَّ تهيجُ كهيجان الجمل ، ولها صوت كصوت الرعد القاصف ، وآسية تنظر وهي متعجبة ، ثمَّ أقبلت الحيَّة إلى القبة التي فيها فرعون ، فوضعت لَحْيَها الأسفل تحت القبة ولحيتها الأعلى فوقها ، ثمَّ رفعت القبة في الهواء ثمانين ذراعاً ، ثمَّ قالت : يا فرعون ؛ وعزَّة ربي لئن أذن لي . . لأبلعنك مع قصرك ، فوثب فرعون عن سريره وكان به عرج ، فجعل يعدو بعرجته ويقول : يا موسى بحقِّ التريية وبحقِّ الرضاع وبحقِّ آسية ، فلمَّا سمع موسى بذكر آسية . . صاح بالحيَّة ، فأقبلت نحوه ، فأدخل يده فيها وقبض على لسانها ، فإذا هي عصاً كما كانت ، فلمَّا نظر فرعون ذلك . . رجع إلى موضعه وقال : يا موسى ؛ لقد تعلمت بعدي سحراً عظيماً ، فقال : يا فرعون ؛ ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴾ .

فبعث فرعون في المدائن حاشرين للسحرة ، فأجتمع إليه سبعون ألف ساحر ، فأختار أحذقهم ، ثمَّ بعث إلى موسى وقال له : اجعل ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوَّى ﴾ لهذا الموضع ، فقال موسى : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ ؛ وهو أول يوم من السنة ، كانوا يخرجون فيه إلى ظاهر البلد ، فلمَّا كان ذلك اليوم . . أجمع الناس من أطراف مصر ، وأجمعت السحرة ، فقال لهم فرعون : أجهدوا لأجل أن تغلبوا موسى ، فقالوا : ﴿ آيِنَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴾ أي : المجالسين لي ، وأجمع الناس في صعيد واحد صفوفاً لينظروا إلى الغالب منهم ، وخرج فرعون إلى ذلك الوادي ،

وفرش فيه من الفرش شيئاً كثيراً ، ونصبت له الأسرة والكراسي ، وكان موسى في منزله ، فأرسل إليه ، فأقبل ومعه أخوه هارون ، فقال لهم موسى : أَيُّهَا السَّحَرَةُ ﴿ وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ ، فقالوا : ﴿ يَمْوَسِيَّ إِمَّا أَنْ تُلْفَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْفَى ﴾ ف ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴾ ، ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهِمْ ﴾ ، و ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْأَرَهُمْ وَأَسْأَرَهُمْ وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴾ ﴿ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا ﴾ الآية ، فألقى موسى عصاه في وسط الوادي ، فصارت ثعباناً له سبعة رؤوس ، فأبتلعت حبالهم وعصيهم جميعاً ، ثم أبتلعت جميع ما في الوادي من الزينة التي أخرجها فرعون ، فوثب فرعون ووزراؤه ، فوقفوا على تل ينظرون ، ثم حملت الحية على السحرة ، فولّوا هاربين ، ثم اجتمعوا في موضع وقالوا : ما هذا سحر ، ثم خرّوا بأجمعهم سُجّداً ، و ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ الآية ، ثم قال فرعون لهامان : ﴿ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ ﴿ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى اللَّهِ مُوسِيَّ ﴾ ، فجمع هامان خمسين ألف بناء وصانع ، فقوم يطبخون الآجر ، وآخرون ينقلون الجِصَّ . . . إلى غير ذلك ، فبنوا ليلاً ونهاراً حتّى أرتفع الصرح في الهواء ارتفاعاً ما انتهى إليه أحدٌ ، فأشتدّ ذلك على موسى وهارون ، فأوحى الله إليهما لا تعجلا ، ثم أمر الله عزّ وجلّ جبريل عليه السلام ، فهدم الصرح ، وجعل أعلاه أسفله ، ومات كلُّ مَنْ كان فيه من العملة الذين كانوا على دين فرعون ، وجعل المؤمنون يزدون مع موسى عليه السلام حتّى كثروا ، ثم إنّ جبريل عليه السلام أتى إلى فرعون في صورة آدمي حسن الوجه واللباس ، فوقف بين يديه ، فقال له فرعون : مَنْ أَنْتَ ؟ فقال : أنا عبد من عبيد الملك ، جئتُك مستفتياً على عبد من عبيدي مكنّته من نعمتي وأحسنّتُ إليه كثيراً ، فأستكبر ووجدتُ حقي وتسمّى بأسمي ، فما جزاؤه عندك ؟ قال : جزاؤه عندي أن يغرّق في هذا البحر - كلمة أجراها الله على لسانه - قال : فأسألك أن تكتب لي خطأً بذلك ، فأعطاه خطّه بذلك ، فأخذه جبريل عليه السلام وعرج به من عنده والصحيفة معه حتّى صار إلى موسى وأطلعه عليها ، فقال جبريل لموسى : إنّ الله يأمرك أن ترحل مع قومك ، فنادى موسى في بني إسرائيل وأمرهم بالرحيل ، فأرتحلوا وهم ستّ مئة ألفٍ ، والكلُّ من ولد يعقوب ، فسمع فرعون بأرتحالهم ، فنادى فرعون بجنوده ، فأجتمعوا وكانوا لا يحصون عدداً لكثرتهم ، وأعتقد

فرعون أن موسى خرج هارباً منه ، فسار فرعون وجنوده خلف موسى حتى قربوا من بني إسرائيل ، فقالوا : يا موسى قد لحقنا فرعون ، فقال موسى : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق اثني عشر طريقاً للأسباط الاثني عشر ، لكل سبط طريق ، فجعلوا يسيرون في البحر ، ويتحدثون ، ويرى بعضهم بعضاً ، وموسى أمامهم وهارون وراءهم حتى خَلَصُوا مِنَ الْبَحْرِ ، فجاء فرعون وحوله وزراؤه ، فنظر إلى البحر يابساً ، فتحدث في نفسه أن يدخل في تلك الطريق قبل الاختلاط لأجل أن يلحق موسى ، فهبط جبريل على فرسه في صورة آدمي فقال : أيها الملك ؛ ما يمنعك من العبور ، وتقدم بجنبه ، فأشتم مَهْرُ فرعون رائحة فرس جبريل فتبعها ، وتبعته جنوده ، وجعل جبريل يقول : أيها الملك لا تعجل ، وميكائيل يسوق الناس حتى لم يبق من جنود فرعون أحدٌ ، فأخرج جبريل الصحيفة وقال : أيها الملك ؛ أتعرف هذه الصحيفة ؟ فلما فتحها . . علم أنه هالك ، ثم أخذت الطرق يلطم بعضها بعضاً ، والناس يغرقون ، وفرعون ناظر إليهم ، فلما استيقن الموت . . قال : ﴿ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، فقال جبريل : ﴿ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ فَتَبَدَّنْهُمْ فِي الْيَوْمِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم إن بني إسرائيل قال بعضهم لبعض : إن فرعون لم يغرق ، فأمر الله تعالى البحر ، فألقاه إلى الساحل ليراه بنو إسرائيل ، فلما رأوه . . عرفوا أنه قد غرق وهلك . فسبحان الملك الجبار الذي يمهل على الطغاة ولا يهملهم ، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ولنرجع إلى قول الناظم : (ومن رفع الأهرام) أي : بناها ، فنقول : هو رجل من جبابرة العمالقة ، يقال له : سنان بن المهلهل ، بنى الأهرام الموجودة بإقليم الجيزة بأستعانة جماعة من العمالقة ، وأحكم بناءها وجدرانها ، وأعدّها لخزن الغلال ، وهي باقية إلى يومنا هذا ، هكذا قيل .

وقيل : إن الباني لها ملك من ملوك مصر ، يقال له : سوريد ، قبل الطوفان ، وسبب ذلك : أن الملك المذكور قد رأى في منامه كأن الأرض قد انقلبت بأهلها ، وكان الكواكب

قد تساقطت وصار يضرب بعضها بعضاً بأصوات هائلة ، فأغمَّه ذلك ، ولم يذكره لأحد ،
وعلم أنه سيحدث في العالم أمرٌ عظيم ، ثم رأى بعد ذلك بأيام كأن الكواكب نزلت إلى
الأرض في صور طيور بيض ، وكأنها تخطفُ الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين ، وكأنَّ
الجبلين قد أنطبقا عليهم ، وكأنَّ الكواكب النيِّرة صارت مظلمة مكسوفة ، فأنتبه مدعوراً ،
فلَمَّا أصبح . . جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر ، وكانوا مئةً وثلاثين كاهناً ، فخلا
بهم ، وحكى لهم ما رآه أولاً وآخراً ، فأولَّوه بأمرٍ عظيم ، فقال الملك : خذوا الارتفاع
للكواكب ، وأنظروا هل من حدث ، فبلغوا غايتهم في استقصاء ذلك ، وأخبروا بأمر
الطوفان ، فقال الملك : أنظروا هل تلحق هذه الآفة بلادنا ؟ قالوا : نعم ، يأتي الطوفان
عليها وتخرب مدَّة سنين ، قال : فأنظروا هل تعود عامرة كما كانت أو تبقى مغمورة بالماء ؟
فقالوا : بل تعود البلاد كما كانت وتعمر ، فأمر عند ذلك بعمل الأهرام ، وشرع في بنائها ،
وجعل ارتفاع باب كل واحد من الأهرام في الهواء مئة ذراع بذراعهم ، وهو خمس مئة ذراع
بذراعنا الآن ، فلَمَّا فرغت . . كساها ديباجاً ملوَّناً من فوقها إلى أسفلها ، وعَمِل لها عيداً
حضره أهل مملكته بأجمعهم ، ثمَّ عمل في الهرم الغربي ثلاثين مخزناً من حجارة صوان
ملوَّنة ، ومُلئت بالأموال الجمَّة والآلات والتماثيل المعمولة من أنواع الجواهر النفيسة ،
والسلاح الذي لا يوصف ، والزجاج اللِّين الذي ينطوي ولا ينكسر .

وذكر القبط في كتبهم : أن عليها كتابةً منقوشةً تفسرها : أنا سوريد الملك ، بنيت هذه
الأهرام وأتممتُ بناءها في ستين سنة ، فمن أتى بعدي وزعم أنه ملكٌ مثلي . . فليهدمها في
ست مئة سنة ، وإنِّي كسوتها الديقاج عند فراغها ، فليكسها الحصر ، فنظروا فوجدوا أنه
لا يقوم بهدمها شيءٌ من الأزمان الطوال ، ولمَّا مات سوريد . . دفن في الهرم ومعه ما جمع
من أمواله وكنوزه ، ووكل بها روحانيات تحفظها ممَّن يقصدها .

وقال بعض الحكماء : ليس شيء لا يُخشى عليه من الدهر إلا الأهرام ؛ فإن الدهر يخاف
منها ؛ وقد نظم ذلك عُمارة اليميني وأجاد فقال :

خَلِيلِي مَا تَحْتَ السَّمَاءِ بُيَّةٌ تُمَائِلُ فِي إِتْقَانِهَا هَرَمِي مِصْرِ
بِنَاءٍ يَخَافُ الدَّهْرُ مِنْهُ وَكُلُّ مَا عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ

تَنْزَهُ طَرْفِي فِي بَدِيعِ بِنَائِهَا

وَلِلَّهِ دُرُّ الْقَائِلِ :

وَلَمْ يَتَنَزَّ فِي الْمُرَادِ بِهَا فِكْرِي

[من الكامل]

أَنْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ وَأَسْمَعْ مِنْهُمَا
لَوْ يَنْطِقَانِ لَخَبَّرَانَا بِالَّذِي

مَا يَرْوِيَانِ عَنِ الزَّمَانِ الْغَابِرِ
فَعَلَ الزَّمَانُ بِأَوَّلِ وَبِآخِرِ^(١)

* * *

(١) بقي قول الناظم : (مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ) ، وهو من كلام العرب ، كما في « الأمثال » لابن سلام (ص ٢٩٠) ، و« جمهرة الأمثال » للعسكري (٢٦٣/٢) ، و« مجمع الأمثال » للميداني (٣٦٣/٣) ، و« المستقصى في أمثال العرب » للزمخشري (٣٦٢/٢) ، و« لسان العرب » مادة (خيل) ، قال ابن سلام : (أي : مَنْ يَسْمَعُ أَخْبَارَ النَّاسِ وَمَعَايِبَهُمْ يَقَعُ فِي نَفْسِهِ عَلَيْهِمُ الْمَكْرُوهُ) ، وقال الزمخشري : يخل ؛ أي : يُظَنُّ وَيَتَّهَمُ ، وهو مثل يقوله الرجل إذا بُلِّغَ شيئاً عن رجل فأتهمه ، ومفعولا يخل محذوفان .

قال في « اللسان » : (قال ابن هانيء - في قولهم : من يسمع يخل - : يقال ذلك عند تحقيق الظن) ، والمعنى على هذا : أن من يسمع بأخبار الأمم والملوك التي فنيت وبادت وأكل الدهر عليها وشرب . . لا بد وأن يتحقق ويعتقد بأن مآله صائر إلى ما صاروا إليه من الموت والهلاك ، فعليه أن يعتبر ويتعظ .

أَيْنَ مَنْ شَادُوا وَسَادُوا وَبَنَوْا هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُلُ

الأولى بالشين المعجمة ؛ أي : بنوا بيوتهم بالشيد ، والثانية بالسين المهملة ؛ أي : سادوا أقرانهم ونظراءهم بما أعطاهم الله من القوة والبأس والعتو ؛ وفي نسخة بدل الثانية : جادوا ؛ أي : تكرموا ، قال في « المصباح » : (جاد الرجل يجود - من باب قال - جوداً بالضم : تكرم ، فهو جواد ؛ أي : كريم ، وجاد بالمال : بذله وأعطاه) اهـ

وقال في « المصباح » أيضاً : (الشيد بالكسر : الجص ، وشدت البيت أشيده ، من باب باع : بنيته بالشيد ، فهو مشيد ، وشيدته تشييداً : طولته ورفعته) اهـ

وقوله : (وبنوا) - بفتح النون وسكون الواو ؛ أي : دوراً مزخرقة - :

يحتمل أن الناظم رحمه الله تعالى أراد بذلك ثمود قوم صالح ؛ فقد ذكرهم بعد عاد كما هو الغالب في ترتيب القرآن العظيم ، فهم الذين بنوا الأرض ، وأخذوا من سهولها قصوراً ، ونحتوا من الجبال بيوتاً ، وبقوتهم وكثرتهم استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، فأهلكوا بالطاغية ، وأخذتهم الصيحة ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جثيم ﴾ .

ويحتمل أنه أراد غيرهم من مطلق الناس ، فيكون شاملاً لكل من شاد وساد وبنى .

وقوله : (هلك الكل) أي : الجميع من نمرود وما بعده (ولم تغن القلل) بضم القاف ؛ أي : القصور العالية ، قال في « المصباح » : (قللة الجبل : أعلاه ، والجمع : قلل وقلال ، وقللة كل شيء : أعلاه) اهـ

ولله در الملاح حيث قال في « تخميسه » :

أَيْنَ مَنْ مِنْ رَوْضَةِ الْفُضْلِ جَنَوْا أَيْنَ مَنْ مِنْ بَهْجَةِ الْعِلْمِ دَنَوْا

أَيْنَ مَنْ جَازُوا أَلْمَعَالِي وَأَقْتَنُوا أَيْنَ مَنْ شَادُوا وَسَادُوا وَبَنَوْا

هَلَكَ الْكُلُّ فَلَمْ تُغْنِ الْقُلُوبُ (١)

وأعلم : أنه قد جرت عادة الله في خلقه : أنه لا يمضي قرن من القرون إلا ويموت أهله ، وتبطل معالمه ، وتندرس رؤسومه ، كل ذلك إظهاراً لقدرته وتحقيقاً لعجز الخلق ، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز في آيات كثيرة بهلاك الأمم الماضية ، قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، وعالمًا بعد عالم ، قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مَعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدٌ ﴾ ، والآيات في هلاك القرون السالفة كثيرة جداً ، فكفى بالقرآن واعظاً .

* * *

(١) « تخميس الملاح » (ص ٥) .

أَيْنَ أَرْبَابِ الْحِجَا أَهْلُ النَّهْيِ
أَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْقَوْمِ الْأَوَّلِ

هذا شروعٌ من الناظم في ذكر موت الصالحين بعد أن ذكر هلاك الجبابرة ، فالدنيا ليست دار إقامةٍ لا لصالح ولا لطالح كما هو مشاهد .

أي : أين أصحاب الحِجَا بالكسر والقصر ؛ أي : العقل ، ويُسمَّى العقل أيضاً : نُهْيَةً ، على وزن غُرْفَةٍ ، وجمعها : نُهْيٌ ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴾ أي : لأصحاب العقول ، ويُسمَّى أيضاً : لُبًّا ، وجمعه : ألباب ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّذِكْرِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، ويُسمَّى أيضاً : قلباً ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي : عقل ، قال بعضهم : وكثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى ، فليس شيءٌ أفضل من العقل ، ولذلك كان نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أعقل الناس .

وقوله : (أَهْلُ النَّهْيِ) بالرفع بدل من أرباب الحِجَا ؛ لأنَّ النَّهْيَ جمع نُهْيَةٍ ، والنُّهْيَةُ هي العقل كما تقدم ، فهي مرادفةٌ للحِجَا .

وقوله : (أين أهل العلم) كالأئمة الأربعة المجتهدين وأتباعهم المتقدمين .

وقوله : (والقوم) بالرفع عطف على أهل ؛ أي : وأين القوم الأوَّل - بضمِّ الهمزة ، وفتح الواو ، جمع أوَّل - كالصحابه والتابعين ؛ أي : فالكلُّ قد حكم الله عليهم بالموت ، قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، فسبحان الباقي بعد فناء خلقه !

* * *

سَيَعِيدُ اللَّهُ كُلًّا مِنْهُمْ وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلَ

أي : سيجمع الله نمرود وكنعان ومن ذكرهم الناظم بعدهما ، ويجمع غيرهم أيضاً من جميع الحيوانات ، ويجازي كل فاعل بما فعله من خيرٍ وشرٍ .

وفي كلامه إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يجمع الخلق بعد الموت من التراب والخزف واللبن ، ومن أجواف السمك والسباع والطيور والهوام كيف كانوا ، إن الله تعالى ينبتهم من الأرض نباتاً كما بدأهم أول مرة ، فينبئون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، ويجمعهم في صعيدٍ واحدٍ ، ويحاسبهم على الفتل والنقير والقطمير وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الناس مجزيون بأعمالهم ؛ إن خيراً... فخير ، وإن شراً... فشر » ، والآيات والأحاديث الدالة على إثبات البعث كثيرة شهيرة .

وقد ذكر مولانا وشيخنا سيدي أحمد السجاعي في رسالة سماها : « القول الأزهر فيما يتعلّق بأرض المحشر » ما نصّه : وقع السؤال عن الأرض في يوم المحشر من أيّ شيء تكون هي ؟ وهل تبدّل جميعها أو البعض ؟ وما المراد بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ ؟ وما مكان حشر الناس ؟

الجواب : أنه ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين :

أحدهما : أنه تبدّل صفة الأرض والسماء ذاتهما ، فأما تبدل الأرض : فتغيّر صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها ، وهو أن تلك جبالها ، ويستوي منخفضها ومرتفعها ، وتذهب

أشجارها وجميع ما عليها من العمارات ، ولا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب ، وأما تبديل السماء : فهو أن تنتشر كواكبها ، وتطمس شمسها وقمرها ويكوران ، وتكون تارة كالدهان ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أي : صارت حمراء كالأديم ، وتارة كالمُهَل ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهَلِّ ﴾ أي : النحاس المذاب .

ويدلُّ على صحَّة هذا القول : ما روي عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بِيضَاءَ عَفْرَاءٍ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ »^(١) ، قال في « تفسير الخازن » : (العفراء بالعين المهملة ؛ وهي البيضاء إلى حمرة ، ولهذا شبهها بقُرْصَةِ النَّقِيِّ ، وهو الخبز الأبيض المائل إلى حمرة ، والنقي - بفتح النون وكسر القاف - : الدقيق الذي نقي من القشر والنخالة ، وقوله : ليس فيها معْلَمٌ لأحد - بفتح الميم واللام بينهما مهملة ساكنة - : الشيء الذي يستدلُّ به على الطريق ؛ يريد أنَّها مستوية ليس فيها حذب يرد البصر ، ولا بناء يستر ما وراءه) اهـ^(٢) ، والحذب : ما أرتفع من الأرض .

وثانيهما : أن تبدل ذات الأرض والسماء ، ثمَّ اختلف أصحاب هذا القول في معنى هذا التبديل :

فقال ابن مسعود في معنى الآية : (تبدل الأرض بأرضٍ كالفضة البيضاء نقيَّة لم يُسْفَك فيها دمٌ ، ولم تُعمل عليها خطيئة)^(٣) .

وقال عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : (تبدل الأرض من فضة ، والسماء من ذهب)^(٤) .

وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه وسعيد بن جبير : (تبدل الأرض خبزةً بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه)^(٥) .

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢١) ، ومسلم (٢٧٩٠) .

(٢) « تفسير الخازن » (٨٦/٣) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٥٧٠/٤) ، والطبري في « تفسيره » (٢٠٩٤٢) .

(٤) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢٠٩٥٥) .

(٥) أخرج حديث ابن جبير ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٢٠٩٦٠) .

قال ابن حجر : (ويستفاد منه : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَعْقِبُونَ بِالْجُوعِ فِي طُولِ نَهَارِ الْمَوْقِفِ ،
بَلْ يَقْلِبُ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ طَبْعَ الْأَرْضِ حَتَّى يَأْكُلُوا مِنْهَا مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ بِغَيْرِ عِلَاجٍ
وَلَا كَلْفَةٍ) (١) .

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أَنَّهُ قَالَ : (تَصِيرُ الْأَرْضُ كُلُّهَا نَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٢) .

وعن كعب الأحمار أَنَّهُ قَالَ : (يَصِيرُ مَكَانَ الْبَحْرِ نَارًا) (٣) .

وعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : (تَصِيرُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ غَبْرَةً عَلَى وَجْهِ
الْكَفَّارِ لَا عَلَى وَجْهِ الْمُؤْمِنِينَ) (٤) .

وعن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَبْهَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قَالَ : (تُسَجَّرُ حَتَّى تَصِيرَ
نَارًا) (٥) .

وأعلم : أَنَّهُ لَا تَنَافِيَّ بَيْنَ أَحَادِيثِ مُصِيرِهَا خَبْزَةً وَغَبْرَةً وَنَارًا ، بَلْ يُجْمَعُ بِأَنَّ بَعْضَهَا يَصِيرُ
خَبْزَةً ، وَبَعْضَهَا غَبْرَةً ، وَبَعْضَهَا نَارًا ؛ وَهُوَ أَرْضُ الْبَحْرِ خَاصَّةً ، بِدَلِيلِ مَا تَقْدَمُ .

وفي « تفسير الخازن » : (فَإِنْ قُلْتَ : إِذَا فَسَّرْتَ التَّبْدِيلَ بِمَا ذَكَرْتَ . . فَكَيْفَ يُمْكِنُ
الْجَمْعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَذُّبُكَ اللَّهُ جَبَارًا ﴾ ، وَهُوَ أَنْ تَحَدَّثَ بِكُلِّ مَا عُمِلَ عَلَيْهَا ؟
قُلْتَ : وَجْهُ الْجَمْعِ : أَنَّ الْأَرْضَ تَبْدُلُ أَوَّلًا صَفْتَهَا مَعَ بَقَاءِ ذَاتِهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَفِيهَا الْقُبُورُ
وَالْبَشَرُ عَلَى ظَهْرِهَا وَفِي بَطْنِهَا ، فَحِينَئِذٍ تُحَدَّثُ أَخْبَارُهَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُبَدَّلُ ، فَذَلِكَ تَبْدِيلُ
ثَانٍ ، وَهُوَ أَنْ تُبَدَّلَ ذَاتُهَا بِغَيْرِهَا كَمَا تَقَدَّمَ أَيْضًا) (٦) أَي : وَذَلِكَ إِذَا وَقَفُوا فِي الْمَحْشَرِ ،
فَتُبَدِّلُ لَهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي يُقَالُ لَهَا : السَّاهِرَةُ ، يَحَاسِبُونَ عَلَيْهَا ؛ وَهِيَ أَرْضٌ عَفْرَاءٌ بِيضَاءٌ مِنْ
فُضْيَةٍ ، لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ ، وَلَمْ تُعْمَلْ عَلَيْهَا مَعْصِيَةٌ ، وَحِينَئِذٍ يَقُومُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ وَهُوَ

(١) « فتح الباري » (٣٧٤ / ١١) ، وقوله : (يستفاد منه) أي : من حديث البخاري (٦٥٢٠) ، ومسلم (٢٧٩٢) ؛ وهو :

« تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر ، نزلًا لأهل الجنة » .

(٢) أخرجه هناد في « الزهد » (٣٣٧) .

(٣) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٣٦٤٣٦) من قول أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٥٠٠ / ٢) .

(٥) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٣٦٤٣٨) .

(٦) « تفسير الخازن » (٨٧ / ٣) .

لا يسع جميع الخلق ، فيقوم مَنْ فَضِّلَ عَلَىٰ مَن جَهَنَّمَ وهي كإهالة جامدة - والإهالة بالكسر : الودك المذاب - وهي الأرض التي قال عبد الله : إِنَّهَا أَرْضٌ مِنْ نَارٍ ، فإذا جاوزوا الصراط ، ودخل أهل النار في النار ، وأهل الجنة في الجنة مِنْ وراء الصراط ، وقاموا على حِيَاضِ الأنبياء يشربون . . . بَدَّلَتِ الْأَرْضُ كَقَرْصَةِ النَّقِيِّ ، فأكلوا مِنْ تحت أرجلهم وعند ذهابهم إلى الجنة كانت خبزة واحدة ؛ أي : قرصاً واحداً يأكلُ منه جميعُ الخلقِ مِمَّنْ دخل الجنة ، وإدامتهم زيادة كبد الحوت ، قاله الجلال السيوطي في « البدور السافرة » .

ويُدلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي أيوب قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ قَالَ : أَرَأَيْتَ إِذْ يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ يَوْمَ نَبْدِلُ الْأَرْضَ عِزَّ الْأَرْضِ ﴾ ، فأين الخلق عند ذلك ؟ قال : « أضيافُ الله لَنْ يُعْجِزَهُ مَا لَدَيْهِ » .

والمبدل هو الأرض جميعها كما يؤخذ ذلك مِنْ عِدَّةِ أَحَادِيثٍ :

منها : ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقبضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ ، ويطوي السماواتِ بيمينه ، ثمَّ يقولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أينَ ملوكُ الأرضِ ؟ » (١) .

ومنها : ما أخرجه مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يطوي اللهُ السماواتِ يومَ القيامةِ ثمَّ يأخذُها بيدهِ اليمنى ، ثمَّ يقولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أينَ الجبارونَ ؟ أينَ المتكبرونَ ؟ ثمَّ يطوي الأرضينَ ، ثمَّ يأخذهنَّ بشماله ، ثمَّ يقولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أينَ الجبارونَ ؟ أينَ المتكبرونَ ؟ » (٢) .

قال القاضي عياض : (القبضُ والطيُّ والأخذُ كُلُّهَا بمعنى الجمعِ ، ثمَّ يرجعُ ذلك إلى معنى الرفعِ والإزالةِ والتبديلِ ، فعاد ذلك إلى ضمِّ بعضها إلى بعضٍ وإبادتها) (٣) .

وقال القرطبي : (المراد بالطيِّ هنا : الإذهابُ والإفناءُ ، يقال : قد أنطوى عننا ما كنا فيه وجاءنا غيره ؛ أي : مضى وذهب) (٤) .

(١) « صحيح البخاري » (٤٨١٢) ، و « صحيح مسلم » (٧٣٨٢) .

(٢) « صحيح مسلم » (٢٧٨٨) .

(٣) « إكمال المعلم » (٣١٩/٨) .

(٤) « تفسير القرطبي » (٢٧٨/١٥) .

وأما اليد اليمنى والشمال : فهو من باب أحاديث الصفات التي لا يعتدُّ ظاهرها ،
والناسُ فيها على قسمين :

فبعضهم - وهم السلف - يعتقدون ورودها ، ويعلمون استحالة ظاهرها ، ويكَلِّون أمرها
إلى الله .

وبعضهم - وهم الخلف - يعتقدون ورودها ، ويعتقدون تنزيه الله تعالى عن ظاهرها ،
ويؤوّلونها تأويلاً موافقاً ؛ كتأويل اليمين بقبضة الرحمة ، والشمال بقبضة النُّقمة . اهـ

فصل في الأرض المبدلة

[في الأرض المبدلة ومكان الحشر]

أخرج الطبراني في « الأوسط » وأبْنُ عَدِيٍّ بسند ضعيفٍ عن ابن عباس رضي الله تعالى
عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تذهبُ الأرضونَ كُلُّها يومَ القيامةِ إلَّا
المساجدَ ؛ فإنه ينضمُّ بعضها إلى بعضٍ » (١) اهـ

ومكان الحشر : الشام ، كما ذكره الجلال السيوطي في « البدور السافرة » ، ونصه :
أخرج البزار والطبراني بسند حسن عن سُمرة بن جندب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان يقول لنا : « إنكم تحشرون إلى بيت المقدس ، ثم تجتمعون » (٢) . وأخرج أبو نعيم في
« الحلية » عن وهب بن منبه قال : (يقولُ اللهُ تعالى لصخرة بيت المقدس : لأضعنَّ عليك
عرشي ، ولأحشرنَّ إليك خلقي ، وليأتينك داوودُ يومئذٍ راكباً) (٣) .

وأعلم : أن الأرضَ المبدلة لا تسمى بعد التبدلِ إلَّا باعتبار ما كان .

وقد نظم سيدي أحمد السجاعي رحمه الله تعالى السؤال المتقدم فقال : [من الطويل]

أَلَا أَيُّهَا الْأَحْبَارُ مَا أَرْضُ حَشْرِنَا وَمَا مَقْصِدُ التَّنْزِيلِ أَنْ تَبَدَّلَا
وَأَيُّ مَكَانٍ فِيهِ حَشْرٌ لَجِسْمِنَا أَجِيبُوا وَأَفْتُوا بِالنُّصُوصِ ذَوِي الْعُلَا

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٠٢١) ، وابن عدي في « الكامل » (٤٠٤/١) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٦٤/٧) ، والبزار كما في « مجمع الزوائد » (٣٤٦/١٠) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦٦/٤) .

وأجاب رحمه الله تعالى بقوله :

[من الطويل]

لِرَبِّي حَمْدٌ مَعَ صَلَاةٍ لِحَبِّهِ
قُلْ أَرْضُ سَمَاءٍ يَوْمَ حَشْرِ تَبَدَّلَا
فَيَأْكُلُ ذُو الْإِيمَانِ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِ
وَلَيْسَ مُنَافٍ لِلتَّبَدُّلِ أَكْلُهُمْ
وَقِيلَ : بِنَارٍ تَبَدَّلَ أَوْ غَبْرَةٍ وَلَا
وَنَاحِيَةَ لِلشَّامِ مَحْشَرْنَا أَتَى
وَأَحْمَدُ رَاجٍ لِلْقَبُولِ بِجَاهِهِ

وَصَحْبٍ كَذَا وَالتَّابِعِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
بِوَرَقٍ وَقِيلَ : التَّالِي عَسَجَدَ أَبَدِلَا
لِكَيْلَا يَذُوقُوا الْجُوعَ مِنْهُ تَفَضُّلاً
فَتَشْبِيهَهَا الْمَقْصُودُ إِذْ خُبِرُ تَجَعَّلَا
تَنَافِي إِذَا الْبَعْضُ الْمُرَادُ فَحَصَّلاً
فِي الْأَخْبَارِ عَنْ هَادٍ شَفِيعٍ مُجَمَّلاً
عَلَيْهِ صَلَاةٌ مَعَ سَلَامٍ وَمَنْ تَلَا

وقوله : (بورق) أي : بفضة مضمروبة ؛ أي : في البياض والنقاوة .

وقوله : (وقيل : التالي) وهو السماء أبدلت عسجداً ؛ أي : ذهباً .

وقوله : (وليس منافٍ) المقصودُ من هذا البيت : بيان أن أكلهم لا ينافي إبدالها ؛ لأنها كالفضة في نقاوتها وبياضها ، وإلا . . . فهي حُبْرَةٌ .

وقوله : (ولا تنافي إذا البعض المراد فحصلاً) هذا جواب عن سؤال ؛ وهو أنه تقدّم أن المؤمن يأكل منها وأنها كالفضة البيضاء ، فكيف يقال : إنها تبدل ناراً أو غبرة ؟

وحاصل الجواب : أن المراد به : أن بعضها يُبدلُ بذلك لا جميعها ؛ فلا تنافي . اهـ

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٢٠

أَيُّ بَيْتٍ أَسْمَعُ وَصَايَا جَمَعْتُ حِكْمًا خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ الْمَلَلِ

لفظة (أي) للنداء ، ف (أي) من أدوات النداء ، مثل (يا) ، و (بني) : منادى يحتمل أن يكون أبنة من النسب حقيقة والخطاب له ، ويحتمل أن يكون الخطاب لغيره مطلقاً على سبيل العموم وعلى وجه النصحية ، ويكون النداء له على حدّ نداء النكرة غير المقصودة ، كقول الواعظ : يا غافلاً والموت يطلبه ، وقول الأعمى : يا رجلاً خذ بيدي .

و (الوصايا) : جمع وصية ، والمراد بها هنا : نشر العلم ، ونفع المسلمين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدلالة على الخير ، وغير ذلك .

و (الحكم) : جمع حكمة ، والمراد بها : العلم المقرون بالعمل ، وقيل : هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه ، ومُحكّمه ومتشابهه ، ومقدّمه ومؤخّره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله ، وقيل : هي الأمانة في القول والفعل ، وقيل : هي معرفة معاني الأشياء وفهمها ، وقيل : هي النبوة ، وقيل غير ذلك ، قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

و (الملل) : جمع ملّة ، وخيرها ملة الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ ﴾ وقد فضل الله تعالى هذه الأمة على سائر الأمم ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ، وقال تعالى : « وجعلت أمتك وسطاً ، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم ، . . . »^(١) إلى آخر ما من الله به عليه صلى الله عليه وسلم ، وعلى أمته في ليلة المعراج .

(١) حديث قدسي أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣٩٦/٢) ، والطبري في « تفسيره » (٢٢٠٢٢) من حديث طويل في قصة الإسراء والمعراج .

وفي كتاب « طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب » : (قال وهب بن مُنَبِّه : لَمَّا قرأ موسى عليه السلام الألواح ، ووجد فيها فضيلة أمة سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . قال : يا ربّ ؛ مَنْ هذه الأمة المرحومة التي أجدّها في الألواح ؟ قال : هي أمة محمد ، يرضون مني باليسير أعطيهم إياه ، وأرضى منهم باليسير من العمل ، أدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله ، قال : يا ربّ ؛ فإنّي أجد في الألواح أمة يحشرون يوم القيامة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر ، فأجعلهم أمّتي ، قال : هي أمة محمد ؛ أحشرهم يوم القيامة غزاً محجّلين ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة يطلبون الجهاد بكلّ أّقى ، حتّى يقاتلوا الأعداء الدجال ، فأجعلهم أمّتي ، قال : هي أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة يُصلّون في اليوم والليلة خمس صلوات في خمس ساعات من النهار والليل ، وتفتح لهم أبواب السماء ، وتنزل عليهم الملائكة ، فأجعلهم أمّتي ، قال : هي أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة الأرض لهم مسجدٌ وطهور ، وتحلّ لهم الغنائم ، فأجعلهم أمّتي ، قال : هي أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة يصومون لك شهر رمضان ، فيغفر لهم ما كان قبل ذلك ، فأجعلهم أمّتي ، قال : هي أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة يحجّون لك البيت الحرام ، يعجّون بالبكاء عجباً ، ويضجّون ضجيجاً ، فأجعلهم أمّتي ، قال : هي أمة أحمد ، قال : فما تعطيهم على ذلك ؟ قال : المغفرة ، وأشفعهم فيمن وراءهم ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة يرفع أحدهم اللقمة إلى فيه ، ويفتحها باسمك ، ويختتمها بحمدك ، فلا تستقرّ في جوفه حتّى يغفر له ، فأجعلهم أمّتي ، قال : هي أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة هم السابقون يوم القيامة ، وهم الآخرون من الخلق ، فأجعلهم أمّتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها ، فأجعلهم أمّتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة فلم يعملها . . كتبت له حسنة واحدة ، وإن عملها . . كتبت له عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف ، فأجعلهم أمّتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة ثمّ لم يعملها . . لم تكتب عليه ، وإن عملها . . كتبت عليه سيئة واحدة ، فأجعلهم أمّتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمة هم خير

الناس ، يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فأجعلهم أمّتي ، قال : هي أمّة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ إنّي أجد في الألواح أمّة يحشرون يوم القيامة على ثلاث ثلث : ثلثة يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلثة يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلثة يمحصون ثمّ يدخلون الجنة ، فأجعلهم أمّتي ، قال : تلك أمّة أحمد ، قال : يا ربّ ؛ بسطت هذا الخير لأحمد وأمّته ، فأجعلني من أمّته ، قال الله تعالى : ﴿ يَمْسُؤْهُ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ رِيسَالَتِي وَبِكَلْمِي فَخُذْ مَا ءَاتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه : « ما تقولون في هذه الآية : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : « لَمَّا كَلَّمَ اللهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . . قال : يا ربّ ؛ هل في الأمم أكرمُ عليك من أمّتي ؟ ظَلَلْتَ عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْتَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ؟ فقال الله تعالى : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ فَضْلَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ كَفَضْلِي عَلَى سَائِرِ خَلْقِي ، قال موسى : يا ربّ ؛ أفأراهم ؟ قال : لن تراهم ، ولكن إذا أحببت أن تسمع كلامهم . . فعلت ، قال : فإنّي أحبُّ ذلك ، قال الله تعالى : يا أمة محمد ؛ فأجابوا كلّهم بصيحة واحدة يقولون : لبيك اللهم لبيك ، وهم في أصلاب آبائهم ، ثمّ قال الله تعالى : صلّاتي عليكم ورحمتي سبقت غضبي ، وعفوي سبق عذابي ، وإنّي قد غفرتُ لكم قبل أن تستغفروني ، فمنّ لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسولُ الله . . غفرتُ له ذنوبه ، فأراد الله أن يَمَنَّ عَلَيَّ بِذَلِكَ فقال : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي : أُمَّتِكَ » (٢) .

وفي بعض كتب الله المنزلة : أنا الله الذي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، محمداً المختارُ عبدي ورسولي ، أمّته الحامدون رعاة الشمس ، فيهم صلاةٌ لو كانت في قوم نوح . . ما هلكوا بالطوفان ، ولو كانت في قوم عاد . . ما هلكوا بالريح ، ولو كانت في قوم ثمود . . ما هلكوا بالصيحة (اهـ) (٣)

(١) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣٧٩/١) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٣٩٥/٣) .

(٢) أخرجه ابن مردويه في « تفسيره » كما في « الدر المنثور » (٤١٨/٦) ، وجاء نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه عند

الحاكم في « المستدرک » (٤٠٨/٢) ، والنسائي في « الكبرى » (١١٣١٨) .

(٣) « طهارة القلوب » (ص ٣٢٨ - ٣٣٢) ، والأثر الأخير أخرجه بنحوه عن كعب الأخبار رحمه الله تعالى فيما وجدته في

التوراة الدارمي في « السنن » (٥) ، (٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٨٦/٥) .

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب الرابع والسبعين ما نصّه : (قال كعبُ الأحبار :
« إنَّ الله تعالى أكرم هذه الأمة بثلاثة أشياء قد أكرم بها أنبياءه :

أحدها : أنه جعل كلَّ نبيٍّ شاهداً على قومه ، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس .

والثاني : أنه قال للرسول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ، وقال لهذه الأمة : ﴿ كُلُوا
مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ .

والثالث : قال : لكل نبيٍّ دعوة مستجابة ، وقال لهذه الأمة : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ
لَكُمْ ﴾ (١) .

ويقال : إنَّ الله تعالى أكرم هذه الأمة بستِّ كرامات :

أولها : أنه خلقهم ضعفاء ؛ حتَّى لا يستكبروا .

وثانيها : خلقهم صغاراً في أنفسهم ؛ حتَّى تكون مؤنة الطعام والثياب عليهم أقلَّ .

وثالثها : جعل أعمارهم قصاراً ؛ حتَّى تكون ذنوبهم أقلَّ .

ورابعها : خلقهم فقراء ؛ حتَّى يكون حسابهم في الآخرة أقلَّ .

وخامسها : خلقهم آخر الأمم ؛ حتَّى يكون مقامهم في القبر أقلَّ .

وسادسها : جعلهم آخر الأمم ؛ لئلاً يفتضحوا بين الأمم .

وعن كعبِ الأحبار قال : « قرأت في بعض ما أنزل الله على موسى عليه الصلاة
والسلام : يا موسى ؛ ركعتان يصليهما أحمدُ وأُمَّتُه - وهي صلاة العَدَاة - يقول الله تعالى :
ما صلاهما أحد . . إلا غفرتُ له ما أصاب من الذنوب في يومه وليلته ، ويكون في ذمّتي .

يا موسى ؛ أربع ركعات يصليهنَّ أحمدُ وأُمَّتُه - وهي الظهر - أعطيهنَّ بأوّل ركعة منها
المغفرة ، وبالثانية أثقل موازينهم ، وبالثالثة أوكلُّ عليهم الملائكة يسبحون ويستغفرون
لهم ، وبالرابعة أفتح لهم أبواب السماء وتشرف عليهم الحور العين .

يا موسى ؛ أربع ركعات يصليهنَّ أحمدُ وأُمَّتُه - وهي صلاة العصر - فلا يبقى ملك في
السموات والأرض إلاَّ استغفر لهم ، ومن استغفرتُ له الملائكة . . لم أعدِّبه أبداً .

(١) أخرجه بنحوه عن كعب الأحبار رحمه الله تعالى ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٠/٢٢٦٨) .

يا موسى ؛ ثلاث ركعات يصلينهم أحمد وأُمَّته - وهي صلاة المغرب حين تغرب الشمس -
أفتح لهم أبواب السماء ، فلا يسألون حاجة إلا قضيتها لهم .

يا موسى ؛ أربع ركعات يصلينهم أحمد وأُمَّته - وهي صلاة العتمة حين يغيب الشفق - خير
لهم من الدنيا وما فيها ، ويخرجون من ذنوبهم كيوم ولدتهم أمهاتهم .

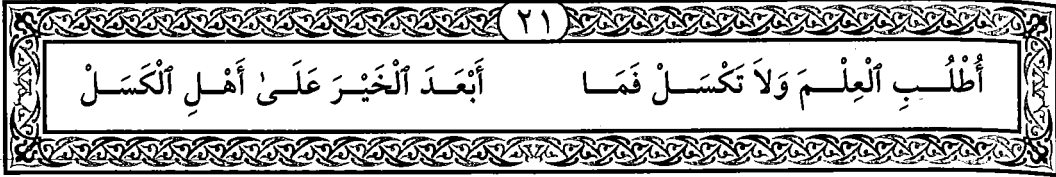
يا موسى ؛ إذا توضأ أحمد وأُمَّته كما أمرتهم . . أعطيتهم بكل قطرة تقطر من الماء جنة
عرضها كعرض السماء والأرض .

يا موسى ؛ يصوم أحمد وأُمَّته شهراً من كل سنة - وهو شهر رمضان - أعطيتهم بصيام كل
يوم مدينة في الجنة ، وأعطيتهم بكل خير يعملون فيه من التطوع أجر فريضة ، وأجعل فيه ليلة
القدر ، فمن استغفر منهم فيها مرة واحدة ، نادماً صادقاً من قلبه ؛ فإن مات من ليلته أو
شهره . . أعطيه أجر ثلاثين شهيداً « (١) اهـ

وَأَعْلَمُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَ أُمَّةَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْأُمَّمِ ، وَخِيَارُ
الْأُمَّةِ عِلْمًا وَهُمَا ، وَأَعْلَمُ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ خِيَارُ كُلِّ
قَرْنٍ عِلْمًا وَهُ . اهـ

* * *

(١) « تنبيه الغافلين » (٥١٠-٥١٣) .



أي : أجتهد في تحصيل العلم وطلبه ؛ وهو إدراك المعلوم على ما هو عليه في الواقع ، أو هو حكم العقل الجازم المطابق للواقع ، فخرج بالأول : الشكُّ والوهم ؛ بناءً على القول بأنه لا حكم فيهما ، وخرج بقيد الجازم : الظنُّ ، وبقيد المطابق للواقع : غيره ؛ وهو الجهل المركَّب ، وهو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع ؛ كإدراك الفلاسفة قَدَم العالم ، وسمِّي مركباً ؛ لتركبه من جهلين : عدم العلم ، واعتقاد أنه عالم .

وقوله : (ولا تكسل) أي : لا تسأم أيها الطالب عن الاشتغال به ؛ لأنَّ آفة الكسل والسامة قبيحةٌ شنيعة ، كما قال الناظم : (فما أبعد الخير على أهل الكسل) ، والخير : اسمٌ جامعٌ لأنواع الفضائل ، فهو خلاف الشرِّ ، ويرحم الله القائل : [من السريع]

أُطْلِبْ وَلَا تَضْجَرَ مِنْ مَطْلَبٍ فَاَفَةُ الطَّالِبِ أَنْ يَضْجَرَ^(١)
أَمَا تَرَى الْخَبْلَ بِتَكَرُّرِهِ فِي الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ قَدْ أَثْرَا

وقال بعضهم :

الْعِلْمُ نُورٌ فَلَا تُهْمِلْ مَجَالِسَهُ وَأَعْمَلْ جَمِيلاً يُرَى فَالْفَضْلُ فِي الْعَمَلِ
لَا تَرْقُدِ اللَّيْلَ مَا فِي النَّوْمِ فَائِدَةٌ لَا تَكْسَلَنَّ تَرَى الْحِرْمَانَ فِي الْكَسَلِ

تَدْبِيهِ

[فيما يجب طلبه من العلوم]

الأمرُ في قول الناظم : (أطلب) للوجوبِ ، فطلبُ العلم واجبٌ ، كما قال صلى الله

(١) في الأصل : (اطلب ولا تضجر) ، ولا يستقيم وزناً ورواية ، والتصويب من « مغني اللبيب » (٥١٩ / ٢) ، و« شرح الأشموني » (١٨٦ / ٢) ، و« مع الهوامع » (٣٢٠ / ٢) ، والبيت منسوب إلى أحد المولدين .

عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »^(١) ، قال بعض العلماء : أراد به علم التوحيد وعلم أحوال القلب وعلم الشريعة .

فأما علم التوحيد : فهو أن يعرف الشخص أن له إلهاً عالماً قادراً حياً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً واحداً ، متصفاً بصفات الكمال ، منزهاً عن النقصان والزوال ، ليس كمثله شيء ، وأن يعرف أن له ملائكة ، وهم عباده ، لا يعصونه فيما أمرهم به ويفعلون ما يؤمرون به ، لا يأكلون ولا يشربون ، وأن يعرف أن له كتباً منزلة ، وكلها منسوخة بالقرآن ، وأن يعرف أن له رسلاً أرسلهم إلى الخلق ، أولهم آدم عليه الصلاة والسلام ، وآخرهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن شريعته باقية إلى يوم القيامة ، وأن يعرف أن سؤال منكر ونكير حق ، والحشر والنشر حق ، والجنة والنار حق ، والحساب والميزان والصراف حق ، وأن يعرف أن القدر خيرُهُ وشرُّهُ من الله تعالى ، لا يجري شيء في الوجود إلا بإرادته ومشيئته .

وأما علم أحوال القلوب : فهو أن يعرف الشخص أن للقلب أخلاقاً محمودة فيفعلها ، وأخلاقاً مذمومة فيتباعد عنها ، أمّا المحمودة : فكالتمسك على الله تعالى ، والإخلاص له سبحانه وتعالى ، والحمد والشكر على النعم ، والتوبة من المعاصي ، والخوف ، والرجاء ، والزهد ، والصبر ، والمحبة ، والرضا بالقضاء ، وذكر الموت ، وأمّا المذمومة : فكالحرص على الطعام والشراب ، وكراهية الجوع - مع أن فيه فوائد ؛ منها : صفاء القلب ورقته ، وذلل النفس ، وكسر الشهوات ، وزوال النوم المانع من العبادة - وكالحرص على الكلام فيما لا يعني - لأن للسان آفات كثيرة ، والغالب عليه منها : الغيبة والكذب والمدح والمزاح - وكالغضب ، والحسد ، والبخل ، وحب الجاه ، وحب الدنيا ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، وغير ذلك من أمراض القلوب .

وأما علم الشريعة : فكل ما تعين عليك فعله فالواجب عليك معرفته لتؤديه على حقيقته ؛ كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج ، وغير ذلك من أنواع العبادات والمعاملات والمناكحات ، وأفضل العبادات البدئية الصلاة ؛ لأن العبادات إمّا قلبية ؛ كالإيمان والتفكير

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٩) ، وفي « الصغير » (١٦/١) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٨٣٧) ، وأما زيادة لفظة : « ومسلمة » . فقد قال الإمام السنخاوي : (قد ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث : « ومسلمة » ، وليس لها ذكر في شيء من طرقه ، وإن كان معناها صحيحاً) .

والتوكل والصبر والورع والزهد ونحوها ، وإمّا بدنية ؛ كالإسلام والصلاة والصوم والحجّ ،
والقلبيّة أفضل من البدنيّة ، وأفضل القلبيّة الإيمان ، ولا يكون إلاّ واجباً ، وقد يكون تطوّعاً
بالتجديد ، وأفضل البدنيّة الصلاة كما تقدّم ؛ لأنّه أجمع فيها ما تفرّق في غيرها ؛ من
ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقراءة ، وتسبيح ، ولبث ، وطهارة ، وستر ،
وأستقبال ، وترك أكلٍ وشربٍ ، وغير ذلك ، وزادت بالركوع والسجود ونحوهما .

وأعلم : أنّ أعضاءك كالأغنام السائمة وأنت راعيها ، وقد رعيت في أودية المعاصي ،
فنجعها في وقت الصلاة بين يدي الله تعالى ، فإذا قمت إلى الصلاة . . قمت بين يدي مولاك
سبحانه وتعالى ، فإذا كبرت . . فقد أذعنت بأنّ الكبرياء والعظمة له سبحانه وتعالى ، وإذا
ركعت . . فكأنك قلت : يا ربّ ؛ ربّتي لك وأنا عبدك ، وثقل المعصية أنقض ظهري
فاطرحة عني ، وإذا سجدت . . فكأنك تقول : عفرت وجهي بالتراب تائباً خاضعاً لك ، فإذا
قمت للصلاة . . فأجتهد في تطهير قلبك ، وتذكّر في قيامك أنّك واقفٌ بين يديه كوقوفك يوم
العرض عليه سبحانه وتعالى ، وإذا كبرت بلسانك . . فلا يكذبك قلبك ، فإذا كان فيه شيء
كبير سوى الله تعالى . . فاطرحه عنه .

ويكفيينا في فضيلة الصلاة ما روي : أنه سُئل البخاريّ : ما تقول فيمن لا يصلي ؟ فنكس
رأسه طويلاً ، ثمّ رفع رأسه فقال للسائل : لا تظنّ أنّي فعلت ذلك عجزاً عن جوابك ، ولكنّ
نظرتُ بقلبي في كتب شرائع الإسلام ، وعرضتُ جميع القرآن من أوّله إلى آخره ؛ هل أجد
فيه أنّ من لا يصلي يكون مسلماً أم لا ؟ فما وجدت أنّ من ترك الصلاة متعمداً يكون مسلماً .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لأداء ما افترض علينا من الصلوات وغيرها على وجه
يرضيه سبحانه وتعالى . آمين .

* * *

وَأَحْتَفِلُ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا
تَشْتَغِلُ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلٍ

أي : أجمع جواسك للفقه ؛ أي : للفهم في الدين ؛ أي : في أحكامه ، ولا تشغل ؛
أي : لا تلتذ عنه بمال ولو كثر ، ولا خَوَلٍ ، بفتح الخاء المعجمة والواو ، كخَدَمٍ وَحَسَمٍ
وزناً ومعنى ، أفاده في « المصباح » .

ففي هذا البيت : الأمر بالاجتهاد في طلب العلم الذي لا بد منه ؛ وهو العلم الشرعي ؛
كالفقه والحديث والتفسير والآلات الموصلة إلى فهم ذلك ؛ لأنه هو الذي يجب على الإنسان
الاشتغال به لأجل أن يعرف ما هو مطلوب منه من فرضٍ ونفل ، وما هو منهيٌّ عنه من حرامٍ
ومكروه .

فَعِلْمٌ مِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ : أَنْ الْمَرَادَ بِ(الفقه) فِي النِّظْمِ : مَعْنَاهُ اللُّغَوِيُّ ؛ وَهُوَ الْفَهْمُ ،
فَقَوْلُهُ : (وَأَحْتَفِلُ لِلْفِقْهِ) أَي : لِلْفَهْمِ فِي الدِّينِ ؛ أَي : فِي أَحْكَامِهِ ، وَلَيْسَ الْمَرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ
الاصْطِلَاحِيُّ ؛ الَّذِي هُوَ : الْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ الْمَكْتَسَبِ مِنْ أَدْلَتِهَا التَّفْصِيلِيَّةِ ؛
لأنه بهذا المعنى قاصرٌ على الفقه فقط .

والدين في اللغة يطلق على معانٍ منها : الجزاء ؛ قال تعالى : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
أي : الجزاء ، ومنها : الطاعة ، يقال : فلان دان لفلان ؛ أي : أطاعه .

وأصطلاحاً : ما شرعه الله من الأحكام على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

والدين والملة والشريعة والشرع ألفاظ متَّحدَةٌ في المعنى ، مختلفةٌ بالاعتبار ؛ لأنَّ
الأحكام من حيث أشتهاؤها وظهورها وتشريعها . . تسمَّى : شريعةً وشرعاً ، ومن حيث
إملاء الشارع إيَّاها لنا . . تسمَّى : ملةً ، ومن حيث أنقياد الخلق لها . . تسمَّى : ديناً . اهـ

وفي هذا البيت أيضاً : النهي عن الاشتغال عن العِلْمِ بما هو من القواطع عنه ؛ كالمال ،
والحَسَمِ ، والخَدَمِ ، والأمور المتعلقة بتحصيل الدنيا ، وغير ذلك .

ولله درُّ القائل :

تَعَلَّمَ فَإِنَّ الْعِلْمَ زِينٌ لِأَهْلِهِ
وَكُنْ مُسْتَفِيداً كُلَّ يَوْمٍ زِيَادَةً
تَفَقَّهُ فَإِنَّ الْفِقْهَ أَفْضَلُ قَائِدٍ
هُوَ الْعِلْمُ الْهَادِي إِلَى سُنَنِ الْهُدَى
فَإِنَّ فِقْهَهَا وَاحِداً مَتَوَرَّعاً
وَفَضْلٌ وَعُنْوَانٌ لِكُلِّ الْمُحَامِدِ
مِنَ الْعِلْمِ وَاسْبِحْ فِي بَحْرِ الْفَوَائِدِ
إِلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَأَعْدِلْ قَاصِدِ
هُوَ الْحَصْنُ يُنَجِّي مِنْ جَمِيعِ الشَّدَائِدِ
أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدِ

وذكر في « الجامع الصغير » : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ » (١) .

* * *

(١) « الجامع الصغير » (٥٨٩٦) ، والحديث أخرجه الترمذي (٢٦٨١) ، وابن ماجه (٢٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨٦) ، والطبراني في « الكبير » (٦٥/١١) . والمراد بالفقه في الحديث : ما قاله الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » (٣٢/١) : (كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، وأستيلاء الخوف على القلب ، ويدلُّك عليه قوله عز وجل : ﴿ لِيَسْفَهُوا فِي الَّذِينَ وَلَّيْتُمْ وَإِلْيَازُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ ، وما يحصل به الإنذار والتخويف . . هو هذا الفقه ، دون التفرعات ؛ الطلاق والعقاق واللعان والسلم والإجارة . . . ، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه ، ولعمري ؛ إن الفقه والفهم في اللغة اسمان لمعنى واحد) .

وَأَهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَخْرِزُ مَا بَدَلُ

أي : أترك النوم ، وحصِّله ؛ أي : العلم الشرعي مع آلاته ، لا كلِّ علمٍ ؛ لأنَّ العمر يقصر عن تحصيل كلِّ علم ، خصوصاً في هذا الزمن الذي كثرت فيه الشواغل ، ولا تستعظم ترك النوم في تحصيله ؛ لأنَّ مَنْ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ وَعَظَمْتَهُ وَنَفَعَهُ . . يحقر - بفتح الياء التحتية وكسر القاف ، من باب ضرب - أي : لا يعبأ ولا يعتني بالشيء الذي بذله وأعطاه عن طيبِ نفسٍ ، هكذا يستفاد من « المصباح » .

فقد أمر الناظم رحمه الله تعالى بهَجْرِ النوم وتحصيل العلم ؛ لأنَّ مِنْ طَبَعِ النَّفْسِ النَّوْمَ وَالكَسْلَ ، والميل إلى اللهو واللعب والتنعم ، والفتور عن الطاعات خصوصاً عن العلم ، والليلُ تَتَفَرَّغُ فِيهِ الْحَوَاسُّ عَنِ الشَّوَاغِلِ ، وتنقطعُ فِيهِ الْأُمُورُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالدُّنْيَا غَالِباً ، فينبغي سهره وتحصيل العلوم فيه ، فهو وإن فاتته لذة النوم . . فقد حصلت له لذةٌ أعلى وأعظم مِنْ ذَلِكَ ؛ لأنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ عِنْدَ أَهْلِهِ أَنَّهَمْ لَا يَتَلَذَّذُونَ بِشَيْءٍ أَحْلَى مِنْهُ ، حَتَّى إِنَّ الْمَشْتَغِلِينَ بِهِ ، الملازمين لتحقيق مسائله ، وتدقيق فضائله . . يحصل لهم به مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَالطَّرِبِ مَا لَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَتَحَرَّى سَمَاعَ الْأَلَاتِ وَالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، كما قال بعضهم :

[من الكامل]

سَهْرِي لِتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلْدُّ لِي
وَتَمَائِلِي طَرِباً لِحَلِّ عَوِيصَةٍ
وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى أُرَاقِهَا
وَأَلْدُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدَفْهَا
مِنْ وَصَلِ غَانِيَةٍ وَطِيبِ عِنَاقِ
أَشْهَى وَأَحْلَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِ
أَحْلَى مِنَ الدُّوَكَاةِ وَالْعُشَّاقِ
نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنِ أُرَاقِي
نوماً وتبغني بعدَ ذاك لحاقي^(١)

سَهْرِي لِتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلْدُّ لِي
وَتَمَائِلِي طَرِباً لِحَلِّ عَوِيصَةٍ
وَصَرِيرُ أَقْلَامِي عَلَى أُرَاقِهَا
وَأَلْدُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِدَفْهَا
أَبْيَتْ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيئَهُ

(١) الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله تعالى في « ديوانه (ص ١٠٢) ، والدوكة : هو غشيان المرأة ، والنقر على

ثم إن الناظم رحمه الله تعالى ذكر مثلاً بيّن به : أن مَنْ يعرف فضل العلم وما أعده الله لطالبه في الدار الآخرة من الأجر العظيم والنعيم المقيم . . . أحقر في جنب ذلك ما يلاقيه من الأمور الشاقة في الدنيا ، وما يحصل له من التعب والسهر وترك اللذات الدنيوية ، وما يصيبه من المصائب ؛ كتنقص في رزقه ، أو ولده ، أو نحو ذلك ، وهو قوله : (فَمَنْ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرُ مَا بَدَلَ) .

ولله درُّ إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه حيث قال : [من الطويل]

تَصَبَّرَ عَلَى مُرِّ الْجَفَا مِنْ مُعَلِّمٍ فَإِنَّ رُسُوبَ الْعِلْمِ فِي نَفَرَاتِهِ
وَمَنْ لَمْ يَذُقْ ذَلِكَ التَّعَلُّمِ سَاعَةً تَجَرَّعَ ذَلِكَ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ
وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيمُ وَقْتَ شِبَابِهِ فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لَوْفَاتِهِ
حَيَاةَ الْفَتَى وَاللَّهِ بِالْعِلْمِ وَالتَّقَى إِذَا لَمْ يَكُنَّا لَا أَعْتَابَ لَذَاتِهِ^(١)

وله أيضاً نور الله ضريحه : [من الوافر]

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ كَرِيمٌ وَلَوْ وَلَدْتَهُ أَبَاءً لِيَأْمُ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ تَعْظُمَ أَمْرُهُ الْقَوْمُ الْكَرَامُ
وَيَتَّبَعُونَهُ فِي كُلِّ حَالٍ كِرَاعِي الضَّانِ تَتَّبَعُهُ السَّوَامُ
فَلَوْ لَا الْعِلْمُ مَا سَعَدَتْ رِجَالٌ وَلَا عُرِفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ^(٢)

الأوراق لإلقاء الرمل : هو عمل يكون بعد ترتيب أوراق الكتاب ، والترتيب : هو وضع التراب عليها فور الانتهاء من كتابتها للإسراع في جفاف الحبر المكتوب به ؛ وذلك لئلا ينطمس ويفسد هو وما قابله إن طبق الأوراق فوق بعضها . ولمحمد بن هارون الدمشقي كما في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٤٢٣) ، و« الجامع لأخلاق الراوي » (٧٦) ، و« تاريخ دمشق » (٢٤٤ / ٥٥) :

[من الوافر]

لَمَجْبُورَةٌ تُجَالِسُنِي نَهَارِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْسِ الصَّدِيقِ
وَرُزْمَةٌ كَاغِدٍ فِي الْبَيْتِ عِنْدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِدْلِ الصَّدِيقِ
وَلَطْمَةٌ عَالِمٍ فِي الْخَدِّ مَنِّي أَلَدُّ إِلَيَّ مِنْ شُرْبِ الرِّحِيْقِ

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص ٤٤) .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٢٥) ، ونسبها ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٧) إلى بكر بن حماد ،

[من الوافر]

وفيها زيادة ؛ وهي قوله :

وقال بعضهم :

أَلْعِلْمُ مَغْرَسٌ كُلُّ فَضْلٍ فَاجْتَهَدُ
وَأَعْلَمُ بَأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ يِنَالُهُ
إِلَّا أَخُو الْعِلْمِ الَّذِي يُعْنَى بِهِ
وَأَحْرَصُنْ لِتَبْلُغَ فِيهِ حِطًّا وَافِرًا
لِتَعَزَّ حَتَّى إِنْ حَضَرْتَ لِمَجْلِسٍ
إِنَّ الْخَلِيَّ مِنْ الْعُلُومِ مَقَامُهُ

* * *

[من الكامل]

أَلَّا يَفُوتَكَ فَضْلُ ذَاكَ الْمَغْرَسِ
مَنْ هُمُّهُ فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَسِ
فِي حَالَتِهِ عَارِبًا أَوْ مُكْتَسِي
وَأَهْجُرْ لَهُ طِيبَ الْمَنَامِ وَعَلَّسِ
أُكْرِمْتَ فِيهِ وَكُنْتَ صَدْرَ الْمَجْلِسِ
عِنْدَ النَّعَالِ لَهُ صُمُوتُ الْأَخْرَسِ (١)

وَمَنْ يَكُ عَالِمًا فَهَوِ الْإِمَامُ
لَهُ عَقْلٌ وَلَيْسَ بِهِ سِقَامُ
وَلَا عُرْفَ الْحَلَالِ وَلَا الْحَرَامِ
وَبِالْجَهْلِ الْمَذَلَّةُ وَالرَّغَامُ
وَمَصْبَاحٌ يَضِيءُ بِهِ الظَّلامُ
مِنْ اللَّهِ التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ

(١) الأبيات عدا البيت الأخير للإمام الشافعي رحمه الله تعالى في « ديوانه » (ص ٧٨) .

لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلَ

أي : لا تقل قد مضت أربابه - أي : أصحابه - بموتهم وأنقراضهم ؛ لأنَّ في المثل المشهور : أن كل مَنْ سار على الدرب وصل إلى مطلوبه ، والدَّرْبُ : المدخل بين الجبلين ، والجمع : دُرُوبٌ ، مثل : فُلْسٌ وفُلُوسٌ ، وليس أصله عربياً ، والعرب تستعمله في معنى الباب ، فيقال لباب السكة : درب ، وللمدخل الضيق : درب ؛ لأنه كالباب في التوصل بكلِّ ، أفاده في « المصباح » .

وهذا البيت جواب عن سؤالٍ مقدَّرٍ ؛ فكأنَّ قائلًا قال للناظم رحمه الله تعالى : كيف يتيسَّرُ الاشتغالُ بالعلم وقد أنقرض بأنقرض أهله وتعذَّرَ تحصيلُهُ ؟!

فأجابه بقوله : (لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ) فإنه قد جرت عادة الله في خلقه على ممرِّ الأعوام والدهور : أنه لا يخلو زمنٌ من العلماء ؛ إقامةً لشريعته صلى الله عليه وسلم ، وأنه إذا مات طائفة . . خلفتها أخرى ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا . . يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا الْقَاسِمُ وَاللَّهُ الْمُعْطِي ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرٌ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ »^(١) ، فينبغي الاجتهاد في العلوم ؛ لأنَّ لكلَّ مجتهدٍ نصيباً ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَعْدُدْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ مُسْتَمِعًا أَوْ مُحِبًّا ، وَلَا تَكُنِ الْخَامِسَةَ فَتَهْلِكُ »^(٢) ، وهو الذي يكره العلماء .

(١) أخرجه البخاري (٣١١٦) ، ومسلم (١٠٣٧) .

(٢) أخرجه البزار في « مسنده » (٣٦٢٦) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١) ، وقال البيهقي : (تفرد به عطاء الخفاف ، وإنما يروى هذا عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء من قولهما) . قال ابن عبد البر : (الخامسة التي فيها الهلاك : معادة العلماء وبغضهم ، ومن لم يحبهم . . فقد أبغضهم أو قارب ذلك ، وفيه الهلاك ، والله أعلم) .

وقال صلى الله عليه وسلم لعليّ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النَّعَمِ» (١).

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: (مجلسُ فقهٍ خيرٌ من عبادة ستين سنة).

وقال صلى الله عليه وسلم: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء» حديث صحيح (٢).

وأما حديث: «علماءُ أمّتي كأنبياءِ بني إسرائيل».. فمتكلّم فيه (٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إنَّ العالمَ والمتعلّمَ إذا مرّا على قريةٍ.. فإنَّ الله تعالى يرفعُ العذابَ عن مقبرة تلك القرية أربعين يوماً» (٤).

وقال صلى الله عليه وسلم: «فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ» (٥).

وقال صلى الله عليه وسلم «فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أمّتي» (٦).

وقال صلى الله عليه وسلم: «فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم، إنَّ الله عزَّ وجلَّ وملائكتهُ وأهل السماواتِ والأرضينَ، حتّى النملةُ في جُحرِها وحتّى الحوتُ.. ليُصلُّونَ على معلّمِ الناسِ الخَيْرِ» ذكره في «الجامع الصغير» (٧).

وفي «تنبيه الغافلين» في الباب السابع والخمسين ما نصّه: (عن كثير بن قيس قال: كنتُ جالساً مع أبي الدرداء في مسجدِ دمشق، فأتاه رجلٌ فقال: يا أبا الدرداء؛ جئتُك من المدينة في حديثٍ بلغني أنّك حدثته عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال: ما جئتُ لتجارةٍ

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٣) انظر «المقاصد الحسنة» (ص ٢٨٦).

(٤) قال في «المصنوع» (ص ٦٥): (قال الحافظ الجلال - يعني: السيوطي رحمه الله - : لا أصل له)، وانظر «كشف الخفاء» (٢٢١/١).

(٥) تقدم تخريجه قبل قليل في حديث: «العلماء ورثة الأنبياء».

(٦) أخرجه الحارث في «مسنده» كما في «زوائد الهيثمي» (٣٩)، والرافعي في «التدوين في أخبار قزوين» (١١٨/٣).

(٧) «الجامع الصغير» (٥٨٥٩)، والحديث أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، والدارمي في «السنن» (٢٩٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٣٣-٢٣٤/٨).

ولا حاجة ، وما جئتُ إلا لهذا ؟ فقال : ما جئتُ إلا له ، قال : أبشر ؛ فإنِّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَلَكَ طريقاً يطلبُ فيها علماً . سهَّلَ اللهُ له طريقاً إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنتها لطالبِ العلمِ رضاً بما يصنعُ ، وإنَّ العالمَ يستغفرُ له مَنْ في السماواتِ وَمَنْ في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ » (١) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظَرَ إِلَى عُتْقَاءِ اللهِ مِنَ النَّارِ . . . فليَنْظُرْ إِلَى الْمُتَعَلِّمِينَ ؛ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ؛ ما مِنْ مُتَعَلِّمٍ يَخْتَلِفُ إِلَى بَابِ الْعَالَمِ . . . إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ عِبَادَةَ سَنَةٍ ، وَبَنَى لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ مَدِينَةً فِي الْجَنَّةِ ، وَيَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَالْأَرْضُ تُسْتَغْفَرُ لَهُ ، وَيَمْسِي وَيَصْبِحُ مَغْفُوراً لَهُ » (٢) .

وروي : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَرَأَى مَجْلِسَيْنِ : أَحَدُهُمَا يَذْكُرُونَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ ، وَالْآخَرَ يَتَعَلَّمُونَ فِيهِ الْفِقْهَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كِلَا الْمَجْلِسَيْنِ عَلَى خَيْرٍ ، وَأَحَدُهُمَا أَفْضَلُ مِنَ الْآخَرِ ؛ أَمَّا هَؤُلَاءِ ؛ فَيَدْعُونَ اللهُ وَيُرْغَبُونَ إِلَيْهِ ، فَإِنْ شَاءَ . . . أَعْطَاهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ . . . مَنَعَهُمْ ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ ؛ فَيَتَعَلَّمُونَ وَيَعْلَمُونَ الْجَاهِلَ ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً ، فَهَؤُلَاءِ أَفْضَلُ » ، ثُمَّ جَلَسَ مَعَهُمْ (٣) .

وعن أنس بن مالك : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنْ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ لَوْ كَانَ لَهُ أَبُو قَيْسٍ ذَهَباً فَيَنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى » .

وعن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه أنه قال : لا أعلم شيئاً أفضل من الجهاد في سبيل الله . . . إلا أن يكون طلب العلم ؛ فإنه أفضل من الجهاد في سبيل الله ، ومن خرج من بيته في طلب باب من العلم . . . حَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا ، وَصَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فِي جَوْ السَّمَاءِ ، وَالسَّبَاعُ فِي الْبَرِّ ، وَالْحَيْتَانُ فِي الْبَحْرِ ، وَآتَاهُ اللهُ أَجْرَ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صِدْقاً (٤) .

(١) تقدم تخريجه قبل قليل في حديث : « العلماء ورثة الأنبياء » .

(٢) أخرجه السمرقندي بإسناده في « تنبيه الغافلين » (ص ٢٧) وانظر « الفتاوى الحديثية » (ص ١٧٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩) ، والدارمي في « السنن » (٣٦١) ، والطبائسي في « مسنده » (٢٢٥١) .

(٤) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » بإسناده (ص ٤٢٩) .

وعن أبي الدرداء قال : ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون؟! تعلّموا العِلْمَ قبل أن يُرفعَ بموت العلماء^(١) .

ويقال : العلماء سُرُجُ الأزمنة ، فكلُّ عالم مصباح زمانه .

وروي عن سالم بن أبي الجعد رضي الله تعالى عنه قال : أشتراني مولاي بثلاث مئة درهم فأعتقني ، فقلت في نفسي : بأيّ الحرفة أحترفُ ؟ فأخترتُ العِلْمَ على كلِّ حرفةٍ ، فلم يمضِ بي كثيرٌ مدّةٍ حتّى أتاني الخليفة زائراً ، فلم أذن له^(٢) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : الناس رجلان : عالم ، ومتعلّم ، ولا خيرَ فيما سوى ذلك^(٣) .

ويقال : مَنْ ذهب إلى عالم وجلس عنده ولم يقدر على حفظ شيء ممّا قاله . . أعطاه الله سبع كرامات :

أولها : ينال فضل المتعلّمين .

وثانيها : ما دام عنده جالساً كان محبوساً عن الذنوب والخطايا .

وثالثها : إذا خرج من منزله . . نزلت عليه الرحمة .

ورابعها : إذا جلس عنده . . نزلت الرحمة على العالم فتصيبه ببركته .

وخامسها : تكتب له الحسنات ما دام مستمعاً .

وسادسها : تحفُّهُمُ الملائكة بأجنتها وهو فيهم .

وسابعها : كلُّ قَدَمٍ يرفعها ويضعها . . تكون كفارةً للذنوب ، ورفعاً للدرجات ، وزيادة

في الحسنات ، هذا لمن لم يحفظ شيئاً ، وأمّا الذي يحفظ . . فله أضعاف ذلك مضاعفة .

وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال : إنّ الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثلُ

جبالِ تِهامةٍ ، فإذا سمع العِلْمَ . . خاف الله وأسترّجع من ذنوبه ، فينصرف إلى منزله وليس

(١) أخرجه الدارمي في « السنن » (٢٥١) ، وأحمد في « الزهد » (٧٨٠) .

(٢) ذكره الإمام الغزالي في « الإحياء » (٨/١) .

(٣) أخرجه الدارمي في « السنن » (٢٥٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨٨/٦) .

عليه ذنبٌ ، فلا تفارقوا مجالس العلماء ، فإنَّ الله لم يخلق علي وجه الأرض أكرمَ مِنْ مجالسهم .

قال : لو لم يكن لحضور مجلس العلم منفعةٌ سوى النظر إلى وجه العالم . . . لكان الواجب على العاقل أن يرغب فيه ، فكيف وقد أقام النبيُّ صلى الله عليه وسلم العلماء مقام نفسه فقال : « مَنْ زارَ عالماً . . فكأنَّما زارني ، ومَنْ صافَحَ عالماً . . فكأنَّما صافحني ، ومَنْ جالسَ عالماً . . فكأنَّما جالسنِي ، ومَنْ جالسنِي في الدنيا . . أجلسهُ اللهُ تعالى معي يومَ القيامةِ في الجنَّةِ » (١) !؟

وروى الحسنُ قال : مثل العلماء كمثل النجوم ؛ إذا بدتِ . . أهدوا بها ، وإذا أظلمتِ . . تحيَّروا (٢) ، وموتُ العالمِ ثلْمَةٌ في الإسلام ، لا يسدُّها شيءٌ ما اختلفتِ الليالي والأيام (٣) اهـ

* * *

-
- (١) الحديث أورده الحافظ الذهبي في « الميزان » (٦٨٠/٣) ، والحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » (٤٣٤/٧) في ترجمة محمد بن غانم الأزرق التنوخي ، وعزاه الكنايني في « تنزيه الشريعة » (٢٧٢/١) لابن النجار .
- (٢) رواه الحسن مرفوعاً كما أخرجه البيهقي في « المدخل » (٣٩٢) ، ورواه موقوفاً على أبي مسلم الخولاني كما أخرجه البيهقي أيضاً في « المدخل » (٣٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٢٠/٥) .
- (٣) « تنبيه الغافلين » (٤٢٦-٤٤٣) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٢٥

فِي أَرْذِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَا وَجَمَالُ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ

أي : في زيادة العلم والإكثار منه إرغام - أي : إذلال وإهانة^(١) - العدا بكسر العين : جمع عدو ، ويجمع أيضاً على : أعداء ، والعدو : خلاف الصديق ، قاله في « المصباح » .
وإنما كانت الزيادة في العلم إرغاماً للأعداء ؛ لأنَّ مَنْ زاد علماً . . بلغ مناه ، وأرتفع قدره بين الأنام ، وتكامل فخره عند الخاصِّ والعامِّ ، وطاب عيشه ، وظفر بسعادة الدنيا والآخرة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا خير في عيشٍ إلا لعالمٍ ناطق ، أو مستمعٍ واعٍ »^(٢) .

وقول الناظم رحمه الله تعالى : (وجمال العلم) أي : زينته (إصلاح العمل) أي : تحسينه وموافقته للشريعة ، فحينئذٍ يكون عالماً عاملاً ، وهذا هو الممدوح ، وما سواه مذموم^(٣) .
قال في « تنبيه الغافلين » في الباب الثامن والخمسين ما نصُّه : (قال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : لا يكون الرجل عالماً حتى يكون بالعلم عاملاً^(٤)) .
وعنه أيضاً رضي الله تعالى عنه أنه قال : ويلٌ للذي لا يعلم مرّة ، وويلٌ للذي يعلم ولا يعمل سبع مرّات^(٥) .

(١) الرغام : التراب ، وقولهم : رغم أنفه ؛ أي : لصق بالتراب ذلاً وهواناً .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٦٢٠) عن قتادة رحمه الله تعالى قال : (إن في الحكمة مكتوباً : طوبى لعالم ناطق ، وطوبى لمستمع واع) .

(٣) والله در القائل :

أَلْعِلْمُ بَلَّغَ قَوْمًا ذُرْوَةَ الشَّرَفِ وَصَاحِبُ الْعِلْمِ مَحْفُوظٌ مِّنَ الْخَرَفِ
يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ مَهْلًا لَا تُدَسُّهُ بِالمَوْبِقَاتِ فَمَا لِلْعِلْمِ مِّنْ خَلْفِ

(٤) أخرجه السمرقندي بإسناده في « تنبيه الغافلين » (ص ٤٣٣) ، والخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٦ ، ١٧) .

(٥) أخرجه أحمد في « الزهد » (٧٦٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢١٢) ، والخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٦٧) .

وعن سيّدنا عيسى ابن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنّه قال : مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ . . . فذلك الذي يُدعى في ملكوت السماوات عظيماً^(١) .

وعن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه أنّه قال : إذا لم يعمل العالم بعلمه . . . أستنكف الجاهل أن يتعلّم منه وإن جمع العلم كلّهُ .

وقال سفيان بن عيينة : مَنْ عمل بما علم . . . فهو العالم ، وَمَنْ ترك العمل بما علم . . . فهو الجاهل^(٢) .

وذكر في الخبر : « أنّ الملائكة يتعجبون من ثلاثة : من عالم فاسق يحدث الناس بما لا يعمل ، ومن قبر الفاجر يُبنى بالجِصّ والآجرّ ، ومن النقش على قبر الفاجر » .

ويقال : أشدّ الحسرات يوم القيامة ثلاثة : رجل له مملوك صالح يدخل الجنة ومولاه يدخل النار ، ورجل جمع مالاً حلالاً فمنع منه حقوق الله تعالى ومات فأنفقه ورثته في الطاعة ، فينجون به والذي جمعه في النار ، ورجل عالم غير عامل ينجو الناس بعلمه وهو يصير إلى النار .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه سئل : أيّ الناس أشرُّ؟ فقال : « العالم إذا فسد »^(٣) .

وروي عن بشر بن الحارث : أنّه كان يقول لأصحاب الحديث : أدّوا زكاة هذه الأحاديث ، قالوا : كيف نُؤدّي زكاتها؟ قال : أن تعملوا من كلّ مئتي حديثٍ بخمسة أحاديث^(٤) .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « مَنْ تعلّم العلم لأربع . . . دخل النار : ليُباهي به العلماء ، أو يُماري به السفهاء ، أو يُقبل به وجوه الناس إليه ، أو يأخذ به الأموال من الأمراء »^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في « الزهد » (٣٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩٣/٦) .

(٢) أخرجه بنحوه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (٣٨) .

(٣) أخرجه بنحوه الدارمي في « السنن » (٣٨٢) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٤٤٧) .

(٤) انظر « مقدمة علوم الحديث » (ص٤٢٩) .

(٥) أخرجه بنحوه ابن حبان (٧٧) ، والحاكم في « المستدرک » (٨٦/١) ، وأخرجه بلفظه موقوفاً على عبد الله بن مسعود

رضي الله عنه الدارمي في « السنن » (٣٧٩) .

وقال الفضيل بن عياض : إذا كان العالم راغباً في الدنيا حريصاً عليها . . فإنَّ مجالسته
تزيد الجاهل جهلاً والفاجر فجوراً ، وتقسي قلب المؤمن .

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى ما لم يخالطوا السلطان ، ولم يدخلوا في الدنيا ،
فإذا دخلوا في الدنيا . . فقد خانوا الرسل ، فأعتزلوهم وأحذروهم على دينكم »^(١) اهـ^(٢)

قيل لإبراهيم بن عيينة : أيُّ الناس أطولُ ندامةً ؟ قال : (أمّا في الدنيا . . فصانعُ
المعروف إلى مَنْ يُنكرُهُ ، وأمّا في الآخرة . . فعالمٌ مُفَرِّطٌ) اهـ

فعلم من هذا : أن جميع ما ذكر في فضل العلم واردٌ في شأن العلم النافع ، وهو الذي
يعمل به صاحبه ، وغيرُهُ مذمومٌ .

فصل في بيان جملة من الأخلاق ينبغي للعالم أن يتحلّى بها

[في بيان جملة من الأخلاق ينبغي للعالم أن يتحلّى بها]

ينبغي للعالم أن يعرف نعمة الله عليه التي لا تحصى ، وأن يتخلّق بالمحاسن الشريفة التي
ورد الشرع بها ؛ من الزهد في الدنيا ، وعدم المبالاة بها وبأهلها ، والسخاء والجود
والكرم ، ومكارم الأخلاق ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حدّ الخلاعة ، والتواضع ،
وأجتناب الضحك والإكثار في المزاح ، وملازمة الوظائف الشرعية ؛ كالتنظيف بإزالة
الأوساخ والشعور التي ورد الشرع بإزالتها ؛ كقصّ الشارب ، وتقليم الأظافر ، وتسريح
اللحية ، وشفّ الإبط ، وحلق العانة ، وإزالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة ، وأن
يطهر باطنه من الأنجاس المعنوية ؛ كالحسد والكبر ، والرياء والعجب ، واحتقار غيره وإن
كان دونه ، وينبغي أن يترفّق بمن يقرأ عليه ، ويعظمه ، ويحسن إليه بحسب حاله ؛ فقد روى
الترمذي وابن ماجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ الناس لكم تبعٌ ، وإنَّ

(١) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٤٢١٠) ، والقزويني في « التدين » (٤٤٥/٢) ، والسمرقندي في « تنبيه الغافلين »
(ص ٤٣٣) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١٩٢/١) ، وقد تعقبه السيوطي في « اللآلئ المصنوعة »
(٢١٩/١) ، فعزاه للحسن بن سفيان في « مسنده » ، والعقيلي في « الضعفاء » ، وحسنه بشواهده ، وانظر « تنزيه
الشريعة » (٢٦٧/١) .

(٢) « تنبيه الغافلين » (٤٣٣-٤٣٧) .

رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض ليتفقهوا في الدين، فإذا أتوكم . . فاستوصوا بهم خيراً»^(١)،
والخطاب في قوله : (يأتونكم) للعلماء من أصحابه ، والمراد منه العموم .

وينبغي أن يبدل لهم النصيحة ؛ بأن يكون محرّضاً لهم على التعلم ومؤلفاً لقلوبهم ، وأن
يذكرهم فضيلة العلم ؛ ليكون سبباً لنشاطهم ، وزيادة في رغبتهم في الخير ، وأن يجعل
المتعلمين كأولاده في الشفقة عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ، والصبر على جفائهم وسوء
أدبهم ، وأن يسامحهم في قلة أدبهم في بعض الأحيان ؛ فإنّ الإنسان معرض للنقصان ،
لا سيّما إذا كان صغير السنّ ، ولهذا بابٌ واسعٌ جداً ، وفيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب^(٢) .

* * *

(١) « سنن الترمذي » (٢٦٥٠) ، و« سنن ابن ماجه » (٢٤٩) .

(٢) للاستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٢٦

جَمَلِ الْمُنْطِقِ بِالنَّحْوِ فَمَنْ يُحْرَمُ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ أُخْتَبِلَ

أي : زَيْنٌ وحسِّن المنطقَ - أي : النطق والكلام - بالنحو ، فَمَنْ يُحْرَمُ الإعراب ؛ أي : التبيين والإيضاح ؛ بمعرفة الفاعل والمفعول وغير ذلك . . . أُخْتَبِلَ في النطق ؛ أي : تحيَّرَ في كلامه ولم يدرِ الصوابِ مِنَ الخطأ .

و(مَنْ) في النظم : يحتمل أن تكون موصولة فما بعدها مرفوع ، أو شرطية فما بعدها مجزوم ، وحرَّك بالكسر لالتقاء الساكنين .

وعُلم مِنَ النظم : أَنَّ النَّحْوَ جَمَالُ الألسنة وكمال العلماء ، وبه تُعرف معاني الكتاب والسنة النبوية ، وبه يُخاطبُ اللهُ عباده في الجنة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبَّ العرب لثلاث : لأنِّي عربيٌّ ، والقرآنُ عربيٌّ ، ولسانُ أهلِ الجنةِ في الجنةِ عربيٌّ »^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلَّموا العربيةَ وعلموها الناسَ ؛ فإنَّها لسانُ الله الذي يخاطبُ به عباده يومَ القيامةِ »^(٢) اهـ

والنحو : هو علمٌ بأصول مستنبطةٍ مِنْ أَسْتِقْرَاءِ كلام العرب يعرف بها أحوالٌ أو آخر الكلم إعراباً وبناءً .

وموضوعه : الكلمات العربية مِنْ حيثُ إِنَّه يبيحث فيها عن الإعراب والبناء .

وفائدته : معرفة صواب الكلام مِنْ خطئه .

وغايته : الاستعانة على فهم كلام الله ورسوله ، والاحتراز عن الخطأ في الكلام .

وجاء النحو في اللغة لمعانٍ خمسة :

- (١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٨٧/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٦٤) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٣٠/٢) .
- (٢) روي قسمه الأول موقوفاً على سيدنا عمر رضي الله عنه عند البيهقي في « السنن » (١٨/٢) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (١٠٧٤) .

- أحدها : القصد ؛ يقال : نحوت نحوك ؛ أي : قصدت قصدك .
 ثانيها : المثل ؛ يقال : مررتُ برجلٍ نحوك ؛ أي : مثلك .
 ثالثها : الجهة ؛ يقال : توجَّهْتُ نحوَ البيتِ ؛ أي : جهته .
 رابعها : المقدار ؛ يقال : له عندي نحوُ ألفٍ ؛ أي : مقدار ألف .

خامسها : القِسْمُ ؛ نحو : هذا على أربعة أنحاء ؛ أي : أقسام ، وقد جمع ذلك بعضهم

[من الوافر]

في قوله :

نَحُونَا نَحْوَ دَارِكٍ يَا حَبِيبِي وَجَدْنَا نَحْوَ أَلْفٍ مِنْ رَقِيبِ
 وَجَدْنَاهُمْ عَوَاةً نَحْوَ كَلْبِ تَمَنُّوا مِنْكَ نَحْوًا مِنْ شَرِيبِ

وسبب تسمية هذا العلم بالنحو : ما قيل : إِنَّ أبا الأسود الدَّيْلِيَّ - بكسر الدال المهملة وسكون المثناة التحتية ، كما ضبطه سيدي يوسف الحفني في « حواشي الأشموني » - قال : دخلت يوماً على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فرأيتَه مطرَقاً مفكِّراً ، فقلت : فيم تفكَّرُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : إِنِّي سمعتُ بهذا البلدَ لَحْنًا ، فأردتُ أن أصنع كتاباً في أصل العربية ، فقلت له : إن فعلتَ هذا يا أمير المؤمنين . . أحييتنا ، وبقيتَ فينا هذه اللغة ، ثم أتيتَه بعد ثلاث ، فألقى إليَّ صحيفةً فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، الكلام كله : أَسْمُ وفعل وحرف ، فالاسم : ما أنبأ عن المسمَّى ، والفعل : ما أنبأ عن حركة المسمَّى ، والحرف : ما أنبأ عن معنى ليس بأسمٍ ولا فعلٍ ، والفاعل مرفوع وما سواه فرع عليه ، والمفعول منصوب وما سواه فرع عليه ، والمضاف إليه مجرور وما سواه فرع عليه ، وقال : أُنحُ لهم هذا النحو يا أبا الأسود ، وأعلم يا أبا الأسود أن الأشياءَ ثلاثة : ظاهرٌ ، ومضمَّرٌ ، وشيءٌ ليس بظاهرٍ ولا مضمَّر ، وإنما تتفاضلُ العلماءُ في معرفة ما ليس بظاهرٍ ولا مضمَّر ، قال أبو الأسود : فجمعتُ منه أشياءَ وعرضتها عليه ، فكان من ذلك حروف النصب ، فذكرتُ منها : إِنَّ وَأَنَّ وليت ولعلَّ وكأَنَّ ، ولم أذكر لكن ، فقال لي : لِمَ تركتها ؟ فقلتُ : لم أحسبها منها ، فقال : بل هي منها ، فزدتها . ذكره الإمام السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (١) .

(١) انظر « تاريخ الخلفاء » (ص ٢١٤) ، والخبر أخرجه أبو القاسم الزجاجي في « الأمالي » (ص ٢٣٨-٢٣٩) .

ولله درُّ القائل :

النَّحْوُ قَنْطَرَةُ الآدَابِ هَلْ أَحَدٌ
لَوْ تَعَلَّمَ الطَّيْرُ مَا فِي النَّحْوِ مِنْ آدَبٍ
إِنَّ الْكَلَامَ بِلَا نَحْوٍ يُمَاتِلُهُ

وقال بعضهم :

قَدَّمَ النَّحْوَ عَلَى الْفِقْهِ فَقَدْ
مَا تَرَى النَّحْوِيَّ فِي مَجْلِسِهِ
يُخْرِجُ الْأَلْفَاظَ مِنْ فِيهِ كَمَا

* * *

[من البسيط]

يُجَاوِزُ الْبَحْرَ إِلَّا بِالْقَنَاطِيرِ
حَنَّتْ وَأَنْتَ إِلَيْهِ بِالْمَنَاقِيرِ
نَبْحُ الْكَلَابِ وَأَصْوَاتُ الزَّنَابِيرِ

[من الرمل]

يُبْلَغُ النَّحْوِيُّ بِالنَّحْوِ الشَّرْفَ
كَهَلَالٍ بَانَ مِنْ تَحْتِ الشَّغْفِ
يُخْرِجُ الْجَوْهَرُ مِنْ بطنِ الصِّدْفِ^(١)

[من الكامل]

(١) وإسحاق بن خلف البهراني ، كما ذكر المبرد في « الكامل » (٥٣٦/٢) ، وغيره :

والمَرءُ نَكَرْمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ
فِي كَيْلٍ ضِدِّ مِنْ طَعَامِكَ يَحْسَنِ
فَأَجْلَهَا نَفْعاً مَقِيمُ الْأَلْسَنِ

النَّحْوُ يَصْلَحُ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ
وَالنَّحْوُ مِثْلُ الْمَلْحِ إِنْ أَلْقَيْتَهُ
وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا

وَأَنْظِمِ الشُّعْرَ وَلَازِمَ مَذْهَبِي فَاطْرَاحُ الرَّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقْلُ

إِنْظِم : بكسر أوّله وثالثه ، مِنْ باب ضرب .

والشُّعْر - بكسر الشين المعجمة - منصوب على المفعولية ؛ وهو النظم الموزون ، وتعريفه - أي : النظم الموزون - : ما تركب تركيباً متعاضداً وكان مقفياً موزوناً مقصوداً به ذلك ، فما خلا مِنْ هذه القيود أو مِنْ بعضها . . فلا يسمي شعراً ، ولا يسمي قائله شاعراً ، ولهذا ما ورد في الكتاب العزيز والسنة النبوية موزوناً . . فليس بشعراً ؛ لعدم القصد والتقفية ، وكذلك ما يجري على ألسنة بعض الناس مِنْ غير قصد ؛ لأنّه - أي : الشعر - مأخوذٌ مِنْ شَعَرْتُ : إِذَا فَطِنْتُ وَعَلِمْتُ ، وسمي شاعراً ؛ لفطنته وعلمه به ، فإذا لم يقصده . . فكأنّه لم يشعر به . اهـ « مصباح »

وقوله : (ولازم مذهبى) أي : وتعلّق بطريقتي وقصدي في الشعر ؛ مِنْ كوني لا أنظّم إلا نظماً جائزاً ؛ كنظمي « البهجة » في الفقه ، وكهذه القصيدة ، وأشباههما .
والذي تلخّصَ مِنْ كلام العلماء : أنّ الشعر الجائز : هو الذي خلا عن هَجْوٍ ، وعن الكثرة في المدح ، وخلا عن الكذب ، وخلا عن التغزّلِ بمعينٍ ، وقد نقل ابنُ عبد البرّ الإجماعَ على جوازه إذا كان كذلك^(١) . ذكره العلامة العلقميُّ على « الجامع الصغير » .
وقوله : (فَاطْرَاحُ الرَّفْدِ) أي : فطرح الرفد وإلقاؤه ورميه في الدنيا . . أقل ، والرفد - بكسر الراء - : العطية والإعانة ، كما يستفاد مِنْ « المصباح » .

والمعنى : فإلقاء العطية في الدنيا قليل ، والأكثر أخذها وقبولها ، وَمِنْ جملة العطايا : نظم الشعر^(٢) .

* * *

(١) انظر : « التمهيد » (٢٢/١٩٤) .

(٢) أي : أنظم الشعر ولازم مذهبي في نظمه نظماً فريداً مفيداً جائزاً ، يستدعي المدح ويرفع المذمة ، خالٍ عما يشينه ؛ من

فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا أَحْسَنَ الشُّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَدَلْ

أي : فالشعر عُنْوَانٌ ، بضم العين وكسرها ، وَعُنْوَانٌ كُلُّ شَيْءٍ : ما يستدلُّ به عليه ؛
أي : فهو دليلٌ على الفضل الذي هو الزيادة في الشيء ، فَمَنْ أَهْلَهُ اللهُ تَعَالَى لِلنَّظْمِ . . أَسْتَدَلُّ
به على فضيلته وعلمه .

ولله دَرُّ القائل :

[من الخفيف]

لا جَزَى اللهُ دَمْعَ عَيْنِي خَيْرًا فَلَقَدْ بَاخَ مَا خَفَاهُ لِسَانِي
كُنْتُ مِنْ قَبْلِ ذَا كَطَيِّ كِتَابٍ فَاسْتَدَلُّوا عَلَيَّ بِالْعُنْوَانِ^(١)

وقوله : (وما أحسن الشعر إذا لم يبتدل) أي : إذا لم يُمتَهَن ؛ كالمبالغة في المدح بغير
أصل ، وفي الظم كذلك ، قال في « المصباح » : (بذلت الشيء بدلاً : أمتهنته وأنتقصته)
اهـ

(وما) : اسم تعجب في موضع رفع على الابتداء ، وهي نكرة تامّة عند سيبويه ، وسوّغ
الابتداء بها : ما فيها من معنى التعجب .

نحو فحش وخناً ، وإغراقٍ في مدح وهجو ، وتغرُّلٍ وتشبيبٍ بمعين وغير ذلك مما يبعث على الإكرام والجزاء ، والنوال
والإعطاء من نحوٍ ممدوحٍ مثلاً ، فَإِنَّ مَنْ يَنْظُمُ الشُّعْرَ مَتَرَفَعًا عَنْ ذَلِكَ ، مِنْ غَيْرِ بَاعِثٍ وَلَا دَاعٍ إِلَى نَحْوِ إِكْرَامٍ . . قَلِيلٌ فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ فَلَتَكُنْ مِنْ هَذَا الْقَلِيلِ ، وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ هَجَرَ الشُّعْرَ لِفَقْدِ دَوَاعِيهِ ، فَكَسَدَ سَوْقُهُ ، وَنَضِبَ مَاؤُهُ ، فَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ
ابن المعتز :

[من الكامل]

قالوا : هجرت الشعر ؟ قلتُ : ضرورة
خلتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرتجى
ومن العجائبِ أنه لا يشتري
ومن الكسادِ يُخَانُ فيه ويُسرقُ

(١) البيتان مما اشتهر للعباس بن الأحف كما في « الأغاني » (٣٦٨ / ٨) وغيره .

و(أحسن) : فعلٌ ماضٍ على الأصح^(١) ، وفيه ضمير مستتر يعود إلى (ما) مرفوع على الفاعلية .

و(الشعر) : مفعول به لـ (أحسن) ، وجملة (أحسن الشعر) : في موضع رفع خبر (ما) التعجبية . اهـ

والمقرّر عند الشعراء : أنه أرفع الفنون قدراً ، وأكملها فخراً ، وكفاه شرفاً ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ »^(٢) .

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

كُلُّ مَنْ فِي الشُّعْرِ حَقًّا نَظَمًا زَادَهُ بَيْنَ الْبَرَائِيَا عِظَمًا
وَأَجَلَّتْهُ جَمِيعُ الْعُظَمَاءِ فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفُضْلِ وَمَا
أَحْسَنَ الشُّعْرَ إِذَا لَمْ يُتَذَلَّ^(٣)

ولا يقدر فيه ما ورد في ذمّه وذمّ الشعراء ، قال تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴾ ؛ لأنّ ذلك ورد في شعراء الجاهلية الذين كانوا يتفاخرون في مراسلاتهم ومحاوراتهم وقتالهم ؛ كما مرى القيس ، وطرفة بن العبد ، وعنترة العبسي ، وأشباههم من شعراء الجاهلية المشهورين ؛ بدليل ما وقع من الاستثناء في الآية بعدها^(٤) بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية ، والمراد بهم : شعراء الإسلام ؛ كحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ونحوهما .

(١) وهو قول البصريين ، وقال الكوفيون : إنه اسم ، وانظر « الإنصاف في مسائل الخلاف » (١٢٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥) ، وابن حبان (٥٧٧٨) ، وابن ماجه (٣٧٥٥) .

ثم ليس لكل أحد أن يتصدى للشعر ، بل من يصلح له ؛ ممن أعطاه الله ملكة شعرية ، وفصاحة بيانية ، وثروة لغوية ، ولهذا قال ابن الوردي في « ديوانه » (ص ٣٩٥) :

[من الوافر]

لنظمك كل سهل ذي امتناع
قوافيه وكله إلى الطباع

إذا أحييت نظم الشعر فاختصر
ولا تكثر مجانسةً ومكّن

(٣) « تخميس الملاح » (ص ٧) .

(٤) في الأصل : (في الآية نفسها) .

وَأَمَّا قَوْلُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ :

[من الوافر]

وَلَوْلَا الشُّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَيْدٍ^(١)

فالجواب عنه : أن أهل العصر الأوّل خصوصاً الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه . .

كانوا لا يشتغلون بالشعر ؛ لاشتغالهم بما هو أهمُّ منه ؛ كالاتجاه ، وتقرير الأصول والفروع ، وتدوين الكتب ، ونحو ذلك ، ومن عادة الناس أنهم يُقدِّمون الأهم فالهمم^(٢) ، وكانوا يرون أن الاشتغال بالشعر بالنسبة إلى ما هم فيه أنتقاص^(٣) .

وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

[من الكامل]

لَا تَحْسِبَنَّ الشُّعْرَ عِلْمًا نَافِعًا مَا الشُّعْرُ إِلَّا مَحْنَةٌ وَخِبَالُ
فَالهَجْوُ قَذْفٌ وَالرِّثَاءُ نِيَاحَةٌ وَالعَتَبُ ذُلٌّ وَالْمَدِيحُ سَوَالُ

فالجواب عنه : أن الذي تقرّر عند العلماء : أن الشعر من العلوم الكاملة الجامعة

النافعة ، والمثبّت مقدّم على النافي ، ولا يقدر ذمُّ فردٍ من أفراد العالم ؛ فإن ذلك نادر ، والنادر لا حكم له .

* * *

(١) البيت في « ديوان الإمام الشافعي » (ص ٥٦) ، وأسندَه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/٦٢) .

(٢) في الأصل : (فالأهم) .

(٣) والله درّ ابن الوردي حيث قال في « ديوانه » (ص ٣٨٤) :

[من الوافر]

وَلَسْتُ أَرَى التَّكْتُبَ بِأَمْتَدَاحِي
يَصُونُ عَنْ أَحْتِيَاجِ وَأَجْتِيَاحِ
أَرَوْضُ بِهِ الزَّمَانَ عَنِ الْجَمَاحِ
فَأَسْلُو عَنْ نُوَاحِي فِي النُّوَاحِي
لَأَتَعَبْتُ الْقَرَائِحَ بِأَقْتِرَاحِي
يُنَادِينِي بِحَيِّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَأَطْفِي الشُّهْبَ مِنْ شَرِّرِ أَقْتِدَاحِي

وَمَا أَنَا شَاعِرٌ حَاشَا عِلْمِي
فَلِي مِنْ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ مَالٌ
وَلَمْ أَقْصِدْ بِمَدْحِكَ غَيْرَ وَدٌّ
لِأَعْلِمَ أَنَّ فِي الدُّنْيَا وَفِيَا
وَلَوْلَا الشُّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي
أَرَى فِي الْعِلْمِ عَنْهُ أَلْفَ لَاحِ
وَكُنْتُ أَطَاعُ عَلَى الشُّعْرِئِ بِشُعْرِي

مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلُ (١)

أي : مات أهل الفضل والعلم والشرف ، ولم يبق بعدهم إلا مُقْرِفٌ ، أي : لاعب أو رذيل ، وإلا الذي يَتَّكَلُ على فضل أصوله وشرفهم ، فد (مقرف) في كلام الناظم : يحتمل أن يكون بد (قافين) بينهما (راء) مهملة بمعنى : لاعب ، قال في « المصباح » : (قَرِقَ الرجل قَرَقًا من باب تعب : لعب ، والاسم : القَرِقُ ، وزن حِمْل) اهـ ، ويحتمل أن يكون بد (فاء) بدل (القاف) الأخيرة ، بمعنى : رذيل ، وهو الأقرب ، بل هو المتعين ، قال الشاعر :

كَمْ يَجُودُ مُقْرِفٌ نَالَ الْعُلَا وَكَرِيمٌ بُخْلُهُ قَدْ وَضَعَهُ (٢)

ذكره في « الأشموني » ، قال في « حواشيه » : (قوله : « مقرف » أي : دنيء الأصل) (٣) .

فقد جرت عادة الله تعالى في خلقه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل : أن يموت الأمثل فالأمثل ، والأكمل فالأكمل ، حتّى لا يبقى إلا أراذل الناس وأسافلهم ، كما ورد في الحديث : « كُلُّكُمْ تَمُوتُونَ وَإِنَّمَا يُعَجَّلُ بِخِيَارِكُمْ » .

ومعنى كلام الناظم رحمه الله تعالى : أنه تموت الأشراف والأكابر حتّى لا يبقى إلا مقرفٌ في معاشرته ومصاحبته ووداده ومخالطته ، أو مَنْ يَعْتَمِدُ على آبائه وأجداده الماضين ؛ بأن يقول : يكفيني أن أبي الشيخ فلان بن فلان العناني أو الرفاعي أو البكري ، أو أنا منسوبٌ إلى الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما ، أو إلى الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما ، أو

(١) ويروى : (مات أهل الجود) .

(٢) البيت لأنس بن أبي أناس بن زنيم رضي الله عنه كما في « الأغاني » (٤٠٢ / ٨) ، و« خزنة الأدب » (٤٧٣ / ٦) .

(٣) « شرح الأشموني » بـ « حاشية الصبان » (٨٢ / ٤) .

إلى الوليِّ الفلانيِّ ، فيتكلُّ على أصوله الماضين ولم يدرِ أنَّ « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ . . لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » (١) ، ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ .

وحاصله : أنه كلما قُربَ الزمان من الساعة . . أنقض الأعمار ، ولم يبق إلا الأشرار ، وأنقطع النفع من غالب المسلمين .

وما أحسن ما قيل :

[من الكامل]

وَبَقِيَ الَّذِينَ حَيَاتُهُمْ لَا تَنْفَعُ (٢)

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

ولله درّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

وَعَدَا مَنْ كَانَ لِلْفَضْلِ حَوَى

قَدْ مَضَى النَّاسُ فِي الْقَلْبِ الْجَوَى

مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى

هَلْ تَرَى الْيَوْمَ لِدَاءٍ مِنْ دَوَا

مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَضْلِ أَتَكَلَّ (٣)

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) ، وأبو داود (٣٦٤٣) ، والترمذي (٢٩٤٥) ، وابن ماجه (٢٢٥) .

(٢) البيت يروى لعبد الله بن عروة بن الزبير كما في « ربيع الأبرار » (١/٥٩١) و(بقي) بالألف لغة بلحارث بن كعب .

(٣) تخميس الملاح (ص ٧)

أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْيِيلَ يَدٍ قَطْعَهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقُبُلِ

أي : أنا لا أختار ولا أحبُّ تقييل يدٍ من شخص موصوف بصفات قبيحة ؛ من كفر وفسق وسرقة وغيرها ، قطع تلك اليد أجمل وأحسن من تلك القبُل ، بضم القاف وفتح الموحدة ، جمع : قبلة ، قال في « المصباح » : (القبلة : أسمٌ من قبَلتُ الولدَ تقييلاً ، والجمع : قُبُل ، مثل : غُرْفَةٌ وَغُرْفٌ) اهـ

فالناظم - رحمه الله تعالى - أختار عدم تقييل يد الشخص الموصوف بصفات قبيحة مطلقاً ولو كان له عنده حاجة ولو خاف الضرر منه والأذى ، وهذا ممَّا يدُلُّ على توكله على ربِّه ، وأنقطاعه له تعالى ، وترك المخلوقات جميعاً ، رضي الله تعالى عنه .

وأما أيدي الصلحاء والعلماء والأمراء العادلين : فيستحبُّ تقييل أيدي العلماء وأهل الفضل ، وألتماس دعواتهم الصالحة ، ونحو ذلك^(١) ، ويستحبُّ القيام لهم أيضاً ؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قام لسعد بن معاذ الأنصاريِّ لَمَّا رآه مقبلاً وقال لأصحابه : « قوموا لسيِّدكم »^(٢) ، فقاموا له .

وأما القيام للظلمة ونحوهم وتقييل أيديهم والتواضع لهم ونحو ذلك . . فيفصلُّ فيه ؛ فإن خاف على نفسه ضرراً أو إتلاف مال ونحوه . . فلا بأس به ، بل قد يجب إذا تحقَّق ما ذُكِر ، وإلا . . فلا يجوز .

(١) للشيخ عبد الله محمد الصديق الغماري جزء سماه : « إعلام النبيل بجواز التقييل » حشد فيه الأحاديث الدالة على جواز التقييل وفصل فيها ، فانظره ، وانظر « المجموع » (٥١٥/٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٣) ، ومسلم (١٧٦٨) ، وليس فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قام ، وإنما أمر الصحابة بالقيام ، مع أنه ورد قيام النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة في غير حديث ؛ كحديث قيامه لعكرمة رضي الله عنه عند مالك في « الموطأ » (٥٤٥/٢) ، وقد جمع الإمام النووي رحمه الله تعالى جزءاً في جواز القيام ، وسماه : « الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزية من أهل الإسلام » ، والخلاصة في الأمر : أن القيام لأهل الفضل على سبيل الإكرام والبرِّ مستحب ، وعلى سبيل التعظيم مكروه ، وانظر « فتح الباري » (٤٩/١١) .

وأما ما أرتكبه أمراء زماننا من البلاء الأعظم والداهية الكبرى من تولية اليهود والنصارى
أمور المسلمين في قبض أموالهم ، وأحتكار أرزاقهم ومعايشهم ، وأحتياج الحال إلى
تعظيمهم ومراعاتهم وتقبييل أيديهم والقيام لهم . . فينبغي أن يجري فيه التفصيل المتقدم ،
هذا ما أختاره النووي تبعاً لغيره من المحققين ، وهو اللائق خصوصاً بزماننا هذا ، نسأله
سبحانه وتعالى التسليم لقضائه وقدره .

* * *

إِنْ جَزَيْتَنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي رِقِّهَا أَوْ لَا فَيَكْفِينِي الْخَجَلُ

هذا البيت بيان للسبب الحامل له رحمه الله تعالى على عدم التقبيل ، فهو جواب عن سؤال ، وفي الأمثال السائرة : (يَدُّ لَمْ تَنْفَعِ أَحَقُّ أَنْ تَقُطَعَ) .

ومعنى البيت : إن جزيتني عن مدحي ؛ أي : إن قضت لي حاجتي التي أنا طالبها ، أو أعطيتني شيئاً من الدنيا في مقابلة مدحي ؛ أي : مدحي لها الذي منه تقبيلي لها . . صرت في رِقِّها ، أو لا ؛ أي : وإن لم تجزني فضلاً عن طردها لي . . فيكفيني الخجل من الناس ومن الله أيضاً ؛ لأنني قبلتُ يد ذلك الشخص الفاسق لأجل قضاء حاجتي منه ولم يقضها لي .
(و الخجل) بفتححتين : الحياء .

وإنما كان تقبيل اليد مدحاً ؛ لأن المدح : هو الثناء على الشخص ، ولا فرق فيه بين أن يكون ذكراً باللسان ، أو عملاً بالأركان ، أو محبة بالجنان ؛ ولا شك أن التقبيل عمل الفم .
فَعَلِمَ مِنْ كَلَامِ النَّازِمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَّ السُّؤَالَ قَبِيحٌ ؛ لِأَنَّ الْمَسْئُولَ إِنْ أُعْطِيَ السَّائِلَ . . صار في رِقِّهِ ، وإن لم يعطه . . كانت المصيبة أعظم ، وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا سَأَلْتَ . . فَاسْأَلِ اللَّهَ »^(١) .

قال طاووسٌ لعطاءٍ : (إِيَّاكَ أَنْ تَطْلُبَ حَوَائِجَكَ مِمَّنْ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَكَ ، وَعَلَيْكَ بِمَنْ بَابُهُ مَفْتُوحٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ أَمْرٌ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَوَعْدُكَ أَنْ يَجِيبَكَ) .

وقال الفضيل بن عياض : (أَحْبَبْتُ النَّاسَ إِلَى النَّاسِ . . مَنْ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ ، وَأَبْغَضْتُ النَّاسَ إِلَى النَّاسِ . . مَنْ أَحْتَاجُ إِلَى النَّاسِ وَسَأَلَهُمْ ، وَأَحْبَبْتُ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . . مَنْ سَأَلَهُ وَاسْتَغْنَى بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، وَأَبْغَضْتُ النَّاسَ إِلَيْهِ تَعَالَى . . مَنْ اسْتَغْنَى عَنْهُ وَسَأَلَ غَيْرَهُ) .

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (٢٩٣/١) .

وقال ابن السماك : (إنَّ في طلب الرجل الحاجةً مِنْ أخيه فتنةً ؛ إن هو أعطاه . . حَمِدَ غير الذي أعطاه ، وإن منعه . . ذَمَّ غير الذي منعه)^(١) لأنَّه لا معطي ولا مانع في الحقيقة إلاَّ الله .

وكان بعضهم يقع سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إيَّاه^(٢) ؛ لأنَّ السؤال فيه ذلٌّ وأفتقار .

وكان بعضهم يقول : مَنْ أَحْتَجَّتْ إِلَيْهِ . . هِنْتَ عَلَيْهِ .

وقال عامر بن قيس : (قرأت آيات مِنْ كتاب الله تعالى ، فأستغنيتُ بها عن الناس ؛ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ فلم أسأل غيره كَشَفَ ضُرِّي ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ فلم أرَ الفضل والخير إلاَّ منه ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ فلم أطلب الرزق مِنْ غيره ، فأغنانني عن الناس بهذه الآيات) .

* * *

(١) أخرجه الحاكم من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في « معرفة علوم الحديث » (ص ١٨٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٠٧) .

(٢) هو سيدنا ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد أخرج ابن ماجه (١٨٣٧) ، وأحمد (٢٧٧/٥) ، عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يتقبَّلُ لي بواحدةٍ وأتقبَّلُ له بالجنةِ ؟ » قال : قلت : أنا ، قال : « لا تسأل الناسَ شيئاً » ، فكان ثوبانُ يقع سوطُهُ وهو راكبٌ ، فلا يقولُ لأحدٍ : ناوِلْنِي ، حتى ينزلَ فيتناولُهُ .

أَعَذَّبَ الْأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ (خُذْ) وَأَمْرُ الْأَلْفَظِ نَطْقِي بِ(لَعَلَّ)^(١)

أي : أحلى الألفاظ التي أتلَّفْتُ بها قولي لك : (خُذْ) ، وأمرُ اللفظ الذي أتلَّفْتُ به -
أي : أكثرُهُ مرارةً - نطقي بـ (لعلَّ) ؛ أي : بقولي : لعلَّ فلاناً يُعطيني شيئاً .

قال بعضهم : لا شيء أحلى مِنْ قولك : (خُذْ) ، خصوصاً إذا كان قصدك وَجَهَ الله تعالى ، ولا شيء أمرٌ مِنْ قول الإنسان لغيره : (أعطني) ، خصوصاً إذا كان المسؤول لثيماً .

وإنما كان السؤال مرّاً . . لما ينشأ عنه مِنْ ذل الوجه الذي هو أشرف الأعضاء .

وفي هذا البيت إشارةٌ إلى ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى »^(٢) ، واليد العليا : هي المعطية ، واليد السفلى : هي الآخذة .

وأعلم : أنَّ السؤال مذموم إذا كان لآدمي ، وأمّا سؤال الله سبحانه وتعالى . . فينبغي للإنسان ألا يتركه في أمرٍ مِنَ الأمور ؛ لأنَّه سبحانه وتعالى أمرنا به حيث قال : ﴿ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ إِذَا تَرَكَ الْعَبْدُ سُؤَالَ اللَّهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الْمُلْحِينَ فِي الدُّعَاءِ »^(٣) .

ولله درُّ القائل :

لَا تَسْأَلَنَّ بَنِي آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحَجَّبُ
اللَّهُ يُغْضَبُ إِنْ تَرَكَتَ سُؤَالَه وَبَنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يُغْضَبُ

(١) ويروى : (وأمر القول) .
(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٧) ، ومسلم (١٠٣٣) ، ورواية مسلم بعده : « واليد العليا : المنفقة ، والسفلى : السائلة » .
(٣) أخرج الجزء الأول منه الحاكم في « المستدرک » (٤٩١/١) ، وابن ماجه (٣٨٢٧) ، وأحمد (٤٧٧/٢) ، وأخرج الجزء الثاني البيهقي في « الشعب » (١٠٧٣) ، والطبراني في « الدعاء » (٢٠) .

قال الحسن البصري : (لا يزال الرجل كريماً على الناس حتَّى يطمع في دنياهم ، فإذا فعل ذلك . . أستخفوا به ، وكرهوا حديثه ، وأبغضوه) .

وقال أعرابيٌّ لأهل البصرة : مَنْ سيِّدُكم؟ قالوا : الحسن ، قال : بِمَ سادكم؟ قالوا : أحتاج الناسُ إلى علمه ، وأستغنى هو عن دنياهم^(١) .

وسأل كعبُ الأحبار - وهو تابعيٌّ - عبدَ الله بن سلام بحضرة عمرَ بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما : ما يُذهبُ العلمَ مِنْ قلوب العلماء بعدما حفظوه وعقلوه؟ فقال : يُذهبُهُ الطمعُ وطلبُ الحاجاتِ إلى الناس ، فقال : صدقتَ^(٢) .

وقال أبو الحسن الشاذليُّ : (دخل عليَّ بالمغرب بعض الأكابر فقال : ما أرى لك كبيرَ عملٍ ، فبِمَ فُقتَ الناسَ وعظَّموك؟ فقلت : بخصلة واحدة ؛ وهي الإعراض عنهم وعن دنياهم) .

* * *

(١) ذكره وسأله الإمامُ المُنْأوي في « فيض القدير » (٤٨١ / ١) .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧١ / ٥٠) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٣٣

مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةً وَعَنِ الْبَحْرِ اجْتِزَاءً بِالْوَشْلِ^(١)

أي : ملك كسرى الواسع تُغني عنه كسرة من الخبز يأكلها الشخص ، ويكتفي بها ، ويستغني عن غيرها ، ويُغني عن البحر الكثير الماء اجتزاء - بالزاي المعجمة - أي : أكتفاء ، قال في « المصباح » : (اجتزأتُ بالشيء : أكتفيت به) .

(و الوشل) : ما ترشحه الأرض من الماء القليل ، فالظمان يكتفي بشربة منه عن البحر الكثير الماء .

(و كِسْرَى) بكسر الكاف أفصح من فتحها : مَلِكُ الْفُرْسِ .

(و الكِسْرَة) بكسر الكاف : القطعة من الشيء المكسور ، ومنه : الكِسْرَة من الخبز ، والجمع : كِسْر ، مثل : سِدْرَة وَسِدْر ، قاله في « المصباح » .

وفي هذا البيت إشارة إلى ما هو مطلوب ومحجوب ؛ من الزهد ، والقناعة ، وعدم السؤال للغير ، والرضا بما هو مقسوم من الرزق ؛ فإن من المعلوم : أن القناعة كنز لا يفنى ، ومن قنع . . أستغنى ، ومن طمع . . ذل في الدنيا والآخرة .

[من المتقارب]

ولله درُّ القائل :

وَجَدْتُ الْقَنَاعَةَ ثَوْبَ الْغِنَى فَصِرْتُ بِأَذْيَالِهَا أُمْتَسِكُ
فَأَلْبَسَنِي جَاهَهَا حُلَّةً يُمِرُّ الزَّمَانَ وَلَمْ تُتْهِكْ
فَصِرْتُ غَنِيًّا بِلَا دِرْهَمٍ أُمِرُّ عَلَى النَّاسِ كَأَنِّي مَلِكُ

وأعلم : أن الزهد هو أصل المحبة فيما بين العبد وربّه ، وفيما بينه وبين الناس ؛ فقد روي : أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ ذلني على عمل إذا عملته

(١) ويروى : (ارتشاف بالوشل) .

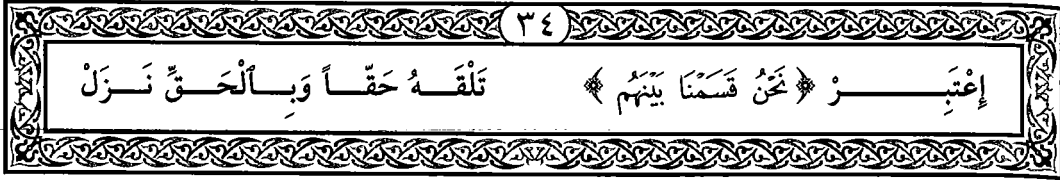
أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا . . يُحِبُّكَ اللهُ ، وَأَزْهَدُ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ . . يُحِبُّكَ النَّاسُ »^(١) .

وقد زهد فيها صلى الله عليه وسلم ، وأعرض عنها إلى أن مات عليه أفضل الصلاة والسلام ودرعهُ مرهونٌ عند يهوديٍّ يقال له : أبو الشحم^(٢) ؛ ولذلك قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : (ولقد ماتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن في بيتي شيءٌ يأكلُهُ ذُو كَيْدٍ)^(٣) ، مع أنه قد عرض عليه صلى الله عليه وسلم أن تُجعلَ لَهُ بطحاء مَكَّةَ ذهباً ، فأبى وقال : « لا يا ربِّ ؛ [ولكن] أَجُوعُ يوماً وَأَشْبَعُ يوماً »^(٤) .

ودخل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصيرٍ ، وقد أُنزِرَ في جنبه ، فبكى عمرُ رضي الله تعالى عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك ؟ » فقال : ذكرتُ كسرى وقيصر عدويَّ الله في الخَزْرُ والدباج ، وأنتَ رسولُ الله وخيرتُهُ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى هَذَا ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : « أَفِي شِكِّ أَنْتَ يَا بَنَ الْخَطَابِ ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ ؟ » قال : بلى ، قال : « فَهَوَ كَذَلِكَ » اهـ^(٥)

* * *

-
- (١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣١٣/٤) ، وابن ماجه (٤١٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٣) .
 - (٢) أخرجه البخاري (٢٩١٦) ، ومسلم (١٦٠٣) ، والتصريح باسم اليهودي هو في رواية الشافعي في « الأم » (١٦٠٧) .
 - (٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٧) ، ومسلم (٢٩٧٣) .
 - (٤) أخرجه الترمذي بإثر حديث رقم (٢٣٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٩٤) ، وأحمد (٢٥٤/٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠٧/٨) .
 - (٥) أخرجه البخاري (٤٩١٣) ، ومسلم (١٤٧٩) .



أي : تأمل وتذكر وأتعظ بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني : جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ، وهذا مالكاً وهذا مملوكاً ، وهذا مسلماً وهذا كافراً ، وهذا مصطفياً بالنبوة والرسالة ، إلى غير ذلك .

وقوله : (تَلَقَّه) أي : تجده (حَقًّا) أي : موافقاً للواقع ، والضمير للمذكور ؛ وهو : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، (وبالحق نزل) أي : ونزل ملتبساً بالحق ؛ أي : بالصدق .

فعلنا من هذه الآية : أن القسمة سابقة من الله عز وجل ، لا محو فيها ولا تغيير ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »^(١) ، فما قسمه الله لمخلوق من رزق وأجل وغيرهما . لا بد أن يستوفيه كاملاً ، لكنّه سبحانه وتعالى باين بين خلقه في الأرزاق والآجال ، والفقير والغني ، والقبض والبسط ، والخفض والرفع ، ولا يرد ما يقتضيه قوله تعالى : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ الآية ، من المحو والإثبات ؛ لأنّه بالنسبة إلى اللوح المحفوظ فقط ، وأمّا ما في الأزل . فلا محو فيه ولا إثبات ، فلا تناقض بين الآيات والأحاديث .

* * *

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (٢٩٣/١) .

لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ
لَا وَلَا مَافَاتِ يَوْمًا بِالْكَسَلِ

أي : ليس الذي يحويه الفتى ويملكه ويستولي عليه من عزمه وأجهاده ، بل هو من تقدير الله له ذلك ، وليس الذي فاته يوماً بسبب الكسل وعدم أجهاده في تحصيله ، بل هو من تقدير الله أيضاً ، فهذا البيت بيان وإيضاح للبيت الذي قبله .

فَعَلِمَ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ : أَنَّ مَا لَمْ يَقْسِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعَبْدِهِ لَا يَنَالُهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعَزْمِ وَلَوْ أَجْتَهَدَ غَايَةَ الْجَهْدِ ، وَأَنَّ مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ لَا يَفُوتُهُ وَلَوْ تَكَاسَلَ عَنْهُ أَوْ لَمْ يَطْلُبْهُ أَصْلًا ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ أَكْثَرَ مِمَّا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ » ذكره في « الجامع الصغير »^(١) ، ولكنَّ المستحبَّ للعبد السعي والطلب ، كما قال تعالى : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ .

ولله درُّ القائل :

[من البسيط]

يُفُوتُهُ الْقَصْدُ تَحْقِيقًا مَعَ التَّعَبِ
يَأْتِي إِلَيْكَ مِنَ الرِّزَاقِ بِالسَّبَبِ

مَنْ رَامَ أَنْ يَأْخُذَ الْأَشْيَا بِقُوَّتِهِ
وَأَفْنَعَ بِرِزْقِكَ إِنَّ الرِّزْقَ مُنْقَسِمٌ

وقال آخر :

[من البسيط]

تَدُورُ مِنْ بَلَدٍ فِيهَا إِلَى بَلَدٍ
وَضَاعَ عُمُرُكَ فِي هَمٍّ وَفِي نَكْدٍ
فِي شَرِيَةِ الْمَاءِ غَيْرِ الرِّزْقِ لَمْ تَجِدْ
يَأْتِي إِلَيْكَ وَلَوْ فِي جَبْهَةِ الْأَسَدِ

يَا طَالِبَ الرِّزْقِ فِي الدُّنْيَا بِقُوَّتِهِ
أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لَسْتَ تُدْرِكُهُ
لَوْ طَرَتْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُجْتَهِدًا
أَقْصِرْ عَنْكَ فَإِنَّ الرِّزْقَ مُنْقَسِمٌ

(١) « الجامع الصغير » (١٩٩٨) ، والحديث أخرجه ابن حبان (٣٢٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨٦/٦) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٢٧١) .

وقال آخر :

[من البسيط]

حَتْمًا وَلَكِنْ شَقَاءُ الْمَرْءِ مَكْتُوبٌ
وَكُلُّ مَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ مَسْلُوبٌ

الرِّزْقُ يَأْتِي وَإِنْ لَمْ يَسْعَ صَاحِبُهُ
وَفِي الْقِنَاعَةِ كَنْزٌ لَا نَفَادَ لَهُ

وقال آخر :

[من البسيط]

الرِّزْقُ فِي اللَّوْحِ مَكْتُوبٌ مَعَ الْأَجَلِ
لَكِنَّهُ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ

لَا تَعْجَلَنَّ فَلَيْسَ الرِّزْقُ بِالْعَجَلِ
فَلَوْ صَبَرْنَا لَكَانَ الرِّزْقُ يَطْلُبُنَا

وذكر في الخبر : أنَّ مؤمناً وكافراً كانا في الزمن الأوّل أنطلقا يصيدان السمك ، فجعل الكافر يذكر آلهته فيأتي له السمك فيقع في شبكته حتّى أخذ سمكاً كثيراً ، وجعل المؤمن يذكر الله تعالى فلا يجيء له شيء ، ثمّ أصاب سمكة عند الغروب ، فاضطربت فوقعت في الماء ، فرجع المؤمن وليس معه شيء ، ورجع الكافر وقد أمتلأت شبكته ، فتأسّف ملك المؤمن الموكّل به ، فلمّا صعد إلى السماء . . أراه الله تعالى مسكن المؤمن في الجنة ، فقال : والله ؛ ما يضرّه ما أصابه بعد أن يصير إلى هذا ، وأراه مسكن الكافر في النار ، فقال : والله ؛ ما يغني عنه ما أصاب من الدنيا بعد أن يصير إلى هذا .

* * *

إِطْرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلَ

أي : أترك الدنيا الخسيسة السفيهية ، ولخسيتها كانت عاداتها أن تخفض العالي ؛ أي : تهينه وتحقره ، وتُعْلِي - أي : ترفع - الذي سَفَلَ ، بفتح الفاء وضمها^(١) ، والمناسب هنا : الفتح ، قال في « المصباح » : (سَفَلَ سُفُولًا مِنْ بَابِ قَعَدَ ، وَسَفَلَ مِنْ بَابِ قَرَبَ لُغَةً : صَارَ أَسْفَلَ مِنْ غَيْرِهِ ، فَهُوَ سَافِلٌ) اهـ

فالناظم رحمه الله تعالى أمر بطرح الدنيا ، وعلل ذلك بقوله : (فَمِنْ عَادَاتِهَا . . .) إلخ ، وإسناد الخفض والرفع إليها إنما هو على سبيل المجاز من باب إسناد الشيء إلى ظرفه ؛ لأنَّ الخافض والرافع في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى ، غاية الأمر : أنه سبحانه وتعالى عَلِمَ أَنَّهَا دَارٌ خَسِيْسَةٌ ، فرفع فيها السَّفَلَ والأخْسَةَ ، وخفض فيها الأشراف والفضلاء ؛ لأنها ليست دارهم ؛ وإنما دارهم الآخرة ، ويدلُّ على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ . . . مَا سَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »^(٢) أي : لو كان للدنيا شرفٌ عند الله قَدَرَ جناح بعوضة . . . ما أنال الكافر أدنى شيءٍ منها ؛ لأنَّ الكافر عدوُّ الله ، فيستحقُّ العذاب في العاجلة والآجلة ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى أحرَّ عذابه ليومٍ لا ريب فيه ، ولم يحرمه النعمة الدنيويَّة ؛ لخسيتها وحقارتها . اهـ

وأعلم : أنَّ الدنيا دار غرور وأمتحان ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلُوَّةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ »^(٣) .

(١) وكسرها من باب عَلِمَ ، كما في « القاموس » .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣٠٦/٤) ، والترمذي (٢٣٢٠) ، وابن ماجه (٤١١٠) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) ، وابن حبان (٣٢٢١) ، والترمذي (٢١٩١) .

وروي : إنَّ أسعدَ الناس في الدنيا أرغبُهُم عنها .

وهي الغاشَّة لمن أنتصَحها ، والمغوية لمن أطاعها ، والخاسرُ من أنقاد لها ، والفائزُ من أعرَض عنها ، طوبى لعبدٍ اتَّقى فيها ربَّه ، وقدَّم توبته من قبل أن ينتقلَ منها إلى الآخرة ، فيصبح في بطنٍ موحشةٍ مظلمةٍ ، لا يستطيع أن يزيدَ في حسنةٍ ، ولا ينقصَ من سيئةٍ ، ثمَّ يُنشر فيحسُرُ إمَّا إلى جنةٍ يدوم نعيمها ، أو نارٍ لا ينفكُّ عذابها .

وفي صحف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : يقول الله عز وجل : (يا دنيا ؛ ما أهونك على الأبرار الذين تزينت لهم ، إنِّي قد قذفتُ في قلوبهم بغضبك والصدَّ عنك ، ما خلقتُ خلقاً أهونَ عليَّ منك ، إنِّي قضيتُ عليك يومَ خلقتك : ألاَّ تدومي لأحدٍ ، ولا يدوم لك أحدٌ)^(١) .

[من الرمل]

ولله درُّ القائل :

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطِنًا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَأَتَّخَذُوا
صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفْنًا^(٢)
طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا أَلْفِتَنَا
أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنًا

وقد قيل لزاهدٍ : أيُّ خلق الله أصغر ؟ فقال : الدنيا ؛ لأنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ومن هوانها عند الله تعالى : أنه خلقها ولم ينظر إليها ، ولا يعصي إلاَّ فيها ، ولا يُنالُ ما عنده إلاَّ بتركها ، وإذا أردت أن تزهدَ فيها . . فأنظر هي عند مَنْ ، وفي يد مَنْ .

وقال عليٌّ كرم الله وجهه : (حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، من طلبها . . فاتته ، ومن نظر إليها . . أعمته ، ومن استغنى فيها . . فُتِن ، ومن أفنقرَ فيها . . حزن)^(٣) .

وقال الإمام مالك رضي الله تعالى عنه : (الدنيا تُخرِجُ حلاوةَ الإيمانِ مِنَ القلبِ) .

وقال حاتم الأصم : (الدنيا مثل ظلك ؛ إن تركته . . تراجع ، وإن طلبته . . تباعد) .

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٥٨ / ١٠) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٢٤١ / ٦) .

(٢) الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله تعالى في « ديوانه » (ص ١٣١) .

(٣) أخرجه مختصراً البيهقي في « الشعب » (١٠١٣٨) .

وقال بعض الحكماء : أكرموا مَنْ له بيت في الأصل ، ومَنْ له مروءة ، ومَنْ له مكانة في العلم ، ولا يغرّنكم سوء حالهم وأنقلاب الزمان بهم ؛ فإنّ الكاسر يجبر كما يكسر ، ويكسر كما يجبر ، وما أعطى الدهر شيئاً يمينه إلاّ وأستلبه بشماله .

وذكر في الخبر عن عيسى عليه الصلاة والسلام : أنه كان ذات يوم ماشياً إذ نظر إلى امرأة عليها من كلّ زينة ، فذهب ليغطي وجهه عنها ، فقالت : أكشف عن وجهك ؛ فليستُ بامرأة ، أنا الدنيا ، فقال لها : ألك زوج ؟ فقالت : لي أزواج كثيرة ، فقال لها : أكلاً طلقك أم كلاً قتلت ؟ فقالت : بل كلاً قتلتُ ، فقال لها : حزنتِ عليّ أحدٍ منهم ؟ فقالت : هم يحزنون عليّ ولا أحزن عليهم ، ويكون عليّ ولا أبكي عليهم ، واعجباً للمتأخرين كيف لا يعتبرون بالمتقدمين^(١) !؟

وذكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : (يُؤتى بالدينا يوم القيامة على صورة عجزٍ شمطاء زرقاء ، أياها بادية ، مشوّهة الخلقة ، لا يراها أحدٌ إلاّ كرهها ، فتشرف على الخلائق ، فيقال لهم : أنعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ، فيقال لهم :

(١) وتقلبات الدنيا لا تخفى على ذي عقل وبصر ، ولإبراهيم الحضرمي :

[من الطويل]

وعزّت ملاهي لهوها وأزدهاها
لكلّ غريبٍ آمن من عثارها
وأصدقته اللذات بعد اختيارها
يراه السورى من صغرها وأحقارها
مضى قبلنا من مكرها وأغترارها
للاح لهم ما أكننت من عوارها
تهرول في أحجالها وسوارها
ومن غفرة يصبو الفتى لاصفرارها
إلها سقته السم تحت دثارها
غضارتها مع حسنها وأخضرارها
سعيداً سوى معتوها أو صغارها
مخافة أخراه ودار بووارها
لفاسقها أو برّها وخيارها
ولا خاف في الأردال بطش شرارها
ولا حسب كالمؤثرين لدارها

لئن زهت الدنيا بحسن غضارها
فلأنّي عنها في البريّة محذر
على أنني طلقته وخلعتها
وذلك لئنا أن رأيت سوى الذي
ألم يكفني ما كان من فعلها بمن
ولولا زخارف الشياطين للسورى
ولكنما المغرور يصبو إذا بدت
وقد خضبت بالعطر ثم تدثرت
وكم سلبت من قشعم كان وانقأ
هي الفخ والصياد باز وجلها
وما أن أرى في اللوم عنها بمقلة
ومثل الذي لم يلتفت لدعائها
وأظهر فيها للمهم من نصحه
ولم يخش في الرحمن لومة لائم
ولكنه لم يلتبس بخيانته

هذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتحاربتم عليها ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهَا إِلَى النَّارِ ، فتقول : يَا رَبِّ ؛ أَيْنَ أَتْبَاعِي وَأَصْحَابِي وَأَحْبَائِي ، فيلحقوا بها (١) .

ومعنى إلقائها في النار : لكي يراها أهلها ، ويرون هوانها على الله تعالى .

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب السابع والعشرين ما نصّه : (روي عن الضحاك قال : لَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ وَحَوَاءَ إِلَى الْأَرْضِ وَوَجَدَا رِيحَ الدُّنْيَا وَفَقَدَا رِيحَ الْجَنَّةِ .. عُشِيَ عَلَيْهِمَا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا مِنْ نَتْنِ الدُّنْيَا .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا عجباً كلَّ العجب للمصدقِّ بدار الخلود وهو يعمل لدار الغرور!! » (٢) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ ، وَالْقَبْرُ حِصْنُهُ ، وَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ ، وَالدُّنْيَا جَنَّةُ الْكَافِرِ ، وَالْقَبْرُ سِجْنُهُ ، وَالنَّارُ مَأْوَاهُ » (٣) ، ومعنى قوله : « الدنيا سجن المؤمن » : أن المؤمن وإن كان في نعمة واسعة فهو يجنب ما أنعم الله به عليه في الجنة كأنه في السجن ؛ لأنَّ المؤمن إذا حضرته الوفاة .. عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ ، فإذا نظر إلى ما أعدَّه الله له مِنَ الْكِرَامَةِ .. عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ فِي السِّجْنِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ إِذَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ .. عُرِضَتْ عَلَيْهِ النَّارُ ، فإذا نظر إلى ما أعدَّه الله له مِنَ الْعُقُوبَةِ .. عَرَفَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَنَّةِ ، فَمَنْ كَانَ عَاقِلًا لَا يَكُونُ مَسْرُورًا فِي السِّجْنِ ، وَلَكِنَّهُ يَطْلُبُ الرَّاحَةَ ، فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الدُّنْيَا ، وَيَتَفَكَّرَ فِيمَا ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِلدُّنْيَا مِنَ الْأَمْثَالِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَرَبَ لِلدُّنْيَا مِثْلًا ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لَهَا مِثْلًا ، وَالْحُكَمَاءُ ضَرَبُوا لَهَا مِثْلًا ، وَالْأَشْيَاءُ تَصِيرُ وَاضِحَةً بِالْأَمْثَالِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَايِلًا أَوْ هَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠١٨٩) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٦) ، والقضاعي في « مسنده » (٥٩٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٣٣/٨) .

(٣) أخرجه بطوله البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٥٢) ، والدليمي في « الفردوس » (٣١٠٧) ، ومختصراً بلفظ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » مسلم (٢٩٥٦) ، وابن حبان (٦٨٧) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أَنَّ رجلاً قَدِمَ عَلَيْهِ مِنْ أَرْضٍ ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَرْضِهِمْ ، فَأَخْبَرَهُ عَنْ سَعَةِ أَرْضِهِمْ وَكَثْرَةِ النِّعَمِ فِيهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَيْفَ تَفْعَلُونَ ؟ » قَالَ : « إِنَّا نَتَّخِذُ أَلْوَانًا مِنَ الطَّعَامِ وَنَأْكُلُهَا ، قَالَ : « ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى مَاذَا ؟ » قَالَ : « إِلَى مَا تَعْلَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ - يَعْنِي : تَصِيرُ بَوْلًا وَغَائِطًا - فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « فَكَذَلِكَ مَثَلُ الدُّنْيَا » (١) .

وروي عن يحيى بن معاذ الرازي أَنَّهُ قَالَ : الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالنَّاسُ فِيهَا زَرْعُهُ ، وَمَلِكُ الْمَوْتِ مِنْجَلُهُ ، وَالْمَقْبَرَةُ مِدرَاسُهُ ، وَالْقِيَامَةُ تَدْرِيبُهُ ، الْجَنَّةُ بَيْتُ أَحِبَّابِهِ ، وَالنَّارُ بَيْتُ أَعْدَائِهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ .

وروي عن لقمان الحكيم أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ ؛ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ ، وَقَدْ غَرِقَ فِيهَا نَاسٌ كَثِيرٌ ، فَأَجْعَلْ سَفِينَتَكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّهَ تَعَالَى ، وَالْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ بَضَاعَتَكَ الَّتِي تَحْمَلُ فِيهَا ، وَالْحِرْصَ عَلَيْهَا رِبْحَكَ ، وَالْأَيَّامَ مَوْجَهَا ، وَكِتَابَ اللَّهِ دَلِيلَهَا ، وَرَدَّ النَّفْسِ عَنِ الْهَوَى حِبَالَهَا ، وَالْمَوْتَ سَاحِلَهَا ، وَالْقِيَامَةَ أَرْضَ الْمَتَجَرِ الَّتِي تَخْرُجُ إِلَيْهَا ، وَاللَّهِ مَالِكُهَا (٢) اهـ (٣)

وَأخْتَلَفَ النَّاسُ فِي التَّفْضِيلِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : فَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَأَحْتَجُّوا لَهُ بِأُمُورٍ :

منها : أَنَّ الدُّنْيَا وَسِيلَةٌ وَالْآخِرَةُ مَقْصِدٌ ، وَقَدْ يَوْجَدُ فِي الْوَسَائِلِ مَا لَا يَوْجَدُ فِي الْمَقْاصِدِ .

ومنها : أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَةٌ لِلْآخِرَةِ وَطَرِيقٌ مُوصِلَةٌ إِلَيْهَا ، فَلَا يَنْتَهِي الْإِنْسَانُ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ إِلَّا بَعْدَ سُلُوكِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ زَرَعَ زَرْعاً . . حَصَدَهُ ، وَمَنْ عَمَلَ عَمَلًا . . وَجَدَهُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد (٤٥٢/٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٩٩/٨) .

(٢) أخرجه أحمد في « الزهد » (٥٣٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٥٣٧) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٢٦٩) و (٩٠٢) ، والطبراني في « الدعاء » (١٧٣٧) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (٢٤٣-٢٣٩) .

ومنها : أن الدنيا دارٌ تكليفٍ وعملٍ ، والآخرة دارٌ جزاءٍ وفضلٍ ، ولا خفاء أن العمل أفضل من الجزاء ؛ لِمَا ورد : أن أهل القبور يودُّون أن يرجعوا إلى الدنيا ليعملوا فيها خيراً ؛ لِمَا رَأَوْهُ مِنْ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ .

ومنها : ما ورد من مدحها في الحديث الشريف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَسُبُّوا الدُّنْيَا ، فَنِعِمَّتْ مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ ؛ عَلَيْهَا يَنَالُ الْخَيْرَ ، وَبِهَا يَنْجُو مِنْ الشَّرِّ »^(١) ، « وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : لَعَنَ اللَّهُ الدُّنْيَا . قَالَتِ الدُّنْيَا : لَعَنَ اللَّهُ أَعْصَانًا لِرَبِّهِ »^(٢) .

وذهب آخرون إلى أن الآخرة أفضل ، واحتجوا بأمر :

منها : أن الدنيا وإن عَظُمَ أمرها وتناهى فخرها بما يوجد فيها من الأعمال الصالحات . . فهي آيلةٌ إلى الفناء والزوال ، ومن المعلوم أن الدائم الباقي أفضل من الزائل الفاني .

ومنها : أن فيها يؤول أمر المؤمنين إلى الخلود في الجنان ، والخيرات الحسان ، والخير العظيم ، والنعيم المقيم ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، وغير ذلك ممَّا ورد في الخبر ، ممَّا لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[من الطويل]

وممَّا ورد من النظم في ذم الدنيا قول القائل :

سَأَلْتُ عَنِ الدُّنْيَا الدَّيْنِيَّةِ قِيلَ لِي هِيَ الدَّارُ فِيهَا الدَّائِرَاتُ تَدُورُ
فَإِنْ أَضْحَكْتَ أَبْكْتَ وَإِنْ أَحْسَنْتُ أَسْتُ وَإِنْ عَدَلْتَ يَوْمًا فَسَوْفَ تَجُورُ

[من الخفيف]

والقائل الآخر :

إِنَّمَا الدُّنْيَا غُرُورٌ وَمِخْنَةٌ فَالْسَّفِينَةُ الْجَهُولُ مَنْ يَضْطَفِيهَا
مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا^(٣)

(١) أخرجه الشاشي في « مسنده » (٣٨٣) ، والدديلمي في « الفردوس » (٧٢٨٨) وابن عدي في « الكامل » (٢٠٩/١) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣١٢/٤) ، والرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٢٤) ، والعقبلي في « الضعفاء » (٨٤٣/٣) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٣٣٢) .

(٣) البيتان لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزي ، أوردهما الأصفهاني في « خريدة القصر » (٧٥٤/١) ، والتلمساني في « نفع الطيب » (١١٩/١) .

والقائل الآخر :

[من الطويل]

وَنَالَ مِنَ الدُّنْيَا سُرُوراً وَأَنْعَمَا
فَلَمَّا أَسْتَوَىٰ مَا قَدَّ بَنَاهُ تَهَدَّمَا^(١)

أَرَىٰ طَالِبَ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ
كَبَانَ بَنَىٰ بُيَانَهُ فَأَقَامَهُ

والقائل الآخر :

[من الوافر]

حَذَارِ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فَقَوْلِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكِي^(٢)

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ لِطَالِبِهَا
فَلَا يَغْرُرْكُمْ مِنْي أُبْسَامٌ

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

طَبَعَهَا جَلْبُ الْأَذَىٰ فِي ذَاتِهَا
إِطْرَحَ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا

إِنَّهَا الْأَيَّامُ فِي حَالَتِهَا
تُتْبِعُ التَّنْغِيصَ فِي لَذَاتِهَا

تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلَ^(٣)

وكثير من الأسافل رفعتهم الدنيا :

فمنهم : زياد ابن سُمَيَّة^(٤) ، ويقال له : زياد بن أبي سفيان ، وزياد بن عبيد الثقفي ؛
وسُمَيَّة كانت عند كسرى ، فوهبها لأبي الخير ؛ ملك من ملوك اليمن ، فدخل بها الطائف
فمرض ، فطببه الحارث بن كَلْدَةَ ، فنجع فيه طِبُّهُ ، فوهب له سمية ، فولدت نُفَيْعَا ،
ويكنى : أبا بكرة رضي الله عنه ، ثمَّ كانت تحت عبيدِ الثقفيِّ ، فولدت له زياداً ، ويقال : إنَّ
أبا سفيان واقعها على كرهٍ منها في حالة سكره ، وكانت بغياً ، فحملت منه بزياد ، وقالت
لعبيدٍ : إنَّه منك ، فكان عبيد يكنى به .

- (١) البيتان أوردهما السلفي في « معجم السفر » (١٥٨٦) مما أنشده أبو الفتح نصر بن إبراهيم النابلسي ولم يسم قائله .
- (٢) البيتان لأبي الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالبيغاء من قصيدة يرثي بها السلطان فخر الدولة علي بن الحسن بن بويه ، أوردها الثعالبي في « بتيمة الدهر » (٤٥٨/٣) .
- (٣) « تخميس الملاح » (ص ٨) .
- (٤) انظر ترجمته في : « طبقات ابن سعد » (٩٩/٧) ، و« تاريخ الطبري » (٢٨٨/٥) ، و« تاريخ دمشق » (١٦٢/١٩) ، و« الكامل في التاريخ » (٨٨/٣) ، و« أسد الغابة » (٢١٥/٢) ، و« وفيات الأعيان » (٣٥٦/٦) ، و« تاريخ الإسلام » (٢٠٧/٤) ، و« سير أعلام النبلاء » (٤٩٤/٣) ، و« الوافي بالوفيات » (١٠/١٥) ، و« البداية والنهاية » (٤٥٣/٨) .

والسبب في إضافة أبي سفيان زياداً إلى نفسه : ما ذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بعث زياداً في إصلاح فسادٍ وقع باليمن ، فلمَّا رجع . . خطب خطبة لم يسمع الناس مثلها ، فقال عمرو بن العاصي : والله ؛ لو كان هذا الغلام قرشياً . . لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : والله ؛ إنِّي لأعرف مَنْ وضعه في رحم أمِّه ، فقال له علي رضي الله تعالى عنه : ومَنْ هو يا أبا سفيان ؟ فأشار إلى أنَّه هو ، وكانت فلتةً من أبي سفيان ، فذاك الذي حمل معاوية على إلحاق زياد بأبي سفيان ، وذلك في سنة أربع وأربعين ، وشهد عنده مالك بن ربيعة ، والمنذر بن الزبير على إقرار أبي سفيان أنَّه ولده ، وكان أبو بكر يقول : والله ؛ ما رأيت سُمية أبا سفيان قطُّ .

وقال بعضهم لعامر بن شراحيل الشعبيّ : هل تجوز الصلاة خلف ولد الزنا ؟ قال : نحن منذ ثلاثين سنة نصلي خلفه ونرجو من الله القبول والعفو .

وقال زياد لرجل : يا بن الزانية ، قال : أتسبني بشيءٍ شرفت به أنت وأباؤك !؟

وقال بعضهم : كان زياد بن عبيد من موالي ثقيف ، ثمَّ تعالت به الحال وظهرت قوّته وحزامته حتّى وليّ فارسَ لعليّ ، ثمَّ أحتمل مالاً وهرب إلى معاوية ، وأنتهى أمره إلى أن أدعاه معاوية أخاً ؛ لمّا رأى من نجابته ومن إصابة رأيه ، وجمع له بين العراقيين ولأية ، وهو أوّل من جمعا له ^(١) .

والمراد بالعراقيين : عراق العرب ، وعراق العجم .

فعرّاق العرب : فتح في زمن عمر بن الخطاب عنوة - بفتح العين ، أي : قهراً - وقسمه عمر رضي الله تعالى عنه بين الغانمين ، ثمَّ طيّب قلوبهم ، فبدلوه له ، ثمَّ وقفه - ما سوى مساكنه وأبنيته - على المسلمين ، وأجره لأهله إجارة مؤبّدة للمصلحة الكلية ، بخراج معلوم يؤدّونه كلّ سنة ، فجرب الشكير درهمان ^(٢) ، والبُر أربعة ، والشجر وقصب السكر ستّة ، والنخل ثمانية ، والعنب عشرة ، والزيتون اثنا عشر ، وجملة مساحة الجريب : ثلاثة آلاف

(١) انظر الخبر في « الاستيعاب » (٥٤٩/١) ، و« تاريخ دمشق » (١٧٣/١٩) .

(٢) الجريب : هو مساحة معروفة من الأرض ، تساوي مئة قصبة ، كل قصبة ستة أذرع في ستة أذرع بالهاشمية ، فيكون ستين ذراعاً في ستين ، والذراع الهاشمية : (٥٤ ، ٤٨) سم ، فتكون القصبة : (٨٤٨٢٠) سم أي : (٨٤٨٢٠ ، ٢م) ، فيكون الجريب : (٨٤٨ ، ٢٠) م تقريباً .

وست مئة ذراع ، والباعث له على وقفه : خوفُ أشتغال الغانمين بفلاحته عن الجهاد ، وحُدُّه طولاً مِنْ أَوَّلِ عِبَادَانِ - بتشديد الموحدة - إلى آخر حديثه المَوْصِلِ^(١) ، وحُدُّه عرضاً مِنْ أَوَّلِ القادسية إلى آخر حُلُونِ ، بضم المهملة ، والصحيح : أَنَّ البصرة وإن كانت داخلة في حدِّ العراق فليس لها حكمُها ؛ لأنَّها كانت سبخةً أحيها عثمان بن أبي العاصي وعُتْبَةُ بن غزوان في زمن عمر رضي الله تعالى عنهم أجمعين سنة سبعٍ عشرةَ بعد فتح العراق ، والصحيح : أَنَّ ما في العراق مِنَ الدور والمسكن يجوز بيعه لعدم دخوله في وقفه ، وخراج العراق يُصرف لمصالح المسلمين^(٢) .

وَمِنْ مدائن عراق العرب : بغداد^(٣) ؛ وهي مدينة عظيمة بناها المنصور في الجانب الغربي على الدجلة ، وأنفق عليها أموالاً عظيمة ، يقال : إِنَّهُ أنفق عليها أربعة آلاف ألف دينار ، وكانت في أيام البرامكة مدينة عظيمة ، يقال : إِنَّ حَمَّامَاتِهَا حُصرت في وقتٍ مِنَ الأوقات فكانت ستين ألفاً ، وكان فيها مِنَ العلماء والوزراء والفضلاء والرؤساء والسادات ما لا يوصف ، قال الطبري : أقلُّ صفة بغداد أَنَّهُ كان فيها ستون ألفَ حَمَّامٍ ، كلُّ حمامٍ يحتاج على الأقلِّ إلى ستة نفر : سواق ووقَّاد وزبال ومدولب وقائم وحارس ، وكلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاء في مثل ليلة العيد يحتاج إلى رِطَلِ صابونٍ لنفسه ولأهله ولأولاده ، فهذه ثلاث مئة ألفَ رِطَلٍ وستون ألفَ رِطَلِ صابونٍ برسم فَعَلَّةِ الحَمَّامات لا غير ، فما ظنُّكَ بسائر الناس وما يحتاجون إليه مِنَ الأصناف في كلِّ يوم^(٤) ؟

وَمِنْ مدائنه أيضاً : المدائن^(٥) ؛ وهي مدائن قديمة جاهلية ، وبها آثار هائلة ، وبها إيوان كسرى المضروب به المثل ، وإقليمها يعرف بأرض بابل .

(١) في الأصل : (مدينة) ، والتصويب من المصادر ، وحديثة الموصل : بليدة صغيرة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى . «معجم البلدان» (٢٣٠/٢) .

(٢) انظر «روضة الطالبين» (٢٧٥/١٠) ، و«تحفة المحتاج» (٢٦١/٩) ، و«نهاية المحتاج» (٧٧/٨) ، و«مغني المحتاج» (٣١٠/٤) ، و«النجم الرهاج» (٣٦١/٩) ، طبع لأول مرة محققاً عن (دار المنهاج) .

(٣) «معجم البلدان» (٤٥٦/١) .

(٤) أخرج نحوه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣٠/١) ، وابن الجوزي في «المنتظم» (١٣٩/٥) .

(٥) «معجم البلدان» (٧٤/٥) .

وَمِنْ مَدَائِنِهِ : النِّيل^(١) ؛ وهي مدينة حسنة ، وهي على الفرات بين بغداد والكوفة ،
وسبب تسميتها بالنيل : أَنَّ الحجاج بن يوسف حفر نهراً مِنَ الفرات وَسَمَّاهُ : النيل ، باسم
نيل مصر ، وأجره إليها ، وعليه مدنٌ عظيمةٌ وقرىٌ ومزارعٌ .

وَمِنْ مَدَائِنِهِ : نَيْنَوَى^(٢) ؛ يقال : إِنَّهَا المدينة التي بُعِثَ إليها يونس بن مَتَّى عليه الصلاة
والسلام .

وَمِنْ مَدَائِنِهِ : الكوفة^(٣) ؛ وهي على شاطئ الفرات ، بها بناء حسن ، ونخل كثير ،
وتمر طيب جداً .

وَمِنْ مَدَائِنِهِ : البصرة^(٤) ؛ وحدثت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يقال : إِنَّهُ
كان بها سبعة آلاف مسجد ، وشرقي البصرة مياه الأنهار ، وهي تزيد على عشرة آلاف نهر ،
لكلِّ نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذي حفره ، والغالب على هذه الأنهار الملوحة ، وحكى
بعض التجار : أَنَّهُ اشترى التمر فيها خمس مئة رطل بدينار ؛ وهو عشرة دراهم .

وَمِنْ مَدَائِنِهِ : واسط^(٥) ؛ وهي بين البصرة والكوفة ، وهي أعمر بلاد العراق ، وعليها
معمود ولاية بغداد .

وَمِنْ مَدَائِنِهِ : عبَّادان^(٦) ؛ وهي مدينة عامرة على شاطئ البحر في الجهة الغربية من
الذجلة ، وفي قعر البحر الفارسي خشبات منصوبات بإحكام وهندسة ، وعليها ألواح مهندسة
يجلس عليها حراس البحر ومعهم زورق ، شَقُّهُ الأيمن للعراق ، والأيسر لفارس .

وَأَمَّا عراق العجم : فهو إقليم عظيم ، ويسمى : إقليم خراسان ، كما أَنَّهُ يسمَّى : عراق
العجم ، وله نحو من خمس مئة مدينة قواعد خارجاً عن القرى .

وَمِنْ مَدَائِنِهِ : همذان ، ونيسابور ، وقم ، وخراسان ، وأصبهان ، وجرجان ،

(١) « معجم البلدان » (٣٣٤ / ٥) .

(٢) « معجم البلدان » (٣٣٩ / ٥) .

(٣) « معجم البلدان » (٤٩٠ / ٤) .

(٤) « معجم البلدان » (٤٣٠ / ١) .

(٥) « معجم البلدان » (٣٤٧ / ٥) .

(٦) « معجم البلدان » (٧٤ / ٤) .

وأردبيل ، وطوس ، فسبحان خالق الخلق ومالكهم ، ومحصيههم ومدبرهم ، لا إله إلا هو
لا شريك له في ملكه!

ومنهم : الحَجَّاج بن يوسفَ الثَّقَفِيُّ^(١) ، وأوَّل أمره وكيفية وصوله إلى عبد الملك بن مروان : أنه لما أشتدت شوكة أهل العراق على عبد الملك بن مروان . . خطب الناس وقال : إنَّ نيران أهل العراق قد علا لهبها ، وكثُرَ حطبها ، فجمرها حارًّا ، وشهابها وارٍ ، فهل من رجل شديد ، ذي سلاح عتيد ، أبعثه لها ؟ فقام الحَجَّاج فقال : أنا يا أمير المؤمنين ، قال : ومن أنت ؟ قال : الحَجَّاج بن يوسف بن الحكم بن عامر ، فقال له : أجلس ، ثمَّ أعاد الكلام ، فلم يقم أحدٌ غير الحجاج ، فقال : كيف تصنع إن وليتكَ ؟ قال : أخوضُ الغمَّرات ، وأقتحمُ الهلَّكات ، فمنَّ نازعني . . حاربتهُ ، ومنَّ هرب منِّي . . طلبتهُ ، ومنَّ لحقتهُ . . قتلتهُ ، وعلى أمير المؤمنين أن يجربَّ ، فإن كنتُ للأوصال قطعاً ، وللأرواح نزعاً ، وللأموال جماعاً ، وإلا . . فأستبدل بي ، فقال عبد الملك : من تأدَّب . . وجد بغيتهُ ، أكتبوا له كتاباً .

ولوَّم الحَجَّاج من قبل رضاعه ؛ قيل : إنَّ أمَّ الحَجَّاج كانت عند الحارث بن كلدة فطلَّقها ، وتزوَّجها يوسف ابن أبي عقيل الثَّقَفِيُّ ، فولدت له الحَجَّاج .

وقيل : إنَّ أمَّه الفارعة بنت مسعود الثَّقَفِيَّة ، وكانت قبل أن يتزوَّجها يوسف عند المغيرة بن شعبة ، فدخل عليها يوماً حين أقبل من صلاة الغداة وهي تتخلل فقال لها : يا فارعة ؛ لئن كان هذا التخلل من أكل اليوم . . إنَّك لنهمة ، وإن كان من أكل البارحة . . إنك لقدرة ، أعتدي فأنت طالق ، فقالت : سَخِنْتَ عينك من مِطْلَاق^(٢) ، ما هو من ذا ولا من ذاك ، ولكنني أستكتُّ فتخللتُ من سواكي ، فأسترجع ، ثمَّ خرج ، فلقي يوسف بن الحكم بن أبي عقيل ، فقال : إنِّي قد نزلتُ اليوم عن خير نساء ثقيف ، وحدثه بالقصة ، فتزوَّجها يوسف ، فولدت له الحَجَّاج مشوَّهاً لا دبر له ، فثقب دبره ، وأبى أن يقبل

(١) انظر ترجمته في : « مروج الذهب » (٣/٣٧٥) ، و« تاريخ دمشق » (١٢/١١٣) ، و« فييات الأعيان » (٢/٢٩) ، و« تاريخ الإسلام » (٦/٣١٤) ، و« سير أعلام النبلاء » (٤/٣٤٣) ، و« الوافي بالوفيات » (١١/٣٠٧) ، و« مرآة الجنان » (١/١٩٢) ، و« البداية والنهاية » (٩/١٤٢) ، و« شذرات الذهب » (١/٣٧٧) .

(٢) سخنة العين : نقبض قرتها .

الثدي ، فأعياهم أمره ، فتصوّر لهم الشيطان على صورة الحارث بن كلدة ، وأشار عليهم أن يُذبح جدي أسود ويولغوه من دمه يومين ، وفي الثالث يذبح له تيس ويولغوه من دمه ، ويطلوا وجهه بما بقي منه ، فإنه يقبل الثدي ، ففعلوا ذلك ، فأقبل على ثدي أمه ، فأكسبه الرضاع الأول لؤماً ، وأماً الرضاع الثاني . . فعغّر الطباع ، فكان في كبره سفكاً للدماء ؛ فلمّا بلغ أشده . . صار هو وأخوه معلّمين بالطائف^(١) ، وقد هجاه بعضهم بقوله : [من الطويل]

فَلَوْلَا بَنُو مَرْوَانَ كَانَ أَبْنُ يُوسُفِ
كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَيْدِ إِيَادِ
زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمُقَرَّبُ بِذَلِكَ
يُرَاوِحُ صَبِيَّانَ الْقُرَى وَيُعَادِي^(٢)

وقال آخر يذكر تعليمه الصبيان :

أَيَسَى كَلِيبُ زَمَانَ الْهُزَالِ
وَتَعْلِيمُهُ صَبِيَّةَ الْكَوْثَرِ^(٣)

الكوثر : قرية في الطائف كان الحجاج معلماً بها ، وعلى هذا يكون اسمه كليلاً ، وهو الأولى به ، وقد تقدّم منه الولوغ للدم في صغره ورضاعه كما تقرّر .

وممّا يؤيّد ما ذكر من لؤمه : ما كتب به إليه عبد الملك بن مروان لمّا أراد قتل أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه : أمّا بعد : فإنك طغت بك الأمور ، وعلوت فيها حتّى تعدّيت طورك ، وأيم الله يا بن المستفرمة بعجم الزبيب ؛ لأركضن بك ركضة تدخل بها في جعس أمك ، فأذكر مكاسب آبائك بالطائف ؛ إذ كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ، ويحفرون الآبار بأيديهم ، قد نسيت ما كنت عليه وآباؤك من الدناءة واللؤم ، فلعنك الله ، أخفش العينين ، أصكّ الرجلين ، ممسوح الساعدين ، ولن يخفى عليّ نبؤك ، لكلّ نبأ مستقر ، وسوف تعلمون^(٤) .

(١) انظر القصة في « مروج الذهب » (٣/٣٢٩) ، و« الوافي بالوفيات » (١١/٣٠٩) ، و« وفيات الأعيان » (٢/٢٩) ، و« مرآة الجنان » (١/١٩٣) .

(٢) البيتان لمالك بن الرب المازني كما في « ديوان الحماسة » (١/٢٧٩) ، و« الكامل » (٢/٦٣٠) ، و« عيون الأخبار » (١/٢٣٦) ، و« العقد الفريد » (٥/١٤) ، و« خزنة الأدب » (٢/٢١١) ، وقد نسب الأبيات في « معجم البلدان » (٢/٢٧٧) للبرج التميمي ، ووقع في الأصل : (من عبيد زياد) بدل : (إياد) ، والتصويب من المصادر .

(٣) البيت من غير نسبة في « الكامل » (٢/٦٣٠) ، و« ربيع الأبرار » (٣/٣٩٧) ، و« معجم البلدان » (٤/٤٨٧) .

(٤) انظر القصة في « تاريخ دمشق » (١٢/١٧١) ، و« البداية والنهاية » (٩/١٦١) ، و« البيان والتبيين » (١/٣٨٥) ، و« العقد الفريد » (٥/٣٥) ، وقال المعافر بن زكريا في « المجلس الصالح » : (وقوله : « يا بن المستفرمة بعجم

ذكر أهل التاريخ : أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ الْحَجَّاجُ . . أَحْصَى مَنْ قَتَلَهُ صَبْرًا سِوَى مَنْ قُتِلَ فِي حُرُوبِهِ وَسَرَايَاهُ ، فَوَجَدُوا مِثْلَ أَلْفٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا ، وَمَاتَ وَفِي حَبْسِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ رَجُلٍ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ أَمْرَأَةٍ ، وَكَانَ يُحْبَسُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَبْسِهِ سَمَاءٌ تَقِيهِمُ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ ، وَكَانَ الْحَرَّاسُ يَمْنَعُونَهُمْ إِذَا اسْتَظَلُّوا مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ وَزَمْهَرِيرِ الْبَرْدِ^(١) .

وذكر أهل التاريخ أيضاً : أَنَّهُ رَكِبَ يَوْمَ جُمُعَةٍ يُرِيدُ الْجَامِعَ ، فَسَمِعَ ضَجَّةَ عَظِيمَةً ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : أَهْلُ السِّجْنِ يَشْكُونَ مَا هُمْ فِيهِ ، فَالْتَفَتَ إِلَى نَاحِيَّتِهِمْ وَقَالَ : أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ مَاتَ فِي تِلْكَ الْجُمُعَةِ بِوَسْطِ سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً ، وَكَانَ آخِرَ كَلَامٍ سَمِعَ مِنْهُ : اللَّهُمَّ أَغْفِرْ ؛ فَإِنَّ عِبَادَكَ يَطْنُونَ أَلَّا تَفْعَلُ ، وَكَانَتْ مَدَّةَ إِمَارَتِهِ عَلَى النَّاسِ عِشْرِينَ سَنَةً إِلَّا سَبْعَةَ أَيَّامٍ .

* * *

الزبيب « كانت المرأة تستعمل عجم الزبيب - أي : حبه - لتضيق قبلها) ، والجعس : موقع العذرة ، ومراده : في أستها ، وأخفش العينين : الخفش : فساد في العين يضعف منه نورها ، وتصغر من غير وجع ، وأصك الرجلين : مضطربهما .
(١) انظر « مروج الذهب » (٣ / ٣٧٥) ، و « تاريخ دمشق » (١٢ / ١٨٤) ، و « الفرج بعد الشدة » (١ / ١٩١ - ١٩٢) .

عَيْشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِهَا عَيْشَةُ الْجَاهِدِ بَلْ هَذَا أَذَلُّ

أي : عيشة الشخص الزاهد في الدنيا وفي تحصيلها وجمعها . . كعيشة الشخص الجاهد - بالبدال المهملة - أي : المجتهد المنهك على الدنيا وجمعها ، في أن كلاً منهما لا يأكل ولا يلبس إلا ما كتب الله له في أزله ، ثم أَضْرَبَ الناظم عن التساوي بينهما فقال : بل هذا - أي : الشخص الجاهد - أَذَلُّ عند الله وعند الناس من الزاهد فيها ؛ لِمَا يترتب على جمعها من التذلل لأهلها والتواضع لهم .

وذكر عن يحيى بن معاذ أنه قال : (في أكتساب الدنيا ذلُّ النفوس ، وفي أكتساب الآخرة عزُّ النفوس ، فيا عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ، ويترك العز الذي يبقى !) .

وقال في « تنبيه الغافلين » : (روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَنَا زَعِيمٌ لِثَلَاثَةٍ بِثَلَاثَةٍ : لِلْمُكِبِّ عَلَى الدُّنْيَا ، وَالْحَرِيصِ عَلَيْهَا ، وَالشَّحِيحِ بِهَا : بِفَقْرٍ لَا غِنَى ، وَشُغْلٍ لَا فَرَاغٍ ، وَهَمٍّ لَا فَرَجٍ » (١) .

وروي عن أبي عثمان النهدي رضي الله تعالى عنه أنه قال : رأيتُ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قميصاً فيه اثنتا عشرة رقعةً وهو على المنبر يخطب (٢) .

وروي عن أبي ذر أنه قال : إنني لأعرف بالناس من البيطار بالدواب ؛ فأما خيارهم . . فالزاهدون في الدنيا ، وأما شرارهم . . فمن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه .

وروى حميد الطويل عن مؤرق العجلي (٣) قال : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَهَنَكُمُ الشَّاكِرُ * حَتَّى زُرِمَ الْمَقَابِرُ ﴾ ، فقال : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا

(١) أخرج بنحوه الدليمي في « الفردوس » (١٣٠) .

(٢) أخرج بنحوه ابن سعد في « الطبقات » (٣٢٨/٣) .

(٣) في الأصل : (معروف العجلي) ، والتصويب من « تنبيه الغافلين » .

ما أكلت فأفئيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ » (١) .

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله تعالى عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : « يا عائشة ؛ إن أردت اللُّحوقَ بي . . فليُكفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَرَادِ الرَّاكِبِ ، وإِيَّاكِ ومَجَالِسَةِ الأَغْنِيَاءِ ، وَلَا تَسْتَحْلِقِي ثوباً حَتَّى تَرْفَعِيهِ » (٢) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهم ؛ مَنْ أَحَبَّنِي . . فَأَرْزُقْهُ العِفَافَ والكِفَافَ ، وَمَنْ أَبْغَضَنِي . . فَأَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ » (٣) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الفقيرُ مشقةٌ في الدُّنْيَا مَسْرَةٌ في الآخِرَةِ ، والغنيُّ مَسْرَةٌ في الدُّنْيَا مشقةٌ في الآخِرَةِ » (٤) .

وروي عن أبي الدرداء (٥) أنه قال : ما أَنْصَفْنَا إِخْوَانَنَا الأَغْنِيَاءَ ؛ لأنَّهُمْ يَأْكُلُونَ ونحن نَأْكُلُ ، ويشربون ونحن نشرب ، ويلبسون ونحن نلبس ، ولهم فضول أموالهم ، ينظرون إليها ونحن ننظر إليها معهم ، وهم يحاسبون عليها ونحن منها برآء (٦) .

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) ، وابن حبان (٧٠١) ، والترمذي (٢٣٤٢) ، والنسائي (٢٣٨/٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣١٢/٤) ، والترمذي (١٧٨٠) ، والبيهقي في «الشعب» (٥٧٧٠) .

(٣) عزاه العجلوني في «كشف الخفاء» (١٩٠/١) بلفظه لسعيد بن منصور في «سننه» ، وأخرج نحوه ابن ماجه (٤١٣٣) ، والبيهقي في «الشعب» (٩٩٦١) ، والطبراني في «الكبير» (٣١/١٧) من حديث عمرو بن غيلان الثقفي رفعه : « اللهم ؛ من آمن بي وصدقني ، وعلم أن ما جئت به الحق من عندك . . فأقل ماله وولده ، وحبب إليه لقاءك ، وعجل له القضاء ، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ، ولم يعلم أن ما جئت به الحق . . فأكثر ماله وولده ، وأطل عمره » ، ولا يلتفت إلى قول من رده بزعم أنه يتعارض مع حديث أنس عند البخاري (٦٣٣٤) : أنه دعا له بكثرة ماله وولده ، قال الحافظ في «الفتح» (١٣٨/١١) : (لا منافاة بينهما ؛ لاحتمال أن يكون مع دعائه له بذلك قرنه بالأينا له من قبل ذلك ضرر ؛ لأن المعنى في كراهية اجتماع كثرة المال والولد إنما هو لما يخشى من ذلك من الفتنة بهما ، والفتنة لا يؤمن معها الهلكة) ، وقال الإمام المُنَاوي في «فيض القدير» (١٢٩/٢) : (ثم إن ذا لا يعارضه خبر البخاري : أنه دعا لأنس بتكثير ماله وولده ؛ لأن فضل الثقل من الدنيا والولد يختلف باختلاف الأشخاص ، كما يشير إليه الخبر : « إنَّ من عبادي مَنْ لا يصلحه إلا الغنى . . » الحديث ، فمن الناس من يخاف عليه الفتنة بها ، وعليه ورد هذا الخبر ، ومنهم من لا يخاف عليه ، كحديث أنس ، وحديث : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، فكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يخاطب كل إنسان بما يصلحه ويليق به) .

(٤) جاء عند الحاكم في «المستدرک» (٣١٠/٤) ، وأحمد (٣٤٢/٥) ، والبيهقي في «الشعب» (٩٨٥٣) عن أبي مالك الأشعري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حلوة الدنيا مرة الآخرة ، ومرة الدنيا حلوة الآخرة » .

(٥) في الأصل : (عن الحسن) ، والتصويب من « تنبيه الغافلين » ، ومن المصادر .

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٩٢) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧٣/٤٧) ، (١٧٤) .

وروي عن شقيق الزاهد أنه قال : أختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء ؛ أختار الفقراء : راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب ، وأختار الأغنياء : تعب النفس ، وشغل القلب ، وشدة الحساب .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ ، وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي هَذَا الْمَالُ » (١) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عُرِضْتُ عَلَيَّ بِطَحَاءٍ مَكَّةَ ذَهَبًا ، قُلْتُ : يَا رَبِّ ؛ أَشْبَعُ يَوْمًا ، وَأَجُوعُ يَوْمًا ، فَأَحْمَدُكَ إِذَا شَبِعْتُ ، وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ إِذَا جَعْتُ » (٢) (٣) اهـ

فصل في غلبة الدنيا

[في ضرب مثال لغفلة أهل الدنيا]

قال في « الفتح » : (وأعلم : أن مثل أهل الدنيا في غفلتهم كمثل قوم ركبوا سفينة ، فأنتهوا إلى جزيرة مُعْشَبَةٍ ، فخرجوا لقضاء الحاجة ، فحذَّرهُم الملاح مِنَ التَّأخُّرِ فِيهَا ، وأمرهم أن يقيموا بقدر حاجتهم ، وحذَّرهُم مِنْ أن يقلع بالسفينة ويتركهم ، فبادر بعضهم فرجع سريعاً ، فصادف خير الأمكنة وأحسنها فاستقرَّ فيه ، وأنقسم الباقيون أقساماً :

الأول : أستغرق في النظر إلى أزهارها المونقة ، وأنهارها وثمارها الطيبة ، وجواهرها ومعادنِها ، ثمَّ استيقظ فبادر إلى السفينة ، فلقى مكاناً دون الأوَّل ، فنجا في الجملة .

القسم الثاني : كالأوَّل ، لكنَّه أكبَّ على تلك الجواهر والثمار والأزهار ، ولم تسمح نفسه بتركها ، فحمل منها ما قدر عليه ، فتشاغل بجمعه وحمله ، فوصل إلى السفينة ، فوجد مكاناً أضيق مِنَ الأوَّل ، ولم تسمح نفسه برمي ما أستصحبه ، فصار مُثْقَلًا ، ثمَّ لم يلبث أن ذُبَلَتِ الأزهار ، ويبست تلك الثمار ، وهاجت الرياح ، فلم يجد بُدًّا مِنْ إلقاء ما أستصحبه حتَّى نجا بحشاشة نفسه .

(١) أخرجه ابن حبان (٣٢٢٣) ، والترمذي (٢٣٣٦) ، وأحمد (١٦٠/٤) .

(٢) سبق تخريجه (ص ١٩٥) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (ص ٢٢٣-٢٣٦) .

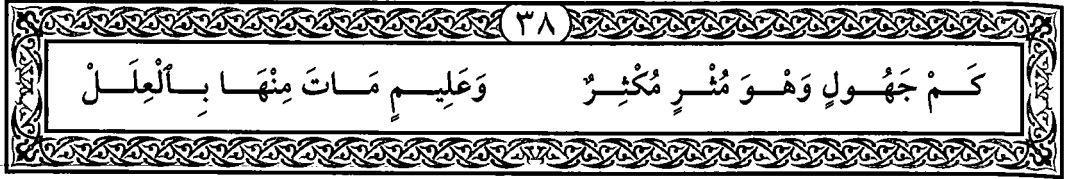
القسم الثالث : غَفَلَ عن وصية المَلَّاح ، ثم سمع النداء بالرحيل ، فمرَّ فوجد السفينة قد سارت ، فبقي بما أستصحبه في البرِّ حتَّى هَلَكَ .

القسم الرابع : أشتدت به الغفلة عن سماع النداء ، وسارت السفينة ، فتقسَّم فِرَقاً ؛ فمنهم مَنْ أفترسته السباع ، ومنهم مَنْ تاه على وجهه حتَّى هلك ، ومنهم مَنْ مات جوعاً ، ومنهم مَنْ نهشته الحيات ، فهذا مثال أهل الدنيا في أشتغالهم بحظوظهم العاجلة ، وما أقبح مَنْ يزعم أنَّه عاقل ثمَّ يغترُّ بالأحجار مِنَ الذهب والفضة ، والأزهار والثمار ، وهو لا يصحبه شيء مِنَ ذلك بعد الموت (اهـ)^(١)

* * *

(١) « فتح الباري » (٢٣٣/١١) ، وهذا المثال الذي نقله الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى هو ملخص كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » (٢١٧/٣) ، ذكره عقب حديث مسلم (٢٨٥٨) عن المستورد بن شداد رفعه : « والله ؛ ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة في اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ » ، خلال بيانه صفة الدنيا بالأمثلة ، فانظره .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :



هذا البيت والذي بعده من تعلقات قوله : (فمن عاداتها * تخفض العالي وتعلي من سفلى) أي : كم رأينا شخصاً جهولاً - أي : متّصفاً بالجهل وعدم العلم - وهو مُثْرٍ - بضم الميم وسكون المثناة - أي : كثير المال ؛ فقوله : (مُكْثِرٌ) عطفٌ تفسيري ، قال في « المصباح » : (الثروة : كثرة المال ، وأثرى إثراءً : أستغنى ، والاسم منه : الثراء ، بالفتح والمدّ) .

وقوله : (وعليم) بالجرّ ، معطوفٌ على (جهولٍ) أي : وكم رأينا شخصاً عليمًا ؛ أي : متّصفاً بكثرة العلم ، مات منها - من أجل هذه الدنيا - بالعلل ؛ لضيق العيش عليه ، والعلل : جمع : علةٌ ، قال في « المصباح » : (العلةٌ : المرضُ الشاغلُ ، والجمع : عِللٌ ، مثل : سِدْرَةٌ وسِدْرٌ) اهـ

[من الطويل]

ولله درُّ القائل :

عَتَبْتُ عَلَى الدُّنْيَا لِرِفْعَةِ جَاهِلٍ وَتَأْخِيرِ ذِي فَضْلِ ، فَقَالَتْ : خُذِ الْعُدْرَا
بُنُو الْجَهْلِ أَبْنَائِي لِهَذَا رَفَعْتُهُمْ وَأَهْلُ الثَّقَى أَبْنَاءُ ضَرَّتِي الْأُخْرَى^(١)

ولله درُّ سيّدي عبد الرحمن الملاح حيث قال في « تخميسه » :

سَائِرُ الْأَقْوَالِ عَنْهَا تَقْصُرُ وَلَكُمْ قَدْ حَارَ فِيهَا مَعْشَرُ
حِكْمَةٌ قَدْ حَيَّرَتْ مَنْ يُبْصِرُ كَمْ جَهُولٍ وَهُوَ مُثْرٍ مُكْثِرٌ

وَعَلِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِالْعِلَلِ^(٢)

(١) نسبهما ابن فرحون في « الدياج المذهب » (٦٧/١) إلى محيي الدين المعروف بحافي رأسه ، ولابن شيخان السالمي تخميس عليهما .

(٢) « تخميس الملاح » (ص ٩) .

ولله درُّ إمامنا الشافعيِّ حيث قال :

مَحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لَا تَنْقُضِي
مَلَكَ الْأَكْبَرِ فَاسْتَرْقِ رِقَابَهُمْ

وقال الآخر :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ بِالأَشْرَافِ يَكْبُو
كَأَنَّ الدَّهْرَ ذَا رَجُلٍ حَسُودٌ

وقال آخر :

يَا دَهْرُ صَافَيْتَ الأَلْتَامَ وَلَمْ تَزَلْ
وَعُرِفْتَ كَالْمِيزَانِ تَرْفَعُ نَاقِصاً

* * *

[من الكامل]

وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كالأَعْيَادِ
وَتَرَاهُ رِقَاءً فِي يَدِ الأَوْغَادِ^(١)

[من الوافر]

وَيَرْفَعُ رَايَةَ الأَقْوَامِ الأَلْتَامِ
يُطَالِبُ حَقَّهُ عِنْدَ الأَكْرَامِ^(٢)

[من الكامل]

أَبْدأُ لِأَبْنَاءِ الأَكْرَامِ مُعَانِدَا
أَبْدأُ وَتَخْفِضُ لِمَحَالَةِ زَائِدَا^(٣)

(١) البيتان في «ديوان الشافعي» (ص ٥٦) .

(٢) البيتان ذكرهما ابن عبد البر في «التمهيد» (١٦١/١٨) ، وغيره ، ووقع عنده في البيت الثاني : (كأن الدهر موتورٌ حقودٌ) .

(٣) البيتان للسريِّ الرفاء في «ديوانه» (ص ١٦٦) .

كَمْ شَجَاعٍ لَمْ يَنْلُ مِنْهَا الْمُنَى
وَجَبَانَ نَالَ غَايَاتِ الْأَمَلِ

أي : كم رأينا شخصاً شجاعاً - أي : قوي القلب - لم ينل - أي : لم يبلغ - منها المنى ،
بضم الميم ، جمع : منية ؛ كمُدِّيَّة ومُدَى ، والمنية : ما تمنَّاه الإنسان ، وكم رأينا شخصاً
جباناً - أي : ضعيف القلب - نال ؛ أي : بلغ غايات الأمل ، جمع : غاية ؛ وهي : آخر
الشيء ، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يُستبعد حصوله ؛ قال كعب بن زهير رضي الله تعالى
عنه :

[من البسيط]

أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُهَا
وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ^(١)

بخلاف الطمع ؛ فإنه لا يكون إلا فيما قَرُب حصوله ، فإن عزمته على سفر إلى بلد
بعيد . . . تقول : أَمَلْتُ الوصول ، ولا تقول : طَمِعْتُ ، إلا إن قَرُبَتْ منها ، وأما الرجاء :
فهو بين الأمل والطمع ؛ لأنَّ الراجي قد يخاف ألاَّ يحصل مأموله ، فإن قوي الخوف . .
أستعمل بمعنى الأمل ، وعليه بيت كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه ، وإلا . . أستعمل
بمعنى الطمع ، هكذا يستفاد من « المصباح » .

فَصَائِلُ

[في تعريف الشجاع وذكر بعض من عرف بذلك]

الشجاع : هو الذي لا يهاب القتال إذا التقي الجمعان ، قال في « المصباح » : (شجع -
بالضَّم - شجاعة : قوي قلبه وأستهان بالحروب ، فهو شجاع وشجاع ، وبنو عقيل تفتح
الشين حملاً على نقيضه وهو جبان ، وبعضهم يكسرها للتخفيف ، ويجمع الشجاع على

(١) البيت من قصيدة كعب بن زهير رضي الله عنه المشهورة : (بانت سعاد) ، وهي عند ابن هشام في « السيرة »
(٥٠١/٤) ، وأخرج حديثها الحاكم في « المستدرک » (٥٧٩/٣) ، وفيه البيت ، والبيهقي في « السنن »
(٢٤٣/١٠) ، و« الدلائل » (٢٠٧/٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٧٦/١٩) .

شِجْعَةٌ ؛ مثل : غُلَامٌ وَغِلْمَةٌ ، وَعَلَى شُجْعَاءَ ؛ مثل : شَرِيفٌ وَشُرَفَاءٌ .

والجبان - بفتح الجيم - : هو ضعيف القلب الذي لا يصبر على القتال ، بل يولي هارباً .

وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالشجاعة وأستعاذ من الجبن ؛ فقد روي : أنه صلى الله عليه وسلم قال لعلي حين وصيته له : « كُنْ شُجَاعاً ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الشُّجَاعَ » (١) .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال في دعائه : « اللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ » اهـ (٢)

وَمَمَّنْ عُرِفَ بِالشَّجَاعَةِ الْعَظْمَى : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال أنس بن مالك رضي الله عنه : لَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً ، فَأَنْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعاً ، قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ وَعَرَفَ الْخَبْرَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِّي ، وَالسَيْفُ فِي عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ : « لَنْ تَرَاعُوا ، لَنْ تَرَاعُوا » (٣) .

وَمِنَ الشَّجْعَانِ أَيْضاً : أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ فَإِنَّهُ يَوْمَ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوِيَ قَلْبُهُ ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ ؛ فَإِنَّ عَمْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَذَّبَ بِمَوْتِهِ ، وَأَمَّا عَثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . . فَجَعَلَ لَا يَكْلُمُ أَحَدًا ، وَأَمَّا عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . . فَجَعَلَ فِي بَيْتِهِ وَلَمْ يَبْرَحْ مِنْهُ ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَهُوَ ثَابِتُ الْعَقْلِ مُصِيبٌ فِي الْقَوْلِ ، فَأَكْبَبَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَقَبَّلَ جَبِينَهُ وَبَكَى ، ثُمَّ خَرَجَ وَالنَّاسُ قَدْ تَاهَتَ عَقُولُهُمْ ، فَصَعِدَ الْمَنْبِرَ وَقَالَ مِنْ جُمْلَةِ خُطْبَتِهِ : (مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا . . فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ . . فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ قَالَ عَمْرُ : (فَوَاللَّهِ ؛ لَكَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِهَا قَطُّ فِي كِتَابِ اللَّهِ) (٤) .

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » (٤٤) ، والدليمي في « الفردوس » (٨٣٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦٥) وما بعده ، ومسلم (٢٧٠٦) و (٢٧٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٨) و (٦٠٣٣) ، ومسلم (٢٣٠٧) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٥٤) ، وابن حبان (٦٦٢٠) ، وابن ماجه (١٦٢٧) .

وَمِنَ الشَّجْعَانِ أَيْضاً : عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ؛ فكان موصوفاً بالشدة والشجاعة ، وكان يضع يده اليمنى على أذنه اليسرى ، ثمَّ يَثْبُ على فرسه (١) .

وَمِنَ الشَّجْعَانِ : علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ؛ فكان شجاعاً بطلاً ، ذكر عنه : أنه قَتَلَ ليلة الهَرِيرِ (٢) مِنْ حَرْبِ صِفِّينَ خَمْسَ مِئَةٍ وَثَلَاثَةَ وَعِشْرِينَ رَجُلًا ، وكان إذا ضرب لا يثني .

وَمِنَ الشَّجْعَانِ أَيْضاً : الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه ، قالوا : لم يكن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم فارساً أشجع من الزبير ، ولا راجلاً أشجع من علي . اهـ

* * *

(١) أخرجه ابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٢٢ / ٤٤) .

(٢) ليلة الهَرِيرِ : هي ليلة كانت فيها وقعة بين سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله عنهما من أيام صِفِّينَ ، وصِفِّينَ : الموضع الذي كانت فيه المعركة ، وهو موضع بقرب الرِّقَّةِ على شاطئ الفرات من الجانب الغربي ، وسميت ليلة الهَرِيرِ بذلك ؛ لكثرة ما كان الفرسان يَهْرُونَ فيها كما تَهْرُ السباع ، والهَرِيرُ : صوت دون النباح .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٤٠

فَأَتْرِكُ الْحِيلَةَ فِيهَا وَأَتَّئِدُ إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحَيْلِ

أي : فإذا علمت أن الأمور كلها ؛ من إعطاءٍ ومنعٍ ، ونفعٍ وضرٍّ ، وعزٍّ وذُلٍّ ، وغير ذلك ، بيد الله سبحانه وتعالى ، قدرها في سابق أزله . . فأترك الحيلة في الدنيا وأتئد^(١) ؛ أي : ترفق في طلبها ولا تعجل فيه .

قال في « المصباح » : (أتأد في مَشْيِهِ أُتَّأدًا : تَرَفَّقَ ولم يَعَجَلْ فيه) اهـ

وإنما كانت الحيلة في ترك الحيل ؛ لأنَّ الخير والشرَّ والرزق وغير ذلك قد ثبت في الأزل ، وصار لا يقبل التغيير ولا التبديل ، فالحيلة في جلب الخير أو في دفع الشرِّ لا فائدة فيها ؛ لأنَّ الذي سبق من خيرٍ أو شرٍّ واقعٌ لا محالةً ، فالتسليم وترك الحيلة أولى ، قال الله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ - وهو جبريل - نَفَثَ فِي رُوعِي - بضمِّ الراء المهملة ؛ أي : قلبي - : لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا ، فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَللَّهُمَّ ؛ لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيتَ ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ »^(٣) .

[من البسيط]

ولهذا قال الشاعر :

كَمْ مِنْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِي تَقَلُّبِهِ مُهَذَّبِ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفُ
وَكَمْ ضَعِيفٍ ضَعِيفٍ فِي تَقَلُّبِهِ كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ

(١) الحيلة : اسم من الاحتيال ، وهو الحذق في تدبير الأمور ، وتقلب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود ، زاد الراغب : في خفية .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٤/٢) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٠٠) ، والقضاعي في « مسنده » (١١٥١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٦/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٥٩٣) .

هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِلَاحَةَ لَهُ

فِي الْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ^(١)

وقال آخر :

[من البسيط]

كَمْ عَالِمٍ عَالِمٍ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً

وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقًا
وَصَيَّرَ الْعَالِمَ النَّحْرِيرَ زَنْدِيْقًا^(٢)

إنما صار زنديقاً : المنجّم وأشباهه فقط ؛ لعدم إسنادهم القسمة إلى الحكيم المختار ، الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، وأمّا أرباب البصائر . . فأجمّلوا في الطلب ، ورضيت نفوسهم بالقسمة ، وأيقنوا بتصديق قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وأما من قصرت درجته عن مقامهم من الموحدين ؛ كالشيخ الطغرائي . . فلم يزل مولعاً بدمّ دهره ، وعدم الرضا على أهل عصره ، مع سلامة التوحيد ، واعتقاده أن الله تعالى فعّالٌ لما يريد^(٣) .

رَزَقَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّسْلِيمَ لِقَضَائِهِ وَقَدْرَهُ ، آمِينَ .

* * *

(١) الأبيات أنشدها سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى فيما أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢٧٦/٧) ، والفاكهي في « أخبار مكة » (١٤٧/٢) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٥٢) ، وهي بتمامها عند الغزالي في « منهاج العابدين » (ص ١٦٥) - وهو أحد منشورات (دار المنهاج) - بزيادة :

فَأَحْمَدُ إِلَهَكَ فِي ضَيْقٍ وَفِي سَعَةٍ
وَلَا تُعَانِدْ فَمَا الْأَرْزَاقُ تَخْتَلِفُ

(٢) البيتان في « الإيضاح في علوم البلاغة » (ص ١٠١) ، ونسبهما في « معاهد التنصيص » لابن الراوندي الزنديق .

(٣) الشيخ الطغرائي : هو العميد مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد الأصبهاني ، المعروف بالطغرائي ، كان وزير السلطان مسعود بن محمد السلجوقي بالموصل ، أسر في حرب دارت بين السلطان مسعود وأخيه محمود ، فخافوا منه لفضله ، فاعتمدوا قتله ، فقتل سنة خمس عشرة وخمس مئة على خلاف ، فكان من جملة من قتله فضله ، ورماه بنبل الدهر ثبلاً ، وله ديوان شعر جيد ، ومن محاسنه : قصيدته المعروفة بـ « لامية العجم » ، التي شرحها الإمام الصفدي رحمه الله تعالى بـ « غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم » ، وأخصره الإمام الدميري رحمه الله تعالى ، وهو أحد منشورات (دار المنهاج) . وقد كان الطغرائي رحمه الله يصف فيها حاله ، ويشكو زمانه ، ومن ذلك قوله فيها :

[من البسيط]

عَلَى قَضَاءِ حُقُوقِ اللَّعْلَى قَبْلِي
مِنَ الْغَنِيْمَةِ بَعْدَ الْكُدِّ بِالْقَفْلِ

أُرِيدُ بَسْطَةَ كَفِّ أَسْتَعِينُ بِهَا
وَأَلْدَهْرُ يَعْكَسُ أَمَالِي وَيَقْنَعُنِي

أَيُّ كَفِّ لَمْ تُفِدْ مِمَّا تُفِدُ فَرَمَاهُ اللَّهُ مِنْهُ بِالشَّلَلِ

أي : أيُّ كَفِّ كانت لم تُفِدْ - بضم المثناة الفوقية وكسر الفاء - أي : لم تعط مما تُفِدْ - بضم أوله وفتح ثانيه - : أي من الشيء الذي أفاده الله لها ؛ أي أعطاه ، وقوله : (فرماه الله) أي : أصابه منه - أي : من عنده - بالشلل ؛ أي : بفساد عروقتها وبطلان حركاتها ؛ لهذا هو الشلل ، ولَمَّا كانت الكَفُّ يصحُّ تذكيرها وتأنيبها . . . أَنَّثَهَا أَوْلًا فقال : (أَيُّ كَفِّ لَمْ تُفِدْ مِمَّا تُفِدُ) ، وذَكَرَهَا ثانيًا بقوله : (فرماه الله) ، وفي نسخة : (فرماها الله) وهي الأولى^(١) ؛ قال في « المصباح » : (الكَفُّ مِنَ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ أَنْشَى ، قال ابن الأنباري : وزعم مَنْ لا يوثق به : أَنَّ الكَفَّ مَذَكَّرٌ ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : كَفُّ مُخَضَّبٌ . . . فعلى معنى : ساعدٌ مُخَضَّبٌ^(٢) ، وجمعها : كُفُوفٌ وَأُكُفٌ ، مثل : فُلْسٌ وَفُلُوسٌ وَأَفْلُسٌ ، قال الأزهرِيُّ : الكَفُّ الرَّاحَةُ مَعَ الْأَصَابِعِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَكْفُ الْأَذَى عَنِ الْبَدَنِ) اهـ وفي هذا البيت : الدعاء على الشخص البخيل بشلل يده ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى عَنِ الْبَخْلِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ ، وَأَمْرًا بِالْإِحْسَانِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

ويشبه هذا في المعنى : ما وعد الله به مانعي الزكاة بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، قال بعض أهل المعاني : إِنَّمَا خَصَّ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ دُونَ

(١) ويروى :

فبلاها الله منه بالشلل

أي كَفِّ لَمْ تُتَلَّ مِنْهَا الْمُنَى

(٢) أو على أنه أراد العضو .

غيرها بالذكر ؛ لأنَّ السائل إذا سأل البخيل . . لَوَّى عنه وجهه ، فإنَّ ألحَّ عليه . . أزوَّرَ عنه بشقِّ جنبه الذي يليه ، فإنَّ ألحَّ عليه . . ولاه ظهره^(١) .

وروى الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بإسناده عن ابن عباس أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ . . قَالَ لَهَا : تَزَيَّنِّي فَتَزَيَّنْتِ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : أَظْهَرِي أَنْهَارِكَ فَأَظْهَرْتُ عَيْنَ السَّلْسَبِيلِ وَعَيْنَ الْكَافُورِ وَعَيْنَ التَّسْنِيمِ ، وَنَهَرَ اللَّبْنَ وَنَهَرَ الْعَسَلَ وَنَهَرَ الْخَمْرَ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : أَظْهَرِي حُورَكَ وَحِلْيَتِكَ وَحُلْلَكَ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : تَكَلَّمِي ، فَقَالَتْ : طُوبَى لِمَنْ دَخَلَنِي ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنْتِ حَرَامٌ عَلَيَّ كُلِّ بَخِيلٍ »^(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أَقْسَمَ اللهُ بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ : لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلَا بَخِيلٌ »^(٣) .

والشَّحُّ : أن تكون النفس حريصةً على المنع ، والبخل هو نفس المنع .

وقال بعضهم : لو لم يكن في البخلاء إلاَّ سوء الظنِّ برَبِّهم في الخلف . . لكان عظيمًا ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴾ .

وكان أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يرى قبول شهادة البخيل ، ويقول : (بخله يحمله على أن يأخذ فوق حقه مخافة أن يُعَبَّنَ ، فَمَنْ هَذِهِ حَالَتُهُ . . لَا يَكُونُ مَأْمُونًا)^(٤) .

وقال بشرُّ الحافي : (لَا غِيْبَةَ لِبَخِيلٍ ، وَلَشَرْطِي سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ عَابِدِ بَخِيلٍ) .

وقالوا : البخيل يملأ بطنه والجارُّ جائع ، ويحفظ ماله والعرضُ ضائع .

قال الشاعر :

وَمِنْ الْجَهَالَةِ بِالْمَكَارِمِ أَنْ تَرَى جَارًا يَجُوعُ وَجَارُهُ شَبَعَانٌ^(٥)

(١) ذكر نحوه الإمام الذهبي في «الكبائر» (ص ٣٧) .

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/٢١٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه موقوفاً عليه ، وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً الطبراني في «الكبير» (١١/١٤٨) ، و«الأوسط» (٥٥١٤) ، وتمام في «فوائده» (٢٥٩) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥٠/٥٢) .

(٣) أخرجه تمام في «فوائده» (١٧٦) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧٣/٥٧) .

(٤) انظر «شرح فتح القدير» (٦/٤٨٦) ، و«الدر المختار» (٥/٤٨١) ، و«حاشية ابن عابدين» (٧/١١٤) .

(٥) البيت لأبي العتاهية رحمه الله كما في «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٣٤٨) .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

أَرَى النَّاسَ خُلَانًا الْجَوَادِ وَلَا أَرَى
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْبُخْلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ
بَخِيلًا لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلٌ
فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ : بَخِيلٌ^(١)

وقال الحسن البصري : (لم أر أشقى بماله من البخيل ؛ لأنه في الدنيا مهتمٌ بجمعه ، وفي الآخرة محاسبٌ على منعه ، غير آمن في الدنيا من همِّه ، ولا ناج في الآخرة من إثمِهِ ، عيشُهُ في الدنيا عيشُ الفقراء ، وحسابُهُ في الآخرة حسابُ الأغنياء) .

وكان محمد بن يحيى بن خالد بخيلاً بالنسبة إلى أبيه وأخويه جعفر والفضل ، فسئل محمد بن علي عن مائتته ، فقال : صحافُها منقورة من خشب الخشخاش ، وبين الرغيف والرغيف ضربة كرة ، وبين اللون واللون فترة نبيي ، قيل : ومن يحضرها ؟ قال : خيرُ خلق الله وشرُّهم ، قيل : من هم ؟ قال : الملائكة والذباب ، قيل : أنت خاص به وثوبك مخرق ؟ فقال : والله ؛ لو ملك بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً ، ثم جاءه يعقوبُ النبي ومعه الملائكةُ شفعاء ، والأنبياءُ كفلاءً يسألونهُ إعرارةً إبرةً يخيِّطُ بها قميصَ يوسف الذي قد من دُبُرٍ . . ما فعل ، وقد نظم ذلك بعض الشعراء بقوله :

[من الكامل]

لَوْ أَنَّ دُورَكَ يَا بَنَ أَعْلَبَ كُلِّهَا
وَآتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً
إِبرٌ يَضِيقُ بِهَا رَحِيبُ الْمَنْزِلِ
مِنْهَا لَقَدْ قَمِصِيهِ لَمْ تَفْعَلِ

وقال الأصمعي : (قالت امرأة مدنية لزوجها : أشتري لي رطباً ، فقال لها : وكيف يُباع الرطب ؟ فقالت : كلُّ كيلجة بدرهم ، فقال : والله ؛ لو خرج الدجال ، وعاث في الأرض ، وأنت تتمخضين بعيسى ، والناس ينتظرون الفرج على يديه ، ثم لم تلبديه حتى تأكلي الرطب . . ما أشتريته لك كلَّ كيلجة بدرهم) .

وكان جعفر بن سليمان بخيلاً على الطعام ، رفعت المائدة من بين يديه يوماً وعليها دجاجة صحيحة ، فأخذ منها بعضُ بنيه جناحاً ، فلما أعيدت إليه بالغداة . . قال : من هذا

(١) البيتان في « الأغاني » (٣٣٢/٥) ، و« معجم الأدباء » (٣٤٧/٢) ، و« تاريخ بغداد » (١١/١٤) ، و« تاريخ دمشق » (١٥٢/٨) ، و« وفيات الأعيان » (٢٠٤/١) ، و« مرآة الجنان » (١١٥/٢) .

الذي تعاطى فعفر ، فقيل له : ولدك الصغير ، فقطع أرزاق جميع بنيه من أجله ؛ فلما طال ذلك وأضرّ بهم الحال . . جاء أكبرهم وقال : يا أبانا ؛ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فأعجبه ذلك ، وأمر بردّ أرزاقهم إليهم .

وقال بعض الأكياس : دعاني كوفي إلى منزله ، وقدم لي دجاجةً ، فأكلتُ مِنَ المَرَقَةِ ، وجهدتُ أن أكلَ مِنَ اللحمِ فما قدرت ، وبثُّ عنده ، فأعاده من الغد إلى القدر وطبخه وقدمه إليّ فأكلتُ مِنَ المَرَقِ ، وجهدتُ أن أكلَ مِنَ الدجاجةِ فما قَدَرْتُ لشدّته ، فبثُّ عنده الليلة الثانية ؛ فلمّا كان مِنَ الغد . . قال للغلام : أطرحْ على اللحمِ مِنَ المَرَقِ ليصير قليّة ، ففعل ، ثمّ قدّمه إليّ ، فأكلتُ مِنَ المَرَقِ ، وجهدتُ أن أكلَ مِنَ اللحمِ فلم أقدرُ لقوّته ، فأخذتُ قطعةً مِنَ اللحمِ ، ووضعتها إلى جهة القبلة ، وقمتُ لأصلي عليها ، فقال : ما هذا الذي تصنع ؟ فقلت : أشهد أنه لحمٌ وليّ من أولياء الله تعالى ؛ فإنه قد أُدخِلَ النارَ ثلاث مرّات ، فلم تفعل فيه شيئاً ، فلمّا أردتُ الانصراف . . وإذا ببعض جيرانه يدقُّ الباب ، فقال : أعرني ديك اللحم لضيفٍ لأطبخه له وأرُدّه إليك إن شاء الله تعالى ، فناوله إياه .

ومن نوادر القطان : أنه جلس يأكل هو وزوجته طعاماً ، فقال لها : أكشفي رأسك ، ففعلتُ ، وقرأ هو (سورة الإخلاص) ، فسألته زوجته عن ذلك ، فقال : المرأة إذا كشفت رأسها . . هربت الملائكة ، وإذا قرئت (سورة الإخلاص) . . هربت الشياطين ، وأنا أكره الزحمة على المائدة .

وقال الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه : (البخل جامع المساويء والعيوب ، وقاطع المودّات مِنَ القلوب) .

نسأله سبحانه وتعالى التوفيق لما يحبُّ ويرضى .

* * *

لَا تَقُلْ أَصْلِي وَفَضْلِي أَبَدًا إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَىٰ مَا قَدْ حَصَلَ

أي : لا تقل يكفيني شرف أصلي ؛ أي : والدي ، وفصلي ؛ أي : ولدي^(١) ؛ أي : لا تتكل على ما حصل لوالدك أو لولدك من الفضل والشرف ؛ لأنهما لا يُغنيان عنك من الله شيئاً ، بل حصل أنت شيئاً ينفك عند الله سبحانه وتعالى من الأعمال الصالحة ، فعليك بخاصة نفسك ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهِيَ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ . . لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »^(٢) أي : مَنْ قَصَرَ بِهِ عَمَلُهُ السَّيِّئِ . . لَمْ يَنْفَعِهِ شَرَفُ نَسَبِهِ ، ولم ينجزه نقصه به^(٣) ، فلا يلحقه نسبه برتب أصحاب الأعمال الكاملة ؛ لأنَّ المسارعة إلى السعادة إنما هي بالأعمال لا بالأنساب ؛ لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَتُونِي بِأَعْمَالِكُمْ وَلَا تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ »^(٤) .

(١) الأصل : أساس الشيء ، وكل ما يستند وجود ذلك الشيء إليه ، ومنه سمي الأب وإن علا أصلاً ، والفصل : القطع ، والمراد هنا : الفرع ، وهو الولد وإن سفل ؛ لأنه ينفصل عن أصله ، وهو الأب .

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٨٧) .

(٣) إذ في تقصير الولد مع كمال الأصل منقصة ؛ لأن شرف الأصل وصلاحه يستلزم شرف الفرع وصلاحه ، ولذا قال الله تعالى على لسان قوم السيدة مريم : ﴿ يَتَّخِذَ هُنُورًا مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْوًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ ، فإذا ما قصر . . لم ينجز بأصله ونسبه ما حصل له من النقص بسبب تقصيره ، بل كان سوء عمله قد جر المنقصة إليه من وجهين : أحدهما : في التقصير نفسه ، والثاني : أن مثله ممن شرف نسبه ونبل أصله وصلح أباه لا ينبغي أن ينزل عن مراتبهم ، ففي نزوله وتقصيره زيادة منقصة .

(٤) أخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢١٩) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٩٢٩) .

فإن قلت : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقَّانِ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا لَنَنْهَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ﴾ يدلُّ على أن شرف النسب ينفع ؛ فإن المفسرين فسروه بأن ذريات المؤمنين - صغراً كانوا أو كباراً - يلحقون بأبائهم في المراتب من غير أن ينقص من مراتب الآباء شيء ، وفي الحديث : « إن الله يرفعُ ذريةَ المؤمنِ في درجته وإن كانوا دونه ؛ لتقرَّ بهم عينُهُ » (١) اهـ ، ويؤخذ منه : أن الأب إذا كان دون ولده في الدرجة . . أنه يرفع في درجة ولده للعلَّة المذكورة ، فما وجه التوفيق بين هذا وبين حديث : « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ . . لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » ؟

فالجواب : أن المذكور في الآية وحديث : « إن الله يرفع ذريةَ المؤمن . . . » . . حتى تكون في درجته في الجنة ، والحديث المذكور ؛ وهو : « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ . . » . . محمولٌ على الصراط ، وفي لفظ الإبطاء والإسراع إشارةٌ لذلك ، ويؤيده ما روي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يَكُونُ رَجُلٌ هُوَ آخِرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَى الصِّرَاطِ ، فَيَلْتَفِتُ فَلَا يَرَى وَرَاءَهُ أَحَدًا ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ أَبْطَأْتُ بِِي ، فَيُنَادِيهِ : يَا عَبْدِي ؛ إِنِّي لَمْ أَبْطِءْ بِكَ ، وَإِنَّمَا أَبْطَأَ بِكَ عَمَلُكَ » (٢) اهـ

وقال في « غرر الخصائص الواضحة » ما نصَّه : (الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية ، وقالوا : شرف الإنسان بفضله لا بأصله ، وجلالته بأدبه لا بنسبه ، فأفتخر بالعلوم العالية لا بالعظام البالية ، وقالوا : مَنْ فَاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ . . لم ينفعه حسب أبيه .

ولله درُّ القائل :

وَمَا أَلْحَسُنُ فِي وَجْهِ أَلْفَتَى شَرَفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخَلَاتِي (٣)

وقالوا : الشرف بالفضل والأدب ، لا بالأصل والنسب .

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه الحاكم في « المستدرک » (٤٦٨/٢) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (١٦٦/١) .

(٢) هو قطعة من حديث الشفاعة الذي يرويه أبو الزعراء عن ابن مسعود موقوفاً عليه ، أخرجه بطوله الحاكم في « المستدرک » (٤٩٦/٤) ، وابن أبي شيبه في « المصنف » (٦٧٥/٨) ، والطبراني في « الكبير » (٣٥٤/٩) .

(٣) البيت للمتنبي في « ديوانه » (٣٢٠/٢) .

[من المنسرح]

يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي (١)

[من الطويل]

فَخَارُ الَّذِي يَبْغِي الْفَخَارَ بِنَفْسِهِ (٢) (٣)

* * *

وما أحسن ما قال بعضهم :

كُنْ أَبْنُ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدْبَاً
إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا

وأنشد الحريري فقال :

وَمَا الْفَخْرُ بِالْعَظْمِ الرَّمِيمِ وَإِنَّمَا

-
- (١) البيتان منسوبان لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في «ديوانه» (ص ٤٩) ، وبينهما :
فليس يُغْنِي الحسبَ نسبُهُ
بلا لسانٍ له ولا أدبِ (٢)
البيت في «مقامات الحريري» (ص ٢٥٣) .
(٣) «غرر الخصائص» (ص ٦٥-٦٦) و(ص ٩٧) .

قَدْ يَسْوُدُ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبِي .
وَبِحُسْنِ السَّبكِ قَدْ يُنْفَى الرَّغْلُ

أي : قد يشرف المرء من غير أب ؛ أي : من غير شرف أب ، وبحسن السبك قد ينفي الزغل ، قال في « المصباح » : (سَبَكْتُ الذهب سبكاً ، من باب قتل : أذبتُهُ وخلصتُهُ من رَغَلِهِ ، والسبيكةُ : القطعة المستطيلة ، والجمع : سبائك) اهـ

وقد أورد الناظم رحمه الله تعالى في هذا البيت والبيت الذي بعده أمثلةً قياسيةً يتمُّ بها الحجَّة على ما أدَّعاه^(١) ؛ من أنَّ السيادة والشرف قد يحصلان للإنسان دون آبائه وأجداده كرامةً من الله تعالى ، كما هو مشاهد ومعلوم بالضرورة ، فإنَّ نشاهدُ أشخاصاً كثيرين خصَّهم الله تعالى بالعلم والسيادة ومكارم الأخلاق ، ما لم يخصَّ به أحداً من آبائهم وأجدادهم ، ونشاهدُ أيضاً : أنَّ الفضة المغشوشة إذا صليت بالنار . . صَفَتْ مِنَ الْغِشِّ ، وَخَلَصَتْ مِنَ الرَّغْلِ ، فقد سادت على أصلها .

* * *

(١) إذ القياس تشبيه ، وهو هنا فيما يسوقه على سبيل التشبيه الضمني ، الذي يشتمل على دليل يؤكد الدعوى كي يقبس المتلقي شيئاً على آخر لجامع بينهما .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٤٤

وَكَذَا الْوَرْدُ مِنَ الشُّوكِ وَمَا يَطْلَعُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلٍ^(١)

أي : ومن الأمثلة : الورد المعلوم ؛ فإنه مع حسن نضارته وحمرة لونه وسلطته على الأزهار . . . يطلع من الشوك المؤذي طبعاً ، فمن المعلوم ضرورة : أنه قد ساد على أصله .
وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ . . . سَقَطَ عَلَيَّ الْأَرْضُ مِنْ عَرْقِي ، فَنَبَتَ مِنْهُ الْوَرْدُ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَشُمَّ رَائِحَتِي . . . فَلْيَشُمَّ الْوَرْدَ » أخرجه ابن عدي في « كامله »^(٢) .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً : « الْوَرْدُ الْأَبْيَضُ خُلِقَ مِنْ عَرْقِي لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ ، وَالْوَرْدُ الْأَحْمَرُ خُلِقَ مِنْ عَرْقِ جَبْرِيلَ ، وَالْوَرْدُ الْأَصْفَرُ خُلِقَ مِنْ عَرْقِ الْبُرَاقِ » أخرجه ابن فارس في « كتاب الريحان »^(٣) .

وروى ابن العديم في « تاريخه »^(٤) بسنده إلى علي بن عبد الله الهاشمي قال : (دخلت الهند فرأيت في بعض قراها وردة كبيرة طيبة الرائحة سوداء مكتوباً عليها بخط أبيض : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق ، فشككت في ذلك وقلت : إنه معمول ، فعمدت إلى وردة أخرى لم تفتح ففتحتها ، فكان فيها مثل ذلك) .

وقوله : (يطلع) هو بضم اللام ، من باب (قعد) كما في « المصباح » .

- (١) في رواية : (ينبت) بدل : (يطلع) .
- (٢) « الكامل » (٣٤٢/٢) ، وأخرجه أيضاً ابن حبان في « المجروحين » (٨١/٢) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٥٦/٢) .
- (٣) أورد سند ابن فارس في « الريحان والراح » ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٥٧/٢) ، ساق الحديث بطرقه ورواياته ، وانظر « كشف الخفاء » (٢٥٨/١) .
- (٤) في الأصل : (وروى ابن القيم) ، والصواب : ابن العديم في « تاريخه » المسمى : « بغية الطلب في تاريخ حلب » (٢٢٥٥/٥) ، والله أعلم .

ومنها أيضاً : النَّرْجِس ، وهو بكسر النون والجيم على المشهور المختار ، ويجوز فتحها مع كسر الجيم أيضاً كما في « المصباح » ، وهو زهر ذكيُّ الرائحة ، ومع ذكاء رائحته وصفاء لونه ونضارته يطلع من البصل ، وهو خبيثٌ طعماً ورائحةً ، فمعلومٌ ضرورةً أيضاً : أنه ساد عن غير أصل .

وممَّا جاء في النرجس : ما ورد عن عليِّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : (شُمَّوا النرجس ولو في اليوم مرّة ، ولو في الشهر مرّة ، ولو في الدهر مرّة ؛ فإنَّ في القلب حبةً من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شَمُّ النرجس)^(١) .

وقال بقراط : (كلُّ شيء يغذو الجسم ، والنرجس يغذو العقل) .

وقال الحسن بن سهل : (مَنْ أَدَمَنَ شَمَّ النرجس في الشتاء . . أَمِنَ مِنَ البرسام في الصيف)^(٢) .

وقال بعض ظرفاء الأدباء : (النرجس نُزْهَةٌ الطَّرْفِ ، وَظَرْفُ الطَّرْفِ ، وَغِذَاءُ الرُّوحِ ، وَمَادَّةُ الرُّوحِ) .

وقال كِسْرَى : (إِنِّي لَأَسْتَحِي أَنْ أَبَاضِعَ - أَي : أَجَامِعَ - فِي مَجْلِسٍ فِيهِ النرجس ؛ لِأَنَّهُ أَشْبَهَ شَيْءَ بِالْعِيُونِ النَّاطِرَةِ)^(٣) .

وفيه يقول الشاعر :

وَإِذَا قَضَيْتَ لَنَا بَعَيْنَ مُرَاقِبٍ فِي الْحُبِّ فَلْتَكُ مِنْ عِيُونِ النَّرْجِسِ^(٤)

(١) أخرجه الدلمي في « الفردوس » (٣٥٨٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/١٤) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٥٦/٢) ، وانظر « تلخيص الموضوعات » (ص ٢٦٩) .

(٢) أورده ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (١٢٣/٢) .

(٣) ذكره الثعالبي في « لطائف اللطف » (ص ٣٢) .

(٤) البيت لابن الدباغ المصري علي بن الحسين ، كما في « المثل السائر » (٣٠١/٢) ، و« خزانة الأدب » للحموي (٤٣٢/١) ، وقبله :

يَا رَبِّ إِنْ قَدَّرْتَهُ لِمُقَبِّلٍ غَيْرِي فَلَا قُدَاحَ أَوْ لَأَكْوَسِ

وقال الشاعر :

[من البسيط]

قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي تَشْبِيهِهِمْ أَبَدًا لِلنَّرْجِسِ أَلْغَضُّ بِالْأَجْفَانِ وَالْحَدَقِ
وَمَا أَشْبَهُهُ بِالْعَيْنِ إِذْ نَظَرَتْ لَكِنْ أَشْبَهُهُ بِالْعَيْنِ وَالْوَرَقِ^(١)

وذكر بعضهم : أنه نافع من البلغم ومن الصداع البارد ، ومن سائر الأمراض الباردة . من

« حاشية سيدي أحمد السجاعي على القطر » .

وقال الجلال السيوطي : رثي أبو نؤاس في النوم ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

[من الوافر]

غفر لي بأربعة أبيات قلتها في النرجس ؛ وهي :

تَأْمَلُ فِي رِيَاضِ الْأَرْضِ وَأَنْظُرُ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكَ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنِ شَاخِصَاتٍ بِأَحْدَاقِ هِيَ الْأَذْهَبُ السَّيِّكُ
عَلَى قُضْبِ الزَّبْرَجِدِ شَاهِدَاتٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ
وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدٌ رَسُولٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ أَرْسَلَهُ الْمَلِيكَ^(٢)

فَصَائِلٌ

[في بيان ما بقي من الأمثلة التي ساد فيها الشيء على أصله]

بقي من الأمثلة التي ساد فيها الشيء على أصله شيان لم يذكرهما الناظم :

أحدهما : العسل ؛ فإنه مع صفاء لونه وحلاوة طعمه وشفاء الناس به . . يخرج من بطون
ذباب النحل ، فمعلومٌ : أنه ساد عن غير أصل .

ثانيهما : الحرير بجميع أنواعه ؛ من إبريسم وديباج وغير ذلك ؛ فإنه مع نعومته وغلاء
ثمنه^(٣) ومنافعه العامة التي لم توجد في غيره . . يخرج من دودة ضعيفة دقيقة الجسم جداً ،
فمعلومٌ : أنه ساد عن غير أصل .

(١) البيتان للشهاب التلعفري كما في « الوافي بالوافيات » (٣٣٧/٣) .

(٢) الأبيات عدا الأخير أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦٥/١٣) ، وقد خمس عليها عمر الأنسي .

(٣) في الأصل : (وغلو ثمنه) ، والصواب ما أثبت ، يقال : غلا السعر وغيره يَغْلُو غَلَاءً : ارتفع سعره ، وغلا في الدين
والأمر يَغْلُو غُلُوءًا ، وغالي في أمره مغلاةً : جاوز فيه الحد وأفرط فيه .

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

إِنْ تَكُنْ مِمَّنْ بِأَصْلِ كَرْمَا فَمِنَ النَّحْلِ شِفَاءً عَلِمَا
وَمِنَ الْدُّودِ حَرِيرٌ أَحْكَمَا وَكَذَا الْوَزْدُ مِنَ الشُّوكِ وَمَا
يَطْلُعُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلٍ^(١)

* * *

(١) « تخميس الملاح » (ص ١٠) ، وفيه : (ينبت) بدل : (يطلع) .

مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَيَّ نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكْرٍ اتَّصَلُ

أي : لا تتوهم أيها السامع أن قولي لك : (لَا تَقُلْ أَصْلِي ...) ناشىء عن عدم اتّصالِ نسبي بأصلِ شريف ، بل هو من النصحية المأمور بها ، وإلا.. فأنا أحمد الله سبحانه وتعالى ؛ فإنّ نسبي متّصلٌ بأفضل الأولين والآخريين بعد النبيين والمرسلين ؛ وهو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وتحدّثتُ بذلك ؛ أمثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

وإنّما حمّد الله تعالى على المنعم به ؛ أي : في مقابلته لا مطلقاً ؛ لأنّ الأوّل واجبٌ ، والثاني مندوبٌ^(١) ، واتّصال نسبه رضي الله تعالى عنه بأبي بكر رضي الله تعالى عنه صحيحٌ لا خلاف فيه .

وأما أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فهو الإمام الأفضل والخليفة الأكمل عبد الله بن عثمان - المكنى بأبي قحافة - ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة - يلتقي مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في مرّة - ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وأُمّه : أمّ الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب التيمي ، أسلم هو وأبوه وأُمّه ، وفي

(١) المراد من كلامه : أنّ الحمد فيه بحث من جهة التقسيم ، ومن جهة الوجوب ؛ أما من جهة التقسيم . . فينقسم إلى مطلق ومقيّد ؛ فالمطلق : هو ما كان الباعث فيه نعمة واصله لغير الحامد ، أو كان الباعث وصفاً كمالياً قائماً بالمحمود ؛ كالعلم مثلاً ، فالحمد علىّ هذا النحو يكون حمداً مطلقاً في غير مقابلة نعمة ، وأما المقيّد : فما كان في مقابلة نعمة واصله للحامد ، فيكون الحمد علىّ هذا النحو مقيّداً علىّ أنّ الباعث له هو نعمة واصله للحامد ، وأما الوجوب : فالمقيّد واجب بخلاف المطلق ، ولا يتعين لفظ الحمد ، وإنما إن وقع بلفظ الحمد . . كفى ، لهذا في حق الحمد للغوي ، وأما العرفي . . فلا يتأدّى بمطلق القول ؛ إذ هو صرف الإنسان كلّهُ وجميع أعضائه له ، فلا يخرج من عهدة الطلب بمجرد الذكر اللساني . وانظر « تفسير الفاتحة الكبير » لابن عجيبة (ص ١٧٣) .

أولاده وأولادهم مَنْ عُدَّ مِنَ الصحابة ؛ منهم : عبد الله بن الزبير ، أمُّه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، ولُقِّبَ بالصدِّيق ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلَ رَجُلٍ آمَنَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدَّقَ بِهِ ، وَلُقِّبَ بِعَتِيقٍ أَيْضاً ؛ لَعَتَقَهُ مِنَ النَّارِ^(١) ، وَهُوَ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ^(٢) ، فَمَنْ أَنْكَرَ صَحْبَتَهُ . . كَفَرَ ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنْ بَقِيَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَقَدْ شَبَّهَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِيكَائِيلَ فِي الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَبِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي الْوَقَارِ وَالْعَفْوِ^(٣) .

وفي الحديث : أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتِ عَلَيَّ أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ »^(٤) .

ونزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا رسول الله ؛ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَكَ : أَنَا رَاضٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ، فَهَلْ هُوَ رَاضٍ عَنِّي ؟)^(٥) .

وأخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَتَانِي جِبْرِيلُ أَنْفًا ، فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ ؛ حَدِّثْنِي بِفَضَائِلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ : لَوْ حَدَّثْتُكَ بِفَضَائِلِ عُمَرَ مَا لَبِثَ^(٦) نُوحٌ فِي قَوْمِهِ . . مَا نَفِدَتْ فَضَائِلُ عُمَرَ ، وَإِنَّ عُمَرَ حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِ أَبِي بَكْرٍ »^(٧) .

- (١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند الحاكم في « المستدرک » (٤١٥ / ٢) ، والترمذي (٣٦٧٩) ، وأبو يعلى (٤٨٩٩) في « مسنده » : أَنْ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « أَنْتَ عَتِيقُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ » .
- (٢) وهو قوله تعالى في (سورة التوبة) : ﴿ إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ الآية .
- (٣) والحديث عند اللالكائي في « السنة » (٢٥١٣) ، وأبي نعيم في « الحلية » (٣٠٤ / ٤) ، والطبراني في « الكبير » (٣١٥ / ٢٣) .
- (٤) أخرجه اللالكائي في « السنة » (٢٤٣٣) ، وأحمد في « فضائل الصحابة » (١٣٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٢٥ / ٣) .
- (٥) لفظ الحديث كما أخرجه ابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٦١ / ٣٠) وغيره : « كَلِمًا هَبَطَ جِبْرِيلُ عَلَيَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ اللَّهُ يَقْرَأُ بِكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ : أَقْرَىءَ أَبَا بَكْرٍ السَّلَامَ ، وَقَالَ لَهُ : أَسَاخِطُ فَأَرْضِيكَ ؟ » ، فَقَالَ : عَلَيَّ مِنْ أَسَخِطَ يَا رَسُولَ اللَّهِ !؟ أَنَا عَنْهُ رَاضٍ ، فَهَلْ هُوَ عَنِّي رَاضٍ ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « هُوَ عَنْكَ رَاضٍ » ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .
- (٦) في الأصل : (منذ ما لبث) .
- (٧) أخرجه اللالكائي في « السنة » (٢٤٣١) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٦٠٣) ، والرويان في « مسنده » (١٣٤٢) ،

وأخرج أبو يعلى أيضاً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ ، فَمَا مَرَزْتُ بِسَمَاءٍ إِلَّا وَجَدْتُ فِيهَا أَسْمِي ؛ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ خَلْفِي » (١) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَلَوْ أَنَّا كُنِينَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . . قال أبو بكر : يا رسول الله ؛ لو أمرتني أن أقتل نفسي . . لفعلت ، قال : « صَدَقْتَ » (٢) .

وروى ابنُ عساکرَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « خِصَالُ الْخَيْرِ ثَلَاثٌ مِثَّةٌ وَسِتُّونَ خِصْلَةً ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا . . جَعَلَ فِيهِ خِصْلَةً مِنْهَا يُدْخِلُهُ بِهَا الْجَنَّةَ » ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَفِي شَيْءٍ مِنْهَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، كُلُّهَا فِيكَ ، فَهَنِيئًا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ » (٣) .

وأخرج ابن عساکرَ عن عائشة مرفوعاً : « النَّاسُ كُلُّهُمْ يُحَاسِبُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ » (٤) .

وقال عمر بن الخطاب : (لو وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ . . لَرَجَحَ بِهِمْ) (٥) .

وقال : (وَدِدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي صَدْرِ أَبِي بَكْرٍ) (٦) .

وقال عليُّ رضي الله تعالى عنه : (خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، لَا يَجْتَمِعُ حُبِّي وَبَغْضُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ) (٧) .

وابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٣٩ / ١) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٣٤٦ / ١) .

(١) أخرجه أبو يعلى في « مسنده » (٦٦٠٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٢١١٣) ، وابن عدي في « الكامل »

(١٩٠ / ٤) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٢٠٣ / ٣٠) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٣٦ / ١) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٥٦٦) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٩) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (١٠٤ / ٣٠) .

(٤) أخرجه ابن عساکر في « تاريخ دمشق » (١٥٢ / ٣٠) ، وأبو الشيخ في « طبقات المحدثين بأصبهان » (٢٩٦) .

(٥) أخرجه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (٦٧١ / ٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٥) ، وأحمد في « فضائل الصحابة »

(٦٥٣) .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في « كتاب المتمنين » (٨٦) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٣٤٣ / ٣٠) .

(٧) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣٩٣٢) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٣٥٦ / ٣٠) .

وقال عليٌّ أيضاً : (لا يُفْضَلُنِي أَحَدٌ عَلَيَّ أَبِي بَكْرٍ . . . إِلَّا جَلَدَتْهُ جِلْدَ الْمُفْتَرِي) (١) .

وقال أبو بكر بن عياش : (سألتني الرشيد وقال لي : يا أبا بكر ؛ كيف أستخلف الناس أبا بكر الصديق ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ سكت الله ، وسكت رسوله ، وسكت المؤمنون ، فقال : والله ؛ ما زدني إلا أعمى ، قلت : يا أمير المؤمنين ؛ مرض النبيُّ صلى الله عليه وسلم ثمانية أيّام ، فدخل بلال عليه فقال : يا رسول الله ؛ مَنْ يَصَلِّي بالناس ؟ قال : « مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ » ، فصلَّى أبو بكر بالناس ثمانية أيّام والوحي ينزل ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسكوت الله ، وسكت المؤمنون لسكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعجبته فقال : بارك الله فيك) (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : (لَمَّا قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . أَرْتَجَّتْ مَكَّةُ ، فَسَمِعَ أَبُو قُحَافَةَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : أَمْرٌ جَلِيلٌ ، فَمَنْ قَامَ بِالْإِمَامَةِ بَعْدَهُ ؟ قَالُوا : أَبْنُكَ ، فَقَالَ : هَلْ رَضِيتُ بِذَلِكَ بَنُو عَبْدِ مَنْفٍ وَبَنُو الْمُغِيرَةِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : اللَّهُمَّ ؛ لَا وَاضِعْ لِي مَا رَفَعْتَ ، وَلَا رَافِعَ لِي مَا وَضَعْتَ) (٣) .

وقال مصعب بن الزبير : (كانت لأبي بكر في الإسلام المواقف الرفيعة : منها قصّة ليلة الإسراء وثباته وجوابه للكفار في ذلك ، وهجرته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك عياله وأطفاله وملازمته له في الغار ، ثمّ كلامه يوم بدر ويوم الحُدَيْبِيَّةِ حينَ أشتبه عليٌّ غيره الأمر في تأخّره عن دخول مَكَّة ، ثمّ بكاءه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » (٤) ، ثمّ ثباته في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطبته الناس وتسكينهم ، ثمّ قيامه في قضية البيعة بمصلحة المسلمين ، ثمّ أهتمامه وثباته

(١) أخرجه أحمد في « فضائل الصحابة » (٤٩) و(٣٨٧) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (٣٥٨) ، والخطيب في « الكفاية » (ص ٣٧٦) .

(٢) أخرج القصة ابن عدي في « الكامل » (٢٦/٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩٨/٣٠) ، وحديث أن بلالاً رضي الله عنه جاءه فقال : « مروا أبا بكر يصلي بالناس » أخرجه البخاري (٧١٣) ، ومسلم (٩٥/٤١٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٢٤٥/٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥٩/٣٠) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٠٤) ، ومسلم (٢٣٨٢) .

في بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام ، ثم قيامه في قتال أهل الردّة^(١) ، وكم للصديق رضي الله تعالى عنه من مواقف ومآثر ومناقب وفضائل لا تحصى) .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها : أن رجلاً قال لها : صفي لنا أبا بكر ، فقالت : (رجل أبيض نحيف ، خفيف العارضين)^(٢) .

وعن عائشة أيضاً قالت : (كان أوّل بدء مرض أبي بكر أنه اغتسل يوم الإثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوماً بارداً ، فحُمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة ، وتوفي ليلة الثلاثاء لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة ، مثل عُمر النبي صلى الله عليه وسلم)^(٣) .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : (تمثّلتُ بهذا البيت وأبو بكر في النزاع : [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

فقال أبو بكر : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٤) .

وكفّن رضي الله عنه في ثوبين قديمين بأمره وقال : (إن الحيّ أحوج إلى الجديد من الميت)^(٥) ، وأوصى أن تُغسله امرأته أسماء بنت عميس ، ويُعينها عبد الرحمن بن أبي بكر^(٦) ، ونزل في حفرته عمر وطلحة وعثمان وعبد الرحمن بن أبي بكر ، ودُفن ليلاً

(١) ثم تجهيزه الجيوش إلى الشام لفتوحه وإمدادهم بالأمداد ، ثم ختم ذلك بهم من أحسن مناقبه وأجل فضائله ؛ وهو استخلافه على المسلمين عمر رضي الله عنه وتفرضه فيه ووصيته له .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٥٦/١) ، وابن سعد في « الطبقات » (١٨٨/٣) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٢٨/٣٠) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٦٣/٣) ، وابن سعد في « الطبقات » (٢٠٢/٣) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٤٠٩/٣٠) .

(٤) أخرجه أحمد (٧/١) ، والبخاري في « مسنده » (٥٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٨١/٦) و (٤٧٧/٧) ، وابن سعد في « الطبقات » (١٩٧/٣) ، والبيهقي في « السيرة النبوية » (٢٠٢/٣) . وثمّال اليتامى : غيائهم وملجؤهم والقائم بأمرهم .

(٥) أخرجه البخاري (١٣٨٧) ، وأحمد (٤٥/٦ و ١٣٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٤٤٥١) .

(٦) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٦٣/٣) ، والبيهقي (٣٩٧/٣) .

بجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجُعل رأسه عند كتفيه صلى الله عليه وسلم^(١) .
ومات والده أبو قحافة بعده بستة أشهر وأيام في المحرم سنة أربع عشرة وهو ابن سبع
وتسعين سنة^(٢) ، رضي الله تعالى عن هذا الولد ووالده ، ونفعنا ببركة هذا البيت في
الدارين آمين .

* * *

(١) أخرجه ابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٤٥٣ / ٣٠) .
(٢) ذكره ابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٤٦١ / ٣٠) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٤٦

قِيَمَةُ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ أَكْثَرَ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَوْ أَقْلُ

هذا البيت مأخوذ من قول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (لكل شيء قيمة ، وقيمة المرء ما يحسنه)^(١)

والقيمة كما في « المصباح » : (الثمن الذي يقاوم المتاع ؛ أي : يقوم مقامه ، والجمع : قيم ؛ مثل سِدْرَةٍ وَسِدْر) ، ولكن المراد من النظم : أن رفعة الإنسان وشرفه على قدر ما يحسنه ؛ أي : يعرفه ويتقنه من العلوم والصنائع ؛ إن قليلاً . . فقليل ، وإن كثيراً . . فكثير ، كما قال الناظم : (أكثر الإنسان منه أو أقل) ، وأظهر في مقام الإضمار ؛ لضرورة النظم^(٢) .

ودلّ قوله تعالى : ﴿ تَعَلَّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَاكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ ﴾ على أن للكلب المعلم فضيلة على غيره من سائر الكلاب ؛ فالإنسان إذا كان له علم . . فأولى أن يكون له فضل على غيره .

[من البسيط]

وما أحسن ما قيل :

فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ
وَأَلْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ^(٣)

فَأَفْخَرُ بِلَعْمٍ وَلَا تَجْهَلُ بِهِ أَبَدًا
وَقِيَمَةُ الْمَرْءِ مَا قَدْ كَانَ يُحْسِنُهُ

- (١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٣٨/٥) ، وهو عند ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٠٨) .
- (٢) أي : أظهر الفاعل وهو الإنسان ؛ لأن الأولى أن يضم فيقول : (قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر منه أو أقل) ؛ إذ مبنى لغة العرب على الاختصار وعدم التطويل والتكرار ، ولكن إنما ذكر الفاعل هنا لضرورة الشعر .
- (٣) البيتان مما ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهي في « ديوانه » (ص ١٨) ، ونسبها الجرجاني في « أسرار البلاغة » (ص ٢٦٤) إلى محمد بن الربيع الموصلي ، ونسبها الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٥٧/٥) إلى أبي عبد الرحمن مؤذن المأمون ، وتمام الأبيات كما في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٥) ، و« الفقيه والمتفقه » (١٥٠/٢) .

وهذا بالنظر للحوادث ، وأما بالنظر للمولى سبحانه وتعالى . . فإن رفعة كل إنسان عنده على قدر الأعمال الصالحات ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فإن قيل : قد ورد : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ » ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » (١) .

فالجواب عنه : أن نفس الدخول لا يكون بالأعمال ، وإنما هو بفضل الله ورحمته ، وأما غير الدخول ؛ كالغرف والقصور والحدائق والولدان وغير ذلك مما أعده الله تعالى من الخيرات لعباده المؤمنين في الجنة . . فهو على قدر الأعمال الصالحات ، أكثر الإنسان منها أو أقل .

* * *

أبـوهـمـمُ آدمُ والأُمُّ حـواءُ
وأعظـمُ خُلقت فيهم وأعضاءُ
يفـاخـسـرون به فالطينُ والماءُ
على الهدى لمن أستهدى أدلاءُ
وللرجال على الأفعال أسماءُ
والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
فالناسُ موتى وأهل العلم أحياءُ

الناسُ في جهة التمثيل أكفاءُ
نفسٌ كنفيسٍ وأرواحٌ مشاكلةُ
فإن يكن لهم من أصلهم شرفُ
ما الفضلُ إلا لأهل العلم إنهم
وقدرُ كلِّ أمرىءٍ ما كان يُحسُّهُ
وضدُّ كلِّ أمرىءٍ ما كان يجهلُهُ
فمَنْ بعلمٍ ولا تطلبُ به بدلاً

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) .

أَكْتُمِ الْأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَىً وَآكُسِبِ الْفُلْسَ وَحَاسِبَ مَنْ بَطَلُ

أَكْتُمُ - بضمّ الهمزة والمثناة الفوقية - : فعلٌ أمرٌ ، وحركٌ بالكسر لالتقاء الساكنين ،
والأمرين : مفعول به منصوب ، وعلامة نصبه الياء ؛ لأنه مثنيٌ ، وفقراً وغيًى : بدل من
(الأمرين) ، وآكسب - بكسر السين المهملة - أي : أكتسب الفلّس - بفتح الفاء وسكون
اللام - وأربحه ولا تستقلّه ، وحاسب من بطل : أي : الذي بطل ؛ أي : شجع ، ولا تفت
له مالكٌ خوفاً منه^(١) قال في « المصباح » : (رجلٌ بطلٌ ؛ أي : شجاع ، والجمع :
أبطال ؛ مثل : سبب وأسباب) اهـ

فيستحبُّ للفقير أن يكتُم فقره عن الناس ، بمعنى : أنه لا يظهر الفقر والمسكنة على جهة
التضجّر ؛ فإنَّ الفقر شعار عباد الله الصالحين .

(روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث الفقراء رسولاً إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إني رسول الفقراء إليك ، فقال :
« مَرَحَباً بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ ، جِئْتَ مِنْ عِنْدِ قَوْمٍ أَحَبَّهُمُ اللَّهُ » ، فقال : يا رسول الله ؛
إنَّ الأغنياء قد ذهبوا بالخير كلّه ؛ هم يحجّون ونحن لا نقدر عليه ، ويتصدّقون ونحن
لا نقدر عليها ، ويعتقون ونحن لا نقدر عليه ، فإذا مرضوا . . بعثوا بفضل أموالهم ذخرأ ،
فقال صلى الله عليه وسلم : « بَلِّغْ عَنِّي الْفُقَرَاءَ : أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ مِنْكُمْ وَأَحْتَسَبَ ثَلَاثَ خِصَالٍ ،
لَيْسَ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنْهَا شَيْءٌ » :

أَمَّا الْخِصْلَةُ الْأُولَى : فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةً مِنْ يَاقوتَةِ حَمْرَاءَ ، يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا
يَنْظُرُ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى النَّجُومِ ، لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَبِيٌّ فَقِيرٌ ، أَوْ شَهِيدٌ ، أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ .

(١) لعل مراد الإمام ابن الوردي رحمه الله تعالى من قوله : (بطل) غير ما ذكره الشارح : أنه من البطولة ؛ فالفعل منه بطلٌ ،
يقال : بطل الرجلُ : إذا شجع ، وإنما مراده : أنه من البطالة ؛ يقال : بطل الأجيرُ يبطلُ بطلاةً وبطالةً : إذا تعطل وترك
العمل ، فكانه قال : عليك بالكسب ولو قليلاً ، ولا تلتفت إلى أهل البطالة وعُدِّ باللوم عليهم .

والثانية : يدخلُ الفقراءُ الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بنصفِ يومٍ ، وهو مقدارُ خمسِ مئةِ عامٍ ، يتمتَّعونَ فيها كيفَ شأؤوا ، ويدخلُ سليمانُ بنُ داودَ عليه السَّلامُ بعدَ دخولِ الأنبياءِ عليهم الصَّلَاةُ والسَّلامُ الجنةَ بأربعينَ سنةً ، وذلكَ بسببِ ما أعطاهُ اللهُ تعالى في الدُّنيا .

والثالثةُ : إذا قالَ الفقيرُ : سُبْحَانَ اللهِ ، والحمدُ لله ، ولا إلهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ مخلصاً ، ويقولُ الغنيُّ مثلَ ذلكَ مخلصاً . لَمْ يَلْحَقِ الغنيُّ الفقيرَ وإنْ أنْفَقَ الغنيُّ مَعَهَا عشرةَ آلافِ درهمٍ ، وكذلكَ أعمالُ البرِّ كُلُّها ، فرَجَعَ إليهمُ الرسولُ وأخبرهم بذلك ، فقالوا : رضينا يا ربِّ ، رضينا يا ربِّ^(١) .

وروي : أنَ الملائكةَ تقول : يا ربِّ ؛ عبدك الكافر تبسط له الدنيا وتزوي عنه البلاء !؟ فيقول اللهُ تعالى للملائكةَ : أكشفوا لهم عن عقابه ، فإذا رأوه . قالوا : يا ربِّ ؛ لا ينفعه ما أصابه مِنَ الدنيا ، ويقولون : يا ربِّ ؛ عبدك المؤمن تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء !؟ فيقول اللهُ للملائكةَ : أكشفوا لهم عن ثوابه ، فإذا رأوه . قالوا : يا ربِّ ؛ لا يضرُّه ما أصابه مِنَ البلاء .

وروي الحسن عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : « أَكْثَرُوا مَعْرِفَةَ الْفُقَرَاءِ وَأَتَّخِذُوا عِنْدَهُمُ الْيَأَدِي ؛ فَإِنَّ لَهُمْ دَوْلَةً » ، قالوا : يا رسولَ اللهُ ؛ وما دولتهم ؟ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . . قِيلَ لَهُمْ : أَنْظَرُوا مَنْ أَطْعَمَكُم كَسْرَةً ، وَمَنْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً ، وَمَنْ كَسَاكُمْ ثَوْبًا ، فَخُذُوا بِيَدِهِ ، ثُمَّ امْضُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ »^(٢) .

وعن الضحاک قال : مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَرَأَى شَيْئًا يَشْتَهِيهِ فَصَبَرَ وَأَحْتَسَبَ . . كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ يَنْفِقُهَا كُلَّهَا فِي سَبِيلِ اللهِ (اهـ مِنْ « تَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ »^(٣)) .

ويستحبُّ للفقير أيضاً : أن يكون صابراً ؛ للأحاديث السابقة ، ولئلاً يشمت به أعداؤه ، وأن يتعفَّفَ عن سؤالِ الناسِ ما أمكن ؛ فقد مدح اللهُ تعالى الفقراءَ الموصوفين بذلك ، قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ ﴾ أي : بحالهم ﴿ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ ﴾ .

(١) رواه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٢٢٨) .

(٢) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (٢٣١) ، والنرسي في « قضاء الحوائج » (٣٩) وردّه ، وانظر « نقد المنقول » (ص ١٣٢) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (ص ٢٢٨-٢٣٢) .

وكان أبو ذر رضي الله تعالى عنه إذا سقط سوطه من يده . . يكره أن يقول لأحد :
ناولنيه .

وأعلم : أن الفقر على قسمين : خاص وعام ؛ فالعالم : هو احتياج الخلق كلهم إلى الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي : أنتم المحتاجون إلى الله والله غني عنكم ، وأما الفقر الخاص . . فهو الأمور بكمته .

ويستحب للغني أيضاً : أن يكرم غناه ؛ لما ينشأ عنه من التفاخر والتعظيم والخيلاء الذي هو من شأن ذوي الأموال ، ولما يلحقه أيضاً بسبب الإظهار من الحسد وتسليط الظلمة والصوص عليه . اهـ ؛ ولذلك روي عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما أنه قال لجلسائه : ما العافية فيكم ؟ فقال كل واحد منهم شيئاً ، فقال معاوية : (العافية للرجل في أربعة أشياء : بيت يأويه ، وعيش يكفيه ، وزوجة ترضيه ، ونحن لا نعرفه فنؤذيه) يعني : لا يعرفه السلطان .

وروي عن سفيان الثوري أنه قال : (نعمتان إن رزقهما الله تعالى لك . . فأحمد الله تعالى عليهما وأشكره : أجتنبك باب السلطان ، وأجتنبك باب الطبيب) اهـ

وأختلف العلماء رضي الله تعالى عنهم في الفقر والغنى أيهما أفضل ؟

فالأكثر على أن الفقر أفضل من الغنى إذا كان مقروناً بالرضا ، ولذلك اختاره صلى الله عليه وسلم حين عرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض ، فقال : « يَا جَبْرِيلُ ؛ أريدُ أَنْ أَجُوعَ يوماً وَأَشْبَعَ يوماً ، فَإِذَا جِئْتُ تَصَرَّعْتُ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَإِذَا شَبِعْتُ . . حَمِدْتُهُ وَشَكَرْتُهُ » (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ؛ أَحْيِنِي مِسْكِيناً ، وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً ، وَأَحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » (٢) ، قال بعض العارفين : لو سأل الله تعالى أن يحشر المساكين في زمرة . . لكان لهم الفخر العظيم ، فكيف وقد سأله أن يحشره في زمرةهم ؟!

(١) سبق تخريجه (ص ١٩٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٢٢/٤) ، والترمذي (٢٣٥٢) ، وابن ماجه (٤١٢٦) ، والبيهقي في «السنن» (١٢/٧) .

وذهب آخرون إلى أن الغني أفضل من الفقر ، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم :
« أَلَيْدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ أَلَيْدِ السُّفْلَى » (١) .

وأختلف أيضاً هل الفقير الصابر أفضل أم الغني الشاكر ؟

ف قيل : الفقير الصابر أفضل ؛ لخلو يده من الدنيا الملهية عن الله عز وجل ، ولما يلحقه
من المشقة الشديدة التي يوشك أن يكون الفقر بسببها كفراً .

وقيل : الغني الشاكر أفضل ؛ لما فيه من السعة والاعتراف بنعمة الله عليه ، والبر
والمواساة والإحسان إلى الفقراء والمساكين . اهـ

قال في « الجامع الصغير » : عنه صلى الله عليه وسلم : « أَطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ
أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ ، وَأَطْلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ » (٢) .

قال في « الفتح » : (ليس قوله : « أَطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ » يوجب
فضل الفقير على الغني ، وإنما معناه : أن الفقراء في الجنة أكثر من الأغنياء ، وليس الفقر
أدخلهم الجنة ، وإنما دخلوا بصلاحهم مع الفقر ؛ فإن الفقير إذا لم يكن صالحاً . لا يفضل
على الغني ، لكن ظاهر الحديث : التحريض على ترك التوسع من الدنيا ، كما أن فيه
تحريض النساء على المحافظة على أمر الدين ؛ لثلاً يدخلن النار) (٣) .

فإن قلت : هذا الحديث ينافيه حديث أبي يعلى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في
صفة أدنى أهل الجنة : « فَيَدْخُلُ الرَّجُلُ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِئُ اللَّهُ ، وَزَوْجَتَيْنِ
مِنْ وَلَدِ آدَمَ » (٤) ؛ فإن مقتضى هذا الحديث : أن النساء في الجنة أكثر من الرجال .

ويجاب : بأن كون النساء أكثر أهل النار في أول الأمر قبل خروج العصاة منهن من النار
بالشفاعة (٥) .

(١) سبق تخريجه (ص ١٩٢) .

(٢) « الجامع الصغير » (١١١٧) ، والحديث أخرجه البخاري (٣٢٤١) ، ومسلم (٢٧٣٧) .

(٣) « فتح الباري » (٢٧٩/١١) .

(٤) هو قطعة من حديث الصور الذي أخرجه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (١٠) ، والطبراني في « الطوال » (٣٦) ،
وأبو الشيخ في « العظمة » (٣٨٦) ، وعزاه السيوطي في « الدر المنثور » (٢٥٦/٧) ، وابن حجر في « الفتح »
(٣٦٨/١١) إلى أبي يعلى في « الكبير » .

(٥) قال الحافظ في « الفتح » (٣٢٥/٦) : (ويجاب : بأنه لا يلزم من أكثريتهن في النار نفي أكثريتهن في الجنة) .

ويجاب أيضاً : بأن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : تحريضُ النساء على المحافظة على أمر الدين ؛ لئلاً يدخلن النار كما تقدم .

وأجاب شيخ الإسلام زكريا الأنصاري : بأن المراد بكونهنَّ أكثر أهل النار : نساء الدنيا ، وبكونهنَّ أكثر أهل الجنة : نساء الآخرة ، فلا تنافي . اهـ من « العلقمي على الجامع الصغير »

لكن جواب شيخ الإسلام لا يتأتى مع قوله صلى الله عليه وسلم : « وَرَوَّجَتَيْنِ مِنْ وَدِدِ آدَمَ » .

وفي قول الناظم رحمه الله تعالى : (وَأَكْسِبِ الْفُلْسَ وَحَاسِبِ مَنْ بَطَلَ) إشارة إلى ما في المسألة من الخلاف بين العلماء ؛ وهو هل الاكتساب أفضل أو التوكل أفضل ؟ فذهب جماعة إلى أن الاكتساب أفضل ، وإليه يشير كلام الناظم رحمه الله تعالى ، وأستدلوا بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ الآية .

وذهب آخرون إلى أن التوكل أفضل ، وأستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . . لَرَزَقْنَاكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ؛ تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا » (١) .

وذهب آخرون إلى الجمع بينهما ، وهو الأفضل ، وقالوا : إنَّ السعي لا ينافي التوكل ، وأستدلوا بما ورد في قصة الأعرابي الذي أراد دخول المسجد على النبي صلى الله عليه وسلم وناقته بيده فقال : يا رسول الله ؛ أرسل ناقتي متوكِّلاً على الله عز وجل ، أم أعقلها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » (٢) .

ويجاب عن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ بأن معنى التوكل : اعتقاد ما دلَّت عليه هذه الآية : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، وليس المراد به : ترك السبب مع الاعتماد على ما يأتي من المخلوقين ؛ لأنَّ ذلك يجرُّ إلى ضدِّ ما يراد من التوكل .

(١) أخرجه ابن حبان (٧٣٠) ، والحاكم في « المستدرک » (٣١٨/٤) ، والترمذي (٢٣٤٤) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٧٣١) ، والحاكم في « المستدرک » (٦٢٣/٣) .

وعن الحديث المذكور : بأنه صلى الله عليه وسلم ذكر الغدوَّ والرَّواح في طلب الرزق فقال : « تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَاناً » ، ولا شكَّ أنَّهما سببان في الرزق ، فطريقة أهل البصائر السعي والطلب مع الإجمال فيه والتوكُّل على الله تعالى ؛ لأنَّ بالهزُّ يسقط الثمر ، كما قيل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى لِمَرْيَمَ وَهَزِي إِلَيْكَ الْجِدْعَ يَسَاقِطِ الرُّطْبَ
وَلَوْ شَاءَ أَدْنَى الْجِدْعِ مِنْ غَيْرِ هَزَّهُ إِلَيْهَا وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ ^(١)

قال في « تنبيه الغافلين » في الباب الحادي والتسعين ما نصَّه : (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالاً اسْتَعْفَافاً عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، وَسَعِيًّا عَلَى الْعِيَالِ وَالْأَهْلِ ، وَتَعَطُّفًا عَلَى جَارِهِ . . بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالاً مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا مُرَائِيًّا . . لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ » ^(٢) .

وروي : أن داوود عليه الصلاة والسلام كان يخرج متنكراً فيسأل عن سيرته مَنْ يراه مِنْ أهل مملكته ، فتعرض له جبريل عليه السلام على صورة آدمي ، فقال له داوود : يا فتى ؛ ما تقول في داوود ؟ فقال له : نِعَمَ العبدُ غيرَ أن فيه خصلة ، قال داوود : وما هي ؟ قال : يأكل مِنْ بيت مال المسلمين ، وما في العباد أحبُّ إلى الله تعالى مِنْ عبدٍ يأكل مِنْ كسب يده ، فعاد إلى محرابه باكياً متضرعاً يقول : يا رب ؛ علِّمني صنعة تُغنيني بها عن بيت مال المسلمين ، فعلمه الله تعالى صنعة الدروع ، وألان له الحديد ، حتى كان الحديد في يده بمنزلة العجين ، وكان إذا فرغ مِنْ قضاء حوائج أهله . . يعمل درعاً ، فيبيعه ويعيش هو وعياله بئمنها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ ^(٣) .

وروى هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كَانَ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَإِنَّ

(١) البيتان عند الثعالبي في « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » (٣٠٦/١) .

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في « مسنده » (٣٥٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٨٩) وما بعده ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١١٠/٣) .

(٣) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٤٥٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩١/١٧) .

في يده الخوص يعمل به القمّة ، فإذا فرغ . . ناوله إنساناً فقال : أذهب به فبعه ^(١) .

وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن زكريّا عليه السلام كان نجاراً ^(٢) .

وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال : يا معشر الفقراء ؛ أرفعوا رؤوسكم وأنجروا ، ولا تكونوا عيالاً على الناس .

وعن ابن المبارك أنه قال : من ترك السوق . . ساء خلقه ، وذهبت مروءته .

وعن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من غرس غرساً أو زرع زرعاً فأكل منه إنسان أو دابة أو طير أو سبع . . فهو له صدقة » ^(٣) .

وعن أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو قامت القيامة وفي يد أحدكم نواة . . فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها . . فليفعل » ^(٤) .

وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى السوق ويشترى حوائج أهله ، وسئل عن ذلك فقال : « أخبرني جبريل عليه السلام أن من سعى على عياله ليكفهم عن الناس . . فهو في سبيل الله » ^(٥) .

وقيل لبعض الحكماء : ما خير المكاسب ؟ قال : خير مكاسب الدنيا . . طلب الحلال لزوال الحاجة ، والأخذ منه للقوة على العبادة ، وتقديم فضله لزيد يوم القيامة ، وأما خير مكاسب الآخرة . . فعلم معمول به نشرته ، وعمل صالح قدمته ، وسنة حسنة أحييتها ، قيل : وما شرُّ المكاسب ؟ قال : أمّا شرُّ مكاسب الدنيا . . فحرام جمعته ، وفي المعاصي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٦٤/٧) ، وأحمد في « الزهد » (٣٨٢) ، وهناد في « الزهد » (٥٦١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩٢/١٧) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٩) ، وابن حبان (٥١٤٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٥٩٠/٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٢) من حديث أنس رضي الله عنه ، ومسلم (١٥٥٢) ، وأحمد (٣٩١/٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٤٧٩) ، والضياء في « المختارة » (٢٧١٢) ، وأحمد (١٨٣/٣) (١٩١) .

(٥) أخرجه البيهقي في « السنن » (٢٥/٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٢٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٩٦/٦) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وفيه : « ومن سعى على عياله . . ففي سبيل الله » .

أنفقته ، ولمن لا يطيع ربه خلفته ، وأما شرُّ مكاسب الآخرة . . فحقُّ أنكرته حسداً ، ومعصية قدمتها إصراراً ، وسنة سيئة أحييتها عدواناً .

وعن النضر بن يحيى قال : بلغنا عن بعض أهل العلم أنه قال : لا يقوم الدين والدنيا إلا بأربعة : بالعلماء ، والأمراء ، وأهل القرآن ، وأهل الكسب .

وبعض الزهاد فسّر هذا الكلام فقال : أمّا الأمراء . . فهمُ الرعاة يرعون الخلق ، وأمّا العلماء . . فهم ورثة الأنبياء ، وهم يدُلُّون الخلق إلى الآخرة ، والناس يقتدون بهم ، وأمّا أهل القرآن . . فهم جند الله على الأرض لقمع الكفار ، يقولون : دين الله الإسلام ، وأمّا أهل الكسب . . فهم أمناء الله تعالى لمصلحة الخلق ، ثمَّ قال : إذا صارت الرعاة ذئاباً . . فمن يرعى الغنم ؟ والعلماء إذا تركوا العلم وأشتغلوا بالدنيا . . فبمن يقتدي الخلق ؟ والقراء إذا ركنوا للفخر والخيلاء وخرجوا للطمع . . فمن يظفر بالعدوِّ ؟ وأهل الكسب إذا خانوا الناس . . فكيف تأمن بهم الناس ؟

وأعلم : أن للكسب آفات كالكذب والأيمان الكاذبة وغير ذلك .

قال قتادة : وكان يقال : عجبت للتاجر كيف يتخلّص وهو يحلف بالنهار ويحسب بالليل ؟

وقال بعض الحكماء : إذا لم يكن في التاجر ثلاث خصال . . أفتر في الدارين جميعاً :

أولها : أن يكون لسانه نقيّاً عن ثلاثة : الكذب ، واللغو ، والحلف .

وثانيها : أن يكون صافياً من ثلاثة : الغش ، والخيانة ، والحسد .

وثالثها : أن يكون محافظاً لثلاث : الجمعة ، والجماعات ، وطلب العلم في بعض الساعات .

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : التاجر إذا لم يكن فقيهاً . . أرتطم في الربا ، ثمَّ أرتطم ، ثمَّ أرتطم - يعني : غرق فيه - فإذا لم يعرف الحلال من الحرام . . لم يأمن أن يقع في الربا^(١) .

(١) أخرجه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٦٤) .

وقال سفيان الثوري : لا تنظروا إلى زِيِّ أهل السوق ، فإنَّ تحت ثيابهم ذئاباً .

وعن ابن شُبْرُمَةَ قال : العجب ممَّن يحتمي مِنَ الحلال مخافة الداء ، فكيف لا يحتمي مِنَ الحرام مخافة النار ؟

وعن جابر بن عبد الله : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَكْمَلَ رِزْقَهُ ، فَلَا تَسْتَبْطُوا الرِّزْقَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَخُذُوا مَا حَلَّ ، وَذَرُوا مَا حَرَّمَ » (١) .

وقال الحكيم : الناس في الكسب على خمس مراتب :

منهم من يرى الرزق مِنَ الكسب . . فهذا كافر .

ومنهم مَنْ يرى الرزق مِنَ الله تعالى وَمِن الكسب . . فهو مشرك .

ومنهم مَنْ يرى الرزق مِنَ الله ، ولا يدري أيعطيه أم لا . . فهو منافقٌ شاكٌ .

ومنهم مَنْ يرى الرزق مِنَ الله تعالى ، ويعصي الله تعالى لأجل الكسب ، ولا يؤدي حقه كما أمر الله تعالى . . فهو مؤمن مسيء .

ومنهم مَنْ يرى الرزق مِنَ الله تعالى ، ويرى الكسب سبباً ، ويخرج حَقَّهُ ، ولا يعصي الله لأجل الكسب . . فهو مؤمن مخلص ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أَكْتَسَبَ مَالاً مِنْ مَأْتَمٍ ، فَتَصَدَّقَ بِهِ ، أَوْ وَصَلَ بِهِ رَحِمَةً ، أَوْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . جَمَعَ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَأَلْقَاهُ فِي النَّارِ » (٢) .

وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أَنَّهُ قَالَ : لا يُقْبَلُ حَجٌّ ولا عمرة ولا جهاد ولا صدقة ولا عتاق ولا نفقة مِنْ رِباً ولا رشوة ولا خيانة ولا غلول ولا سرقة (اهـ) (٣)

* * *

(١) أخرجه ابن حبان (٣٢٣٩) ، والحاكم في « المستدرک » (٣٢٥/٤) ، وابن ماجه (٢١٤٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في « المراسيل » (١٣١) .

(٣) تنبيه الغافلين « (٤٥٠-٤٥٨) .

وَأَدْرَعُ جَدًّا وَكَدًّا وَأَجْتَنِبُ صُحْبَةَ الْحَمَقِيِّ وَأَرْبَابِ الْخَلَلِ^(١)

هذا مِنْ تمام ما تقدم مِنَ الأمر بالاجتهاد في الكسب ، والجَدُّ - بفتح الجيم - : الاجتهاد ، قال في « المصباح » : (الجَدُّ في الأمر : الاجتهاد ، وهو مصدر جَدَّ يَجِدُّ ، مِنْ بابي ضرب وقتل ، والاسم الجِدُّ بالكسر ، ومنه يقال : فلان محسن جِدًّا ؛ أي : نهاية ، ولا يقال : محسن جَدًّا بالفتح) .

وقوله : (وكَدًّا) معطوف على (جدًّا) ، وهو بفتح الكاف : التعب ؛ أي : وأجعل الاجتهاد والتعب في أكتساب الرزق كالدرع المشتمل على جميعك ، بمعنى : أن تجتهد وتتعب برجليك ويديك وسائر جسدك في طلب الرزق ؛ لأنه أمر محمود ، قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا يُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ وَلَا الصِّيَامُ وَلَا الْحَجُّ وَلَا الْعُمْرَةُ ، وَيُكْفَرُهَا الْهُمُومُ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ » رواه ابن عساكر عن أبي هريرة^(٢) .

وقد يكون التكبُّب واجباً ؛ كقادر على الكسب يحتاج عياله للنفقة ، فَمَنْ ترك ذلك . . . كان عاصياً ، قاله في « فتح الباري »^(٣) .

(وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَفْضَلُ الدَّنَانِيرِ دِينَارٌ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ عَلَى عِيَالِهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ »^(٤) .

(١) ويروى : (وأرباب البخل) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٣٥/٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٠٠/٥٤) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٦٧/٤) .

(٣) انظر « فتح الباري » (٤١٠/١١) .

(٤) أخرجه مسلم (٩٩٤) ، والترمذي (١٩٦٦) ، وابن ماجه (٢٧٦٠) ، وأحمد (٢٧٧/٥) .

وكان ثابت البناني عند أنس بن مالك ، فذكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ضَمِنَ دَيْنَ الْعَبْدِ إِذَا أَسْتَدَانَ فِي ثَلَاثٍ : أَحَدُهَا : مِنْ أَجْلِ النِّكَاحِ مَخَافَةَ الْفُجُورِ ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى قَضَائِهِ حَتَّى مَاتَ ؛ فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ تَعَالَى دَيْنَهُ أَنْ يَقْضِيَهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالثَّانِي : دَيْنُهُ لِإِعَانَةِ الْمُسْلِمِينَ لِيَخْرُجُوا إِلَى الْغَزْوِ ، وَالثَّلَاثُ : إِذَا أَسْتَدَانَ لِتَكْفِينِ مَيْتٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُرْضِي خُصَمَاءَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(١) ، فدخل ثابت البناني على الحسن البصري ، فذكر له ما سمع من أنس ، فقال الحسن : قد كبر أنس وضعف ، ونسي الأفضل من ذلك ، بل ضمن الله تعالى مع هؤلاء دين رجل أستدان لينفق على عياله ، وأجتهد في قضائه ، فلم يبلغ حتى مات . . لم تكن بينه وبين خصمائه خصومة يوم القيامة .

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ الجلوس مع العيال أفضل ، أم الجلوس في المساجد ؟ قال : « جُلُوسُ سَاعَةٍ عِنْدَ الْعِيَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الْأَعْتِكَافِ فِي مَسْجِدِي هَذَا » ، قال : قلت : يا رسول الله ؛ النفقة على العيال أحبُّ إليك ، أم النفقة في سبيل الله أحبُّ ؟ قال : « دِرْهَمٌ يُنْفِقُهُ الشَّخْصُ عَلَى عِيَالِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »^(٢) (قاله في « تنبيه الغافلين »^(٣) .

وقوله : (وأجنب صحبة الحمقى) جمع : أحمق ؛ وهو : من ليس له ملكة يملك بها نفسه عند الغضب ، أو هو فاسد العقل .

ويحتمل أن يكون مراده بـ(الحمقى) : المرأة الحمقاء ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَتَزَوَّجُوا الْحَمَقَاءَ ؛ فَإِنَّ صُحْبَتَهَا بَلَاءٌ ، وَفِي وَلَدِهَا ضِيَاعٌ ، وَلَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ ؛ فَإِنَّ لَبَنَهَا يُعَيِّرُ »^(٤) .

(١) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ابن ماجه (٢٤٣٥) ، والبخاري كما في « مجمع الزوائد » (١٣٦/٤) .

(٢) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٤٤٢) .

(٣) « تنبيه الغافلين » (ص ٣٤٠-٣٤٢) .

(٤) أخرج الجزء الأول منه الديلمي في « الفردوس » (٧٣٣٣) ، وأخرج الجزء الثاني البيهقي في « السنن » (٤٦٤/٧) ، وأبو داود في « المراسيل » (٢٠٧) من حديث السهمي مرسلاً ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥) ، وفي « الصغير » (٥٢/١) ، وانظر « تنزيه الشريعة » (٢١٣/٢) .

وقال عمر رضي الله تعالى عنه : (لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر إلا أخرج مائقاً)^(١) .

قال بعضهم : حدُّ الحمق : أنه قلةُ الإصابة ، ووضعُ الشيء في غير الموضع الذي وضع له .

وقيل لبعضهم : ما حدُّ الحمق ؟ فقال : لا حدَّ له كالعقل اهـ^(٢)
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْأَحْمَقُ أَنْبَغُضُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ ؛ إِذْ حَرَمَهُ أَعَزَّ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِ » .

وقيل : أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السلام : أتدري لم رزقتُ الأحمق ؟ قال : لا ياربُّ ، قال : ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاجتهاد^(٣) .
وقالوا : الحمق داء دواؤه الموت .

قال الشاعر :
لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا^(٤)

وروي : أن عيسى عليه الصلاة والسلام أتني بأحمق ليداويه ، فقال : (أعياني دواء الأحمق ، ولم يعيني مداواة الأكمة والأبرص)^(٥) .

وقال الأصمعي : (قلت لغلام من أبناء العرب : أيسرك أن يكون لك مئة ألف درهم

-
- (١) المائق : هو الأحمق ، لكنه سريع البكاء ، قليل الحزم والثبات .
(٢) القائل هو إبراهيم بن سيار النظام كما في « أخبار الحمقى والمغفلين » (ص ٢٥) ، ونسبه ابن عبد البر لابن شبرمة في « بهجة المجالس » (٥٣٧/٢) .
(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٤/٦١) ، وأورده ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (٥٣٤/٢) .
(٤) البيت من غير نسبة في « العقد الفريد » (٣٠٤/٢) ، و « أساس البلاغة » مادة (طب) ، و « ربيع الأبرار » (٦١/٢) ، ولمحمد الغزي كما في « سلك الدرر » (٥٧/٤) (تضمن له :

| | |
|--|------------------------------|
| إذا نصحت قليل العقل نلت بهذا | عداوة منه لا تخفى مساويها |
| فالحمق داء قبيح لا دواء له | قد قال فيه من الأشعار راويها |
| لكل داء دواء يستطب به | إلا الحمافة أعييت من يداويها |
| (٥) أورده الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٦١/٢) ، والمناوي في « فيض القدير » (٥٣١/١) . | |

وأنتك أحمق؟ قال : لا والله ، قلت ، ولم ؟ قال : أخاف أن يجني عليّ حمقي جناية تُذهب مالي ويبقى حمقي (١) .

وقال سعيد بن عمّار : (مكتوب في التوراة : مَنْ صنع لأحمق معروفاً . فهو خطيئة مكتوبة عليه) .

وقيل : إذا قيل لك : إن فقيراً أستغنى أو غنياً أفنقر أو حياً مات أو ميتاً عاش . . فصدق ، وإذا بلغك أن أحمق أستفاد عقلاً . . فلا تصدق (٢) .

وقالوا : الأحمق تتمنى أمه أنها تكلته ، وتتمنى زوجته أنه عدمته ، ويتمنى جاره منه الوحدة ، ويودّ جليسه منه الوحشة (٣) .

وقال الأحنف بن قيس : (إنني لأجالس الأحمق الساعة فأجد ذلك في عقلي) (٤) .

وقال لقمان لابنه : (لا تعاشر الأحمق وإن كان ذا جمال ؛ فإنه كالسيف ، حسنٌ منظره ، قبيحٌ أثره) (٥) .

وقال سالم بن قتيبة : (لا تطلب حاجتك من أحمق ؛ فإنه يريد أن ينفَعك فيضرك ، سكوته خير من نطقه ، وبُعده خير من قرّبه ، وموته خير من حياته) .

وقال الحسن بن عليّ رضي الله تعالى عنهما : (هجران الأحمق قرينة إلى الله تعالى) .

وقالت الحكماء : العاقل يضلُّ عقله عند مجاورة الأحمق .

وقالوا : مثل الأحمق مثل الثوب الخلق ؛ إن رفاته من موضع تخرق من موضع آخر .

ولله درُّ القائل :

[من الرمل]

إِتَّقِ الْأَحْمَقَ لَا تَصْحَبَهُ
كُلَّمَا رَفَعْتَ مِنْهُ جَانِباً
إِنَّمَا الْأَحْمَقُ كَالثُّوبِ الْخَلَقُ
حَرَكَتُهُ الرِّيحُ وَهَذَا فَانْخَرَقُ

(١) في « فيض القدير » (٥٣١/١) : أن المسؤول هو الفرزدق .

(٢) القول في « أخبار الحمقى » (ص ٢٣) معزواً لأبي إسحاق .

(٣) أورده الذهبي في « السير » (٥٥٢/٤) من قول وهب ، والمنأوي في « فيض القدير » (٥٣١/١) .

(٤) أورده المبرد في « الكامل » (ص ٦٨٥) .

(٥) « محاضرات الأدباء » (٢٧/١) .

وَإِذَا عَاتَبْتَهُ كَيْ يَرْعَوِي زَادَ جَهْلًا وَتَمَادَى فِي الْحَمَقِ^(١)

وممن عرف بالحمق : المعلمون ، قال الجاحظ : (قسم الله الحمق مئة جزء ، فجعل منه تسعة وتسعين جزءاً في المعلمين ، والجزء الآخر في سائر الناس)^(٢) .

وقال الشاعر : [من الطويل]

كَفَى الْمَرْءَ نَقْصاً أَنْ يُقَالَ بِأَنَّهُ مُعَلِّمٌ صُبْيَانٍ وَإِنْ كَانَ فَاضِلاً^(٣)

وكان الجاحظ كثيراً ما ينشد : [من الطويل]

وَكَيفَ يُرَجَّى الْعَقْلُ وَالرَّأْيُ عِنْدَ مَنْ يَرُوحُ عَلَى أُثْنَى وَيَغْدُو عَلَى طِفْلِ^(٤)

ومنهم : النساء ؛ ولذلك قالوا : لا تدع أم صبيك تضربه ؛ فهو أعدل منها وإن كانت أسن منه^(٥) .

ويقال : عقل مئة صبي بعقل معلم ، وعقل مئة معلم بعقل خصي ، وعقل مئة خصي بعقل امرأة^(٦) .

ومنهم : الخصيان ، قال الجاحظ : (في الخصي خصال متضادة ، منها : أنه لم يخرج من ظهره مؤمن ولم يخرج من ظهر مؤمن ، ومنها : أنه ما خلا قط مع رجل إلا وحدته نفسه

(١) الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٧٠) .

(٢) نقله عنه الوطواط في « غرر الخصائص » (ص ٨١) ، لكن قال الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢٥٠ / ١) : (والمعلمون عندي على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكسائي ، ومحمد بن المستنير الذي يقال له : قُطْرُبُ ، وأشبه هؤلاء يقال لهم : حمقى ؟! ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم ؛ فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب القرى . . فإن لكل قوم حاشية وسفلة ، فما هم في ذلك إلا كغيرهم ، وكيف تقول ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء ؛ مثل : الكميت بن زيد ، وعبد الحميد الكاتب ، وقيس بن سعد ، وعطاء بن أبي رباح ، ومثل : عبد الكريم أبي أمية ، وحسين المعلم ، وأبي سعيد المعلم !؟) .

(٣) البيت من غير نسبة في « محاضرات الأدباء » (٧٥ / ١) ، و« غرر الخصائص » (ص ٨١) .

(٤) البيت نسبة الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢٤٨ / ١) إلى صقلاب المعلم .

(٥) « البيان والتبيين » (٢٤٨ / ١) .

(٦) « غرر الخصائص » (ص ٨٢) .

أنه امرأة ، ولا خلا مع امرأة إلا وحدثته نفسه أنه رجل) قاله في « غرر الخصاص » .

وقوله : (وأرباب الخلل) أي : وأجتنب صحبة أهل الخلل - بفتحيتين - أي : العيب ؛ كالزاني والفاسق والسارق والدُّيُوث ، وما أشبههم ممَّن يعاير بمعاشرتهم ، ويحصل النقص بمصاحبتهم ؛ لنقصهم في الدنيا والآخرة عند الله .

وإنما نهى الناظم رحمه الله تعالى عن صحبتهم ؛ لأنَّ الطبائع تسرق بالمعاشرة ، ألا ترى أنَّ الإنسان بمعاشرته العلماء وأهل الكمالات يصير كاملاً ، وبمعاشرته الفسقة وأهل الرذائل يصير ناقصاً ، كما قيل :

[من المتقارب]

بُنِيَّ اجْتَنِبْ كُلَّ ذِي بَدْعَةٍ وَلَا تَصْحَبَنَّ مَنْ بِهَا يُوصَفُ
فَيَسْرِقُ طَبْعُكَ مِنْ طَبْعِهِ وَأَنْتَ بِذَلِكَ لَا تَعْرِفُ

[من الطويل]

وقال آخر :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَفْتَدِي
فَعَاشِرُ أَوْلِي التَّقْوَى تَنَلُ مِنْ تَقَاهُمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَزْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِيِّ^(١)

[من الطويل]

وقال آخر :

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَنْ غَدَا مُضَافاً لِأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ نَاقِصٍ فَتَنَحَطَّ قَدْرًا مِنْ عِلَاكَ وَتُحْقِرَا^(٢)

(١) البيتان لعدي بن زيد ، وهما في « العقد الفريد » (٢٨١/٢) ، و « بهجة المجالس » (٧٠٥/٢) .

(٢) البيتان لأمين الدين المحلي كما في « الوافي بالوفيات » (١٨٨/٤) ، و « مغني اللبيب » (٦٦٩/٢) ، و « خزنة الأدب » (١٠٤/٥) ، وبعدهما قوله :

فَرَفَعُ « أَبُو مَنْ » ثُمَّ خَفَضُ « مَزْمَلٍ » يُبَيِّنُ قَوْلِي مَغْرِباً وَمُحْذَرًا

ويشير بهذا إلى أن مما يكتسبه الاسم بالإضافة : التصدُّر ، فوجب الرفع في نحو : « علمت : أبو من زيد ؟ » ، ويشير بقوله : (ثم خفض « مزمل ») إلى قول امرئ القيس : [من الطويل]

كَانَ أَبَانَا فِي عِرَانِينَ وَبِلِهِ كَبِيرُ أَنْسَابٍ فِي بَجَادِ مَزْمَلٍ

فـ (مزمل) صفة لـ (كبير) ، فكان حقه الرفع ، ولكنه خفض لمجاورته المخفوض ، وقد شرح هذه الأبيات الثلاثة - كما في « حلية البشر » (١٥٦٤/٣) - الشيخ منصور بن مصطفى السرميني (ت ١٢١٠) في كتاب سماه : « كشف اللثام والستور عن مخدرات أرباب الصدور » .

وقال آخر: .

[من الكامل]

مَنْ عَاشَرَ الْأَشْرَافَ صَارَ مُشْرِفًا
وَمَعَّاشِرُ الْأَنْذَالِ غَيْرُ مُشْرِفٍ
أَوْ مَا تَرَى الْجِلْدَ الْحَقِيرَ مُقْبَلًا
بِالْفُغْرِ لَمَّا صَارَ جِلْدَ الْمُصْحَفِ (١)

* * *

(١) البيتان في « السحر الحلال » (ص ٨٢) ، ووقع في الأصل : (أما تنظر) بدل : (أو ما ترى) .

بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلِ رُبَّةٌ وَكِلَا هَٰذَيْنِ إِنْ دَامَ قَتْلٌ^(١)

أي : لا تداوم على الإعطاء حتى يبلغ إلى التبذير ؛ الذي هو : إنفاق المال في غير حقه ، ولا على الإمساك حتى يبلغ إلى البخل ؛ الذي هو : منع السائل ممّا يفضل عن الحاجة ، بل كن وسطاً بين التبذير والبخل ؛ لأنّ الواحد منهما إن دام عليه الشخص قتله وأهلكه .

قال الله تعالى لنبيه عليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ أي : لا تمسك عن الإنفاق حتى تضيق على نفسك وأهلك فلا تصل رحمك ، ولا تتوسّع في الإنفاق توسعاً زائداً حتى لا تبقى في يدك شيئاً ، بل توسّط بين ذلك ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ أي : حالاً وسطاً .

فعلّم ممّا تقدّم : النصّ على قبح البخل وعلى قبح التبذير .

أمّا البخل : فقبحه لا يحتاج إلى النصّ عليه ؛ فقد ورد في ذمّه من الآيات والأحاديث والآثار ما لا يحصى ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ لَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أَفْسَمَ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ : لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلَا بَخِيلٌ »^(٢) .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : (البخيل يتعجّل الفقر لنفسه ، يعيش في

(١) وبيروني : (إن زاد) .

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٢٤) .

الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء (١) .

وأما التبذير : فقد ورد في ذمّه آيات وأحاديث وآثار كثيرة ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَءَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « آفةُ الْجُودِ السَّرْفُ » (٢) .

وقال معاوية رضي الله عنه : (ما رأيت سرفاً قطُّ إلا وإلى جانبه حقٌّ مضيعٌ) (٣) .

وقال بعضهم : السخاء خلق مستحسن ما لم ينته إلى سرف وتبذير ، فإنَّ مَنْ بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقُّه . . لم يسمَّ سخياً ، وإنما يسمَّى مبدراً مضيعاً .

ورأى أبو ذرَّ الغفاريُّ معاويةً يوماً وقد أنفق مالا كثيراً ، فقال له : (إن كان هذا من بيت المال . . فأنت خائن والله لا يهدي كيد الخائنين ، وإن كان من مالك . . فأنت مسرف والله لا يحب المسرفين) .

وقالوا : ما وقع تبذير في كثير إلا هدمه ودمره ، ولا دخل تبذير في قليل إلا كثَّره .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : (إنِّي لأبغضُ أهل بيت ينفقون رزق الأيام الكثيرة في يوم واحد) .

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما لولده يزيد : (إنك إن أعطيت مالك في غير الحقِّ . . يوشك أن يجيء الحقُّ وليس معك ما تعطي فيه) (٤) .

وقالوا : التبذير يثمر وينمي القليل ، والتبذير يمحق ويدمِّر الكثير .

وكان عبد الله بن جعفر من الأجواد الذين يغمرون بجودهم طوائف العباد ، وأنتهى به الإفلاس إلى أن سأله رجل فقال له : إنَّ حالي متغيِّرةٌ بحوادث الزمان ، ولكن أعطيك

(١) ذكره الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٨/٤) ، وجاء عند المعافى في « المجلس الصالح » (٥٠٩/١) بإسناده إلى أعرابي ، وقد مرَّ نحوه من قول الحسن عند المصنف (ص ٢٢٥) .

(٢) هو جزء من حديث طويل أخرجه القضاعي في « مسنده » (٧٥) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص ٥) .

(٣) « عيون الأخبار » (٣٣٢/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٥٧٩/١) .

(٤) انظر الأقوال السالفة في « محاضرات الأدباء » (٥٧٩/١) .

ما أمكنني ، فأعطاه رداءً كان عليه ، ثم دخل منزله فقال : اللهم ؛ أسترني بالموت ، فما لبث بعد دعوته إلا أياماً قلائل حتى مرض ومات .

ولله درُّ القائل :

[من الكامل]

وَلَقَدْ قَدِمْتَ عَلَى رِجَالٍ طَالَمَا
أَخْنَى الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ فَكَانَهُمْ
قَدِمَ الرِّجَالُ عَلَيْهِمْ فَتَمَوُّوا
كَانُوا بِأَرْضٍ أَجْدَبَتْ فَتَحَوُّوا
[فأجيب] :

أَلْجُودُ أَفْلَسَهُمْ وَغَيْرَ حَالِهِمْ
وَأَعْلَمُ : أَنَّ أَصْطِنَاعَ الْمَعْرُوفِ إِلَى اللَّئِيمِ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ :
أَصْلُ كُلِّ عِدَاوَةٍ أَصْطِنَاعَ الْمَعْرُوفِ إِلَى اللَّئِيمِ (٢) .
وقال بعضهم : لا حسرة أعظم منْ نعمة أسديت إلى غير ذي حسب ولا مروءة .
وقال بعضهم : صانع المعروف في غير أهله كالمرسج في الشمس .

ولله در القائل :

[من الطويل]

مَتَى تُسَدِّ مَعْرُوفاً إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ
رُزِئْتَ وَلَمْ تَظْفَرْ بِحَمْدٍ وَلَا أَجْرٍ (٣)

تَبْيِيهِ

[في بيان أن صرف المال في وجوه الخير ليس تبذيراً]

قال الفقهاء : الأصحُّ : أنَّ صرف المال في الصدقات ووجوه الخيرات وفي المطاعم

(١) الأبيات في قصة ذكرها في « المستطرف » (٣٦٢/١) ، مفادها : أن أبا الشمقمق وفد إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام ، فلما دخلها . . توجه إلى منزله ، فوجده في دار الخراج يطالب ، وهو قائم في الشمس وعلى عنقه صخرة ، فلما رآه محمد . . قال البيتين ، فقال أبو الشمقمق :

أَلْجُودُ أَفْلَسَهُمْ وَغَيْرَ حَالِهِمْ
فَالْيَوْمَ إِنْ سَأَلُوا النَّوَالَ تَبَخَّلُوا
ويروى : (فالיום إن راموا السماحة ببخلوا) ، قال : فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه ، فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة ، فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام تلك السنة ، وإسقاط ما عليه من البقايا ، وأمر له بمئة ألف درهم معونة على مروءته .

(٢) القائل هو سفيان كما في « المحاسن والمساوي » للبيهقي (ص ١٢٥) .

(٣) البيت عزاه في « محاضرات الأدباء » (٦٨٥/١) لأبي بجيلة .

والملابس ليس بتبذير ولا إسراف ؛ لأنَّ له في الصدقات غرضاً ، وهو حصول الثواب ،
ولأنَّ المال إنَّما يجمع للانتفاع به في المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك .

وقال مجاهد : (لو كان أبو قبيس - الجبل المشهور - لرجل ذهباً ، ثمَّ أنفقه في طاعة الله
تعالى . . لم يكن إسرافاً ، ولو أنفق رجل درهماً واحداً في معصية الله . . كان إسرافاً) اهـ^(١)
وقيل للحسن بن سهل - وكان كثير العطاء - : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في
الخير^(٢) .

[من الوافر]

ولله در القائل :

ذَهَابُ الْمَالِ فِي حَمْدٍ وَأَجْرٍ ذَهَابٌ لَا يُقَالُ لَهُ : ذَهَابٌ^(٣)

وحكي : أنَّ علي بن موسى الرضا - رضي الله تعالى عنه وعن آبائه - فرَّق في يوم عرفة
ماله كلَّه ، فقال له الفضل بن سهل : ما هذا المَعْرُومُ ؟ قال : بل هو المغنم ، لا تَعَدَّنَّ
ما أبتغيتَ به أجراً أو كرمأ مغرمأ ؛ فقد كان جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدَّخر
شيئاً لغدٍ ، ويعطي عطاء مَنْ لا يخاف الفقر^(٤) . قاله في « غرر الخصاص » .

* * *

-
- (١) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٧٩٦٢) .
(٢) « الصناعتين » (ص ٣٧١) ، و « بهجة المجالس » (٦١٤ / ٢) ، و « المستطرف » (٣٤٥ / ١) .
(٣) البيت من غير نسبة في « البيان والتبيين » (٢٤٤ / ١) ، و « بهجة المجالس » (١٨٨ / ١) ، و « محاضرات الأدباء »
(٦٨٤ / ١) ، و « ربيع الأبرار » (٥٧٤ / ٤) .
(٤) حديث : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يدخر شيئاً لغد) أخرجه ابن حبان (٦٣٥٦) ، والضياء في
« المختارة » (١٦٠١) ، والترمذي (٢٣٦٢) .
وحديث : (أنه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر) أخرجه مسلم (٢٣١٢) ، وابن خزيمة (٢٣٧١) ، وابن حبان
(٦٣٧٤) .

لَا تَخْضُ فِي سَبِّ سَادَاتِ مَضَوَا إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ لِلزَّلِّ

أي : لا تُدخِلْ نفسك ولا تتكلم بسوء في حقِّ ساداتِ مَضَوَا وماتوا ؛ لأنَّهم رضي الله تعالى عنهم ليسوا بأهلٍ للزلل ولا للخطأ ولا للنقص ، بل هم مبرِّؤون منه ، فيحرم سبُّ مَنْ مضى مِنْ سادات المسلمين ، والخوضُ في أعراضهم بما لا يليق بمقامهم ؛ وذلك كالصحابة والعلماء والصوفيَّة ، كما أنَّه يحرم سبُّ الأحياء ؛ فقد ورد : إنَّ الميت يتأدَّى ممَّا يتأدَّى منه الحيُّ .

فيحرم سبُّ الصحابة الخارجين على علي بن أبي طالب مثلاً ، كما في وقعة الجمل وصيفين والنهروان ؛ لأنَّهم رضي الله تعالى عنهم خارجون بتأويل وإن كانوا مخطئين في نفس الأمر ؛ لأنَّهم كلُّهم مجتهدون ، والمصيب في أجهاده له أجران ، والمخطيء فيه له أجر واحد ، فكلُّهم مثابون رضي الله تعالى عنهم ، وقتلهم ومقتولهم في الجنَّة ؛ فالمتكلم فيهم متكلم في دينه ؛ لأنَّهم المبلغون لنا قواعده وأحكامه .

وكذلك يحرم التكلُّم في السادات الذين تكلموا في الطريق ، وأظهروا خوارق العادات ؛ كالسريِّ السقطيِّ وأبي القاسم الجنيد والحسين الحلاج وأشباههم من المتقدمين ، وكالشيخ محيي الدين بن العربي وسيدي عمر بن الفارض وغيرهما من المتأخِّرين ، فهؤلاء السادات رضي الله تعالى عنهم وإن كانوا قد تاهوا وتكلَّموا بأشياء خارقة ، فلا يجوز سبُّهم ولا الاعتراض عليهم بحالٍ مِنَ الأحوال ؛ لأنَّهم ملازمون لقواعد الشرع ، فلا يصدر منهم قول ولا فعل مخالف للشرع .

وما أحسن قول بعضهم : مَنْ لا يعرف مصطلحنا . . لا يجوز له الخوض في طريقتنا^(١) ،

(١) وقريب منه قول الشيخ محيي الدين بن العربي : (نحن قوم تحرم المطالعة في كتبنا إلا لعارف باصطلاحنا) ، وخصوصاً بعد ما ثبت عليه وعلى غيره من الدس في كتبهم ، وانظر « الفتاوى الحديثية » (ص ٥٠) للإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى .

فيجب على كل مسلم أن يلزم الأجوبة الحسنة عن الأكابر المتقدمين من أنبياء وصحابة وتابعين ومجتهدين وعارفين^(١) .

قال سيدي علي الخوَّاص : (الواجب على كل مسلم الذبُّ عن أعراض الصحابة فضلاً عن الأنبياء والمرسلين ، وعن أعراض المسلمين فضلاً عن التابعين ؛ لأنَّ هؤلاء هم حملةُ الدين ، فمن نسبهم إلى نقص . . فقد أراد أن يحوِّل حدود الدين ، وقد لعن الله من غير حدود الأرض ، فكيف بمن يغيِّر حدود دينه !؟) اهـ

فمما أجبوا به عن سيِّدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في قوله : (أمَّا الفساد . . فلا نريده إن شاء الله تعالى ، وأمَّا العُلُوُّ . . ففي النفس شيء منه) حين سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخْرَةِ يُجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : أنه رضي الله تعالى عنه لم يقل ذلك إلا هضمًا لنفسه ، وأتھاماً لها كما هو شأن الأكابر ، وإلا . . فمثل هذا الإمام لا يريد عُلُوًّا في الأرض بيقين .

ونظير ذلك قول الحسن البصري : (لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب . . لقلت له : صدقت ، لا تكفِّر عن يمينك) .

ومما أجبوا به عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى في عدم حضوره الجماعة خمساً وعشرين سنة : أنه لو لم ير له عذراً يبيح له التخلف عن الحضور . . ما تخلف ، فالتسليم لمثل هذا الإمام أسلم ، وحمله على محمِّل حسنٍ أغنم ، رضي الله تعالى عنه^(٢) .

(١) وقد عقد الإمام الشعراني رحمه الله تعالى باباً في الجواب عن السادة الصوفية وحمله على أحسن الوجوه في كتابه « لطائف المنن والأخلاق » (١٢١/١) ، وكذا الإمام ابن عطاء الله السكندري عقد باباً في « لطائف المنن » (ص ٢٠٢) .

(٢) ذكر ابن سعد في « الطبقات » (القسم المتمم ص ٤٤٢) ، وابن خلكان في « وفيات الأعيان » (١٣٦/٤) من طريق الواقدي : (أنه ربما كلَّم في ذلك - أي : عدم حضوره الجماعة - فكان يقول : ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره) ، وفي نسخة بهامش « الوفيات » بخط ابن خلكان : (وإنما كان تخلف عن المسجد ؛ لأنه سلس بوله ، فقال عند ذلك : لا يجوز أن أجلس في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنا على غير طهارة ، فيكون ذلك استخفافاً) .

وفي « سير أعلام النبلاء » (٦٦/٨) : (عن مصعب قال : لم يشهد مالك الجماعة خمساً وعشرين سنة ، فقيل له : ما يمنعك ؟ قال : مخافة أن أرى منكراً ، فأحتاج أن أغيِّره) ، قال الإمام الشعراني في « الطبقات » (٥٣/١) : (وإنما سومح في ذلك ؛ لأنه مجتهد ، ولو فعل ذلك غيره . . لا يقر على ذلك ، والله أعلم) ، ولا يخفى أن الإمام مالكا له سلف بذلك ؛ فقد ورد عن سيِّدنا سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد رضي الله عنهما أنهما لزمَّا بيوتهما بالعتيق ، فلم يكونا

وممّا أجابوا به عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في قوله :

[من الوافر]

وَلَوْلَا أَلْشُّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَيْدٍ
وَلَوْلَا خَشْيَةُ الرَّحْمَنِ رَبِّي لَقُلْتُ : النَّاسُ كُلُّهُمْ عَيْدِي^(١)

أنّ المراد بما ذكره في البيت الأول : شكر النعمة ؛ فإنّ من شكر النعمة إظهارها والتحدّث بها ، لا فخراً وأستطالة ، حاشاه من مثل ذلك ، ويعني به (الناس) في البيت الثاني : أبناء الدنيا الذين يحبّونها بحكم الطبع ، بقريته قول بعض العارفين لبعض الملوك : أنت عبد عبي ، فقال له : لمّ ذلك ؟ فقال : لأنك عبد للدنيا ، والدنيا خادمة لي ، أو يقال : مراد الإمام بذكر ذلك : شكر النعمة أيضاً ، حيث إنّ الله رزقه القناعة ، وأرضاه باليسير ، وحماه من سؤال أبناء الدنيا ، ونحو ذلك .

وممّا أجابوا به عن أبي يزيد البسطامي في قوله : (خضت بحراً وقفت الأنبياء بساحله) : أنّ معنى ذلك : أنّ أبا يزيد يشكو ضعفه وعجزه عن اللحوق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ وذلك لأنّهم خاضوا بحر التوحيد ووقفوا بالجانب الآخر يدعون الناس إلى الخوض ؛ أي : فلو كنت كاملاً . . لوقفت حيث وقفوا ، قال صاحب « الحكم »^(٢) : (وهذا التفسير هو اللائق بمقام أبي يزيد ؛ فإنّ المشهور عنه التعظيم والقيام بكمال الأدب ، ومنّ كلامه : جميع ما أخذ الأولياء بالنسبة لِمَا أخذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . كزِقْ مِليءَ عَسَلًا ثمّ رشحت

يأتیان المدینة لجمعة ولا غيرها حتی ماتا بالعقیق ، فكان سعد ممن لزم بیته فی الفتنة وأمر أهله ألا یخبروه بشيء من أخبار الناس حتی تجتمع الأمة علی إمام ، والخلاصة : أن صلاة الجماعة - واجبة أم مؤكدة - لا تترك إلا لرخصة مبيحة لتركها ممّا نصّ علیه الفقهاء فی أعدار الجمعة والجماعة ، وما جاء عن الإمام مالك وأمثاله ممن یوثق بدینة لا بد وأن یحمل علی غرض شرعی ، وعذر مبیح ، وهذا وإن ورد . . فهو نادر ، كما ذكر الإمام الغزالي فی « الإحياء » (٢٤٠ / ٢) فقال : (وحضور الجماعة فی سائر الصلوات أيضاً لا رخصة فی تركه إلا لخوف ضرر ظاهر یقوم ما یفوت من فضیلة الجماعة ویزید علیه ، وذلك لا یتفق إلا نادراً) .

(١) البيتان في « ديوان الإمام الشافعي » (٥٦) ، وأسندهما البيهقي في « مناقب الشافعي » (٦٢ / ٢) .

(٢) هو الإمام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى ، وقوله هذا ذكره في كتابه « لطائف المنن » (ص ٢٠٣) تعقيباً على كلام الإمام أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى في الجواب عن كلام أبي يزيد رحمه الله تعالى ، وهو عين ما ذكره المصنف .

منه رشحات ، فما في بطن الزُّقِّ للأنبياء ، وتلك الرشحات للأولياء (١) .

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي : (قد طلب أبو يزيد البسطامي من الله تعالى أن يدخله مقام نبي من الأنبياء ، فأعطاه الله تعالى مقدار الشعرة البيضاء من الثور الأسود ، فكاد أن يحترق ، فسأل الله الحجاب من ذلك وقال : لا طاقة لأحد من أمثالنا بدخول مقام أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) .

وممَّا أجابوا به عن الجنيد في قوله : (أدركت سبعين عارفاً كانوا يعبدون الله على ظنٍّ ووهَمٍ حتَّى أحيى أبو يزيد ، ولو أدرك صبياً من صبياننا . . لأسلم على يديه) أن معنى ذلك : أنهم كانوا يقولون : ما بعد المقام الذي وصلناه مقام ، وذلك ظنٌّ ووهَمٌ ؛ فإنَّ فوق كلِّ مقام مقامات إلى ما لا يتناهى ، وليس مراده الظنَّ والوهَمَ في معرفة الله ، ومعنى : (لأسلم على يديه) أي : أنقاد له ؛ لأنَّ الإسلام هو الانقياد ، ومراد الجنيد بذلك : شكر النعمة (٢) .

وممَّا أجابوا به عن الحلاج في قوله : (ما في الجبَّةِ إلاَّ الله) وقد ضبطها بعضهم بالجيم والموحدة (٣) : أن مراده : ما في جسدي إلاَّ حبُّ الله ، وكم في الكتاب والسنة من كلامٍ يجب فيه التقدير ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي : أشربوا حبَّ العجل ، فأفهم .

وممَّا أجابوا به عن حجة الإسلام الغزالي في قوله : (ليس في الإمكان أبدع ممَّا كان) : أن مراده : ليس لنا إلاَّ رتبتان : قدم وحدوث ؛ فالحق سبحانه له رتبة القدم ، والحادث له

(١) انظر قوله في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٦٥) ، و« لطائف المنن » لابن عطاء (ص ٢٠٣) .

(٢) ذكر نحوه الإمام ابن عطاء الله السكندري في « لطائف المنن » (ص ٢٠٣) من كلام الإمام أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى ، وفيه : (المراد : أنهم وصلوا إلى مقامات توهموا أن ليس وراءها للموقنين مقام ، فقال الجنيد : لو أدرك صبياً من صبياننا . . لأسلم على يديه ؛ أي : لبيِّن له أنَّ فوق ذلك المقام مقاماً ، وفوق ذلك مقام إلى ما لا آخر له) .

(٣) وضبطها آخرون بالجيم والثاء المثلثة ، وعليهما فالمراد : الجسد ، وفي المطبوع أن القائل هو الشبلي لا الحلاج ، وقد نسبها للحلاج ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (١٤/٢) ، والصفدي في « الوافي بالوفيات » (٧١/١٣) ، ونسبها للشبلي الشعراني في « لطائف المنن » (١٢٢/١) ، ثم قال : (ولعل مراده رضي الله عنه : ما ثم في جسدي فاعل إلا الله تبارك وتعالى ، نظير قول بعضهم : ما في الكونين إلا الله تعالى ، فليس مراده نفي الكونين ولا أن الله سبحانه وتعالى يحل في خلقه - تعالى الله عن ذلك - لأنه أثبت وجودهما كما ترى ، ولكن جعل الله تعالى خالقاً لهم ولأفعالهم ، وقد اعتذر عن كلام الحلاج وغيره من مثل هذا وبيِّن المراد منه الإمام الغزالي في فصل من كتابه « مشكاة الأنوار » (ص ٤٠) .

وَإِنْ عَبْدُوا غَيْرِي وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ سِوَايَ وَإِنْ لَمْ يُضْمِرُوا عَقْدَ نِيَّةٍ^(١)

أن ذلك وقع منه على لسان الألوهية ، وأراد بقوله : (شهودٌ بتوحيدي) : التوحيد الحالي ، المُدخِل للمؤمن والكافر في حكم العبادة بالحال ، وقوله : (بحالٍ فصيحة) أخرج التوحيد المقالي ، ولم يتعرّض له ولا لأهله ؛ لأنّه مخصوص بالمؤمنين دون الكافرين ، وليس هو المقصود الأعظم في الآية المقتبس منها البيت وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ؛ (فشيء) نكرة في سياق النفي تعمُّ كلَّ شيءٍ ؛ مِنْ موحدٍ وجاحدٍ وحيوانٍ وجمادٍ ، فكأنَّ الحقَّ تعالى يقول : كلُّ شيءٍ يوحدني ويعبدني بباطنه وإن اختلف أمر ناطقيته ، فالقول بأنَّ كلَّ جاحدٍ في الظاهر موحدٌ في الباطن جائزٌ بين قوم يفقهون كلام الله ومواضع إشاراته ، لا الذين لا يحيطون بشيءٍ مِنْ أسرارهِ ، وأشار في الآية إلى التوحيد الحالي بقوله : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، ولكن هذا التوحيد الحالي لا ينفع الكافر ، بدليل حديث القبضتين^(٢) ، وحديث الفراغ^(٣) ، وحديث جفوف

(١) البيتان في «ديوان الإمام ابن الفارض» (ص ١١٣-١١٥) ، ورواية البيت الثاني فيه :

فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم
سواي وإن لم يظهروا عقد نية
وهما من تائيته الكبرى التي بلغت (٧٦٠) بيتاً ، ومطلعها :

سقتني حمياً الحبِّ راحةً مقلتي
وكأسي محياً مَنْ عَنِ الحسَنِ جَلَّتْ

وقد اعتنى بشرحها جماعة من الأعيان .

(٢) حديث القبضتين : هو ما أخرجه الإمام أحمد (١٧٦/٤) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قبض بيمينه قبضةً وأخرى باليد الأخرى ، وقال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ، ولا أبالي » قال الصحابي : فلا أدري في أي القبضتين أنا .

(٣) حديث الفراغ : هو ما أخرجه الترمذي (٢١٤١) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٣٥٧) ، وأحمد (١٦٧/٢) ، وغيرهم ، عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان ، فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قال : قلنا : لا ، إلا أن تخبرنا يا رسول الله ، قال للذي في يده اليمنى : « هذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالى ، بأسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم - أي : أحصوا وجمعوا - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » ، ثم قال للذي في يساره : « هذا كتاب أهل النار ، بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم ، لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلاي شيء إذن نعمل ، إن كان هذا أمراً قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدودوا وقاربوا ؛ فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل » ، ثم قال بيده قبضتها ، ثم قال : « فرغ ربكم عز وجل من العباد » ثم قال باليمنى ، فنبذ بها ، فقال : « فريق في الجنة » ، ونبذ باليسرى ، فقال : « فريق في السمير » .

الأقلام^(١) ، فلو كان ينفعهم .. ما دخل أحدٌ منهم النار ، فأفهم ، قاله في « تحفة الأكياس »^(٢) .

* * *

-
- (١) حديث جفوف الأقلام : هو ما أخرجه الترمذي (٣١١١) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١٦٩) ، والبزار في « مسنده » (١٦٨) ، وغيرهم ، عن عمر رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ فَيَنْهَضُ شَيْئًا وَسَوِيدٌ ﴾ . . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا نبي الله ؛ فعلى ما نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه ، أو على شيء لم يُفرغ منه ؟ قال : « بل على شيء قد فرغ منه وجفت به الأقلام يا عمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له » ، ونحوه من الأحاديث الكثيرة التي تبين أمر القدر ، وما كتب في اللوح المحفوظ من الغيب بسابق علم الله سبحانه وتعالى .
- (٢) وهو كتاب « تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس » للشيخ علي المصري رحمه الله تعالى .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

وَتَغَافَلَ عَنْ أُمُورِ إِنَّهُ لَمْ يَفْزُ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ

أي : أظهر من نفسك التغافل عن أمور غير محمودة وقعت من الناس ؛ لأنه لم يفز - أي : لم يظفر بالحمد ؛ أي : الثناء عليه من الله تعالى ومن الناس - إلا من غفل ؛ أي : من ترك أمور الناس ، ولم ينظر إلى عيوبهم (١) .

قال بعض الحكماء لولده : يا بني ؛ لا تطلع على عورات الناس وعيوبهم ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

وما أحسن ما قاله بعضهم :
إِنْ تَجِدَ عَيْبًا فَسُدَّ الْخَلَالَ جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا (٢)

فالأولى التغافل عن أمور الناس وأحوالهم وأقوالهم ؛ لأن « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، كما في الحديث (٣) ، ولأنه يحتمل أن يكون الفاعل للأمر غير المحمود ولياً مستتراً بهذا الأمر .

قال بعضهم : لكل ولي ستر :

فمنهم من يكون ستره بالمزاحمة على الدنيا ، وبطلب الرياسة ، وبالملايس الفاخرة .

(١) والله در أبي تمام إذ يقول في « ديوانه » (١٠٨/١) :

(٢) ليس الغبي بسيد في قومه البيت للحريري من أرجوزته المشهورة في النحو « ملحة الإعراب » التي جاءت في ثلاث مئة وأربعة وسبعين بيتاً ، وربما كانت أول أرجوزة متكاملة في النحو ، ولها شروح كثيرة ، وقد ضمن الأشطار الأولى من أبياتها ابن الوردي رحمه الله تعالى في « ديوانه » (ص ٢٧١) في قصيدة سماها : « تحفة الأحباب من ملحة الإعراب » ، ومنها قوله : [من الرجز]

وخلل عني يا عدول العذلا وإن تجسد عيباً فسد الخلالا
فقد رثي لي وألان القولا والحمد لله على ما أولى
فديت لون خدّه من خدّ كان حريراً فصار وردى

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٢٩) ، والترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره بالاشتغال بالعلم الظاهر ، والوقوف على ظاهر النصوص حتّى لا يكاد أحد يخرجُه عن آحاد طلبه العلم القاصرين .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره بسؤال الدنيا مِنْ أبنائها ، وطلب الوظائف مِنْ تدريس وإمامة وخطابة ، ونحو ذلك .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره بكثرة التردد إلى الملوك والأمراء والأغنياء .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره بالسطو والقهر على حسب ما يتجلى عليه الحق سبحانه وتعالى .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره بالسخریات ، وصفعه لقفاه ، وحلقه للحيته .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره بالكلام القبيح الذي لا يطيق أحد سماعه .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره ببلع الحشيشة ونحوها ، وفي حال بلعها تقلب له أكلاً مباحاً .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره بمعاشرته للفسقة والأولاد المرد .

ومنهم مَنْ يكون سِتْره بجلوسه عند الملاهي ، وهكذا ، فإيّاكم والمبادرة إلى سوء

الظنّ ، فربّما يكون مَنْ أسأتم به الظنّ وليّاً وهو مستتر بشيءٍ مِنْ هذه الأستار ، فتشتدّ عليكم العقوبة .

وقال شيخ الإسلام زكريّا الأنصاريّ : (إذا رأيتم أحداً مِنْ أرباب الأحوال يحسس بيده على النساء . . فإيّاكم أن تسيئوا به الظنّ) .

فقد حكى : أنّ فقيراً مريضاً دخل على الشيخ عبد السلام القليلي ، فأمر جاريته أن تخدمه إلى أن يبرأ ، فأستمرت تخدمه إلى أن عوفي ، فراودها عن نفسها وجذبها على ذلك ، فأبت وذهبت إلى الشيخ فأعلمته ، فقال لها : أكتمي ذلك وأنت حرّة ، فذهب إليه فلم يجده في الموضع الذي أنزله فيه ، فأتبعه خارج المنزل ، فرآه ماشياً على البحر ، فقال له : ما هذا وذاك ؟ فالتفت إليه وقال : لا ينبغي لنا أن تخدمنا الجارية ونرحل عنها بغير مكافأة على خدمتها بدون العتق^(١) .

وقال سيّدي عليّ المصري : (إذا رأيتم أحداً مِنْ العلماء في سعة مِنَ الدنيا وملابسها

(١) انظر القصة في « طبقات الصوفية » (٤٤٣/٢) .

ومراكبها . . . فإيّاكم أن تعترضوا عليه ؛ فإنّ العلماء كالمملوك ؛ فكما ينفق الملك على جنده ، كذلك العالم ينفق على طلبته ، وكما أنّ الجند يحفظون دين الإسلام من العدو الظاهر ، فكذلك طلبة العلم يحفظونه من العدو الباطن ، فكمال الدين لا يتمّ إلا بالمملوك والعلماء .
 وحكي عن أشهب صاحب الإمام مالك : أنّه كان في سعة من الدنيا ، وكانت معيشته معيشة المملوك^(١) .

وكانت بلاد جيزة مصر أقطاعاً للإمام الليث بن سعد ، وكان خراجها في كلّ سنة مئة ألف دينار ، ولم تجب عليه زكاة قط^(٢) .

وقد كان الفخر الرازي له ألف مملوك ، خلاف الجوّاري والخدم .

فالعلماء والأولياء على أقدام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبعض الأنبياء كان له مال ؛ كالسيد إبراهيم والسيد يوسف والسيد سليمان والسيد أيوب عليهم الصلاة والسلام ، وبعضهم لا مال له ؛ كالسيد نوح والسيد عيسى والسيد يحيى ووالده على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام .

وقال : إذا رأيتم أحداً يرفع صوته بذكر الله تعالى . . فأحملوه على أنّه يفعل ذلك محبةً في الله ، وطلباً لأحدٍ يذكر الله بذكره ، وتنهيضاً لهمم الإخوان ، لا لعلّةٍ أخرى من حظوظ النفوس ؛ فإنّ ذلك لا يجوز .

وقال : إذا سمعتم أحداً من الأولياء يقول : إنّ الله أطلعني على ما لم يطلع عليه عزرائيل . . فلا تعترضوا عليه ؛ فقد وقع أنّ عزرائيل نزل لقبض روح ولد الشيخ محمد الشربيني ، فقال له الشيخ : أرجع إلى ربك ؛ فإنّ الأمر قد نسخ ، بقي من أجل ولدي ثلاثون عاماً ، فكان الأمر كما قال الشيخ ، وعوفي ولده من تلك الضعفة ، وعاش ثلاثين عاماً^(٣) .
 وقال : إذا رأيتم أحداً من المشايخ تغيّر على من زار من تلامذته أحداً من أقرانه . .

(١) ولا عجب ؛ فقد كان على خراج مصر ، وكان صاحب أموال وحشم . « سير أعلام النبلاء » (٥٠١/٩) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣٢٢/٧) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (١١/١٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧٥/٥٠) ، ووقع عندهم أنّه كان يغل ثمانين ألف دينار في السنة .

(٣) انظر القصة في « طبقات الصوفية » (٤٥٤/٣) ، و« الطبقات الكبرى » للشعراني (١٣٥/٢) ، و« جامع كرامات الأولياء » (٢٩٦/١) .

فأحملوه على أنه ما تغيّر عليه إلا لمصلحته ؛ كأن أطلع عليه من طريق كشفه على أن فتحه لا يكون على يد غيره ، فأظهر له التكدّر ؛ ليلازمه إلى وقت الفتح مصلحة له ، لا لعلّة أخرى من حظوظ النفوس .

ومن كلام الشيخ محيي الدين بن العربي : ما سامح شيخ مريده في الاجتماع بغيره . . إلا حصل له تردّد في أيّ الشيخين أعلى من الآخر حتّى يتلمذ له ، وإذا حصل له ذلك . . رفضه قلب الاثنين ، فلم ينتفع بأحد منهما ، لأنّ شرط الانتفاع بشيخ . . جزم التلميذ بأنّه لا يخرج من دائرة شيخه حتّى يحصل له الكمال .

وقال : إذا رأيت أحداً من العلماء والصالحين يتردّد كثيراً إلى الملوك والأمراء والقضاة والأغنياء ، ويسألهم الدنيا ، ويطلب منهم الوظائف ؛ من تدريس وخطابة وإمامة ونحو ذلك . . فإنّك أن تعترض عليه ، كما يقع فيه القاصر في الفهم والإدراك فيقول : لو كان هذا ولياً أو عالماً عاملاً بعلمه . . ما تردّد إلى هؤلاء الأمراء ، بل يجلس في بيته أو زاويته ، ويشغل بعبادة ربّه ، ورحم الله العلماء والأولياء الذين سلفوا ، ونحو ذلك من ألفاظ الجسور ، ولو أستبرأ هذا القائل لدينه . . لوقف وتبصّر في أمر هؤلاء الأولياء والعلماء قبل أن يقدم عليهم ؛ فربّما كان تردّدهم لكشف ضرر ، أو خلاص مظلوم من سجن ، أو قضاء حاجة لأحد من عباد الله الذين لا يستطيعون توصيل حوائجهم إلى تلك الأمراء ، فيسألون في ذلك من يُعتقد فيه من الأولياء والعلماء ، فيجب عليهم الدخول على هؤلاء الأمراء لمصالح العباد ، ويحرم عليهم الامتناع ، وربّما كان طلب أحدهم الوظائف ليقوم فيها بالعدل ، ويتصرّف في ذلك بالمعروف ، وكذلك لا نعترض عليه إذا رأيناه يأكل من أموال الظلمة ؛ لاحتمال أنّه ما أكله إلا عند الضرورة الشرعية ، بخلاف ما إذا رأيناه يجمع مال الظلمة ولا يعطي أحداً من المحتاجين شيئاً ، ويتوسّع هو به في مأكله وملبسه ، فمثل هذا ننكر عليه قياماً بواجب الشرع ، وشفقة على دينه من النقص ، وعلى لحمه من النار ، ثمّ بعد إنكارنا عليه نتوجّه إلى الله تعالى وندعو له بالمغفرة والعفو وإرضاء الخصوم الذين جمع ذلك الظالم المال منهم ، ثمّ نشكر الله تعالى الذي عافانا من مثل ذلك) قاله في « تحفة الأكياس » .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٥٢

لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدِّهِ وَإِنْ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ

أي : ليس يخلو الإنسان من ضد - أي : شخص مضاد ومخالف له - وإن حاول العزلة - أي : الاعتزال عن الناس - في رأس جبل ، بل وإن كان نبياً مرسلأ ، كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام مع أمهم ممأ هو منصوص في الكتاب العزيز ، خصوصاً نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ فإن قريشاً خالفوه وعادوه حتى خرج من بلده مكة وهاجر إلى المدينة المنورة ، فلا بُدَّ لكل مخلوق من ضد ينازعه ، والأولى للواحد من الصبر والتسلي بالماضين ، كما قال صلى الله عليه وسلم في قصة مشهورة : « يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَى ؛ لَقَدْ أُوزِيَ بِأَكْثَرِ مَنْ هَذَا فَصَبَرَ » (١) .

[من الخفيف]

ولله درُّ البوصيري حيث قال :

فَتَسَلُّوا بِمَنْ مَضَى إِذْ ظَلِمْتُمْ فَالتَّسَلَّى لِلنَّفْسِ فِيهِ عَزَاءٌ (٢)

ولو لم يكن للإنسان عدو أصلاً غير إبليس لعنه الله . . لكان كافياً ؛ لأن من المعلوم أنه أعدى الأعداء لبني آدم .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

(٢) البيت في « ديوان البوصيري » (ص ٦٢) من القصيدة الهزمية المشهورة التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأفتتح بها « ديوانه » ، فطارت بها الركبان وحازت قصب السبق في هذا الميدان ، وتناولها بالشرح والتبيين والمعارضة والختم والتخميس جمع من الأعيان ، ومن أجل شروحيها : « المنح المكية » للإمام الهمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى ، وهو أحد منشورات (دار المنهاج) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به أمين :

٥٣

مِلَّ عَنِ النَّمَامِ وَأَهْجُرُهُ فَمَا
بَلَغَ الْمَكْرُوهَ إِلَّا مَنْ نَقَلَ

أي : أترك النمام ودعه ، فقوله : (وأهجره) تفسيرٌ لِمَا قبله ، وعلل ذلك بقوله : (فما بلغ) أي : أوصل المكروه - أي : الشيء الذي تكرهه النفس - إلا الذي نقله لك وأخبرك به^(١) .
والنمام : كثير النمام ؛ وهو : السعي بالحديث ليوقع فتنة أو وحشة في القلوب^(٢) ، وهو حرام إجماعاً ما لم تدع الحاجة إليه ؛ كما إذا أخبرك شخص أن إنساناً يريد البطش بك أو بمالك أو بأهلك ، فهذا ونحوه ليس بحرام ، كما صرح به النووي رحمه الله تعالى^(٣) .
والمذاهب متفقة على أنه كبيرة ؛ لحديث الصحيحين : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ »^(٤) أي : مع السابقين .

(١) ونحوه قول الزهيري :

[من مجزوء الكامل]

بِمَنْ إِلَيَّ قَدْ وَشَى
بِقَلِّ سَوْءٍ وَلَغَا
مَنْذَمْتِي سَمِعْتُهَا
مِنَ الَّذِي قَدْ بَلَغَا

وفي المثل : (مبلغ السوء كباغيه) ، و (المبلغ أحد الشاتمين) ، ثم يجب على من حملت إليه النميمة من أحد ستة أمور كما قال الإمام الغزالي في « الإحياء » (١٥٦/٣) : أحدها : ألا يصدق ؛ لأن النمام فاسق ، وهو مردود الشهادة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِهِدْلًا ﴾ . الثاني : أن ينهأ عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله ، قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ . الثالث : أن يبغضه في الله تعالى ؛ فإنه بغض عند الله تعالى ، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى . الرابع : ألا يظن بأخيه الغائب السوء ؛ لقوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ ﴾ . الخامس : ألا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث للتحقق ؛ اتباعاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ . السادس : ألا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه ، ولا يحكي نمييمته فيقول : فلان قد حكى لي كذا وكذا ، فيكون به نامماً ومغتتاباً ، ويكون قد أتى ما عنه نهى .

(٢) وذهب الإمام الغزالي في « الإحياء » (١٥٦/٣) في حدما إلى أعم من ذلك ، وأن حقيقة النميمة : إفشاء السر ، وهتك السر ، وكشف ما يكره كشفه ، سواء كان عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث .

(٣) انظر « شرح صحيح مسلم » (١١٣/٢) .

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥) ، ولفظ البخاري : « قَتَاتٌ » بدل : « نام » .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَلْ تَدْرُونَ مَنْ شِرَارُكُمْ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذُو أَلْوَجْهِينِ الَّذِي يَأْتِي هَذَا بِوَجْهِهِ وَهَذَا بِوَجْهِهِ » (١) .

وعن الحسن رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شَرُّ النَّاسِ ذُو أَلْوَجْهِينِ يَأْتِي هُوَ لَاءِ بِوَجْهِهِ وَهُوَ لَاءِ بِوَجْهِهِ ، وَمَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ فِي الدُّنْيَا . . يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ » (٢) .

وروي عن حماد بن سلمة أنه قال : (باع رجل من رجل غلاماً ، فقال للمشتري : ليس فيه عيب إلا أنه نمامٌ ، فأستخفَّ المشتري بهذا العيب ، وأستراه على ذلك العيب ، فمكث الغلام عنده أياماً ، ثم قال لزوجته مولاة : إنَّ زوجك لا يحبُّك ، وهو يريد أن يتسرَّي عليك - يعني : يريد أن يشتري جارية - أفتريدين أن يعطف عليك زوجك ؟ قالت : نعم ، قال لها : خذي هذا الموسى وأحلقي شعرات من باطن لحيته إذا نام ، ثمَّ جاء الغلام إلى الزوج فقال : إنَّ أمراتك تخادنت - أي : أتخذت خليلاً - وهي قاتلتك ، أتريد أن يتبين لك ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فتناوم لها ، ففعل الرجل ، فجاءت المرأة بالموسى لتحلق الشعرات ، فظنَّ الزوج أنَّها تريد قتله ، فأخذ منها الموسى ، فقتلها به ، فجاء أولياؤها فقتلوه ، وجاء أولياء الرجل ، ووقع القتال بين الفريقين) (٣) .

وقال يحيى بن أكثم : (النمام شرٌّ من الساحر ؛ لأنَّ النمام يعمل في ساعة ما لا يعمله الساحر في شهر) .

وقال الحسن البصري : (مَنْ نَقَلَ إِلَيْكَ حَدِيثًا . . فَأَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقُلُ إِلَيَّ غَيْرَكَ حَدِيثَكَ) (٤) .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٥) ، ومسلم (٢٥٢٦) .

(٢) أخرجه شطره الثاني من حديث الحسن عن أنس مرفوعاً أبو يعلى في « مسنده » (٢٧٧١) ، والقضاعي في « مسنده » (٤٦٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٦٠/٢) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٢٦٢/١٨) ، وأخرج شطره الثاني هناد في « الزهد » (١١٣٨) ، وتمام في « فوائده » (١١٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥/٥٤) . وما أجمل قول الشاعر كما في « الاستذكار » (٣٦٨/٢٧) :

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَشْكُرُنِي حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غِبْتُ شَتَمَ

(٣) ذكرها الذهبي رحمه الله تعالى في « الكباير » (ص ١٧٥) .

(٤) « الكباير » (ص ١٧٤) ، وهو معنى قولهم : (مَنْ لَكَ نَمٌّ عَلَيْكَ) .

وروي عن عمر بن عبد العزيز : أنه دخل عليه رجل ، فذكر عنده رجلاً ، فقال له عمر :
 إن شئت نظرنا في أمرك ؛ إن كنت كاذباً . فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
 فَتَبَيَّنْهُ ﴾ ، وإن كنت صادقاً . فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَامٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ، وإن
 شئت . . عفونا عنك ، فقال : العفو يا أمير المؤمنين ، ولا أعود إلى مثل ذلك ^(١) .

وروي عن كعب الأحبار أنه قال : (أصاب بني إسرائيل قحط ، فخرج بهم موسى عليه
 الصلاة والسلام ثلاث مرّات يستسقون ، فلم يسقوا ، فقال موسى عليه الصلاة والسلام :
 إلهي ؛ عبادك قد خرجوا ثلاث مرّات فلم تستجب دعاءهم ؟! فأوحى الله تعالى إليه : إنني
 لا أستجيب لك ولمن معك ، وفيكم رجل نمام قد أصرّ على النميمة ، فقال موسى عليه
 الصلاة والسلام : ياربّ ؛ مَنْ هو حتى نخرجه من بيننا ، فقال الله تبارك وتعالى :
 يا موسى ؛ أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً ، قال : فوعظهم موسى عليه السلام وقال :
 توبوا عن النميمة جميعاً ، فتابوا بأجمعهم ، فسقوا) اهـ

ولقبح النميمة عند الله سبحانه وتعالى وصف الله الوليد بن المغيرة بعشرة أوصاف
 مذمومة ، وذكر منها النميمة ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَامٍ بِنَمِيمٍ ﴾
 الآية .

قال ابن قتيبة : (لا نعلم أنّ الله عزّ وجلّ وصف أحداً بالذمّ مثل ما وصف الوليد بن
 المغيرة) .

ومراد الناظم رحمه الله تعالى بالنمام : ما يشمل المغتاب أيضاً ؛ وذلك لأنّ الغيبة
 والنميمة كالفقير والمسكين عند الفقهاء ، وكالظرف والجار والمجرور عند النحاة ، فمتى
 اجتمعاً . . أفترقا ، ومتى أفترقا . . اجتمعاً .

والغيبية : ذكر الإنسان ولو بما فيه مما يكرهه ، سواء ذكرت ما فيه بلفظك أو بكتابتك أو
 بإشارة إليه بعينك أو يدك أو رأسك ؛ وضابطه : كلّ ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم . . فهو
 غيبية ، والغيبية بالقلب محرّمة كهي باللسان ، وكما تحرم الغيبة على المغتاب . . يحرم
 أستماعها وإقرارها ، وهي تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب اليابس .

(١) انظر «الكبائر» (ص ١٧٣) .

قال في « تنبيه الغافلين » ما نصّه : (عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « أَتَدْرُونَ مَا أَلْغِيْبَةُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « إِذَا ذَكَرْتَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » ، قيل : رأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ . . فَقَدْ أَعْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ . . فَقَدْ بَهَتَّهُ »^(١) أي : قلت فيه بهتاناً .

وعن بعضهم أنّه قال : لو قلت : إن فلاناً ثوبه طويل أو ثوبه قصير . . يكون غيبة ، فإذا كان ذلك في ثيابه . . ففي نفسه بالأولى .

وعن ابن أبي نجیح^(٢) قال : بلغني أنّ امرأة قصيرة دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلمّا خرجت . . قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : ما أقصرها ! فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَعْتَبْتِيهَا » ، قالت عائشة : ما قلت إلا ما فيها ، فقال : « ذَكَرْتِ أَفْبَحَ مَا فِيهَا »^(٣) .

وعن أبي سعيد الخدريّ : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَيْلَةٌ أُسْرِي بِي مَرَزْتُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِقَوْمٍ يُقَطِّعُ اللَّحْمَ مِنْ جُنُوبِهِمْ ، ثُمَّ يَلْقَمُونَهُ فَيَقَالُ لَهُمْ : كُلُوا مَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ مِنْ لَحْمِ إِخْوَانِكُمْ ، قُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ ؛ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : أَلْهَمَّازُونَ مِنْ أُمَّتِكَ أَلَلَّمَّازُونَ »^(٤) يعني : المغتابين .

وعن جابر بن عبد الله قال : هاجت ریح منتنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) ، وأبو داود (٤٨٧٤) ، والترمذي (١٩٣٤) .

(٢) في الأصل : (وعن أبي يحيى) ، والتصويب من « تنبيه الغافلين » .

(٣) أخرجه عن ابن أبي نجیح مرسلأ السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ١٦١) ، وبنحوه أحمد (١٣٦/٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٠٦) من طريق أبي حذيفة سلمة بن صهيب عن عائشة رضي الله عنها ، وإسحاق بن راهويه في « مسنده » (١٦١٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٠٤) ، وهناد في « الزهد » (١١٩٠) ، عن طريق حسان بن المخارق عنها .

(٤) أخرجه مختصراً السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ١٦١) ، وهو قطعة من حديث الإسراء الذي أخرجه الحارث في « مسنده » كما في « زوائد الهيثمي » (٢٧) ، والطبري في « تهذيب الآثار » (٧٢٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١٢/٣) ، وبنحوه أخرجه أبو داود (٤٨٧٨) . وما أجمل قول الصاحب بن عباد كما في « بهجة المجالس » (٣٩٨/١) :

فسق لا رخصة فيه
كل من لحم أخيه

احذر الغيبة فهي ال
إنما المغتاب كالأ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ نَاسًا مِنَ الْمُتَأَفِّقِينَ قَدِ اغْتَابُوا أَنَسًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَلِذَلِكَ هَاجَتْ هَذِهِ الرِّيحُ » (١) .

قال بعض الحكماء : إِنَّ رِيحَ الغَيْبَةِ كَانَ يَظْهَرُ مُنْتَنًا فِي عَهْدِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَليسَ يَتَنُّ فِي يَوْمِنَا هَذَا ؛ لِأَنَّ الغَيْبَةَ قَدِ كَثُرَتْ فِي يَوْمِنَا هَذَا وَأَمْتَلَأَتْ الأَنْوْفَ مِنْهَا ، فَلَمْ تَوَثِّرِ الرَّائِحَةَ ، وَيكونُ مِثَالُ هَذَا : مِثَالُ رَجُلٍ دَخَلَ دَارَ الدِّبَاغِينَ لَا يَقْدِرُ عَلَى القَرَارِ فِيهَا مِنْ شِدَّةِ الرَّائِحَةِ ، وَأَهْلُ تِلْكَ الدَّارِ يَأْكُلُونَ فِيهَا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِيهَا الشَّرَابَ وَلَا تَتَبَيَّنُ لَهُمُ الرَّائِحَةُ ؛ لِأَنَّهُ قَدِ أَمْتَلَأَتْ أَنْوْفَهُمْ مِنْهَا ، فَكَذَلِكَ رَائِحَةُ الغَيْبَةِ فِي يَوْمِنَا هَذَا .

وروي عن الحسن البصري : أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ : إِنْ فُلَانًا قَدِ اغْتَابَكَ ، فَبَعثْ إِلَيْهِ طَبَقًا مِنْ رَطْبٍ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي قَدِ بَلَّغْتَنِي أَنَّكَ قَدِ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ حَسَنَاتِكَ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكافُتَكَ بِهَا ، فَأَعذِرْنِي ؛ فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أَكافُتَكَ بِهَا عَلَى التَّمَامِ (٢) .

وذكر : أَنَّ أبا أَمَامَةَ البَاهِلِيِّ قَالَ : إِنْ العَبْدَ لِيُعْطَى كِتَابَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَرَى فِيهِ حَسَنَاتٍ لَمْ يَكُنْ عَمِلَهَا ، فيقولُ : يَا رَبِّ ؛ مِنْ أَيْنَ لِي هَذَا ؟ فيقولُ لَهُ : هَذَا بِمَا اغْتَابَكَ النَّاسَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ (٣) .

قال كعب الأحبار : « قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الكُتُبِ : أَنَّ مَنْ مَاتَ تَائِبًا مِنَ الغَيْبَةِ . . كَانَ آخِرَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ ، وَمَنْ مَاتَ مَصْرًا عَلَيْهَا . . كَانَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ » .

وروي عن حاتم الزاهد أَنَّهُ قَالَ : « ثَلَاثَةٌ إِذَا كُنَ فِي مَجْلِسٍ . . فَالرَّحْمَةُ عَنْهُمْ مَصْرُوفَةٌ : ذِكْرُ الدُّنْيَا ، وَالضَّحْكَ ، وَالوَقِيعَةُ فِي النَّاسِ » .

وذكر عن إبراهيم بن أدهم أَنَّهُ دُعِيَ إِلَى طَعَامٍ ، فَلَمَّا جَلَسَ . . قَالُوا : إِنْ فُلَانًا لَمْ يَجِءْ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : إِنَّهُ رَجُلٌ ثَقِيلٌ ، فَقَالَ إِبرَاهِيمُ : إِنَّمَا فَعَلَ بِي هَذَا بَطْنِي حَيْثُ شَهِدْتُ طَعَامًا اغْتَيْبَ فِيهِ المُؤْمِنُ ، فَخَرَجَ وَلَمْ يَأْكُلْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ .

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٣٢ و ٧٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٣٠٦) ، وأحمد (٣٥١/٣) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (١٠٢٨) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٣١٠) .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (١٥٤/٣) .

(٣) أخرجه في « الفردوس » (٧٤٤) ، وابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٢٢) مرفوعاً .

وذكر عن وهيب^(١) [بن الورد] المكي أنه قال : « لَأَن أَدَعَ الْغَيْبَةَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِي الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا وَمَا فِيهَا مِنْذُ خُلِقْتُ إِلَى أَنْ تَفْنَى فَأَجْعَلُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ »^(٢) .

وقال بعضهم : ثلاثة لا تكون غيبتهم غيبة : سلطان جائر ، وفاسق معطن ، وصاحب بدعة^(٣) ؛ يعني : إذا ذكر فعلهم ، وأمّا إذا ذكر شيء من أبدانهم بعب . . فذلك غيبة كغيرهم ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ ؛ كَيْ يَخْذَرَ النَّاسُ مِنْهُ »^(٤) (اهـ)^(٥)

وقد ذكر العلماء أنه تباح في ستة مواضع نظمها العلامة الجوهرية في قوله : [من الوافر]

لِسِتِّ غَيْبَةٍ جَوُوزٌ وَخُذَهَا مُنْظَمَةٌ كَأَمْثَالِ الْجَوَاهِرِ
تَظَلَّمُ وَأَسْتَعِينُ وَأَسْتَفْتِ حَذْرٌ وَعَرَّفَ وَأَذْكَرُنْ فِسْقَ الْمُجَاهِرِ^(٦)

وسنذكرها مبينة على ترتيب النظم فنقول :

الأول : التظلم ؛ أي : فيجوز للمظلوم أن يتظلم للسلطان أو القاضي أو نحوهما ممن له قدرة على إنصافه ممن ظلمه ، فيقول : ظلمني فلان بكذا وكذا ، ولا يزيد على الحاجة .

والثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ، فتقول لمن ترجو قدرته على إزالة المنكر : فلان

(١) في الأصل : (أبي وهيب) ، والتصويب من « تنبيه الغافلين » والمصادر .

(٢) أخرجه أبو الشيخ في « التوبيخ والتنبيه » (١٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٥٣/٨) .

(٣) ذكره في « الإحياء » (١٥٣/٣) عن الحسن رحمه الله تعالى .

(٤) أخرجه البيهقي في « السنن » (٢١٠/١٠) ، و « الشعب » (٩٢١٩) و (٩٢٢٠) ، والطبراني في « الكبير »

(٤١٨/١٩) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٢٠) ، وابن عدي في « الكامل » (١٧٣/٢) و (١٣٤/٥) ، وابن

الجوزي في « العلل المتناهية » (٧٧٩/٢) ، وابن حبان في « المجروحين » (٢٦١/١) ، والعقيلي في « الضعفاء »

(٢١٩/١) ، وانظر « تخريج الأحاديث والآثار » للإمام الزيلعي (٣٣٨/٣) .

(٥) « تنبيه الغافلين » (ص ١٦١-١٦٧) .

(٦) أوردهما العلامة النفاوي في « الفواكه الدواني » (٢٧٩/٢) ، والعلامة الصاوي في « شرح جوهرة التوحيد »

(ص ٣١٦) ، ونحوهما قول ابن أبي شريف كما في « سبل السلام » (١٩٤/٤) : [من الكامل]

متظلمٌ ومعرَّفٌ ومحرَّرٌ

طلب الإعانة في إزالة منكر

الذمُّ ليس بغيبة في ستة

ولمظهر فسقاً ومستفتٍ ومن

يفعل المنكر كالزنا وشرب الخمر ، وتقصد بذلك أن يعينك على إزالة ذلك المنكر ، فإن لم تقصد ذلك . . كان حراماً .

والثالث : الاستفتاء ، فتقول للمفتي : ظلمني أبي أو أخي أو نحوهما ، فهل له ذلك أم

لا ؟

والرابع : التحذير ؛ أي : تحذير المسلمين من الشرِّ ونصحيتهم من وجوه :

منها : جرح المجروحين من الرواة والشهود ، وذلك جائز بالإجماع ، بل هو واجب للحاجة .

ومنها : المشاورة في مصاهرة إنسان أو في مشاركته أو في إيداعه أو في معاملته أو نحو ذلك ، ويجب على المستشار ألا يُخفي شيئاً من العيوب التي فيه ، بل يذكرها بنيتة النصيحة .

ومنها : أن يكون الشخص في ولاية لا يقوم بها لعدم صلاحه لها ، أو لفسقه أو لتغفله^(١) ، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية ؛ ليزيله ويولي من يصلح لها ، أو ليحثه على الاستقامة .

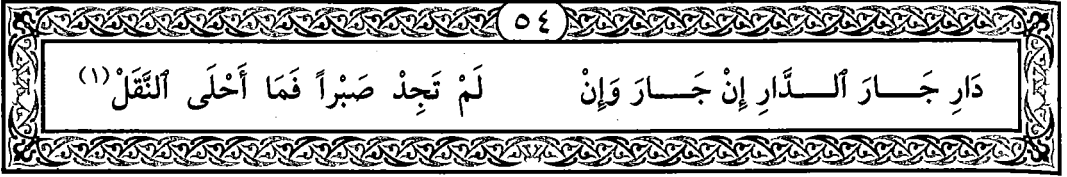
والخامس : التعريف ، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقبٍ ؛ كالأعمش والأعرج والأعمى والأحول والأصم ونحوهم . . جاز تعريفهم بذلك ، ويحرم ذكره على جهة التنقيص .

والسادس : أن يكون متجاهراً بالفسق ؛ كالمتجاهر بشرب الخمر وأخذ المكوس وأخذ أموال الناس ظلماً ، فهذه ستة مواضع تجوز فيها الغيبة .

* * *

(١) التغفل والتغافل : تعمّد الغفلة والسهو .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :



أي : لاطف جار الدار ، ولين كلامك معه إن جار عليك وظلمك ، وبالأولى ما لو أحسن إليك ولم يؤذك ، وإن لم تجد صبراً منك على ظلمه وجوره عليك . . فما أحلى النقل ؛ أي : الانتقال والتحوّل من هذه الدار إلى محلّ بعيد ، فإن أرض الله واسعة^(٢) .

قال العلماء : المداراة : الملاطفة ولين الكلام ؛ وهي من الخصال الحميدة ؛ لأنها تدلّ على التواضع وحسن الخلق ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « أَمْرِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمْرِي بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ »^(٣) .

وقال بعض الحكماء : في المداراة سلامة الدين والدنيا .

وتخصيص الناظم رحمه الله تعالى الجار بالمداراة وإن كانت مطلوبة لكلّ أحد ؛ لزيادة الوصية والاعتناء بالجار^(٤) ؛ لما ورد فيه من الآيات والأحاديث ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالْجَارِ الْجُنبِ ﴾ .

(١) في المطبوع : (دار جار السوء) .

(٢) ونحو هذا قول ابن الورد في « ديوانه » (ص ٣١٠) :

[من مجزوء الرجاء]

فدونك التحوُّلا
فكن به مستبدلا
من صاحب وإن علا
ومن تورأى فإلى

إذا كرهت منزلا
وإن جفأك صاحب
لا تحملن إهانة
فمن أتى فمرحبا

(٣) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (١٥ / ٢) ، والدبلي في « الفردوس » (٦٥٩) .

(٤) وإلا . . فمداراة الناس جملة من الخصال الحميدة ، قال الإمام البيهقي في « الشعب » (٨١١٧) : (قال سهل بن عبد الله التستري : فمن خالطهم - أي : الناس - دارهم ولم يمارهم ؛ فإن مداراتهم صدقة ، ومداراة الوالد فريضة ، ومداراة ذوي الأرحام سنة ، ومداراة السلطان طاعة ، ومداراة أهل البدع مداينة ، ومداراة الأحمق شرف ، والشرف التغافل ، والسلامة للجميع الفرد بالله عز وجل) .

قال ابن عباس : (الجار القريب : الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجُنْبُ : الذي لا قرابة بينك وبينه) (١) .

وقيل : [ذي] القربى : المسلم ، والجنب : الذمّي (٢) .

(وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَبَعَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَيَقُولُ لَهُمْ أَدْخُلُوا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ - الأول - : الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ - يعني : اللائط والملوط به ، الثاني - : النَّاِكْحُ يَدَهُ - الثالث - : نَاِكْحُ الْبَيْمَةِ - الرابع - : نَاِكْحُ الْمَرْأَةِ فِي دُبْرِهَا - الخامس - : مُجَامِعُ الْمَرْأَةِ وَبِنْتِهَا - السادس - : الزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ - السابع - : الْمُؤْذِي جَارَهُ » (٣) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يُسَلِّمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسَلِّمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَلَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَأْمَنَ جَارَهُ بَوَائِقَهُ » ، فقلنا : يا رسول الله ؛ وما بوائقه ؟ قال : « غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ » (٤) .

وعن سعيد بن المسيّب أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حُرْمَةُ الْجَارِ عَلَى الْجَارِ كَحُرْمَةِ أُمَّهِ عَلَيْهِ » (٥) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » (٦) .

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٩٤٣٨) و (٩٤٤٨) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٢٩٦) و (٥٢٩٩) والبيهقي في « الشعب » (٩٠٧٩) .

(٢) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٩٤٤٧) و (٩٤٥٧) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٥٢٩٨) و (٥٣٠١) من قول نوف الشامي .

(٣) سبق تخريجه (ص ٦٥) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥١٣٦) ، والبغوي في « شرح السنة » (٢٠٣٠) ، وأحمد (٣٨٧ / ١) ، والسمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ١٤٠) ، ووقع عند الجميع سوى السمرقندي : (غَشْمُهُ) ، وَالْعَشْمُ : الظلم ، وعليه : فالعطف هو عطف تفسير ، ووقع عند السمرقندي : (غشه) ، والرسم في الأصل يحتملها .

(٥) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ١٤٠) ، وبنحوه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٢٣) .

(٦) أخرجه البخاري (٦٤٧٥) ، ومسلم (٤٧) .

وعن الحسن البصريّ أنّه قال : قيل : يا رسول الله ؛ ما حقُّ الجار على الجار ؟ قال : « تَسْعَةُ أَشْيَاءَ : إِنْ أَسْتَقْرَضَكَ . . أَقْرَضْتَهُ ، وَإِنْ دَعَاكَ . . أَجَبْتَهُ ، وَإِنْ مَرَضَ . . عُدْتَهُ ، وَإِنْ أَسْتَعَانَ بِكَ . . أَعَنْتَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ . . عَزَيْتَهُ ، وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ . . هَنَأْتَهُ ، وَإِنْ مَاتَ . . شَهِدْتَهُ ، وَإِنْ غَابَ . . حَفِظْتَهُ^(١) - [يعني] : منزله وعياله - وَلَا تُوْذِهِ [بِقِتَارِ قَدْرِكَ - أي : ريحه - إِلَّا أَنْ تُهْدِيَ إِلَيْهِ مِنْهُ] »^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ »^(٣) .

وعن جابر الأنصاريّ ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ حُقُوقٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةٌ حُقُوقٍ . . فَجَارُكَ الْقَرِيبُ الْمُسْلِمِ ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ . . فَجَارُكَ الْمُسْلِمُ أَيْضًا ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ . . فَهُوَ جَارُكَ الذَّمِّيُّ »^(٤) ، فينبغي أن يعرف الجار حقَّ الجار وإن كان ذميًّا .

ويقال : مَنْ مات وله جيران ثلاثة وهم راضون عنه . . غفر له .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنّه جاءه رجل يشكو إليه جاره ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُفَّ أَدَاكَ عَنْهُ ، وَأَصْبِرْ عَلَى آذَاهُ ، وَكَفَى بِالْمَوْتِ مُفَرِّقًا »^(٥) .

-
- (١) وقع في الأصل : (عزه) و(اشهده) و(احفظ) ، والتصويب من المصادر .
(٢) أخرجه السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ١٤١) من حديث الحسن مرسلًا ، وأخرجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (٩١١٣) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٢٤٣٠) ، وابن عدي في « الكامل » (١٧١/٥) .
(٣) أخرجه ابن حبان (٥١٢) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو عند البخاري (٦٠١٤) ، ومسلم (٢٦٢٤) من حديث عائشة رضي الله عنها .
(٤) أخرجه الطبراني في « مسند الشاميين » (٢٤٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٤٥٨) .
و حقوق الجار القريب المسلم : حق القرابة ، وحق الإسلام ، وحق الجوار ، وحق الجار المسلم : حق الإسلام ، وحق الجوار ، وحق الجار الذمي : حق الجوار فقط .
(٥) أخرجه الحسين المروزي في « البر والصلة » (٢٢٢) ، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٢٨) عن أبي عبد الرحمن الجبلي مرسلًا .

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : ليس حسنُ الجوار كفَّ الأذى عن الجار ، ولكن حسن الجوار : الصبر على أذى الجار^(١) .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ثلاثة خصال مستحسنة كانت في الجاهلية ، والمسلمون أولى بها :

أولها : لو نزل بهم ضيف . . أجتهدوا في برِّه .

الثاني : لو كانت لأحدهم امرأة كبيرة عنده . . لا يطلِّقها ، ويمسكها مخافة أن تضيع .

الثالث : إذا لحق بجارهم دين أو أصابته شدة . . أجتهدوا حتَّى يقضوا عنه دينه ، وأخرجوه من تلك الشدة .

وروى أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ الْجَارَ لَيَتَعَلَّقُ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ وَسَعَتَ عَلَيَّ أَخِي هَذَا وَقَتَّرَتْ عَلَيَّ ، أُمْسِي جَائِعاً وَهُوَ يُمْسِي شَبْعَانَ ، فَاسْأَلُهُ يَا رَبِّ لِمَ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي وَحَرَمَنِي مِمَّا قَدْ وَسَّعْتَ بِهِ عَلَيْهِ »^(٢) .

وعن سفیان الثوري أنه قال : من الجفاء أن يشبع الرجل وجاره جوعان لا يطعمه شيئاً من طعامه .

وقال بعضهم^(٣) : تمام حسن الجوار في أربعة أشياء :

الأول : أن يواسيه بما عنده .

الثاني : ألا يطعم فيما عند جاره .

الثالث : أن يمنع أذاه عنه .

الرابع : أن يصبر على أذاه ، والله أعلم (قاله في « تنبيه الغافلين »^(٤)) .

(١) ذكره في « جامع العلوم والحكم » (ص ١٢٩) وأخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨١/٢٥) من قول الشعبي رحمه الله تعالى .

(٢) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٢٢/٢) من حديث جابر رضي الله عنه ، وله شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنه عند المروزي في « البر والصلة » (٢٥١) سيأتي بعد قليل .

(٣) هو الفقيه السمرقندي رحمه الله تعالى .

(٤) « تنبيه الغافلين » (ص ١٤٠-١٤٤) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الرَّجُلَ لَهُ الْجَارُ الشَّوْءُ يُؤْذِيهِ فَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُ وَيَحْسَبُهُ حَتَّىٰ يَكْفِيَهُ اللَّهُ بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ » رواه ابن عساکر عن أبي هريرة (١) .

وقد كان لمالك بن دينار جار يهودي ، فحوّل اليهوديُّ مُستحمّه إلى جدار البيت الذي فيه مالك ، وكان الجدار متهدماً ، فكانت تدخل منه النجاسة ومالك ينظف البيت كلَّ يوم ولم يقل شيئاً ، وأقام على ذلك مدّة وهو صابر على الأذى ، فضاق صدر اليهوديِّ من كثرة صبره على هذه المشقّة ، فقال له : يا مالك ؛ أذيتك كثيراً وأنت صابر ولم تخبرني ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ » (٢) ، فندم اليهوديُّ وأسلم وحسّن إسلامه .

وعن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كَمْ جَارٍ يَتَعَلَّقُ بِجَارِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونِي ، فَامْتَعِنِي مَعْرُوفَةً » (٣) .

وعن أبي شريح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ » ، قال : لقد خاب وخسر ، مَنْ هو يا رسول الله ؟ قال : « مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » (٤) أي : غوائله وشروره .

ثمّ الجار يقع على الساكن مع غيره ، وعلى الملاصق وهو المراد من كلام الناظم ، وعلى أربعين داراً من كلّ جانب ؛ فقد سئل الحسن البصريُّ عن الجار فقال : أربعون داراً أمامه ، وأربعون خلفه ، وأربعون عن يمينه ، وأربعون عن يساره .

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٨٨ / ٢) ، والبيهقي في « السنن » (١٦٠ / ٩) ، وأحمد (١٥١ / ٥ و ١٧٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٥٢ / ٢) ، وابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٢٩٢ / ٥٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٨٥) .

(٣) أخرجه الحسين المروزي في « البر والصلة » (٢٥١) ، وأخرجه ابن عساکر في « تاريخ دمشق » (١٠٨ / ٤٣) من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١٦) ، وأحمد (٣١ / ٤) عن أبي شريح وأبي هريرة ، وأخرجه عن أبي شريح البيهقي في « الشعب » (٩٠٨٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٨٧ / ٢٢) .

تَتِمَّة

[في معنى لطيف مستفاد من حديث الأمر بإكرام الجار]

في قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » معنىً لطيف ، وهو أنه إذا أمر بإكرام الجار مع الحائل بين الإنسان وبينه ، فينبغي أن يراعي حقَّ الحافظين للذين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل^(١) ، فلا يؤذيهما بإيقاع المخالفات ؛ فقد ورد : أنَّهما يُسرَّان بوقوع الحسنات ، ويحزنان بوقوع السيئات ، فينبغي إكرامهما ورعاية حقَّهما بالإكثار من الطاعات وتجنُّب المحرِّمات ، فهما أولى بالإكرام من جميع الجيران . اهـ

* * *

(١) وهما : الملكان الموكلان بتسجيل الحسنات والسيئات ، قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، وهذا مشرب عال من المؤلف ، يتذوق من خلاله معنى قوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ، فنسأل الله تعالى التوفيق لحسن الرعاية والمراقبة في السر والعلن .

جَانِبِ السُّلْطَانِ وَأَحْذَرُ بَطْشَهُ لَا تُخَاصِمُ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلَ^(١)

أي : أترك السلطان وتباعد عنه ، ولا تذهب إليه إلا بقدر الحاجة والضرورة ما لم يترتب على ذهابك إليه خيرٌ ؛ من شفاعة أو وعظ له أو نحو ذلك .

وقوله : (وأحذر بطشه) أي : أخذه بقوة وعنف ، (ولا تخاصم من) أي : الذي (إذا قال) قولاً (فعل) فعلاً على طبقه ، ولا يرده عنه رادٌ ؛ أي : لا تظهر له المخاصمة والعناد ؛ لأن ذلك يؤدي إلى البطش بمالك أو بك .

والمراد بـ(السلطان) : من له سلطة وقوة وشوكة ، فيشمل غير ولاية الأمور ممن له شوكة .

ففي هذا البيت تصريح بأجتناب السلطان وعدم الاجتماع عليه ، وتصريح أيضاً بعدم مخاصمته ومعاندته وعصيانه ، وإذا قُدِّر للإنسان الاجتماع به . . فيجب عليه أن يكون معه على أحسن الأحوال وأكملها ؛ في نهيه وأمره ومعاشرته وحفظ سره وعدم إذاعة ما يراه منه في جميع الأحوال والأقوال .

قال بعض الحكماء لولده : يا بُنَيَّ ؛ مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ . . كَثُرَ نَدَمُهُ ، وَإِيَّاكَ وَالرُّكُونَ إِلَى السُّلْطَانِ ؛ فَإِنَّ الرُّكُونَ إِلَيْهِ هَلَاكٌ وَسُجُنٌ وَضِيقٌ لَيْسَ مِنْهُ فِكَاكٌ ، وَإِذَا أَسْتَدْعَاكَ لِنَفْسِهِ . . فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَلَا تَأْمِنْ مَكْرَهُ وَغَدْرَهُ ، فَبئسَ الغادر إذا غدر ، وكلمه من حيث يريد ولا تكلمه من حيث لا يريد ، وأرفق به كما ترفق بالطفل الصغير ، ولا تدخل بينه وبين أحد من أولاده وعشيرته وأهل بيته ، وإن حدثته حديثاً . . فأسنده إلى غيرك من الأنام ، وهذه وصيبي فاحفظها وأعمل بها .

(١) في المطبوع : (لا تعاند) بدل : (لا تخاصم) .

وقال آخرٌ لولده : إذا خدمت السلطان أو غيره ممَّن له ولاية أو قوَّة أو شوكة . . فلا تَنَمَّ إليه ؛ فإنَّه لا يزيده ذلك إلا نفوراً منك مخافةً أن تَنَمَّ به كما نمتَ إليه ، وكن أقرب الناس منه عند فرحه ، وأبعدهم منه عند غضبه ، ولا تعارضه فيما يريد أن يفعله ، ولا تُهِنْ أصحابه ولا مَنْ يلوذ به مِنْ طائفته وذريَّته ومحبيِّه ، وعاملهم بأحسن الأخلاق وأكملها كما تعامله بذلك . اهـ

وقال في « تنبيه الغافلين » في الباب الثامن والسبعين ما نصَّه : (عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلْعَمَاءُ أَمَنَاءُ الرَّسُلِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ وَمَا لَمْ يَدْخُلُوا فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا خَالَطُوا وَدَخَلُوا . . فَقَدْ خَانُوا الرَّسُلَ ، فَأَعْتَرَلُوهُمْ وَأَحْذَرُوهُمْ » (١) .

وعن الحسن [بن مسلم ، عن عبيد بن عمير] : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَا أَرْدَادَ رَجُلٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْباً إِلَّا أَرْدَادَ مِنْ اللَّهِ بَعْدَ ، وَلَا كَثُرَتْ أَتْبَاعُهُ إِلَّا كَثُرَتْ شَيْطَانِيَّتُهُ ، وَلَا كَثُرَ مَالُهُ إِلَّا أَشَدَّ حِسَابُهُ » (٢) .

وقال حذيفة : إِيَّاكُمْ وَمَوَاقِفَ الْفِتَنِ ، قِيلَ : وما مواقف الفتن ؟ قال : أبواب الأمراء (٣) .

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : إنَّ الرجلَ ليدخلُ على ذي سلطانٍ ومعه دينه ، فيخرجُ مِنْ عنده وما معه دينه ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يرضيه بما يسخط الله (٤) .

وقال بعض المتقدِّمين : إذا رأيت عالماً يختلف إلى الأغنياء . . فأعلم أنه مُرَاءٍ ، وإذا رأيت عالماً يختلف إلى الأمراء . . فأعلم أنه لصٌّ (٥) .

-
- (١) أخرجه الرافعي في « التدوين » (٤٤٥/٢) ، والحاكم ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (١٩٢/١) ، وتعبه السيوطي في « اللآلئ » (٢١٩/١) بأن له طرقات فقال : (وله شواهد بمعناه كثيرة صحيحة وحسنة ، ويحكم له على مقتضى صناعة الحديث بالحسن ، والله أعلم) .
- (٢) أخرجه هناد في « الزهد » (٥٩٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٧٤/٣) ، وأخرج شطره الأول من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أبو داود (٢٨٦٠) ، والبيهقي في « السنن » (١٠١/١٠) .
- (٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٩٦٥) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٦٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٧٧/١) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٥٧/١٣) .
- (٤) أخرجه هناد في « الزهد » (١١٥٢) ، وابن سعد في « الطبقات » (٢٠٨/٦) .
- (٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٩٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٨٧/٦) من قول سفيان الثوري رحمه الله تعالى .

وعن مكحول رضي الله تعالى عنه قال : مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ ثُمَّ أَتَى بَابَ السُّلْطَانِ تَمَلُّقًا إِلَيْهِ وَطَمَعًا بِمَا فِي يَدِهِ . . خَاضَ فِي جَهَنَّمَ بَعْدَ خَطَاةٍ .

وعن ميمون بن مهران قال : إِنَّ فِي صَحْبَةِ السُّلْطَانِ خَطِرِينَ : إِنْ أَطَعْتَهُ . . خَاطَرْتَ بَدِينَكَ ، وَإِنْ عَصَيْتَهُ . . خَاطَرْتَ بِنَفْسِكَ ، وَالسَّلَامَةُ إِلَّا بِعِرْفَاكَ .

وعن الفضيل بن عياض قال : لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَا يَخَالِطُ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي : السُّلْطَانِينَ - وَلَا يَزِيدُ عَلَى الْفَرَاغِ . . فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ رَجُلٍ يَخَالِطُ السُّلْطَانَ وَيَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ وَيُحِجُّ وَيُجَاهِدُ .

ويقال : ما أفتح العالم أن يقال : أين هو ؟ فيقال : عند الأمير .

وعن الضحاك بن مزاحم قال : إِنِّي لِأَتَقَلَّبَ اللَّيْلَ كُلَّهُ عَلَى فِرَاشِي أَلْتَمَسُ كَلِمَةً أَرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أَسْخِطُ بِهَا خَالِقِي ، فَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا .

وقال ابن عباس : « أَجْتَنِبُوا أَبْوَابَ الْمُلُوكِ ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَصِيبُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابُوا مِنْ آخِرَتِكُمْ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ » (١) (٢) اهـ

وما تقدم عن هؤلاء الأكابر بالنسبة إلى ملوك زمانهم ، فكيف بنا ويزماننا وبملوكه ؟! فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يختم لنا بالسعادة ، آمين .

* * *

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٨٩٦٣) ، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٧٠/٤) من قول أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) « تنبيه الغافلين » (ص ٥٢٤-٥٢٨) .

لَا تَلِ الْحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا
رَغْبَةً فِيكَ وَخَالَفَ مَنْ عَدَلَ

هذا البيت والستة أبيات التي بعده متعلّقة بالحكم والولاية على الرعية والقضاء بين الناس .

أي : لا تكن والياً وإن سألك الناس ذلك لرغبتهم فيك وإرادتهم لك ، بل أترك الولاية وخالف مَنْ عَدَلَ ولاملك على تركها ؛ ففي كلام الناظم رحمه الله تعالى النهي عن تولية الأحكام ؛ لأنه يحتمل ألا يعدل في أحكامه فيصير إلى النار ؛ كما روي عن شقيق بن سلمة : أنّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أستعمل بشر بن عاصم الثقفي على صدقات هوازن ، فتخلف ، فلقبه عمر ، فقال له : ما خلفك ؛ أما ترى لنا عليك سمعاً وطاعة ؟ قال : بلى ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ وَلِيَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ . . أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ بِهِ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا . . نَجَا ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا . . أَنْخَرَقَ بِهِ الْجِسْرُ ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا » ، فخرج عمر باكياً كثيراً حزينا ، فلقبه أبو ذرّ ، فقال : ما لي أراك حزينا ؟ قال : وما يمنعني من البكاء وقد سمعت بشر بن عاصم يقول : قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَلِيَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ . . أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقَفَ بِهِ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا . . نَجَا ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا . . أَنْخَرَقَ بِهِ الْجِسْرُ ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا » ، [قال أبو ذرّ : وما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا ، قال : أشهد أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، فذكره وزاد] : « وَهِيَ سَوْدَاءٌ مُظْلِمَةٌ » (١) .

* * *

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣٩/٢) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (١٥٩١) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٥٧

إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءُ لِمَنْ
وَلِيَّ الْأَحْكَامِ هَذَا إِنْ عَدَلْ

هذا البيت تعليل لما قبله ؛ أي : لا تَلِ الأحكام ؛ لأنَّ نصف الناس أعداء لمن تولَّى الأحكام وعدل فيها ، فإن لم يعدل فيها . عاداه الناس كلُّهم وعاداه خالقه ، فخرس الدنيا والآخرة .

والنُّصْف - كما في « المصباح » - بكسر النون وضمها ، والكسر أفصح ، ويقال فيه : نصيف كـرغيف ؛ وهو : أحد جزأي الشيء . اهـ

وأعلم : أنَّ العدل في الأحكام قوام الدين والدنيا ، وسبب إصلاح المخلوقين ، وهو مأخوذ من الاعتدال ؛ وهو الاستواء ، وحقيقة العدل : وضع الأمور في موضعها ، فلا توضع الشدَّة في مكان اللين ، ولا اللين في مكان الشدَّة ، ولا السيف مكان السوط ، ولا السوط مكان السيف .

وأما الإنصاف . . فهو أستيفاء الحقوق بالأيدي العادلة ، وهو والعدل توأمان نتيجتهما علوُّ الهمة .

وقد قيل : مَنْ عدل في سلطانه . . أستغنى عن أعوانه .

ويقال : عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان .

ويقال : الملك يبقي على الكفر والعدل ، ولا يبقي على الجور والإيمان .

وقد أشار بعض الشعراء إلى ذلك بقوله :

[من السيط]

وَأَحْذَرُ مِنَ الْجَوْرِ فِيهَا غَايَةَ الْحَذَرِ
يَبْقَى مَعَ الْجَوْرِ فِي بَدْوٍ وَلَا حَضَرَ^(١)

عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ إِنْ وَلَيْتَ مَمْلَكَةً
فَالْمُلْكُ يَبْقَى عَلَى عَدْلِ الْكُفُورِ وَلَا

(١) البيتان من غير نسبة في « غرر الخصائص » (ص ٢٣) .

وقال عمرو بن العاصي : (مالك عادل خير من مطر وابل)^(١) .

ويقال : إذا عدل السلطان في رعيته ثم جار على واحد . . لم يفِ عدله بجوره .

وكان كسرى إذا جلس للحكم بين الناس أمر رجلين من رؤساء دولته فوقف واحد عن يمينه وواحد عن شماله ، فكان إذا زاغ حركاه بقضيب معهما وقالا له والرعية يسمعون : أيها الملك ؛ أنت مخلوق لا خالق ، وعبد لا مولى ، وليس بينك وبين الله قرابة ، أنصف الخلق وأنظر لنفسك .

وكتب جعفر بن يحيى إلى بعض عماله : أَنْصِفْ مَنْ وَلَّيْتَ أَمْرَهُ ، وَإِلَّا . . أَنْصَفَهُ مِنْكَ مَنْ وَلَّيَ أَمْرَكَ ؛ أي : وهو الله تعالى .

وكتب أخوه الفضل : بئس الزاد إلى المعاد التعدي على العباد .

[من مجزوء الكامل]

ولقد صدق القائل :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي بِصَلَاحِهِ صَلَّحَ الْجَمِيعُ
أَنْتَ الزَّمَانُ فَإِنْ عَدَلْتُ تَ فَكُلُّهُ أَبَدًا رِيْعُ

[من الوافر]

وقال آخر :

لِكُلِّ وِلَايَةٍ لَا بُدَّ عَزْلُ وَصَرَفُ الدَّهْرِ عَقْدُ ثُمَّ حَلُّ
وَأَحْسَنُ سِيْرَةٍ تَبْقَى لِوَالٍ عَلَى الْأَيَّامِ إِحْسَانٌ وَعَدْلُ^(٢)

* * *

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨٣ / ٤٦) .

(٢) البيتان من غير نسبة في « غرر الخصاص » (ص ٢٤) .

فَهُوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنِ لَدَائِهِ وَكِلَا كَفَيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغَلُّ

أي : فالحاكم كالشخص المحبوس عن لذاته ؛ كما هو مشاهد من كونه لا يمشي إلاً بمركوب يركبه وجماعة تمشي خلفه وغير ذلك ، فإن لم يجد ذلك . . لم تسمح نفسه بخروجه إلى المحل الذي يريده ، فصار محبوساً عن شهوته ، وهذا الأمر حادث ، وإلا . . فكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ملكاً في زِيٍّ مسكين^(١) .

وأشترى علي كرم الله وجهه تمراً بدرهم ، فحملة في رداءه ، فسأله بعض أصحابه أن يحملة عنه ، فقال : أبو العيال أحقُّ بحمله^(٢) .

ولمّا ولي عليُّ بن عيسى الوزارة - وذلك سنة ثلاث مئة - رأى الناس يمشون حوله كما كانوا يمشون حول الوزراء قبله ، فألقت إليهم وقال : إنّنا لا نرضى لعبيدنا أن يفعلوا هذا معنا ، فكيف نكلّفه قوماً أحراراً لا إحسان لنا عليهم؟! ومنعهم من المشي في ركابه^(٣) .

ويقال : إنّ أوّل مَنْ مشت معه الرجال وهو راكب : الأشعث بن قيس ، كان يركب في واحد ويرجع في ألف . اهـ

وقوله : (وكلا كفيهِ في الحشر تُغَلُّ) بالغين المعجمة ؛ أي : تجمع إلى عنقه بطوق من حديد .

(١) ورحم الله أبا العتاهية حيث قال في هذا المعنى في « ديوانه » (ص ٢٥٩) :

وَمِنْ عِلَامَةِ تَضْيِيعِي لِآخِرَتِي أَنْ صَرْتُ تُعْجِبُنِي الدُّنْيَا وَتُرْضِينِي
يَا مَنْ تَشَرَّفَ بِالدُّنْيَا وَطَيَّبَتْهَا لَيْسَ التَّشَرُّفُ رَفَعَ الطَّيِّبِينَ بِالطَّيِّبِينَ
إِذَا أُرِدْتَ شَرِيفَ النَّاسِ كُلَّهُمْ فَاَنْظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ مَسْكِينٍ
ذَلِكَ الَّذِي عَظُمَتْ فِي النَّاسِ حُرْمَتُهُ وَذَلِكَ يَصْلُحُ لِلدُّنْيَا وَلِلدُّنْيَانِ

(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٥١) ، وابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (١٠٢) .

(٣) انظر « غرر الخصائص » (ص ٢٦) .

قال في « المصباح » : (كِلَاً - بالكسر والقصر - : أَسْمٌ لفظه مفرد ، ومعناه مثني ، وتلزم إضافته إلى مثني ، فيقال : قام كلا الرجلين ، ورأيت كليهما ، وإذا عاد عليه ضمير . . . فلأفصح الأفراد ؛ نحو : كلاهما قام ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّمَا الْجُنَيْنِ ءَأْتَتْ أُكْلَهَا ﴾ ، والمعنى : كلٌ واحدة منهما آتت أكلها ، وتجوز الثنية ، فيقال : قاما) اهـ

وكلام الناظم رحمه الله تعالى محمول على غير العادل ؛ ففي « الجامع الصغير » أنه صلى الله عليه وسلم قال : « غَيْرَ الدَّجَالِ أَخَوْفِي عَلَى أُمَّتِي مِنَ الدَّجَالِ ؛ الْأَيْمَةُ الْمُضِلُّونَ » (١) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « فِي جَهَنَّمَ وَادٍ ، وَفِي الْوَادِي بَثْرٌ يُقَالُ لَهَا : هَبْهَبٌ ، حَقٌّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُسْكِنَهَا كُلَّ جَبَّارٍ » (٢) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « أَلْفَلَقُ سِجْنٌ فِي جَهَنَّمَ يُحْبَسُ فِيهِ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَتَتَعَوَّذُ [بِاللَّهِ] مِنْهُ » (٣) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ : إِمَامٌ جَائِرٌ » (٤) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ شِئْتُمْ أُبَيِّنْكُمْ عَنِ الْإِمَارَةِ وَمَا هِيَ ؟ أَوْلَاهَا : مَلَأَةٌ ، وَثَانِيهَا : نَدَامَةٌ ، وَثَالِثُهَا : عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ عَدَلَ » (٥) .

وفيه أيضاً : قال صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا رَاعٍ اسْتَرْعَى رَعِيَّةً فَلَمْ يَحْطُهَا بِالْأَمَانَةِ

(١) « الجامع الصغير » (٥٧٨٢) ، والحديث أخرجه أحمد (١٤٥/٥) .

(٢) « الجامع الصغير » (٥٩٥١) ، والحديث أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٥٩٦/٤) ، والدارمي في « السنن » (٢٨٥٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٨/٨) ، والهيبي : السريع ، وهبيب السراب : إذا ترقق .

(٣) « الجامع الصغير » (٥٩٩٢) ، والحديث أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٤٦٢٧) ، وعزاه السيوطي في « الجامع لابن مردويه في « تفسيره » .

(٤) « الجامع الصغير » (٢١٧٤) ، والحديث أخرجه الترمذي (١٣٢٩) ، والبعوي (٢٤٧٢) ، وأحمد (٢٢/٣) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٠٠٣) .

(٥) « الجامع الصغير » (٢٦٦٦) ، والحديث أخرجه البزار في « مسنده » (٢٧٥٧) ، والطبراني في « الكبير » (٧١/١٨) ، و« الأوسط » (٦٤٤٣) ، و« مسند الشاميين » (١١٩٥) ، وابن أبي عاصم في « الأحاد والمثاني » (١٢٨٤) .

وَالنَّصِيحَةَ . . ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» (١) .

وقال في « غرر الخصائص » ما نصَّه : (ينبغي للملك أن يعمل بخصال ثلاث : تأخير عقوبة المسيء ، وتعجيل ثواب المحسن ، والعمل بالأناة فيما يحدث له ؛ لأنَّ في تأخير العقوبة إمكان العفو ، وفي تعجيل ثواب المحسن المسارعة بالطاعة ، وفي الأناة أنصاح الرأي والصواب .

وقال أنوشروان : « الناس ثلاث طبقات ، فنسوسهم بثلاث سياسات : طبقة هم الأبرار نسوسهم باللين والعطف ، وطبقة هم الأشرار نسوسهم بالغلظة والعنف ، وطبقة هم العامة نسوسهم بالشدَّة واللين ؛ كيلا تخرجهم الشدَّة ولا يبطرهم اللين » .

ولله درُّ القائل :

إِذَا كُنْتُمْ لِلنَّاسِ أَهْلَ سِيَّاسَةٍ فَسُوسُوا كِرَامَ النَّاسِ بِالرَّفْقِ وَالْبَدْلِ
وَسُوسُوا لِئَامِ النَّاسِ بِالذُّلِّ يَصْلُحُوا عَلَى الذُّلِّ إِنَّ الذُّلَّ أَوْفَقُ لِلنَّذْلِ (٢)

وقال بعضهم : لا سلطان إلاَّ لرجال ، ولا رجال إلاَّ بمال ، ولا مال إلاَّ بعمارة ، ولا عمارة إلاَّ بعدل (٣) .

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما : « لو أنَّ بيني وبين الناس شعرة . . لمَّا أنقطعت ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : إن جذبوها . . أرخيتها ، وإن أرخوها . . جذبتها » (٤) .

وقال بعضهم : إذا كان عند الملك للمحسن من الحق ما يقنعه ، وللمسيء من أليم العذاب ما يقمعه . . بذل المحسن النصح رغبة ، وأنقاد المسيء إلى الحق رغبة (٥) .

وقال بعض الملوك : أعلم أنَّ الملك والدين أخوان توأمان ، لا قوام لأحدهما إلاَّ

(١) « الجامع الصغير » (٣٠٠٧) ، والحديث أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢٦/١٠) .

(٢) البیتان لعبد الله بن طاهر كما في « الغرر » (ص ٦٨) ، وهما عند الراغب في « محاضرات الأدباء » (٢١١/١) .

(٣) هو من كلام أردشير أحد ملوك الفرس ، كما في « الغرر » ، و« ثمار القلوب » (١٧٨/١) ، و« بهجة المجالس » (٣٣٤/١) ، و« ربيع الأبرار » (٦٠٠/٣) .

(٤) أخرجه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٧٢) .

(٥) أورده في « الصناعتين » (٢١٤/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٣٠١/١) ، و« صبح الأعشى » (٣٠١/٢) .

بالآخر ؛ لأنّ الدين هو أسُّ الملك وعماده ، والملك قائم سيف الدين ونجاهه ، ولا بُدَّ للملك من أسٍّ ، ولا بُدَّ للدين من حارس ، فإنَّ من لا حارس له ضائع ، ومن لا أسَّ له مهدوم^(١) .

ويقال : شيثان إن صلح أحدهما . . صلح الآخر : السلطان ، والرعية .

كان الرشيد في بعض غزواته فألح عليه الثلج ليلة ، فقال بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين ؛ أما ترى ما نحن فيه من الجهد والتعب والرعية قارة نائمة ؟ فقال : أسكت ؛ فللرعية المنام ، وعلينا القيام ، ولا بُدَّ للراعي من حراسة الرعية ، وتحمل الأذى^(٢) اهـ

وقال الشاعر في ذم بعض ولاة بني مروان :

[من الطويل]

إِذَا مَا قَضَيْتُمْ لَيْلَكُمْ بِمَنَامِكُمْ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْشَاكُمْ فِي مِلْمَةٍ
رَضِيْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِأَيْسَرِ بُلْغَةٍ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللِّسَانَ مُوَكَّلٌ
وَأَفَيْتُمْ أَيَّامَكُمْ بِمُدَامِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلْقَاكُمْ بِسَلَامِ
بَلْتُمْ غُلَامِ أَوْ بِشُرْبِ مُدَامِ
بِمَدْحِ كِرَامِ أَوْ بِذَمِّ لِيَامِ^(٣)

* * *

(١) هو من كلام أردشير ملك الفرس ، كما في « الغرر » (ص ٦٩) ، و « عيون الأخبار » (١٣/١) ، و « العقد الفريد » (٤٧/١) ، ونسبه في « بهجة المجالس » (٣٣٢/١) ، لابن مفلح ، وفي « صبح الأعشى » (١٣٤/١٠) لسيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) « غرر الخصائص » (ص ٦٨-٦٩) .

(٣) الأبيات من غير نسبة في « ربيع الأبرار » (٢٤٧/٥) ، و « غرر الخصائص » (ص ٦٨) ، و « المستطرف » (٢٠٥/١) .

إِنَّ لِلنَّقْصِ وَالِاسْتِثْقَالِ فِي لَفْظَةِ (الْقَاضِي) لَوْعْظاً وَمَثَلُ

هذا البيت متعلق بالقاضي الذي هو أحد الحكام .

أي : إنَّ في النقص - بالصاد المهملة - وفي الاستثقال المتضمَّن لهما لفظ (القاضي) لوعظاً كافياً ، ومثلاً شافياً ، يزجران ويمنعان مَنْ له عقل عن الدخول في ولاية القضاء .
ووقف الناظم رحمه الله تعالى بالسكون على (مثل) مع أنه منصوب . . تبعاً لربيعه الذين يقفون على المنصوب بالسكون^(١) .

وبيان النقص في لفظه (القاضي) : أنه من الأسماء المنقوصة ؛ كالثاني والوالي ونحوهما ، فيقدَّر في إعرابه الرفع والخفض ، ويظهر فيه النصب ، فتقدَّر الضمَّة في الرفع ، والكسرة في الخفض ، والمانع من ظهور الضمَّة في الأوَّل والكسرة في الثاني : الثقل .

(١) وأصل المسألة : أنه يجب في الوقف قلب النون الساكنة ألفاً في ثلاث مسائل : إحداها : (إذاً) على الصحيح ، ولا يختلف القراء في الوقف على نحو : ﴿ وَكَانَ تَقْلِيحًا إِذَا أَبَدَا ﴾ أنه بالألف . الثانية : نون التوكيد الخفيفة الواقعة بعد الفتحة ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَتَنْفَعَا ﴾ ، و﴿ وَكَيْكُونَا ﴾ ، وقف الجميع عليهما بالألف ، قال الأعشى : [من الطويل]

وإِيَّاكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَقْسِرِيهِنَّهَا وَلَا تَعْبِدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا

وأصله : (فاعبدن) بنون التوكيد الخفيفة ، ثم وقف عليه بالألف المقلوبة عنها . الثالثة : تنوين الاسم المنصوب ؛ نحو : (رأيت زيداً) ، وقف عليه العرب بالألف ، إلا ربيعة ؛ فإنهم وقفوا على نحو : (رأيت زيداً) بالحذف ، ومنه قول شاعرهم :

أَلَا حَبِّذَا غُنْمٌ وَحُسْنُ حَمْدِيهِنَّهَا لَقَدْ تَرَكْتُ قَلْبِي بِهَا هَائِمًا دَنِفُ

فقوله : (دنف) هو في موضع نصب حال أو نعت للاسم المنصوب (قلبي) ، والجمهور يقفون في مثله على الألف (دنفا) ، وجاء هنا على لغة ربيعة وهي الوقوف على السكون ، وعلى هذه اللغة جاء قول الناظم رحمه الله : (مثل) فوقف عليه بالسكون ، ومذهب الجمهور الوقوف عليه بالألف (مثلاً) عطفاً على (وعظاً) . انظر « شرح قطر الندى » (ص ٤٧٠) ، و« معجم الهوامع » (٤٢٧/٣) .

قال ابن مالك رحمه الله تعالى :

[من الرجز]

وَالثَّانِ مَنْقُوصٌ وَنَصْبُهُ ظَهَرَ وَرَفَعُهُ يُنَوِّى كَذَا أَيْضاً يُجْرُ (١)

ولله درّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

وَإِذَا فُزَتْ بِقَاضٍ مُسْعِفٍ عَادِلٍ فِي الْحُكْمِ حَبِيرٍ مُنْصِفٍ
فَتَأْمَلُ حِكْمَةَ السَّرِّ الْخَفِيِّ إِنَّ لِلنَّقْصِ وَالْأَسْتِقَالِ فِي

لَفْظَةِ (الْقَاضِي) لَوْعْظاً وَمَثَلٌ (٢)

ففي كلام الناظم رحمه الله تعالى النهي عن تولّي القضاء ، وهو محمول على مَنْ ليس فيه أهليّة له ؛ لعجزه عن ذلك ، أو لجهله وعدم معرفته ، وإلّا . . . فالقضاء في حقّ الصالحين له فرض كفاية في كلّ ناحية تحتاج إلى قاضٍ ؛ كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد يكون فرض عين ؛ كما إذا لم يوجد في الناحية صالح له إلّا شخص واحد ، فيتعيّن عليه .

وقد ورد في فضله من الكتاب والسنة ما يُرغّب فيه ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَعَ الْقَاضِي مَا لَمْ يُجْر ، فَإِنْ جَار . . . تَبَرَّأَ اللَّهُ مِنْهُ ، وَالزَّيْمَةُ الشَّيْطَانِ » رواه الحاكم والبيهقي (٣) .

ولله درّ القائل :

[من الرجز]

نِعْمَ الْوَظِيْفَةُ الْقَضَا لِأَهْلِهِ
فَأَحْفَظْ لَهَا حُقُوقَهَا وَأَعْمَلْ بِهَا
وَوَظِيْفَةُ الْأَشْرَافِ وَالْأَقَاضِلِ
وَلَا تَكُنْ عَنْ حِفْظِهَا بِذَاهِلِ

وقال بعضهم :

[من الرجز]

مَرْتَبَةُ الرَّسُولِ طَهَ الْمُصْطَفَى
أَكْرَمَ بِهَا بَيْنَ الْأَنْامِ مَرْتَبَةَ

(١) البيت من « الخلاصة » الألفية التي صنفها الإمام ابن مالك في علم النحو والصرف ، في باب المعرب والمبني .

(٢) « تخميس الملاح » (ص ١٢) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٠٦٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٩٤ / ٣) ، والترمذي (١٣٣٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١٣٤ / ١٠) .

وأما ما ورد من النهي عن ولايته . . فهو محمول على من ليس فيه أهلية للقضاء ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ جُعِلَ عَلَى الْقَضَاءِ . . فَكَأَنَّمَا ذُبِحَ بِغَيْرِ سَكِينٍ » (١) .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يُجَاءُ بِالْقَاضِيِ الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ مَا يَوَدُّ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَضَى بَيْنَ أُنَيْنٍ قَطُّ » (٢) ، ولهذا الحديث أمتنع منه أكابر العلماء كالإمام الأعظم ؛ فإنه أدخل على أبي جعفر الدوانيقي (٣) ، فقال : يا أبا حنيفة ؛ أعنا على أمرنا ، فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين ؛ أنا لا أصلح لهذا الأمر ، فقال له أبو جعفر : سبحان الله ! أعنا على أمرنا ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن كنت صادقاً عندك . . فقد أخبرتك أنني لا أصلح لهذا الأمر ، وإن كنت كاذباً . . فلا يحلُّ لك توليتي هذا الأمر (٤) .

* * *

-
- (١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٩١/٤) ، وأبو داود (٣٥٧١) ، والترمذي (١٣٢٥) .
 - (٢) أخرجه ابن حبان (٥٠٥٥) ، والبيهقي في « السنن » (٩٦/١٠) ، وأحمد (٧٥/٦) .
 - (٣) هو الخليفة أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي ، ثاني الخلفاء العباسيين ، ولقب بالدوانيقي أو أبي الدوانيقي ؛ لتدنيقه ومحاسبته للصناعات لئلا تنشأ ببغداد ، وقيل - فيما أخرجه ابن عساکر في « تاريخ دمشق » (٣٠٨/٣٢) - : أنه كان يلزم المال ويدنقه ويقتر فيه قبل الخلافة ، وبقي في ذلك إلى أن قُلت الخلافة ، فصار الناس يُجخلونه ، فلُقب بأبي الدوانيقي .
 - (٤) خبر الإمام أبي حنيفة مع الخليفة المنصور أخرجه البيهقي في « السنن » (٩٨/١٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٢٩/١٣) .

لَا تُسَاوِي لَذَّةُ الْحُكْمِ بِمَا ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ أَنْعَزَلَ^(١)

أي : لا تقوم لذّة الحكم مقام الذي يحصل للشخص وقت أنزاله حين يقول له صاحب أمره : أنت معزول ، فجميع ما يحصل للحاكم في مدّة ولايته من لذّة الأمر والنهي والإعطاء والمنع وغير ذلك . . لا يساوي قول ولي أمره : أنت معزول ؛ لما يلحقه بسبب ذلك من الشدّة والمشقّة والاضطراب وأنحلال الأمر وغير ذلك .

وقد حكى : أنه كان ببغداد رجل قاضٍ ، وكان من أهل العلم ، وكانت عنده جارية جميلة ، فكان يطؤها حتّى إذا قارب الإنزال . . عزّل عنها ، فتقول له : يا سيّدي ؛ أذاقك الله مرارة العزل ، فأتفق أنّ الإمام عزله عن منصبه ، فصار متحيراً ذليلاً لا يلتذ بأكل ولا بشرب ولا بنوم ، ولا غير ذلك ممّا كان يجده قبل العزل في زمن الولاية ، فالتمس دعاءها وتاب إلى الله سبحانه وتعالى عن العزل عنها ، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعاءها وأعيد إليه منصبه . اهـ

وقال بعضهم : لا تشاور المعزول ؛ فإنّ رأيه مفلول ، بالفاء^(٢) .

ولله درّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

صَحَّ فِي الْجَنَّةِ قَاضٍ عَلِمَا لِلظَّيِّ أَنْبَانَ بِقَوْلِ الْعَلَمَا
أَنْصِفِ الْخُصْمَيْنِ يَا مَنْ حَكَمَا لَا تُسَاوِي لَذَّةُ الْحُكْمِ بِمَا

ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ أَنْعَزَلَ^(٣)

وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام : « الْفُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : قَاضٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَقَاضِيَانِ

(١) ويروى : (لا توازي) بدل : (لا تساوي) .

(٢) مفلول ؛ أي : ذاهب ذاهل مهزوم ؛ لاضطرابه بسبب عزله .

(٣) « تخميس الملاح » (ص ١٢) ، وفيه : (لا توازي) بدل : (لا تساوي) .

فِي النَّارِ - فالأول - رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَاتَّبَعَهُ وَحَكَمَ بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ ، وَ - الثَّانِي - رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ وَلَمْ يَحْكَمْ بِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَ - الثَّالِثُ - رَجُلٌ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ وَحَكَمَ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ «^(١) .

ولله درُّ القائل :

[من الكامل]

إِنَّ الْقُضَاةَ ثَلَاثَةٌ بِصَعِيدِنَا قَدْ حَقَّقُوا مَا جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ
قَاضٍ بِإِسْنَا قَدْ ثَوَى فِي جَنَّةِ وَالْقَاضِيَانِ كِلَاهُمَا فِي النَّارِ^(٢)

[من الوافر]

وقال بعضهم في هجو القضاة الجائرين :

قُضَاةُ زَمَانِنَا أَضْحَوْا لُصُوصَا عُمُومًا فِي الْبَرِّيَّةِ لَا خُصُوصَا
فَحَسْبُكَ أَنَّهُمْ لَوْ صَافَحُونَا لَسَلُّوا مِنْ خَوَاتِمِنَا الْقُصُوصَا

[من الوافر]

وقال آخر :

وَلَمَّا أَنْ تَوَلَّيْتَ الْقُضَايَا وَفَاضَ الْجَوْرُ مِنْ كَفَيْكَ فَيْضَا
ذَبَحْتَ بَعِيرٍ سَكِينٍ وَإِنِّي لِأَرْجُو الذَّبْحَ بِالسَّكِينِ أَيضًا^(٣)

ويحكي : أن بعض الجهال من القضاة تقدم إليه رجل بخضم فقال : هذا باعني ثوباً فوجدت فيه عيباً ، وسألته أن يقبلني فأبى ، فألتمت إليه القاضي وقال له : أفلله عافاك الله ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قِيلُوا ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ » . فانظر إلى جهله^(٤) !!

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٩٠ / ٤) ، وأبو داود (٣٥٧٣) ، والترمذي (١٣٢٢) .

(٢) البيتان من غير نسبة في « الوافي بالوفيات » (١٦٦ / ١٦) ، و « أعيان العصر » (٥٢٧ / ٢) ، وبعدهما :

هذا بحسن صفاته وفعاله وهما بما اكتسبا من الأوزار

(٣) البيتان لمحمد بن مسعود الأصبهاني المعروف بالفخر النحوي ، كما في « الوافي بالوفيات » (٢٣ / ٥) ، و « النجوم الزاهرة » (٧٩ / ٦) ، و « الإزدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار » (ص ٤١) .

(٤) جهله في فقه معاني اللغة وفهمها ؛ فالإقالة في البيع هي الرد ، وفي الحديث : « قِيلُوا » من القيلولة ؛ وهي نوم نصف النهار ، وأما الحديث . . فأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٢٨) ، والخطيب في « الموضح » (١٥٨ / ٢) ، والرافعي في « التدوين » (١٩٨ / ٣) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢٣٦ / ١ و ٤١٦) ، و (٣٠ / ٢) ، وأبو الشيخ في « طبقات المحمدين بأصبهان » (١٧٦ / ٤) ، وابن حبان في « المجروحين » (١٥٨ / ٢) .

وقيل لقاضي حمص : كيف تحكم على اللوطي ؟ قال : بنصف حكومة الزاني ، قيل له : ولم ؟ قال : لأنَّ الحمار لا يحمل إلاَّ نصف ما يحمل البغل . وهذا حكم لا معنى له .
وأدعت امرأة على زوجها مهراً عند بعض القضاة ، فأنكر ، فأمر القاضي أن يجلد حدّين ، قيل له : ولم حكمت بهذا ؟ قال : لأنَّهما زنيا إذ لم يكن بينهما مهر ، قيل : أفلا تحدُّ المرأة ؟ قال : بلى ؛ لأنَّ النخلة إذا لم يحمل رأسها . . أحرق أصلها . وهذا كلام لا معنى له .

وتقدم جماعة إلى قراقوش - وكان عاملاً لصلاح الدين على مصر - ومعهم قتييل وثور ورجل مكتوف ، فقالوا : أيُّها الأمير ؛ إن هذا الثور مال على هذا الرجل فقتله ، وهذا مالكة وهو العاقلة ، ففكّر ساعة ، ثم أمر بالثور أن يشنق ويطلق صاحبه ، فقيل له : ما هذا حكم الله ؟! فقال : لو جرى هذا في زمن فرعون . . ما فعل غير هذا ؛ لأنَّه القاتل ، ولا يحلُّ لي أن أقتل غير القاتل ، وهذه الحكاية ذكرها القاضي الأسعد في كتابه الذي سماه : « الفاشوش في أحكام قراقوش » ، ذكر فيه من هذه الأحكام شيئاً كثيراً ، والعهدة عليه في ذلك ، وأظنُّ - والله أعلم - أنَّ كل ما فيه مختلق ؛ لأنَّ صلاح الدين بن أيوب مع تيقظه ودينه لا يولِّي إقليم مصر من يكون بهذا العقل^(١) .

وحكي : أنَّ عامل المنصور بن النعمان كتب إليه من البصرة : إنِّي أصبت سارقاً سرق نصاباً من حرزه فما أصنع فيه ؟ فكتب إليه المنصور : أن أقطع رجله ودعه يكذب بيده على عياله ، فأجابه العامل : إنَّ الناس ينكرون هذا القول ، ويقولون : قال الله تعالى في القرآن : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ ، فكتب إليه : القرآن نزل من السماء ونحن في الأرض ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب . فانظر إلى جهله كيف أداه .

(١) وهذا ما قاله ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٩٢/٤) ، ونقله عنه ابن كثير في « البداية » (٣٨/١٣) ، وابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » (١٧٨/٦) ، قال ابن خلكان : (والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته ، حتى إن الأسعد ابن مماتي له جزء لطيف سماه : « الفاشوش في أحكام قراقوش » ، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة ؛ فإنَّ صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته . . ما فوضها إليه) .

وكان نصر بن مقبل عاملاً للرشيدي على الرقة ، فأُتِيَ برجل وجد ينكح شاة ، فقال : أيها الأمير ؛ إنها - والله - ملك يميني ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، فأطلقه وأمر أن تضرب الشاة الحدَّ ، فإن ماتت . . تصلب ، فقبيل له : أيها الأمير ؛ إنها بهيمة ، فقال : وإن كانت بهيمة ، فإن الحدود لا تعطّل ، وإن عطلتها . . فبئس الوالي أنا ، فأنتهي خبره إلى الرشيدي ولم يكن رآه قبل ذلك ، فدعا به ، قال : فلماً مثلاً بين يديه قال : كيف بصرك بالحكم ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ الناس والبهائم عندي فيه سواء ، ولو وجب حدُّ علي بهيمة وكانت أمِّي أو أختي . . لجلدتها ولم تأخذني في الله لومة لائم ، فعزله الرشيدي وأمر ألا يستعان به في عمل ، فلم يزل معطلاً إلى أن مات (١) .

وكان الربيع بن عبد الله العامري والياً على اليمامة ، فبلغه أن كلباً قتل كلباً ، فأمر أن يقتل به ، فقال فيه بعض الشعراء :

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ حَقَّ لِقَاؤُهُ وَأَنَّ رَيْبِعَ الْعَامِرِيِّ رَقِيعُ
أَقَادَ لَنَا كَلْبًا بِكَلْبٍ وَلَمْ يَدْعُ دِمَاءَ كِلَابِ الْمُسْلِمِينَ تَضِيعُ (٢)

ويحكى : (أن بعض القضاة العقلاء قدّم قوم إليه غريماً لهم ، فادّعوا عليه بمال فأقرّ ، فأمره القاضي أن يدفع لكلّ ذي حقّ حقه ، فقال : إنّ لي ريباً وقد حان أستغلاله ، فإن رأوا أن يؤجّلوني أياماً حتّى أستغلّه وأودّي إليهم حقوقهم ، فسألهم القاضي ، فقالوا : والله ؛ لا نعلم له شيئاً أصلاً ، فقال له القاضي : أذهب ؛ فقد فلّسك غرماًوك .

وحكي : أنّ رجلاً أراد أن يحجّ ، فأودع عند رجل مالا ، فلما رجع . . طلبه منه ، فجحده ، فأتى إياساً القاضي فأخبره ، فقال له : لا تعلم أحداً أنّك أتيتني ، وأرجع إليّ بعد يومين ، ثمّ دعا القاضي إياساً المودع عنده وقال له : قد أجمع عندنا مالٌ لأيتام وأريد أن أودعه عندك ليكون في حرزك ، فحصن بيتك وأنتخب أقواماً ثقةً يحملونه معك ، فخرج الرجل وأصلح منزله ، ثمّ دعا القاضي إياساً المودع وقال له : أنطلق إلى صاحبك وأطلب

(١) انظر « أخبار الحمقى والمغفلين » (ص ٩٧) .

(٢) البيتان من غير نسبة في « البيان والتبيين » (٢/٢٥٩) ، و « عيون الأخبار » (٢/٤٩) ، و « العقد الفريد » (٦/١٦٤) .

منه مالك وقل له : إن أنت لم تردّ عليّ مالي . . شكوتك للقاضي ، فذهب إليه وطلب ماله ، فرده عليه ، فأخبر الرجل القاضي إياساً بذلك ، فتعجّب من ذلك وقال : ربّما كانت الحيلة إلى ذلك المطلوب وسيلةً ، وترك القاضي إياسٌ وَعَدَ الرجل . قاله في « غرر الخصائص » (١) .

* * *

(١) « غرر الخصائص » (ص ٦٧) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

فَأَوْلِيَايَاكَ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ ذَاقَهَا فَالْسُّمُّ فِي ذَاكَ الْعَسَلِ

هذا البيت تفریع على البيت الذي قبله ؛ أي : فالأحكام وإن كانت حُلوة كالعسل ؛ لِمَا ينشأ عنها مِنْ حلاوة الأمر والنهي والسطوة والعُلُوُّ والعظمة وغير ذلك ممَّا تتمناه النفس . . .
فذلك العسل فيه سمٌّ قاتل لوقته ؛ لِمَا ينشأ عن المذكورات مِنَ الكِبَرِ والعُجْبِ والخِيَلَاءِ وأحتقار المسلمين ، ولأنَّ الغالب في متولِّي الأحكام أن تكون آخرته تفریق شمله وتشثيت جمعه وموتهً غريباً كما هو مشاهد معلوم ، فقد ثبت أن بني أمية تفرَّق أمرهم غاية التفرُّق ، وكذلك غيرهم .

ولمَّا تفرَّق الأمر عن مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية وأيقن بزوال ملكه وغلبة بني العباس عليه . . . قال لكاتبه عبد الحميد بن يحيى : **إني قد أحتجت أن تكون مع عدوي فتظهر لهم الغدر بي ، فإن أستطعت أن تنفعني في حياتي ، وإلا . . . فلا تعجز في حفظ حرمتي بعد وفاتي ، فقال عبد الحميد : إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأضرُّهما بي ، وما عندي إلا الوفاء لك حتَّى يفتح الله أو أقتل معك^(١) ، فأمسك عنه ساعةً وأعاد عليه القول ثانيةً ، فقال : ﴿ وَالْمُؤْفُوكَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ، فلم يزل معه حتَّى قتل ، وذلك في آخر سنة اثنتين وثلاثين ومئة ، وله تسع وخمسون سنة ، وقتل ببوصير قرية من صعيد مصر ، وهو آخر ملوك بني أمية ، وكانت مدَّة دولتهم ثلاثاً وتسعين سنة وأحد عشر شهراً وأياماً ، وهرب عبد الحميد إلى قرية تعرف بالأشمونين ، فأختفى فيها ، فذلَّ عليه ، وحُمِل إلى أبي العباس السفَّاح بأمان ، فلم يحظ عنده .**

(١) انظر « مروج الذهب » (٩٠/٤) ، و« عيون الأخبار » (٢٦/١) ، و« وفيات الأعيان » (٢٢٩/٣) ، و« الوافي بالوفيات » (٨٦/١٨) ، ثم أنشد عبد الحميد :

أُسْرٌ وفاءً ثم أظهر غدره
فمن لي بغير يوسع الناس ظاهره

وانظر القصة بتمامها في « غرر الخصائص » (ص ٢٢) .

وذكر بعضهم^(١) : أَنَّ جَمَاعَةَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ دَخَلُوا عَلَى أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ وَفِيهِمْ [أَبُو] الْغَمْرُ بْنُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَالْحَّ عَلَيْهِ أَبُو الْعَبَّاسِ بِالنَّظَرِ ؛ فَلَمَّا رَأَى [أَبُو] الْغَمْرُ ذَلِكَ مِنْهُ . . أَنشَدَ وَقَالَ :

عَبْدُ شَمْسٍ أَبُوكَ وَهُوَ أَبُوْنَا لَا نُنَادِيكَ مِنْ مَكَانٍ سَحِيْقِ
وَأَلْقَرَابَاتُ بَيْنَنَا وَأَشْجَاتُ مُحْكَمَاتُ الْعُرَى بِعَقْدٍ وَثِيْقِ^(٢)

فأعجبه ذلك منه ، وأجلسه معه على السرير ، وأقعد أصحابه حوله يمينا وشمالاً ، وتحدّث معهم ، فشكروه على ذلك ، فبينما هم يتحدّثون إذ دخل عليهم سُديف بن ميمون ، فأنشد السَّفَّاحَ القصيدة التي أولها :

عَمَرَ الْدَّيْنَ فَاسْتَنَارَ مَلِيًّا

حَتَّى أتمَّهَا ، فقال السَّفَّاحُ : يا بن هشام ؛ كيف ترى شاعرنا ؟ فقال للسَّفَّاحِ : إنَّ شاعرنا لأشعر من شاعركم ، وأكثر بيانا ، وأفصح لساناً ، فقال السَّفَّاحُ : ما قال شاعركم ؟ فقال :

لَوْ تَحْمِلُ الْبُنْحُتُ وَالْأَفْيَالُ مُثْقَلَةً أَحْلَامَهُمْ تُرِكَتْ عَقْرَى الْأَبَاهِيرِ
لَا يَعْثُبُونَ إِذَا لَجَّتْ مَحَافِلُهُمْ زَيْنُ الْمَجَالِسِ فُرْسَانُ الْمَنَابِيرِ^(٣)

فأحمرت عينا السَّفَّاحِ ، وهاجت به حمية كانت قد سكنت ، ثمَّ ضرب على فخذ [أبي] الْغَمْرِ وَقَالَ :

طَمَعَتْ أُمَيَّةٌ أَنْ يُجَاوِزَ هَاشِمٌ عَنْهَا وَيَذْهَبَ زَيْدُهَا وَحُسَيْنُهَا

(١) هو أبو القاسم الإيادي كما في « غرر الخصائص » (ص ٧٤) .

(٢) البيتان لأبي عدي العبلي عبد الله بن عمر الأموي ، من قصيدة قالها لهشام بن عبد الملك كما في « الأغاني » (٣٠٥/١١) ، لكن البيتان من قافية الدال ، فبدل : (سحيق) : (بعيد) ، وبدل : (وثيق) : (شديد) ، وهما في « الأغاني » (٣٠٤/١١) ، و« محاضرات الأدباء » (٤٦٧/١) ، و« ربيع الأبرار » (٤٦٤/٤) ، و« تاريخ دمشق » (٢١٠/٣١) ، و« الوافي بالوفيات » (٢٦٧/١٧) ، وعبد شمس : بفتح آخره ، ممنوع من الصرف للعملية والتأنيث ، نص عليه أبو علي الفارسي في « التذكرة » ، كما نقله عنه في « تاج العروس » مادة « شمس » ، وغيره .

(٣) في الأصل : (عقر المباير) ، والتصويب من « الغرر » ، والعقر : القطع ، والأباهير : القوائم ، ووقع في « الغرر » : (لا يعثبون إذا سجت جحافلهم) .

كَأَنَّ وَرَبَّ مُحَمَّدٍ وَمَلِيكَهِ حَتَّى يُبَادَ كَفُورُهَا وَخَوْوُنُهَا (١)

ثم قال لهم : قوموا إلى مقصورتك ، ثم دعا بثلاثة وسبعين رجلاً من أهل خراسان ، فأعطاهم الخشب وقال : أشدخوهم ، فشدخوهم عن آخرهم ، قال سُديف : والله ؛ ما خرجت من الأنبار حتى رأيتهم معلّقين بعراقيهم قد نهشت الكلاب رؤوسهم (٢) .

ودخل إسماعيل - الملقب بسُديف المذكور - على السفّاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبّلها ، فلما رأى سُديف ذلك . . أقبل على السفّاح فقال :

يَا أَبْنَ عَمِّ النَّبِيِّ أَنْتَ ضِيَاءٌ
يَا وَصِيَّ الشَّهِيدِ أَكْرَمَكَ اللَّهُ فَقَدْ كُنْتَ لِلشَّهِيدِ وَصِيًّا
لَا يَغُرَّنْكَ مَا تَرَى مِنْ خُضُوعٍ
بَطْنِ البُعْضِ فِي القَدِيمِ فَأَضْحَى
فَضَعَ السَّيْفَ وَأَرْفَعَ الصَّوْتَ حَتَّى
لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أَمْوِيًّا
إِسْتَبْنَا بِكَ الْيَقِينِ الْجَلِيًّا
إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
ثَابِتًا فِي قُلُوبِهِمْ مَطْوِيًّا
لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أَمْوِيًّا

فقام أبو العباس ودخل ، وإذا المنديل قد ألقى في عنق سليمان ، ثم جُرّ فذبح (٣) .

ودخل شبيل بن عبد الله على عبد الله بن محمد بن علي (٤) بن عبد الله بن عباس بعد

(١) البيتان لسُديف إسماعيل بن ميمون ، وهما في « عيون الأخبار » (٢٠٨/١) ، و« العقد الفريد » (٤٥٣/٤) .

(٢) القصة بتمامها في « غرر الخصائص » (ص٧٤) ، وأصلها في « الأغاني » (٣٤٤/٤) ، و« الكامل » للمبرد

(١٣٦٦/٣) ، و« العقد الفريد » (٤٥٣/٤) ، و« الكامل في التاريخ » (٢٢/٥) ، وأبو الغمر : هو سليمان بن

هشام بن عبد الملك ، ووقع في الأصل : (الغمر) ، والتصويب من المصادر ، وسُديف : هو إسماعيل بن ميمون مولى

أبي العباس ، سمي سُديفاً لونه ، تشبيهاً بالسُدفة ، وهي الظلمة ، كان شاعراً مفلحاً ، وأديباً بارعاً ، مطبوع الشعر

حسنه ، ثم جعل يطعن بالمنصور قتلته ، انظر « الوافي بالوفيات » (١٢٥/١٥) ، وأبو العباس السفّاح : هو عبد الله بن

محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول من ولي الخلافة من بني العباس ، وذلك سنة (١٣٢ هـ) .

(٣) القصة مع الأبيات بتمامها في « غرر الخصائص » (ص٢٦٩) ، وعدا البيت الثاني في « الأغاني » (٣٤٢/٤) ،

و« الحماسة البصرية » (٩٢/١) ، والبيتان الثالث والخامس في « عيون الأخبار » (٢٠٨/١) ، و« العقد الفريد »

(٤٥٥/٤) ، و« محاضرات الأدباء » (٣٠٤/١) ، وقوله : (وصي الشهيد) يريد سيدنا الحسين بن علي رضي الله

تعالى عنهما .

(٤) في الأصل : (عبد الله بن علي) ، وهو عم أبي العباس السفّاح ، والمثبت عبد الله بن محمد بن علي وهو أبو العباس

السفّاح موافق لـ « الغرر » (ص٢٧٨) ، و« الكامل » (١٣٦٧/٣) ، و« العقد الفريد » (٤٥٤/٤) .

ما ولي الخلافة ، ووليها وهو ابن أربع وعشرين سنة في ربيع الآخر سنة ثنتين وثلاثين ومئة
وعنده مئتا رجل من بني أمية وهم جلوس معه على المائدة فقام إليه وأنشد : [من الخفيف]

أَصْبَحَ الْمُلْكُ ثَابِتَ الْأَسَاسِ بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ
طَلَبُوا وَتَرَ هَاشِمٍ فَشَفَوْهَا بَعْدَ مَيْلٍ مِنَ الزَّمَانِ وَيَّاسِ^(١)
يَا كَرِيمَ الْمُطَهَّرِينَ مِنَ الرَّجْجِ سِ وَيَا رَأْسَ كُلِّ طَوْدٍ وَرَاسِ
لَا تَقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عَثَارَا وَأَقْطَعَنَّ كُلَّ رَقْلَةٍ وَأَوَاسِي
ذُلُّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمْ كَحَزِّ الْمَوَاسِي^(٢)
وَلَقَدْ غَاظَنِي وَغَاظَ سَوَائِي قُرْبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِي
أَنْزَلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللَّهُ هُ بِدَارِ الْهَوَانِ وَالْإِتْعَاسِ
وَأَذْكُرُوا مَضْرَعَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدِ وَفَتِيلاً بِجَانِبِ الْمَهْرَاسِ^(٣)

فأمر بهم عبد الله فشدخوا وبسطت البسط عليهم وجلس عليها ، ودعا بالطعام ، وإنه
ليسمع أنينهم وعويلهم ، فلما فرغ من طعامه . . قال : ما أكلت أكلة هي أهنأ ولا أمراً
ولا أطيب في نفسي من هذه ، ثم خرج في طلب بني أمية في أقطار الأرض ، إن وجد
حيأ . . قتله ، وإن وجد قبراً . . نبشه وأحرق من فيه ، حتى أتى دمشق ، فدخلها وقتل في
جامعها يوم جمعة في شهر رمضان خمسين ألفاً من بني أمية ومواليهم كانوا قد أستجاروا
بالجامع ، فلم يُجرهم .

ولما وصل إلى الرُّصافة . . أخرج هشاماً من قبره ، فضربه مئة وعشرين سوطاً حتى تناثر
لحمه ، وقال : إنه ضرب أبي ستين سوطاً ظلماً .

(١) في الأصل : (وياس) ، وكذا في «العقد الفريد» (٤/٤٥٥) ، وغيره .

(٢) في الأصل : (كحدّ المواسي) .

(٣) القصة مع الأبيات بتمامها في «غرر الخصائص» (ص ٢٧٨) ، وهي عدا البيت الثالث في «الكامل» للمبرد

(٣/١٣٦٧) ، و«الكامل في التاريخ» (٥/٢٢) ، وقائلها هو شبل بن عبد الله مولى بني هاشم ، وقد نسبت إلى سديف

إسماعيل بن ميمون ، ذكرت منسوبة إليه عدا البيت الثاني في «الأغاني» (٤/٣٣٩) ، و«الحماسة البصرية»

(١/٩١) ، والصواب : أنها لشبل بن عبد الله ، قالها لأبي العباس السفاح لا لعمه ، كما رجحه ابن رشيق في «العمدة»

(١/٨٤) .

وقوله : (وأذكروا مصرع الحسين) أي : الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما حين قتله يزيد بن معاوية ، وقصته مشهورة .

وقوله : (وزيد) حاصل قصته : أن الإمام زيدا رضي الله تعالى عنه ^(١) ظهر في سنة اثنين وعشرين ومئة بالكوفة ، فأرسل هشام بن عبد الملك إلى محاربهته يوسف بن عمر الثقفي ؛ فلما قامت الحرب بينهم على ساقها . . . أنهزم أصحاب زيد ، وبقي في جماعة يسيرة ، فقاتل أشد القتال ، ولم يزل يقاتل حتى أصابه سهم في جبهته ، فمات منه ليلاً ، فدفنه أصحابه ، ثم دُلَّ يوسف على قبره ، فأخرجه وقطع رأسه ، وأرسله إلى دمشق ، فعلق رأسه وصلبت جثته عارية ، فتدلَّت سرته حتى سترت سوائه ، وقيل : إن العنكبوت نسجت عليه حتى سترت عورته ، وذلك في السنة التي ظهر فيها ، ولم يزل كذلك إلى أيام الوليد ابن عبد الملك ، فأمر بحرقها ، فأحرقت ، ومات هشام سنة خمس وعشرين ومئة في ربيع الأول وله من العمر ست وخمسون سنة ، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وعشرة أشهر وأياماً .

وقوله : (وقتيلاً بجانب المهراس) المراد به : حمزة بن عبد المطلب سيّد الشهداء رضي الله تعالى عنه ، وإنما نسب قتله لبني أمية ؛ لأنّ أبا سفيان رضي الله عنه قاد الجيوش يوم أحد لقتال المسلمين ، والمهراس : ماء بأحد ، قاله في « غرر الخصائص » ^(٢) .

* * *

(١) هو الإمام زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، كان وفد على هشام بن عبد الملك فوجد منه جفوة ، فكانت سبب خروجه وطلبه للخلافة ، فسار إلى الكوفة ، فقام إليه منها شيعة فخرجوا معه ، إلى أن ظفر به يوسف بن عمر الثقفي . انظر « السير » (٣٨٩/٥) ، و« الوافي بالوفيات » (٣٣/١٥) .

(٢) « غرر الخصائص » (ص ٢٧٨-٢٧٩) ، وتميماً للفائدة نذكر معاني المفردات في الأبيات التي مرت إضافة إلى ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى فنقول : قوله : (الأساس) جمع : أس ؛ وهو أصل البناء ، وقوله : (البهاليل) جمع : بهلول ؛ وهو الضحّاك والسيد الجامع لكل خير ، وقوله : (ياس) أي : يأس ، وتروى : (بأس) ، والرقلة : النخلة الطويلة ، والأواسي : ياؤه مشددة في الأصل ، وتخفيفها يجوز ، وإن لم يجز في الكلام . . . لجاز في الشعر ؛ لأن القافية تقطعه ، وكل منقل تخفيفه في القوافي جائز ، والآسية : واحدة الأواسي ؛ وهي أصل البناء بمنزلة الأساس ، وقوله : (وغاز سوائي) أي : سواي ، وتقول : (سواء) بالهمز إذا فتحت السين ، وإذا كسرتها . . . قصرت فتقول : (سوي) . ويجوز سواء وسوي بالضم .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٦٢

نَصَبُ الْمُنْصَبِ أَوْهَى جَسَدِي وَعَنَائِي مِنْ مُدَارَاةِ السَّفَلِ

النَّصَبُ - بفتح النون والصاد المهملة - : التعب والإعياء ، والمنْصَبُ - بفتح الميم وكسر الصاد ، وزان : مَسْجِدٍ - : العُلُوُّ والرَّفْعَةُ .

وقوله : (أوهى جسدي) أي : أضعفه ، فهو يتعدى بالهمزة كما هنا .

وقوله : (وعنائي) بفتح العين والمد ؛ أي : تعبي وأرتكابي ما يشقُّ عليَّ .

وقوله : (من مداراة) أي : ملاطفة وملاينة (السفلى) أي : الأراذل^(١) ، ولهذا التقرير كله مستفاد من « المصباح » .

وقوله : (نصب) مبتدأ ، وجملة : (أوهى جسدي) خبره ، وقوله : (وعنائي) مبتدأ ، خبره الجار والمجرور بعده ، أو خبره محذوف لدلالة ما قبله عليه ؛ أي : أوهى جسدي أيضاً ، وفي بعض النسخ : (جلدي) أي : تجلدي وتصبّري .

تَتِمَّة

[في حد وضابط السفلة]

سئل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عن السَّفِلة فقال : (هم الذين ليس لهم فعل موصوف ، ولا نسب معروف)^(٢) ، ولذلك قال بعضهم : شهادات الأفعال أصدق من شهادات الرجال^(٣) .

(١) لأن السافل ؛ وهو الخسيس ، جمعه : سُفُلٌ ، وسَفِلةٌ ، وسَفِلةٌ ، وسَفِلةٌ ، ويقال لأسفل السُّفُل أيضاً : سَفِلةٌ ، وجمع

السَفِلة : سَفِيلٌ . اهـ « التاج » ، فيكون السُّفُل جمع مفردٌ : سَفِلةٌ .

(٢) « محاضرات الأدباء » (٣٧٥ / ١) ، و« غرر الخصائص » (ص ٣٧) .

(٣) « غرر الخصائص » (ص ٣٧) .

وقال الأصمعي : (السُّفْلُ : هم الذين لا يباليون بما قالوا أو قيل فيهم)^(١) .

وقال يحيى بن أكثم : (هم الذين لا يعيبيهم ما صنعوا)^(٢) .

وسمع الأحنف رجلاً يقول : لا أبالي مدحت أو ذممت ، فقال : يا هذا ؛ أسترحت من حيث تعب الكرام^(٣) .

وقال بعضهم : هم الذين يكافئون على الفعل الحسن بالقبيح ، كما يحكى : أن رجلاً يقال له : همّام بن مرّة أخذ شخصاً يقال له : ناشرة من أمّه لَمّا مات أبوه وضافت بتربيته ذرعاً ، فربّاه همّام وأحسن إليه ؛ فلَمّا بلغ ناشرة الحلم . . أتى شيئاً قبيحاً ، فنهاه عنه ، فتركه حتّى نام وأغتاله ؛ أي : قتله ، فصار مثلاً في العرب ؛ تقول : (أكفّر من ناشرة)^(٤) .

وحكي : أنه أغار مالك بن خيثة الجعفي على بني القين^(٥) ، فأستاق منهم إبلاً ، فأطلقوا خلفه الأعنة ليطلقوها منه ، فلم يقدروا عليه ، ولا وصلوا إليه ، ثمّ إنه تذكر يداً كانت لبعضهم عنده ، فخلّى ما كان في يده وولّى منصرفاً ، فنادوه وقالوا : إنّ أمامك مفازة ولا ماء معك وقد فعلت جميلاً فانزل ولك الدّماء والحبّاء^(٦) ، فنزل ، فلَمّا أطمأنّ وسكن . . أخذته سنّة فنام ، فوثبوا عليه وقتلوه غدرًا ، فهذا شأن الأسافل .

وقد ورد في الحديث : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . . رَفَعَ لِكُلِّ غَادِرٍ لِرِوَاءٍ ، وَقِيلَ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ »^(٧) .

وذكر : أن عيسى عليه الصلاة والسلام مرّ بإنسان يطارد حيّة وهي تقول : والله ؛ لئن لم

(١) « محاضرات الأدباء » (٣٧٥ / ١) ، و« غرر الخصائص » (ص ٣٧) .

(٢) « محاضرات الأدباء » (٣٧٥ / ١) ، و« غرر الخصائص » (ص ٣٧) .

(٣) « غرر الخصائص » (ص ٣٧) .

(٤) انظر « الأغاني » (٥٠ / ٥) ، و« جمهرة الأمثال » (١٧٦ / ٢) ، و« مجمع الأمثال » (٨٨ / ٣) ، و« المستقصى في أمثال العرب » (٢٩٦ / ١) ، وفي ناشرة هذا قال الشاعر :

لقد عيّل الأيتام طعنة ناشره
أناشر لا زالت يمينك أشره

وأشرة : أي : مأشورة مقطوعة بالمشار ، نتيجة لفعلك القبيح مقابل الإحسان إليك .

(٥) في « غرر الخصائص » (ص ٣٨) ، و« نهاية الأرب » (٣٦٧ / ٣) : (خيثة بن مالك الجعفي) .

(٦) الدّماء : جمع : ذمة ؛ وهي العهد ، والحبّاء : العطاء .

(٧) أخرجه مسلم (١٧٣٥) ، وأحمد (٢٩ / ٢) ، وبنحوه البخاري (٦١٧٧) .

تذهب عني . . لأنفخنَّ عليك نفخةً أقطعك بها قطعاً ، فمضى عيسى وعاد ، فوجد الحيَّة في يد الرجل محبوسةً ، فقال لها : ويحك أين ما كنت تقولين ؟ قالت : يا روح الله ؛ إنَّه حلف لي وغدر ، وإنَّ سُمَّ غدره أقتل له مِنْ سُمِّي (١) .

وقال عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وجهه : (الوفاء بأهل الغدر غدر ، والغدر بأهل الغدر وفاء) (٢) .

وقالوا : الغدر يصلح في كثيرٍ مِنَ المواطن ، ولا غدر لغادر ولا خائن ، قاله في « غرر الخصائص » (٣) .

* * *

-
- (١) « غرر الخصائص » (ص ٣٩) ، و« نهاية الأرب » (٣/ ٣٦٥) .
(٢) « ربيع الأبرار » (٤/ ٢٧١) ، و« غرر الخصائص » (٣٩) .
(٣) « غرر الخصائص » (ص ٣٩) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ' ونفعنا به آمين :

٦٣

قَصْرُ الْأَمَالِ فِي الدُّنْيَا تَفْزُ فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلِ

أي : قصر آمالك في طلب الدنيا ؛ فَإِنَّكَ إِنْ فعلت ذلك . . فزت - أي : ظفرت بكل خير - وأستدللنا على كمال عقلك ؛ لأنَّ تقصير الأمل دليل على كمال العقل^(١) ، فسبيل العاقل تقصيرُ آماله في الدنيا ، والتقرُّبُ إلى الله سبحانه وتعالى بصالح الأعمال ، ولهذا قال بعضهم : قَصْرُ الْأَمَلِ سببٌ لِلزَّهْدِ^(٢) ؛ لِأَنَّ مَنْ قَصَرَ أَمَلَهُ . . زهد .

ويتولد من طول الأمل : الكسل عن الطاعة ، والتسويق بالتوبة ، والرغبة في الدنيا ، والنسيان للأخرة ، والقسوة في القلب .

وقيل : مَنْ قَصَرَ أَمَلَهُ . . قَلَّ هَمُّهُ وَتَنَوَّرَ قَلْبُهُ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا اسْتَحْضَرَ الْمَوْتَ . . أَجْتَهَدَ فِي الطَّاعَةِ ، وَرَضِيَ بِالْقَلِيلِ^(٣) .

وقال ابن الجوزي : الأمل مذموم إلا للعلماء ، فلو لا أملهم . . لَمَا أَلْفَوْا وَلَا صَنَّفُوا^(٤) .

وفي الأمل سرٌّ لطيف ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا الْأَمَلُ . . لَمَا تَهَنَّا أَحَدٌ بِعَيْشٍ ، وَلَا طَابَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَشْرَعَ فِي عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا^(٥) .

قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الْأَمَلُ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِأُمَّتِي ، وَلَوْلَا الْأَمَلُ . . مَا أَرْضَعَتْ

(١) قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : لو أوصى رجل بماله لأعقل الناس . . صرف للزهد في الدنيا ؛ لأنهم أعقل الناس .

(٢) أخرج نحوه من قول سفيان رحمه الله تعالى أبو نعيم في « الحلية » (٣٨٦/٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (١٦٠) ، والأمل : هو رجاء ما تحبُّه النفس ؛ من طول عمر ، وصحة ، وزيادة غنى ، ونحو ذلك .

(٣) « فتح الباري » (٢٣٧/١١) ، و« فيض القدير » (٢٢٩/٤) .

(٤) ذكره في « فتح الباري » (٢٣٧/١١) ، والسيوطي في « شرح ابن ماجه » (٣١٢/١) ، وقال : (لا حاجة لهذا الاستثناء ؛ لأن المذموم طول الأمل على سبيل الجزم ، وأما بطريق الظن . . فلا) .

(٥) « فتح الباري » (٢٣٧/١١) .

أُمَّ وَلَدَهَا ، وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرًا » رواه الخطيب عن أنس رضي الله تعالى عنه (١) .

والمذموم مِنَ الأمل : الاسترسال فيه ، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة ، فَمَنْ سلم مِنْ ذلك . . لم يُكَلِّفْ بإزالته .

وورد في ذم الاسترسال في الأمل حديث أنس رفعه : « أَرْبَعَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ : جُمُودُ الْعَيْنِ ، وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ ، وَطُولُ الْأَمَلِ ، وَالْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا » رواه البزار (٢) قاله في «فتح الباري» (٣) .

وقال في « تنبيه الغافلين » : (روي عن قتادة ، عن أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ أُتُنْتَانِ : الْحِرْصُ ، وَالْأَمَلُ » (٤) .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : أخوف ما أخاف عليكم اثنان : طول الأمل ، وأتباع الهوى ؛ فإن طول الأمل يُنسي الآخرة ، وأتباع الهوى يصدُّ عن الحق (٥) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صَلَاحُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْيَقِينِ ، وَهَلَاكُ آخِرِهَا بِالْبُخْلِ وَطُولِ الْأَمَلِ » (٦) (٧) اهـ

وأعلم : أن السبب في تفصير الأمل وعدم الاسترسال فيه هو تذکر الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ ؛ فَإِنَّهُ مَا ذُكِرَ فِي قَلِيلٍ إِلَّا كَثُرَتْ ، وَلَا فِي كَثِيرٍ إِلَّا قَلَّتْ » (٨) أي : ما ذكر في قليل من العمل الصالح إلا كثر ثوابه ، ولا في كثير من الأمل إلا قلَّتْ .

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥٠ / ٢) .

(٢) أخرجه البزار في « مسنده » كما في « مجمع الزوائد » (٢٢٩ / ١٠) .

(٣) « فتح الباري » (٢٣٧ / ١١) .

(٤) أخرجه مسلم (١٠٤٧) ، وابن حبان (٣٢٢٩) ، والترمذي (٢٤٥٥) .

(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠١٣٠) ، و « الزهد الكبير » (٤٦٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧٦ / ١) ، وابن

عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٩٤ / ٤٢) .

(٦) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٦) ، والطبراني في « الأوسط » (٧٦٤٦) ، وأحمد في « الزهد » (٥٢) .

(٧) « تنبيه الغافلين » (ص ٢٢٢ - ٢٢٧) .

(٨) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٧٧٦) ، وأخرج شرطه الأول فقط ابن حبان

(٢٩٩٢) وما بعده ، والحاكم في « المستدرک » (٣٢١ / ٤) ، والترمذي (٢٣٠٧) .

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ؛ مَنْ أكيَسُ الناس ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا ، أَوْلَيْكَ الْأَكْيَاسُ » (١) .

ويروى : أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله تعالى عنها قساوة في قلبها ، فقالت لها : أكثرني من ذكر الموت ، ففعلت ذلك ، فرق قلبها .

وقال عبد الله بن عتبة : عدت رجلاً مريضاً ، فلما قعدت عنده . . قلت : كيف تجدك ؟ فأنشد يقول :

خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَقَامَتْ قِيَامَتِي غَدَاةَ أَقَلِّ الْحَامِلُونَ جَنَازَتِي
وَعَجَّلَ أَهْلِي حَفَرَ قَبْرِي وَصَيَّرُوا خُرُوجِي وَتَعَجَّلِي إِلَيْهِ كَرَامَتِي
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا قَطُّ صُورَتِي غَدَاةَ أَتَى يَوْمِي عَلَيَّ وَسَاعَتِي (٢)

وقال ثابت البناني رحمه الله تعالى : (دخلت المقابر لأزور القبور ، وأعتبر بالموتى ، وأتفكر في البعث والنشور ، وأعظ نفسي لعلها ترجع عن الغي والغرور ، فوجدت أهل القبور صموتاً لا يتكلمون ، وفرادى لا يتزاورون ، فأيست من مقالهم ، وأعتبر بأحوالهم ؛ فلما أردت الخروج . . إذ أبصرت من يقول : يا ثابت ؛ لا يغرنك صموت أهلها ؛ فكم فيها من نفسٍ معذبةٍ أو منعمةٍ) (٣) .

ويروى : أن بعض المتعبدين أتى قبر صاحب له كان يألفه ، فوقف عند رأسه وأنشد يقول :

مَا لِي مَرَزْتُ عَلَى الْقُبُورِ مُسَلِّمًا قَبْرَ الْحَيِّبِ فَلَمْ يَرُدَّ جَوَابِي
أَحْيَيْبُ مَا لَكَ لَا تَحْيِبُ مُنَادِيًا أَمَلَلْتَ بَعْدِي خُلَّةَ الْأَصْحَابِ (٤)

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦٢٧) ، و « الزهد الكبير » (٤٥٦) ، والطبراني في « الكبير » (٣١٨/١٢) ، و « الأوسط » (٦٤٨٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٣/١) .

(٢) الأبيات في « الروض الفائق » (ص ٣٠) .

(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (٤٨٦/٤) ، و « الروض الفائق » (ص ٣١) .

(٤) وبعده :

لو كان ينطق بالجواب لقال لي أكل التراب محاسني وشبابي

قال : فهتف بي هاتف من جانب القبر يقول :

[من الكامل]

قَالَ الْحَبِيبُ وَكَيْفَ لِي بِجَوَابِكُمْ
أَكَلِ الثَّرَابُ مَحَاسِنِي فَنَسِيتُكُمْ
وَتَمَزَّقَتْ تِلْكَ الْجُلُودُ صَفَائِحًا
وَتَسَاقَطَتْ تِلْكَ الْأَنَامِلُ مِنْ يَدِي
وَتَسَاقَطَتْ تِلْكَ الْأَثْنَايَا لُؤْلُؤًا
وَتَسَاقَطَتْ تِلْكَ الْعُيُونُ عَلَى الثَّرَى
وَأَنَا رَهِيْنُ جَنَادِلٍ وَتَرَابِ
وَحُجِبْتُ عَنْ أَهْلِي وَعَنْ أَصْحَابِي
يَا طَالَمَا لَبَسْتُ رَفِيعَ ثِيَابِ
مَا كَانَ أَحْسَنَهَا لِخَطِّ كِتَابِ
مَا كَانَ أَحْسَنَهَا لِرَدِّ جَوَابِ
يَا طَالَمَا نَظَرْتُ بِهِمْ أَحْبَابِي (١)

وقيل : مرَّ داوود الطائيُّ بأمرأة تبكي عند قبر وهي تنشد وتقول :

[من المتقارب]

عَدِمْتُ الْحَيَاةَ فَلَا نِلْتَهَا
وَكَيْفَ أَلَذُّ بِطَعْمِ الْكَرَى
ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَبْتَاهُ ؛ بَأَيِّ خَدِّ بَدَأَ الدُّودُ أَوَّلًا ، فَخَرَّ دَاوُودُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِهَا (٢) .

وقال مالك بن دينار: أتيت القبور على سبيل الزيارة والتذكار والتفكير في الموت والاعتبار،

فتمنيت من يخبرني عنهم خبراً ، أو يقص لي من آثارهم أثراً ، فقلت شعراً :

[من المتقارب]

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا
وَأَيْنَ الْمُدِّ بِسُلْطَانِهِ
فَأَيْنَ الْمُعْظَمِ وَالْمُحْتَقِرِ
وَأَيْنَ الْعَزِيزِ إِذَا مَا أَفْتَخِرُ

قال : فنوديت من بين القبور :

[من المتقارب]

تَفَانُوا جَمِيعًا فَلَا مُخْبِرٌ
وَسَارُوا إِلَيَّ مَلِكٍ عَادِلٍ
وَمَاتُوا جَمِيعًا وَأَضْحَوْا عِبْرٌ
عَزِيزٍ مُطَاعٍ إِذَا مَا أَمْرٌ

(١) الأبيات في «الروض الفائق» (ص ٣٠) ، وبعد البيت الثاني :

فعلَيْكُمْ مِنْ سِي السَّلَامِ تَقَطَّعَتْ عُنِّي وَعَنْكُمْ خُلَّةُ الْأَصْحَابِ

ووقع في البيت الأخير : (وتساقطت فوق الخدود نواظري) ، وتنسب الأبيات لسيدنا علي رضي الله عنه في «ديوانه»

(ص ٥٢) .

(٢) البيتان من غير نسبة في «عيون الأخبار» (٣٠٢/٢) ، و«إحياء علوم الدين» (٤٨٧/٤) ، و«العاقبة في ذكر الموت»

(ص ١٩٩) ، و«الروض الفائق» (ص ٣١) .

فَيَا سَائِلِي عَنْ أَنَاسٍ مَضَوْا أَمَّا لَكَ فِيمَنْ مَضَى مُعْتَبَرٌ

قال مالك : فرجعتُ أبكي بالدموع الغزار ، وأعتبرت بذلك أيّ أعتبر (١) .

وقال الأصمعي : كنت كثير التفكّر في القبور ، وأتسلّى بقراءة الكتابة التي عليها ، فرأيتُ

قبوراً على صفٍّ ، وعليها لوحٌ مكتوب عليه هذان البيتان :

[من المتقارب]

أَلَا قُلْ لِمَاشٍ عَلَيَّ قَبْرِنَا غَفُولٍ بِأَشْيَاءٍ حَلَّتْ بِنَا
سَيِّئِدُمْ يَوْمًا لَتَفْرِيطِهِ كَمَا قَدْ نَدِمْنَا لَتَفْرِيطِنَا (٢)

[من البسيط]

وما أحسن ما قال بعضهم :

أَلَمْ مَوْتُ لَا بُدَّ مِنْهُ فَاسْتَعِدَّ لَهُ إِنَّ اللَّيِّبَ بِذِكْرِ أَلَمْ مَوْتٍ مَشْغُولُ
فَكَيْفَ يَلْهُو بِعَيْشٍ أَوْ يَلْذُبْ بِهِ مَنِ الثَّرَابُ عَلَيَّ حَدَّيْهِ مَجْعُولُ (٣)

وهذا قريبٌ من قول الناظم [الآتي] .

* * *

(١) القصة مع الأبيات في « عيون الأخبار » (٣٠٢/٢) ، و« إحياء علوم الدين » (٤٨٧/٤) ، و« العاقبة في ذكر الموت »

(ص ٢٠٠) ، قال ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٣٠٣/٢) : بلغني أنه قرىء على قبر بالشام :

باتوا على قلل الأجمال تحرّسهم
وأستنزلوا بعد عزّ من معاقلم
ناداهم صارخٌ من بعد ما دفنوا
أين الوجوه التي كانت محجبةً
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم
قد طال ما أكلوا دهرًا وما نعموا

غُلِبُ الرجال فلم تنفعهم القللُ
فأسكنوا حفرةً يا بئس ما نزلوا
أين الأسرة والتيجان والحللُ
من دونها تُضرب الأستار والكِللُ
تلك الوجوه عليها الدودُ تقتلُ
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا

والقلل : جمع قلة ، قمة الجبل وأعلاه ، والكِلل : جمع كلة ، وهي الستر الرقيق .

(٢) البيتان من غير نسبة في « الروض الفائق » (ص ٣٣) ، وبعدهما :

فويحك كُفَّ خطام الهوى وَقَدَّمْ جَمِيلاً نَقَزْ بِالْمُنَى

(٣) البيتان من غير نسبة في « بستان الواعظين » (ص ١٤٤) .

إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلِ

الغِرَّة - بكسر الغين المعجمة - : الغفلة ، وبضمِّها : تطلق على أوَّل الشهر وغيره ، وتطلق على الواجب في الجناية على الجنين^(١) ، وتطلق على البياض الذي في الجبهة إذا كان فوق الدرهم ، ومنه الغِرَّة في الوضوء^(٢) ، أفاده في « المصباح » .

وفيه أيضاً : (وهو جديرٌ بكذا ؛ بمعنى : خليق وحقيق) اهـ

وفيه أيضاً : (وَجَلَّ وَجَلًّا ، فهو وَجِلٌّ ، والأُنثى وَجِلَّةٌ ، مِنْ بابِ تعَب : إذا خاف) اهـ

وهذا البيت كالتعليل للبيت الذي قبله ؛ أي : إنّما أمرتك بتقصير الأمل في الدنيا ؛ لأنَّك منقول مِنْ هذه الدار قطعاً ، ولا تدري أين يكون الانتقال ، فاللائق بك الاستعداد للرحيل ، وعدم الركون إلى الدنيا .

قال بعضهم : مَنْ عَلِمَ أَنَّ الْمَوْتَ نَازِلَ بِهِ ، وَأَيُّقِنُ أَنَّهُ فِي عَسْكَرِ الْمَوْتِ . . أَسْتَعِدَّ لَهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَدْفَعُ عَنْهُ بَعْضُ شِدَّتِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى هُوَ نَازِلٌ بِهِ .

وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة الموت لأُمَّته ؛ لكي يستعدوا له ، ويصبروا على شدائد الدنيا التي هي أيسر وأخفُّ مِنْ معالجة الموت ، جعلنا الله وإيّاكم ممّن خافه وعمل له آمين .

وروي عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « تَحَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ فِيهِمْ الْأَعَاجِيبُ » ، ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ

(١) والغِرَّة : عبدٌ أو أمة ، كما فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم في جنين الهذلية عند البخاري (٥٧٦٠) ومسلم (١٦٨١) ، والغِرَّة في الأصل : أنفُس الشَّيء ، ثم أطلقت على النسمة من الرقيق ، وسميت بذلك ؛ لأنها غِرَّة ما يملكه الإنسان ؛ أي : أفضله ، وغِرَّة كلِّ شيءٍ خيَارُهُ .

(٢) أخرج البخاري (١٣٦) ، ومسلم (٢٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ أمّتي يدعون يوم القيامة غُرّاً مُحجّلين من آثار الوضوء ، فمن أستطاع منكم أن يطيل غرّته . . فليفعل » .

فقال : « خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَنْوَأَ مَقْبَرَةً فَقَالُوا : لَوْ صَلَّيْنَا ثُمَّ دَعَوْنَا حَتَّى يَخْرُجَ لَنَا بَعْضُ الْمَوْتَى فَيُخْبِرَنَا عَنِ الْمَوْتِ ، فَصَلَّوْا ثُمَّ دَعَوْا رَبَّهُمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذَا بِرَجُلٍ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْرِهِ بِرَأْسِهِ ، فَقَالَ : يَا هَؤُلَاءِ ؛ مَا أَرَدْتُمْ ؟ فَوَاللَّهِ ؛ لَقَدْ مُتُّ مِنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً ، وَإِنْ مَرَارَةَ الْمَوْتِ مَا ذَهَبَتْ مِنِّي إِلَى الْآنَ ، وَكَانَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ » (١) .

وعن الحسن : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « شِدَّةُ الْمَوْتِ وَكَرْبُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَشَدُّ مِنْ ثَلَاثِ مِئَةٍ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ » (٢) .

وروي عن عبد الله بن مسعود أَنَّهُ قَالَ : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » فقال : « إِذَا دَخَلَ النَّوْرُ فِي الْقَلْبِ . . انْفَسَحَ وَأُنْشِرَ » ، قيل : وهل لذلك مِنْ علامة ؟ قال : « نَعَمْ ؛ أَلْتَجَافِي عَنْ دَارِ الْعُرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالْإِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ » (٣) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الأحبار : حدثني عن الموت ، فقال : كأنه غصن شوك أدخل في جوف رجل ، فأخذت كل شوكه بعرق ، ثم جذبها رجل شديد الجذب جذبة شديدة ، فقطع منها ما قطع ، وأبقى ما أبقى (٤) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ عَلِمْتَ الْبَهَائِمُ مَا تَعَلَّمُونَ مِنَ الْمَوْتِ . . مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا لَحْمًا سَمِينًا أَبَدًا » (٥) .

وذكر : أَنَّ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْكُفْرَةِ : إِنَّكَ تَحْيِي جَدِيدَ الْعَهْدِ بِالْمَوْتِ ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ مِيتًا ، فَأَحْيَيْ لَنَا مَنْ مَاتَ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَخْتَارُوا مَنْ شِئْتُمْ ، فَقَالُوا : أَحْيِ لَنَا سَامَ بْنَ نُوحٍ ، فَجَاءَ إِلَى قَبْرِهِ ، وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، وَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى ، فَأَحْيَا اللَّهُ تَعَالَى سَامَ بْنَ نُوحٍ إِذَا بِرَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ قَدْ أَيْضَتْ ، فَقَالَ لَهُ : مَا هَذَا الشَّيْبُ ؛ فَإِنَّ الشَّيْبَ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِكَ ؟ فَقَالَ : سَمِعْتُ النِّدَاءَ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا

(١) سبق تخريجه (ص ١١٣) .

(٢) سبق تخريجه (ص ١١٤) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣١١/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) ، و« الزهد الكبير » (٩٧٤) .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٢/٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٦٥/٥) .

(٥) سبق تخريجه (ص ١١٤) .

القيامة ، فشاب رأسي ولحيتي من الهيبة ، فقال له : منذ كم أنت ميت ؟ قال : منذ أربعة آلاف سنة ، فما ذهبت عني سكرات الموت^(١) .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : « ما من نفسٍ برّةٍ ولا فاجرةٍ إلاّ والموت خير لها ، فإن كان برّاً . فقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّابْرَارِ ﴾ ، وإن كان فاجراً . فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ »^(٢) .

وروي أيضاً عن [سعد] ابن مسعود^(٣) ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل : أيُّ المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » ، قيل : أيُّ المؤمنين أكيس ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا »^(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمَانِي »^(٥) يعني : المغفرة ، قاله في « تنبيه الغافلين »^(٦) .

ولله درُّ الملاح حيث قال في « تخميسه » :

إِتَّقِ اللَّهَ وَقَصِّرْ أَمَلًا وَأَرْضَ مِنْ رِزْقِ بَمَهَمَا حَصَلَا
لَيْسَ فِي الدُّنْيَا خُلُودٌ لِلْمَلَا إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى
غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلِ^(٧)

* * *

(١) سبق تخريجه (ص ١١٤) .

(٢) سبق تخريجه (ص ١١٥) .

(٣) في الأصل : (عبد الله بن مسعود) ، والتصويب من « الزهد » لابن المبارك (٢٧٢) ، و« تنبيه الغافلين » للسمرقندي (ص ٤٥) .

(٤) أخرجه من حديث سعد بن مسعود رضي الله عنه ابن المبارك في « الزهد » (٢٧٢) ، وأبو بكر الشافعي في « الغيلانيات » كما في « الإصابة » (٣٤/٢) .

(٥) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٥٧/١) و(٢٥١/٤) ، والترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

(٦) « تنبيه الغافلين » (ص ٣٥-٤٥) .

(٧) « تخميس الملاح » (ص ١٣) .

غِبْ وَزُرْ غَيْبًا تَزِدُ حُبًّا فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاهُ الْمَلَلُ

أمر الناظم رحمه الله تعالى بالغيبة عن الناس ، فقوله : (غب) بكسر الغين المعجمة ؛ أي : أعتزل الناس ولا تتخالطهم ، ثم أمر بالزيارة لهم بقوله : (وَزُرْ غَيْبًا) بكسر الغين المعجمة ؛ أي : يوماً بعد يوم ، وهذا هو المراد بزيارة الغيب ، ولكن المراد هنا : ألا تغيب زمناً طويلاً بين الزيارتين ، ثم علل الأمر بزيارة الغيب بقوله : (فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدَادِ) على الناس (أضناه الملل) أي : أمرضه مرضاً ملازماً ، والملل : السامة والضجر .

وهذا البيت مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم : « زُرْ غَيْبًا . . تَزِدُّ حُبًّا »^(١) ، وهذا يختلف باختلاف الناس ؛ فبعضهم تسنُّ زيارته كل يوم ؛ بأن علمت أنك إذا غبت عنه يوماً . . يشقُّ عليه ذلك ؛ وبعضهم يوماً بعد يوم ، وبعضهم بعد أسبوع ، إلى غير ذلك .

فتستحبُّ زيارة الإخوان والعلماء والصلحاء على حسب ما يقتضيه الحال ؛ لأن ذلك ممَّا يورث المحبَّة في القلوب مع حصول الثواب الجزيل ، ففي « الجامع الصغير » : (قال صلى الله عليه وسلم : « أَيُّ عَبْدٍ زَارَ أَخًا فِي اللَّهِ تَعَالَى . . إِلَّا نُودِيَ : أَنْ طُبَّتْ وَطَابَتْ لَكَ الْجَنَّةُ ») اهـ^(٢)

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٨٠/١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٧) ، والبخاري في « مسنده » (٣٩٦٣) .

وأشدد في معناه لعبد الملك بن جهور الوزير كما في « روضة العقلاء » (ص ١١٦) ، و« بهجة المجالس » (٢٥٧/١) : [من الوافر]

وقد قال النبي وكان بسراً
وأقلل زور من تهواه تزدد
إذا زرت الحبيب فزوره غيباً
إلى من زرتة مقه وحجياً
والمقَّة : المحبة وشدة الاشتياق .

(٢) « الجامع الصغير » (٣٠١٨) ، والحديث أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٦٧٩) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٤١٤٠) ، والبخاري في « مجمع الزوائد » (١٧٦/٨) .

وقال في « غرر الخصائص » ما نصّه : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَادَ مَرِيضاً أَوْ زَارَ أَخاً . . نَادَى مُنَادٍ : أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً » (١) .

ولقد أحسن مَنْ قال : أمش ميلاً . . وعد مريضاً ، وأمش ميلين . . وأصلح بين اثنين ، وأمش ثلاثة أميال . . وزر أخاً في الله (٢) .

وقال بعضهم : الإفراط في الزيارة مملٌ ، والتفريط فيها مخلٌ (٣) .

وقالوا : ربّما كان التقالي - أي : التباعد - في كثرة التلاقي .

وقالوا : قلة الزيارة أمان من الملأل .

وقالوا : كثرة التعاهد سبب التباعد (٤) .

ولقد أحسن بعضهم في قوله :

[من الطويل]

عَلَيْكَ بِإِغْبَابِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ صَارَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلَكًا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُسَامُ دَائِمًا وَيُسَالُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَ (٥)

ومما يكون سبباً للمحبة : عيادة المريض ؛ لخبر : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ . . لَمْ يَزَلْ فِي حَدِيقَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ » ، قيل : يا رسول الله ؛ فما حديقة الجنة ؟ قال : « جَنَاتُهَا » (٦) .

ومما ينبغي للطف الظريف في عيادة المريض : تخفيف السلام ، وتقليل الكلام ، وتعجيل القيام .

وحكي : أن عمرو بن العلاء رضي الله تعالى عنه مرض ، فعاده بعض الأصدقاء له ،

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٦١) ، والترمذي (٢٠٠٨) ، وابن ماجه (١٤٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٠١) عن مكحول مرسلأ ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٢٥/٥) عن عطاء بن ميسرة ، وانظر « فيض القدير » (١٩٥/٢) .

(٣) « المستطرف » (٢٧٦/١) .

(٤) هو وسابقه في « محاضرات الأدباء » (٣٩/٢) .

(٥) البيتان لأبي بكر بن دريد كما في « جمهرة الأمثال » للعسكري (٥٠٥/١) ، وقد نسبهما أيضاً في « ديوان المعاني »

(٢٣٩/٢) لمسلم بن الوليد ، ونسبهما المعافى في « المجلس الصالح » (٥٢٢/١) للمبرد .

(٦) أخرجه مسلم (٤٢/٢٥٦٨) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٢١) ، والبيهقي في « السنن » (٣٨٠/٣) ، ووقع عندهم (مخرقة الجنة) بدل : (حديقة الجنة) ، و(جناها) بدل : (جنااتها) .

فأبطأ عنده ، فقال : ما يبطنك ؟ قال : أريد أن أسامرك ، قال : أنت معافى وأنا مبتلى ،
والعافية لا تدعك تسهر والبلاء لا يدعني أنام ، والله أسأل أن يسوق لأهل العافية الشكر ،
ولأهل البلاء الصبر .

وحكى سلمة قال : دخلت على الفراء أعوده ، فأطلت وألحفت في السؤال ، فقال :
أذن ، فدنوت ، فأنشدني :

حَقُّ الْعِيَادَةِ يَوْمٌ بَعْدَ يَوْمَيْنِ وَلَحْظَةٌ مِثْلَ لَحْظِ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ (١)
ويكفي في أدب العيادة ما يحكى : أن الفضل بن يحيى أعتل ، فكان إسماعيل بن صبيح
يعوده ، فلا يزيد على السلام عليه والدعاء له ، ثمَّ ينصرف ، فيسأل الحاجب عن حاله
ومأكله ومشربه ونومه ، وكان غيره يطيل الجلوس ، فلما برىء الفضل قال : ما عادني في
علتي هذه غير ابن صبيح (٢) .

وينبغي لمن عاد المريض أن يبشره ولا يكون كبعض البلداء ؛ كما حكى : أنه دخل
حمصي على عروة بن الزبير يعوده لما قُطعت رجله لِأَكْلَةِ أصابتها ، فقال له : أَقْطَعْتَ
رجلك ؟ قال : نعم ، قال : جيد ، ثم قال له : أَوْجَعَكَ شديداً ؟ قال : نعم ، قال : جيد ،
ثم قال : لا تغتمم ؛ فَإِنَّكَ لو رأيت ثوابها . . لتمنيت أن الله قد قطع رجلك ويديك وأعمى
بصرك ودقَّ صلبك ، فكان مصاب عروة بعائده أكثر من مصابه بما قُطِعَ مِنْ جسده .

(١) سلمة : هو أبو محمد سلمة بن عاصم النحوي الإمام المتوفى بعد (٢٧٠هـ) ، والفراء : هو أبو زكريا يحيى بن زياد
الكوفي النحوي الإمام المتوفى سنة (٢٠٧هـ) ، والقصة أخرجها البيهقي في « الشعب » (٨٧٩٠) ، وبعد البيت :

لَا تُبْرِمَنَّ مَرِيضاً فِي مُسْأَلَةٍ يَكْفِيكَ مِنْ ذَلِكَ تَسْأَلُ بِحَرْفَيْنِ
والبيتان لجعفر بن محمد ابن حذار الكاتب كما في « التمهيد » (٢٤ / ٢٧٧) ، و « بهجة المجالس » (١ / ٢٦٣) ،
ونسبهما في « النور السافر » (ص ٥٣) إلى محمد بن أحمد بافضل السعدي الحضرمي ، وعارضهما كما في « الصلة »
لابن بشكوال (١ / ٥٨) أحمد بن يحيى أبو عمر ابن سُميق فقال :

إذا لقيت عليلاً فاقعد ليديه قليلاً
ولا تطول عليه وقل مقالاً جميلاً
وقم بفضلك عنه تكن حكيماً نبياً
(٢) « العقد الفريد » (١٠٤ / ٢) .

وأين هذا الجِلْفُ مِنْ عيسى بن طلحة بن عبيد الله ؛ فإنه دخل على عروة هذا يعوده لَمَّا قُطعت رجله ، فقال : والله ؛ ما كُنَّا نَعُدُّكَ للصراع ولا للسباق ، ولكن نَعُدُّكَ للخير ونوالك المنساق ، ولئن أعدمنا الله أقلَّكَ . . لقد أبقَى لنا أكثرَكَ ؛ سمعَكَ وبصرَكَ ولسانَكَ وعقلَكَ ويديكَ وإحدىَ رجلَيْكَ ، فقال : يا عيسى ؛ ما عزَّاني أحدٌ بمثل ما عزَّيتني به (١) .

ودخل رجل على مريض يشكو مِنْ رأسه ، فقال لأهله : لا ضير ، إذا رأيتم المريض هكذا . . فأغسلوا أيديكم منه .

وعاد آخر مريضاً فقال : ما بك ؟ قال : وجع الركبة ، فقال : إنَّ جريراً ذكر بيتاً ذهب عني صدره وبقي عَجْزُه ، وهو : (وَلَيْسَ لِدَاءِ الرُّكْبَتَيْنِ دَوَاءٌ) (٢) ، فقال المريض : ليت عَجْزَكَ ذهب كما ذهب صدره .

وعاد آخر مريضاً فقال لأهله : آجركم الله ورحم مَيْتَكُمْ ، فقالوا : إنَّه لم يمْتَ بعد ، فقال : يموت إن شاء الله تعالى .

وعاد آخر مريضاً ، فلمَّا خرج مِنْ عنده . . قال لأهله : لا تفعلوا في هذا كما فعلتم في فلان ؛ مات وما أعلمتموني .

وعاد آخر مريضاً ، فلمَّا خرج . . قال لأهله : آجركم الله وأحسن عزاءكم ، فقالوا : إنَّه لم يمْتَ ، قال : عرفتُ ، ولكنني شيخ كبير ، فلا أستطيع النهوض في كلِّ وقت ، وأخاف أن يموت فأعجز عن المجيء لأعزيكم به .

وعاد آخر مريضاً فقال : ما تشككي ؟ قال : وجع الخاصرة ، قال : والله ؛ كانت علة أبي فمات منها ، فعليك بالوصية يا أخي ، فدعا المريض ولده فقال : يا بني ؛ أوصيك بهذا ؛ لا تدعه يدخل عليَّ بعد هذا) اهـ (٣)

* * *

(١) أخرج القصة ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦٥/٤٠) .

(٢) البيت في « ديوان جرير » (ص ٣٩) ، وهو بتمامه :

وليس لداء الركبتين طيبٌ

تُحْنَى العظام الراجفاتُ مِنَ البلى

(٣) « غرر الخصائص » (ص ٣٠٥-٣٠٨) .

خُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَتْرُكْ غِمْدَهُ وَأَعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْخُلَلِ

أي : أضرب العدوَّ بِحَدِّ السيف ، وأترك ضربه بِغِمده - بكسر الغين المعجمة - أي :
بوعائه الذي يدخل فيه ؛ لأنَّ النصر مقرون بِحَدِّه دون غِمده ، كما قال الشاعر : [من الرجز]

إِنْتَهَزِ الْفُرْصَةَ كَيْ تَحْظَى بِهَا فَالْعِلْمُ دُرٌّ نَافِعٌ فِي حَدِّهِ
وَأَخُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَتْرُكْ غِمْدَهُ فَالْنَّصْرُ مَقْرُونُ الرَّجَا بِحَدِّهِ

وهذا محمول على ما إذا كان العدوُّ صائلاً على نفسك أو بضعك أو مالك فتردُّه
بالأخف ، فإذا لم يمكن ردُّه إلا بالسيف . . فخذ به حَدِّه دون غِمده ولا إنم عليك لا في الدنيا
ولا في الآخرة .

ويحتمل أن يراد به الكافر الحربي ، فيكون في كلامه ترغيب في الجهاد والغزو الذي هو
فرض كفاية على المسلمين^(١) ، (فـ) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) لم يذكر الفتاوي رحمه الله تعالى معنى البيت الإجمالي ، وارتباط شطريه ، ولعل المعنى الذي أراده الناظم رحمه الله تعالى
والله أعلم : أن العبرة للباطن والمضمون لا للظاهر ، فليكن المقياس في تقييمك الأشخاص الفضل والعلم والنخلة والدين
واللسان والبيان ، وإن كان ذلك مع رثاء الثياب ، ورداءة الحال ، وقبح الشكل ، فالمضمون أولى بالاعتبار ؛ إذ المرء
تحت طيِّ لسانه ، لا تحت طيلسانه ، ولا يغرنك جمال المظهر وحسن الهيئة ، فغمد السيف وإن كان مرصعاً بالجواهر
ومزيناً بالحلي ليس بنافع بشيء في الحروب والمعارك ، وإنما المعوَّل عليه هو السيف المهند داخله ، فكم من سيف قديم
في حدِّه ثلثة وكسر قد وضع في غمد غاية في الجمال ، وكم من سيف بئار قد وضع في غمد يرثي له الحال ، وكذلك
الرجال ، وبيت الناظم مأخوذ من قول المعري في «ديوانه» (ص ١٩٤) :

وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل

وقرب منه قول الحلواني أبي الحسن عبد الكريم بن فضال ، كما في «الذخيرة» (٧/٢٩٥) لابن بسام : [من الكامل]

هل بعد سنَّ الأربعين تصابي ذهب الشباب ولات حين شباب

هل ينفعنك بعد شيبك في الهوى توفير مكتسب وحسن ثياب

هيهات ما فخر المهند في الوعى بحلي غمدي فوقه وقرب

وسلم بعث عبد الله بن رواحة في سرية ، فوافق ذلك يوم الجمعة ، فقال عبد الله : أصلي الجمعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم ألحق بأصحابي ، وقد غدا أصحابه ، فلما صلى . . .
 رآه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « يَا بَنَ رَوَاحَةَ ؛ مَا لَكَ لَمْ تَغْدُ مَعَ أَصْحَابِكَ ؟ »
 فقال : أحببت أن أصلي معك الجمعة ثم ألحق بأصحابي ، فقال له : « لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً . . . مَا أَدْرَكَتَ فَضْلَ غَدْوَتِهِمْ » (١) .

وعن الحسن : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . أَفْضَلُ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا ، وَلَمَوْقِفُ الرَّجُلِ فِي الْصَّفِّ الْأَوَّلِ . . . أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَجْتَمِعُ عُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَدًا » (٣) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كُلُّ عَيْنٍ بَاكِئَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا ثَلَاثَةً : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ حَرَسَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٤) .

وروي عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَلْسُيُوفُ مَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ - قال - : وَإِذَا أَلْتَقَى الصَّفَّانِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . تَزَيَّنَتِ الْخُورُ الْعَيْنُ فَاطْلَعْنَ ، فَإِذَا أَقْبَلَ الرَّجُلُ . . . قُلْنَ اللَّهُمَّ أَنْصِرْهُ ، اللَّهُمَّ بِنْبِهِ ، اللَّهُمَّ أَعْنِهِ ، فَإِذَا أَدْبَرَ . . . أَحْتَجِبْنَ عَنْهُ وَقُلْنَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ؛ فَإِذَا قُتِلَ . . . غَفَرَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ دَمِهِ كُلِّ ذَنْبٍ هُوَ عَلَيْهِ ، وَتَنْزَلُ عَلَيْهِ اثْنَتَانِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ تَمْسَحَانِ الْعُبَارَ عَنْهُ » (٥) .

(١) أخرجه الترمذي (٥٢٧) ، والبيهقي في « السنن » (١٨٧/٣) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٦٥٦) ، وأحمد (٢٢٤/١) .

(٢) أخرجه من مرسل الحسن رحمه الله السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (٤٩٤) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٣٢٥١) ، والحاكم في « المستدرک » (٧٢/٢) ، والترمذي (١٦٣٣) .

(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٤١٦/١٩) ، وبنحوه البيهقي في « السنن » (١٤٩/٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٩٨/٤) ، وأحمد (١٣٣/٤) .

(٥) أخرجه من حديث يزيد بن شجرة رضي الله عنه موقوفاً الحاكم في « المستدرک » (٤٩٤/٣) ، وسعيد بن منصور (٢٥٦٧) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٩٥٣٨) ، وجاء مرفوعاً عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٥٦٤/٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٤٧/٢٢) .

وحكي : أن رجلاً حبشياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني كما تراني ذميم الوجه ، متنن الريح ، غير زكّي الحسب ، فأين أنا إن قاتلت حتى أقتل ؟ قال : « فِي الْجَنَّةِ » ، فأسلم ثم ألتحم القتال فأقتلوا ، فلمّا تحاجز القوم . . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « تَفَقَّدُوا إِخْوَانَكُمْ » ، ففعلوا ، فقالوا : يا رسول الله ؛ ذلك الحبشي قتل في وادي كذا ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، فلمّا أشرف عليه . . قال : « الْيَوْمَ حَسَنَ اللَّهُ وَجْهَكَ ، وَطَيْبَ رِيحَكَ ، وَزَكَّى حَسَبَكَ » ، وأعرض عنه ، فقالوا : رأيناك أعرضت عنه ، فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَقَدْ رَأَيْتُ أَزْوَاجَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ابْتَدَرْنَهُ حَتَّى بَدَتْ خَلَائِلُهُنَّ » (١) .

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال في قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ : « أَزْوَاجُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضِرَ تَسْرَحُ فِي أَشْجَارِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ آيِّهَا شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ » (٢) .

وعن عوف بن مالك الأشجعي : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ غَازِيًا حَقًّا مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالسَّنَةِ . . فليحافظ على خصال عشرة :

أولها : ألا يخرج إلا برضا الوالدين .

وثانيها : أن يؤدي أمانة الله التي في عنقه ؛ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالْكَفَارَاتِ ، ثُمَّ يُوَدِّي أَمَانَاتِ النَّاسِ الَّتِي فِي عُنُقِهِ ؛ مِنَ الْمَظَالِمِ وَالْغِيْبَةِ وَقَوْلِ الزُّورِ .

وثالثها : أن يدفع إلى أهله ما يكفيهم قدر إقامته .

ورابعها : أن تكون نفقته من كسبٍ حلال ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا .

وخامسها : أن يسمع ويطيع أميره ولو كان عبداً حبشياً بعد ما كان أميراً عليه .

وسادسها : أن يؤدي حقَّ رفيقه ، ويتبسم في وجهه كلما لقيه ، ويمرّضه إذا مرض ، ويقوم في حوائجه .

وسابعها : ألا يؤدي في طريقه مسلماً ولا معاهداً .

وثامنها : ألا يفرّ من الزحف .

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٩٣/٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٢٠٩/٦) .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧) ، والترمذي (٣٠١١) ، وابن ماجه (٢٨٠١) .

وتاسعها : أَلَا يَغْلُ من الغنيمة شيئاً قبل القسمة ؛ فإنه تعالى قال : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وعاشرها : أن يريد بالغزو نصرة المؤمنين (قاله في « تنبيه الغافلين »)^(١)

وقوله : (وأعتبر فضل الفتى دون الحُلل) أي : خذ العلم عمن يؤخذ عنه من أهله كائناً من كان ، سواء كان فقيراً أو غنياً ، مالكاً أو مملوكاً ، ولا تحتقر الفاضل إذا كان فقيراً ؛ لأنَّ شأن العلماء العاملين قلة الدنيا في أيديهم ، وكذلك إذا قام به فقر أخرويٌّ ، كتقصيره في الأعمال الصالحات ، وأرتكابه بعض المنهيات ؛ لأنَّ ضرر ذلك عليه لا على غيره ؛ كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ .

وقوله : (دون الحُلل) بضمِّ الحاء المهملة ، جمع : حُلَّة ، قال في « المصباح » : (والحُلَّة - بالضم - لا تكون إلاَّ من ثوبين من جنس واحد ، والجمع : حُلل ، مثل : غُرُفة وغُرُف) اهـ

أي : لا تنظر إلى الحُلل ؛ أي : الملابس الفاخرة على شخص جاهل ؛ لأنَّ هذا أفتخار دنيويٌّ لا طائل تحته .

قال في « غرر الخصاص » : (نظر معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما إلى ابن أوس العذري الخطيب وأزدراه ، فتبيَّن لابن أوس ذلك في وجهه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنَّ العباءة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، وكمال الرجل أدبه لا ثيابه ، ثمَّ أنشد :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَثْوَابِي مُلْفَقَةٌ لَيْسَتْ بِخَزٍّ وَلَا مِنْ نَسِجِ كَثَّانِ
فِيَنَّ فِي الْمَجْدِ هِمَّاتِي وَفِي لُغَّتِي فَصَاحَةٌ وَلِسَانٌ غَيْرُ لِحَّانِ^(٢)

وأراد بعض الأعراب مخاطبة إنسان ، فأزدراه الرجل لخسَّة حاله ، وأبى أن يكلمه ، فقال : ما لكم يا عبيد الثياب وأشباه الكلاب حقرتموني لأطماري ولم تسألوا عن مكنون

(١) « تنبيه الغافلين » (ص ٤٩٤ - ٤٩٨ ، ٥٠٥) .

(٢) القصة من غير البيتين أخرجها المعافى في « المجلس الصالح » (٦٣ / ٣) .

وَيَقَالُ لِي : هَذَا أَلَّيْبُ أَلَّهْذَمُ
بِالْتَّقْدِ زَافَ كَمَا يَزِيْفُ أَلدَّرَهْمُ

أَلْمَرْءُ يُعْجِبُنِي وَمَا كَلَّمْتُهُ
فَإِذَا قَدَحْتُ زِنَادَهُ وَوَرَيْتُهُ

ودخل كثير بن عبد الرحمن على عبد الملك بن مروان في أول خلافته ، فأقتحمته
عينه ، فقال كثير : يا أمير المؤمنين ؛ كل عند نفسه واسع الفناء ، شامخ البناء ، عالي
السناء ، ثم أنشد وقال :

وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ
فِيخْلِفُ ظَنَّاكَ أَلرَّجُلُ أَلطَّرِيرُ
وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ

تَرَى أَلرَّجُلَ أَلنَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ
وَيُعْجِبُكَ أَلطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ
فَمَا عَظُمُ أَلرَّجَالِ لَهُمْ بَزِينِ

فتعجب منه عبد الملك وأمر له بصلة حسنة ، وكان كثير هذا قصيراً جداً ، لا يبلغ طوله
ضروع الإبل لقصره ، وكان إذا دخل باب عبد الملك يقول له حين يراه : طأطأ رأسك ؛
لثلاً يصيبه السقف تهكماً به (١) .

قال عبد الملك بن عمير : « قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة أصلع الرأس ، متراكب
الأسنان ، مائل الذقن ، ناتئ الجبهة ، جاحظ العينين ، خفيف العارضين ، ولكنه كان إذا
تكلم . . جلا عن نفسه سائر العيوب » (٢) .

ونظر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى الأحنف وعنده الوفد والأحنف ملتفت
بعباءة ، فترك عمر القوم وأستنطقه ، فتكلم بكلامه البليغ المصيب ، فلم يزل عنده في علياء
إلى أن عقد له من الرياسة ما كان له ثابتاً إلى أن فارق الدنيا) اهـ

* * *

(١) قصة كثير مع الأبيات أخرجهما القالي في « أماليه » (٤٨/١) ، والمعاني في « الجليس الصالح » (٥٨٤/١) ، والأبيات
في « شرح ديوان حماسة أبي تمام » (٨٩/٣) ، و« معجم الشعراء » (ص ١٠٢) منسوبة للعباس بن مرداس .
وكثير : هو ابن عبد الرحمن الشاعر المشهور ، كثير عزة ، المتوفى سنة (١٠٥ هـ) ، وقوله : (فاقتمته عينه) أي :
نظرت إليه من غير روية ولا إحجام ؛ أستصغاراً وأستهزاء ، وقد كان من صفته صلى الله عليه وسلم أنه لا تقتحمه عين من
قصر .

(٢) « البيان والتبيين » (٥٦/١) ، و« عيون الأخبار » (٣٥/٤) ، و« ربيع الأبرار » (٢٥٤/٢) .

لَا يَضُرُّ الْفُضْلَ إِقْلَالٌ كَمَا لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطِّفْلِ

هذا البيت في قوة التعليل لقوله : (وأعتبر فضل الفتى دون الحُلل) أي : لا يضرُّ أهل الفضل والعلم الإقلال والفقر ، كما أنَّ إطباق الطِّفل وكثرته لا يضرُّ الشمس ، فقوله : (كما لا يضرُّ الشمس إطباق الطِّفل) تنظير وتوضيح لما ذكره من أنَّ الفقر والإقلال لا يضرُّ أهل العلم والفضل ؛ فإنَّه ما دامت الشمس موجودة . . فالنهار موجود ، والطِّفل - بالطاء المهملة - : آخر النهار^(١) .

وقد سمَّت العرب ساعات النهار بأسماء ؛ فأولها : البكور ؛ من طلوع الفجر إلى الشمس ، ثمَّ الشروق ، ثمَّ الرُّاد ، ثمَّ الضحى ، ثمَّ المُتَوَع^(٢) ، ثمَّ الزوال ، [ثمَّ الهاجرة] ، ثمَّ الأصيل ، ثمَّ العصر ، ثمَّ الطِّفل ، ثمَّ الغروب ، قاله في « شرح لامية الطغرائي »^(٣) عند قوله :

[من البسيط]

مَجْدِي أَحْيِرًا وَمَجْدِي أَوْلًا شَرَعٌ وَالشَّمْسُ رَأْدُ الضُّحَى كَالشَّمْسِ فِي الطِّفْلِ^(٤)

وما أحسن قول الملاح في « تخميسه » :

إِنَّمَا الْمَرْءُ بِعِلْمٍ عُلِمَا وَكَذَا الْفُضْلُ كَرِزِقٍ قُسِمَا
لَيْسَ بِالْأَمْوَالِ يَحْوِي عِظَمًا لَا يَضُرُّ الْفُضْلَ إِقْلَالٌ كَمَا

لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطِّفْلِ^(٥)

* * *

(١) وهو بعد العصر إذا طفلت الشمس ؛ أي : أحمرَّت عند الغروب .

(٢) في الأصل : (ثم الظهر) ، والظهر : هو ساعة الزوال ، والتصويب من « غيث الأدب الذي انسجم » (٨٨ / ١) وغيره ، لأن المُتَوَع : ارتفاع النهار قبل الزوال .

(٣) « غيث الأدب الذي انسجم » للصفدي (٨٨ / ١) .

(٤) قوله : (شَرَع) أي : سواء ، والمعنى : مجدي أولاً وآخرأ سواء لا تفاضل فيه ، كما أن الشمس استوت حالتها أوّل النهار وآخره .

(٥) « تخميس الملاح » (ص ١٣) .

حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ فَأَغْتَرِبْتُ تَلَقَّ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلٌ

أي : تعلقك بالأوطان - جمع : وطن ؛ وهو : مكان الإنسان ومقره - عجزٌ ظاهر لكلِّ أحد ، فأغتربت ؛ أي : سافر عن وطنك ودارك . . تلق ؛ أي : تجد بدلاً عن أهلك ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يزال في عون عبده سواء كان مقيماً أو مسافراً .

ووقف الناظم على لفظ (بدل) بالسكون على لغة ربيعة ، وإلا . . فهو مفعول (تلق) (١) .

وفي هذا البيت إشارة إلى أنه تجب الرحلة أو تستحب في طلب العلوم والفوائد ، فمن لم يجد معلماً يعلمه في بلده ما يحتاج إليه من أمور دينه ومعاشه . . فليرحل وجوباً في الواجب ، وندباً في المندوب ؛ فقد رحل سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام للاستفادة من الخضر عليه الصلاة والسلام ، ورحل جابر بن عبد الله الأنصاري مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد (٢) ، ورحل عتبة بن الحارث من مكة إلى المدينة في مسألة واحدة .

وأعلم : أنه يحصل للإنسان في غربته فوائد عظيمة ، كما قيل :

تَغْرَبُ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ
وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدٍ
إِزَالَةُ هَمٍّ وَكَتْسَابُ مَعِيشَةٍ
وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ وَصُحْبَةُ مَاجِدٍ (٣)

(١) تقدم الكلام على مسألة الوقوف على تنوين الاسم المنصوب بالسكون وأنها لغة ربيعة (ص ٢٩٩) .

(٢) رحلة سيدنا جابر إلى عبد الله بن أنيس رضي الله عنهما مع الحديث أخرجه البخاري في «صحيحه» تعليقا ، كتاب العلم ، باب : الخروج في طلب العلم ، قبل الحديث رقم (٧٨) ، وموصولة في «الأدب المفرد» (٩٧٠) ، والحاكم في «المستدرک» (٤٣٧/٢) ، وأحمد (٤٩٥/٣) .

(٣) البيتان لابن وكيع التنيسي كما أخرج الثعالبي في «يتيمة الدهر» (٤٠/٥) ، وبعدهما :

فلإن قيل في الأسفار ذلٌ وغربة
فلموت خيرٌ للفتى من مقامه
وتشتيت شملٍ وأرتكاب شدائدٍ
بدار هوانٍ بين ضدٌ وحاسدٍ

فإن قيل : إنَّ حروف الغربة مجموعة من أسماء دالة على الهلاك أو ما يؤول إليه ،
 (الغين) من غرورٍ وغمٍّ وغلبة وغرّة ، و(الراء) من روعٍ وردى ؛ أي : هلاك ، و(الباء)
 من بلوى وبؤس وبوار ؛ وهو : الهلاك ، و(الهاء) من هوانٍ وهول وهمٍّ وهلاك .

أجيب : بأن محلّ ذلك إذا كانت الغربة في غير طلب المعالي والفوائد ، وأمّا إذا كانت
 لذلك . . فهي أفضل من الإقامة في بلده ، وعلى هذا يحمل كلام الناظم رحمه الله تعالى .

ولله درُّ القائل :

كثرة المُنكث في المَنازلِ ذُلٌّ فَالسَّعيدُ الشَّهيدُ مَنْ يَتَغَرَّبُ
 فَازَ عَبْدٌ رَقَى العُلاَ وَكَفَاهُ بِالتَّقَى وَالْجَمِيلِ صَبٌّ تَقَرَّبُ

وفي كلام الناظم رحمه الله تعالى حثُّ على طلب الرّفعة ، وتصريح بأنّها لا تحصل إلاّ
 بالجدِّ والاجتهاد ومفارقة مواطن الذلِّ والهوان ، فإنّ الذلَّ في الإقامة ، والعزَّ في الارتحال .

ولبعضهم :

وَلَا يُقِيمُ بِدَارِ الذُّلِّ يَأْلُفُهَا إِلَّا الْأَدْلَانَ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ
 هَذَا عَلَى الخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرَمْتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَرْتِي لَهُ أَحَدٌ^(١)

وتنسب للإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، كما ذكر الإمام الياضي في « مرآة الجنان » (٢٦/٢) ، وهي في « ديوانه »
 (ص ٥٥) ، وتنسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهي في « ديوانه » (ص ٥٦) . وللإمام الشافعي
 رحمه الله في « ديوانه » (ص ٣٣) :

ما في المقام لذي عقل وذو أدب من راحةٍ فدع الأوطان وأغترِبْ
 سافر تجد عوضاً عمّن تفارقه وأنصب فإنّ لذيد العيش في النَّصِبِ
 إنسي رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطبِ
 والأشدُّ لولا فراق الأرض ما أفرست والسهمُ لولا فراق القوس لم يُصبِ
 والشمس لو وقفت في الفلك دائمةً لملها الناس من عجم ومن عربِ
 والتُّبْرُ كالتربِ مُلقَى في أماكنه والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطبِ
 فإن تغرب هذا عزُّ مطلبه وإن تغرَّب ذاك عزُّ كالذهبِ

(١) البيتان للمتلمس الضبي في « ديوانه » (ص ٢٠٨) .

- وقوله : (عَيْر) بفتح العين المهملة : الحمار .
و (الوتد) بكسر التاء : واحد الأوتاد .
و (الخسف) : بخاء معجمة وسين مهملة : القهر .
و (الرِّمَّة) : بضمِّ الراء : الحبل البالي .
(يرثي) بكسر المثلثة ؛ أي : يرق . اهـ^(١)

* * *

(١) وَيُشَجُّ : يُدَقُّ رأسه بالحجر .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

٦٩

فِيمُكِّثِ الْمَاءِ يَبْقَى أَسْنًا وَسُرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلَ

أشار الناظم رحمه الله تعالى إلى ذكر مثالين في غاية الحسن يوضح بهما ما ذكره من الأمر
بالغربة ومفارقة الأوطان :

أحدهما : أن الماء الصافي من الأكدار إذا أستمَرَ في محلٍّ واحد من غير ورود ماء آخر
عليه . . يصير أسناً ؛ أي : متغيّراً منتناً .

قال في « المصباح » : (أسن الماء أسوناً ، من باب قعد : تغيّر فلم يشرب ، فهو أسن ،
على وزن فاعل ، وأسِنَ أسناً فهو أسِنٌ ، مثل : تَعَبَ تَعَباً فهو تَعَبٌ لغَةٌ) اهـ
ثانيهما : أنه لولا غربة القمر وانتقاله من منزلته . . لم يحصل له ذلك الكمال والشرف
والنور .

والبدر : القمر ليلة كماله ، لكن مراد الناظم الهلال .

والله درُّ الحسين بن علي الطغرائي حيث قال :

[من البسيط]

إِنَّ الْأَعْلَا حَدَّثَنِي وَهِيَ صَادِقَةٌ فِيمَا تَحَدَّثُ أَنْ الْعِزَّ فِي الثَّقَلِ
لَوْ أَنَّ فِي شَرَفِ الْمَأْوَى بُلُوغَ مَنَى لَمْ تَبْرَحِ الشَّمْسُ يَوْمًا دَارَةَ الْحَمَلِ (١)

والمعنى : أن التجارب أفادتني علماً صادقاً أن العز في الثقل ، ثم أقام دليلاً على ذلك
بقوله : (ولو أن في شرف المأوى . . .) البيت ؛ أي : لو أن في الإقامة بالمكان - ولو كان
شريفاً - بلوغ ما يتمناه الإنسان . . لم تزل الشمس مقيمة في أشرف بروجها .

[من البسيط]

ولبعضهم :

قَالُوا نَرَاكَ كَثِيرَ السَّيْرِ مُجْتَهِدًا فِي الْأَرْضِ تَنْزِلُهَا طَوْرًا وَتَرْتَحِلُ

(١) « ديوان الطغرائي » (ص ٣٠٦) .

فَقُلْتُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّيْرِ فَائِدَةٌ

وَلَا خَر :

أَقُولُ لِجَارَتِي وَالذَّمْعُ جَارِي
ذَرِينِي أَنْ أَسِيرَ وَلَا تُنْوِحِي

وَلِلصَّفْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

سَافِرٌ تَجِدُ رُتَبَ الْمَفَاخِرِ وَالْعَلَا
وَكَذَا هِلَالُ الْأُفُقِ لَوْ تَرَكَ الْأُسْرَى

مَا كَانَتْ السَّيْعُ فِي الْأَبْرَاجِ تَنْتَقِلُ^(١)

[من الوافر]

وَلِي عَزْمُ الرَّحِيلِ إِلَى الدِّيَارِ
فَإِنَّ الشُّهْبَ أَشْرَفَهَا السَّوَارِي^(٢)

[من الكامل]

كَالِدُرِّ سَارَ فَصَارَ فِي التِّيْجَانِ
مَا فَارَقَتْهُ مَعْرَةَ النُّقْصَانِ^(٣)

* * *

(١) البيتان رواهما الصفدي بسنده في « غيث الأدب الذي انسجم » (١١٨/٢) من قول حماد بن هبة الله بن حماد الحراني .

(٢) البيتان لأبي الفتح السهروردي شهاب الدين يحيى بن حبش كما في « معجم الأدباء » (٢٣٤/٧) .

(٣) « غيث الأدب الذي انسجم » (١١٩/٢) ، والسرى : المسير ليلاً .

أَيُّهَا الْعَائِبُ قَوْلِي عَابِثاً
إِنَّ طِيبَ الْوُزْدِ مُؤَذِّبٌ بِالْجُعَلِ

أشار الناظم رحمه الله تعالى في هذا البيت والأبيات السبعة التي بعده إلى دفع الأشخاص المعرضين عن نظمه ، العائنين له حسداً وبغضاً وعناداً ؛ أي : أَيُّهَا الْعَائِبُ قَوْلِي ؛ لا تعبهُ ؛ لأنَّهُ لا طريق لك إلى عيبي ، وإنما عبته أنت ؛ لأنَّ رائحته طيبةٌ جداً ؛ بمعنى : أنها نافعة في الدين لمن سمعها سماع قبول وأتعاظ ، فهي أذكي من رائحة الورد ، وأنت - أَيُّهَا الْعَائِبُ - بمنزلة الجُعَل ؛ في كونك إذا سمعت بالمواعظ . . عرضت عنها وتأذيت من سماعها ، كما أنَّ الجُعَل إذا شمَّ رائحة الورد . . تأذَى كثيراً ، وربما هلك لوقته .

والجُعَل - بضم الجيم وفتح العين المهملة - : الحِرْبَاء ، قال في « المصباح » : (الجعل - وزان عمر - : الحرباء ، وجمعه : جُعْلان ، مثل : صُرْد و صُرْدان) اهـ

والحِرْبَاء : بكسر الحاء وسكون الراء المهملتين بعدهما موحدة ، قال في « المصباح » أيضاً : (الحِرْبَاء : ممدود ، يقال : هي ذكر أم حُبَيْن) اهـ ، وأمُّ حُبَيْن - بالحاء المهملة بعدها باء موحدة بالتصغير - : ضرب من العِظاء ، منتنة الريح ، قيل : سميت أم حُبَيْن ؛ لعِظَم بطنها ، أخذاً من الأحين : وهو الذي به أستسقاء^(١) .

قال الأزهرِيُّ : (أمُّ حُبَيْن : من حشرات الأرض تشبه الضب) اهـ

وقوله : (ضرب من العِظاء) بكسر العين المهملة وبالطاء المشالة ممدوداً^(٢) ، قال في « المصباح » أيضاً : (العِظاءة بالمدِّ : لغة أهل العالية ، على خلقة سام أبرص ، وهو كبار الوزغ ، والعِظاية لغة تميم ، وجمع الأولى : عِظاء ، والثانية : عِظايات) اهـ

(١) الأحين : الذي فيه الحَبَن ؛ وهو : داء في البطن يجتمع بسببه الماء الأصفر فيه فينتفخ ، ويسمى السَّقِي .

(٢) والذي في « معجم البلدان » (١٣٠ / ٤) أنها بفتح العين .

قال شيخنا في « حاشيته على الهَمْزية » : (والحِرباء - بالمد - : حيوان على قدر القطاة أو قريب منها ، ومن شأنها أنها تستقبل الشمس وتدور معها كيف دارت ، فهي تطلب الشمس أبداً ، فحين تبدو . تنحرف بوجهها إليها ، حتّى إذا أَسْتوتِ الشمس . . أرتفعت على أعلى الشجرة ونحوها ، فإذا صار قرص الشمس فوق رأسها بحيث لا تراها . . أصابها مثل الجنون إلى أن تميل إلى جهة الغرب ، فترجع بوجهها إليها مستقبلة لها ، ولا تنحرف عنها إلى أن تغيب^(١) ، فإذا غابت الشمس . . طلبت معاشها في الليل كلّهُ إلى الصباح ، وهذا الحيوان يشبه رأس العجل ، له أربعة أرجل كسام أبرص ، وسنام كسنام البعير ، ويتلوّن بالألوان العجيبة المختلفة ، قال بعضهم : وهذا الطائر الذي هو الحرباء^(٢) موجود في بلاد الشام كثيراً ، وذكر مَنْ رآها أنها إذا وقع عليها ثوب أبيض . . صار لونها أبيض ، أو أصفر . . صار لونها أصفر مثله ، وأنها إذا رأت ذبابة على الأرض وهي على الشجرة . . ألتقطتها بلسانها لطول لسانها) اهـ

قال الإمام القزويني في « عجائب المخلوقات » : (لَمَّا كَانَ الحِرباء خَلْقاً بَطِيءَ النَهْضَةِ ، وَكَانَ لَا بَدَلَ لَهُ مِنَ القُوَّةِ . . خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى صُورَةٍ عَجِيبَةٍ ، فَخَلَقَ عَيْنَيْهِ تَدَوْرَانِ إِلَى كُلِّ جِهَةٍ مِنَ الجِهَاتِ ، حَتَّى يَدْرِكُ صَيْدَهُ مِنْ غَيْرِ حَرَكَةٍ فِي بَدَنِهِ ، وَيَبْقَى كَأَنَّهُ جَامِدٌ لَيْسَ مِنَ الحَيَوَانَاتِ ، ثُمَّ أُعْطِيَ مَعَ السُّكُونِ خَاصِيَةَ أُخْرَى ؛ وَهِيَ أَنَّهُ يَتَشَكَّلُ بِلَوْنِ الشَّجَرَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا ، حَتَّى يَكَادُ يَخْتَلِطُ لَوْنُهُ بِلَوْنِهَا ، ثُمَّ إِذَا قَرَّبَ مِنْهُ مَا يَصْطَادُهُ مِنْ ذَبَابٍ وَغَيْرِهِ . . أَخْرَجَ لِسَانَهُ ، وَيَخْطِفُهُ بِسُرْعَةٍ كَلْحَوْقِ البَرَقِ ، ثُمَّ يَعودُ إِلَى حَالَتِهِ كَأَنَّهُ جِزءٌ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَخَلَقَ اللهُ

(١) وذلك استجلاباً للدفء ، فلشدة حرصها على استقبال الشمس ، كلما زالت عين الشمس عن غصن . . خلت يدها عنه وأمسكت بأخر حتى غروب الشمس ثم تشيح وتمد وترتع في الأرض ، فلذا نعتت العرب وشبهت بها ، ومن أحسنهم تشبيهاً ذو الرُّمَّةَ ، ومن ذلك قوله في « ديوانه » (ص ٢٧) :
[من الطويل]

وقد جعل الحرباء بيبض لونه
ويشبح بالكفين شبحاً كأنه
ويخضرُّ من لفح الهجير غباغبه
أخو فجرة عالي به الجذع صالبه

وانظر « حياة الحيوان » للدميري (٢٦/٢) .

(٢) قوله : (وهذا الطائر الذي هو الحرباء) كذا في النسخ ، فعمل المراد هو الطيران النسبي لبعض أنواعه ، وهو القفز من غصن إلى آخر ، والله أعلم .

لسانه بخلاف المعتاد ؛ ليلحق به ما بُعد عنه بثلاثة أشبار ونحوها ، وإذا رأى ما يخاف منه . . تشكّل بشكل يخاف منه كلُّ ما يريدُه مِنَ الجوارح ويكرهه بسبب ذلك التلوّن ، فتتلوّن إلى حمرة وخضرة وصفرة وما شاءت ، وهو ذكر ، والجمع : الحَرابي ، والأنثى حرياءة (١)

* * *

(١) نقله عنه بنصه الإمام الدميري في « حياة الحيوان » (٢٧/٢) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :

عُدَّ عَنْ أَسهِمِ لَفْظِي وَأَسْتَتِرُ
لَا يُصَيِّبُكَ سَهْمٌ مِنْ تُعَلِّ

عُدَّ - بضمّ العين وسكون الدال - : أمر من العود ؛ أي : الرجوع ، وحُرِّك بالفتح ؛ لأجل النظم^(١) ؛ أي : أرجع عن أسهم لفظي وأستتر منها ؛ لأنها سهامٌ مصيبة لا تخطيء أبداً ؛ كسهام بني تُعَلِّ - بضمّ المثناة وفتح العين المهملة - : بطن من طيء ، مشهورون بجودة الرمي ، وقد أكثر الشعراء من نسبة الرمي إلى بني تُعَلِّ .

قال الطغرائي في « لاميته » :

إِنِّي أريدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِضْمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاهُ مِنْ بَيْي تُعَلِّ

ولبعضهم :

وَحَيٌّ مِنْ كِنَانَةَ قَدْ رَمَوْنِي إِذَا أَنْتَضَلُوا وَمَا تُعَلِّ أَبُوهُمُ
بِمَا حَوَتْ الْكِنَانَةَ مِنْ سِهَامٍ رَمَوْكَ بِكُلِّ رَامِيَةٍ وَرَامٍ^(٢)

كنانة الأولى : القبيلة المشهورة ، والثانية : وعاء السهام ، وانتضلوا - بالضاد المعجمة - : تراموا .

ولابن الساعاتي رحمه الله تعالى :

فَاصِحُ الظَّنْبِيِّ إِذَا الظَّنْبِيُّ رَنَّا مُخْجِلُ البَدْرِ إِذَا البَدْرُ كَمَلُ
فَارِسِيٌّ فَإِذَا خَافَ سَطَا نَظْرَةَ لَآذِ بَطْرِفٍ مِنْ تُعَلِّ

وهذا البيت كالتأكيد للبيت الذي قبله ؛ لأنه لما قال : (أَيُّهَا العَائِبُ قولي عابثاً . . .)

(١) لعل الأولى أن يكون (عُدَّ) بفتح العين وكسر الدال المشددة ، أمر من التعدي ، وهي المجاوزة .

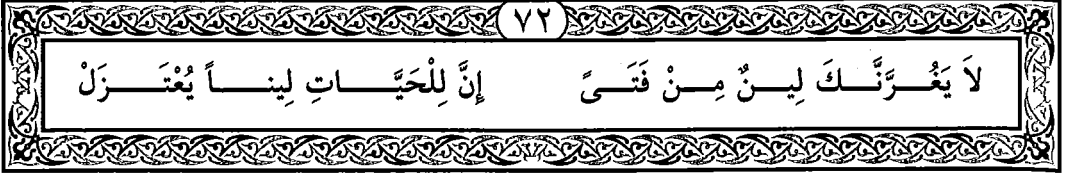
(٢) البيتان لابن قلافس في « ديوانه » (٥٣٥) .

إلخ.. أمره في هذا البيت بالعود والرجوع عن التعيب لنظمه ؛ لأنه من قبيل الغيبة المحرمة ، وهي سهام معنويّة مهلكة لصاحبها إهلاكاً أكثر من إهلاك سهام بني ثعل الحسيّة ، وقد تقدّم الكلام على التحذير عن الغيبة والنميمة عند قول الناظم : (مل عن المنام وأهجره...) البيت^(١) .

* * *

(١) انظر (ص ٢٧٦) .

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :



أي : لا يخذعك لِينٌ ؛ أي : سهولة مِنْ فَتَى ؛ أي : شاب قوي ، والمراد به هنا أي شخص كان ، فشمّل الناظم رحمه الله تعالى وشمّل غيره ، ثم علّل ذلك بقوله : (إِنَّ لِلْحَيَّاتِ) جمع حَيَّة (لِينًا يُعْتَزَلُ) أي : يتنحى عنه ، ويتباعد منه ، فقد شبه الناظم رحمه الله تعالى في هذا البيت والبيتين اللذين بعده نفسه بأشياء لَيِّنَةٌ في نفسها ، قاتلة بطبعها ، فالناظم رحمه الله تعالى وإن كان لِينًا في ذاته هينًا ، فله سطوة تُخشى ، وحركة تُدُلُّ على قوّة بأسه ، وحذر رحمه الله تعالى مِنْ تلك السطوة فقال : لا تغترّ بليني فتجترى عليّ بسبب ذلك ؛ فإنّ ليني إذا أغضبتني يصير كلين الحَيَّة ، وَمِنْ المعلوم أنّها وإن كانت لَيِّنَةٌ في نفسها ، فلها سمٌّ قاتل في وقته وساعته . اهـ (١)

قال في « غرر الخصائص » ما نصّه : (قال بعضهم : إن كان في مخالطة الناس خير . . فإن تركهم أسلم .

وقال بعض الرهبان لرجل : إن أستطعت أن يكون بينك وبين الناس سور مِنْ حديد . . فأفعل ، وإن كان في الجماعة الأُنس . . فإنّ في العزلة السلامة .

وقيل لبعضهم : ما تجد في الخلوة ؟ قال : الراحة مِنْ مداراة الناس ، والسلامة مِنْ شرّهم (٢) .

(١) ينبغي لشخصية المؤمن أن تشتمل على صفتين : التذلل وخفض الجناح في محله للمؤمنين ، والصرامة والقوة في محلها لأهل الشر والعاثين ، وبهما أمتدح الله عز وجل صحابة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رِمَاةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ أَوْلَوْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَظَ عَلَى الْكُفْرِينَ ﴾ ، فالشدة في محلها عين الرفق ، وما وضع الرفق في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه ، ورحم الله القائل :

فليقسُ أحياناً على مَنْ يرحم

فقسا ليزدجروا ومَنْ يك راحماً

(٢) « محاضرات الأدباء » (٢٨/٢) .

ويقال : العزلة عن الناس تبقي الجلالة ، وتستتر الفاقة ، وتدفع مؤنة المكافأة في الحقوق .

وقال بعض الزهاد : لو أنَّ الدنيا ملئت سباعاً وحيات . . ما خفتها ، ولو بقي واحد من الناس . . لخفته .

وقالوا : أستعد من شرار الناس ، وكن من خيارهم على حذر .

وقال أبو الدرداء : « كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا شوكاً لا ورق فيه »^(١) .

وقال سليمان : الناس أربعة أقسام : أسود ، وذئاب ، وثعالب ، وضأن ؛ فالأسود : الملوك ، والذئاب : التجار ، والثعالب : القراء المخادعون ، والضأن : المؤمن ينهشه كل من يراه .

وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه : « أقلل من معرفة الناس ، وأنكر من عرفت منهم ، وإن كان لك مئة صديق . . فأطرح منهم تسعة وتسعين ، وكن من الواحد على حذر »^(٢) (٣) اهـ

ولله درُّ القائل :

[من البسيط]

إِيَّاكَ أَنْ تَصْطَفِي مِمَّنْ تَرَى أَحَدًا وَلَا تَتَّقُ بِأَمْرِي فِي حَالَةٍ أَبَدًا

[من الوافر]

ولابن الرومي رحمه الله تعالى :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ^(٤)

[من الطويل]

وقال بعضهم :

وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وَطَوَّلُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإشراف» (٢٥٢) ، و«مدارة الناس» (١٣) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧٩/٤٧) .

(٢) «المستطرف» (٢٧٢/١) .

(٣) «غرر الخصائص» (ص ٣١٩-٣٢٢) .

(٤) البيتان في «ديوان ابن الرومي» (٢٩٦/١) ، ووقع فيه (يحول) بدل : (يكون) .

فَلَمْ تُرِنِّي الْأَيَّامُ خِلاَّ تَسْرُنِي
وَمَا كُنْتُ أَرْجُوهُ لِدْفَعِ مُلْمَةٍ

وقال آخر :

مَبَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ
وَلَكِنَّهُ قَدْ كَانَ إِحْدَى الْنَوَائِبِ^(١)

[من الطويل]

بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَنْوِبُهُ
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ

وَمَنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صَحَابُ
ذَنَاباً عَلَى أَجْسَادِهِنَّ ثِيَابُ^(٢)

* * *

(١) الأبيات لابن الرومي في « ديوانه » (٤٥٧/١) ، ونسبت أيضاً إلى المعتصم ابن صمادح الأندلسي كما في « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » (٤٠٣/٣) ، و « وفيات الأعيان » (٤٠/٥) ، و « الوافي بالوفيات » (٤٦/٥) .

(٢) البيتان لأبي فراس الحمداني في « ديوانه » (ص ٤٢) .

أَنَا مِثْلُ الْمَاءِ سَهْلٌ سَائِغٌ وَمَتَى سُخِّنَ آذَى وَقَتْلُ

أي : أنا مثل الماء الكثير في كوني لا أتغيّر بقول الحاسدين والأعداء العائين لنظمي ، كما أن الماء الطهور لا يتغيّر بالجيف الواقعة فيه ، بل هو مستمر على الطهوريّة كما هو منصوص في الفروع ، وفي كوني سهل الأخلاق ، سائغ المذاق ، لكن إذا آذاني شخص ، وتغيّرت عليه ، وتوسّلت إلى الله في أخذ حقي منه . . أخذه الله عاجلاً ؛ مِنْ حَسَنِ ظَنِّي فِي رَبِّي سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، كما أَنَّ الْمَاءَ وَإِنْ كَانَ عَذِيْبًا فَرَاتًا وَشَرَابًا سَائِغًا ، لَكِنَّهُ إِذَا سُخِّنَ بِالنَّارِ وَخَرَجَ عَنِ الْحَدِّ وَالْإِعْتِدَالِ . . آذَى وَقَتْلُ فِي الْحَالِ ، كما هو محسوس .

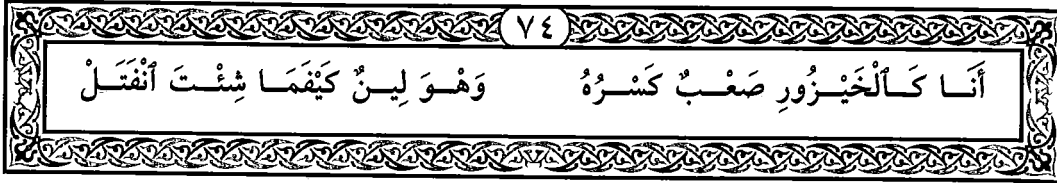
وفي هذا البيت إشارة إلى أَنَّ النَّاطِمَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى كَانَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى الَّذِينَ يَغَارُ عَلَيْهِمْ ، كما في الحديث الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا . . فَقَدْ آذَنَتْهُ بِالْحَرْبِ »^(١) أي : مَنْ عَادَاهُ مِنْ أَجْلِ كَوْنِهِ وَلِيًّا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَإِلَّا . . فَقَدْ جَرَى بَيْنَ الصَّدِيقِ وَالْفَارُوقِ ، وَبَيْنَ الْعَبَّاسِ وَعَلِيٍّ ، وَكَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَا جَرَى ، وَالْكَلُّ أَوْلِيَاءِ اللهِ عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ . وَقَوْلُهُ : (فَقَدْ آذَنَتْهُ بِالْحَرْبِ) بِمَدِّ الْهَمْزَةِ ؛ أَي : أَعْلَمْتَهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ ؛ أَي : أَعْمَلُ بِهِ مَعَامِلَةَ الْمُحَارِبِ ؛ مِنَ التَّجَلِّيِّ عَلَيْهِ بِمُظَاهَرِ الْقَهْرِ وَالْجَلَالِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْتِقَامِ ، وَإِلَّا . . فَالْعَبْدُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُ مُحَارِبَةً لِرَبِّهِ ، لِأَنَّهُ فِي أَسْرِ خَالِقِهِ . اهـ

فإذا توجّه الولي إلى ربّه في شيء . . أجابه ونصره ، كما قال في آخر الحديث : « وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتَهُ ، وَلَئِنْ أَسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ » .

فإن قلت : إن جماعة من العباد والصلحاء دعوا وبالغوا فلم يجابوا .

فالجواب : أن الإجابة تتنوع ، فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور ، وتارة يتأخّر لحكمة فيه ، وتارة تقع الإجابة بغير المطلوب إذا كان أصلح . اهـ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) ، وابن حبان (٣٤٧) ، والبيهقي في « السنن » (٣/٣٤٦) .



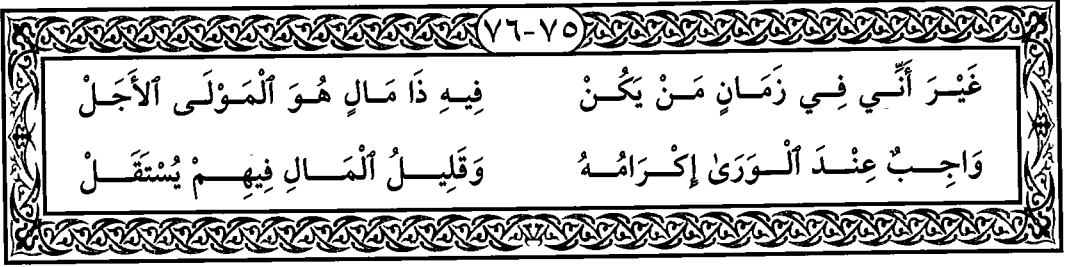
أي : أنا كخشب الخيزران في كوني ليناً ، ومع ذلك صعب الكسر ، فلا يقدر أحدٌ على أذيتي ؛ لتوكلني على ربِّي سبحانه وتعالى ، وقوتني وشدّتي به سبحانه وتعالى ، كما أنّ الخيزران وإن كان ليناً في نفسه صعبٌ في كسره ، فلا بُدَّ من الاستعانة عليه بالقدم ونحوه ، كما هو محسوس .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ .

ولا شك أنّ الشيخ عمر بن الورديّ صاحب المنظومة كان من المتوكلين على الله تعالى ، ومن العلماء العاملين ، كما تقدّم الكلام عليه في أوّل الشرح مبسوطاً ، نفعنا الله تعالى به ، وجعلنا من أتباعه ، آمين .

* * *

قال الناظم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين :



لَمَّا ذَكَرَ - رحمه الله تعالى - : أَنَّ كَلَامَهُ لَهُ رَائِحَةٌ ذَكِيَّةٌ كَرَائِحَةُ الْوَرْدِ بَلْ أَعْلَى ؛ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ الْجَلِيلَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّدْقِيقِ ، وَأَرَادَ - رحمه الله تعالى - نَشْرَهُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَزِدَادَ ثَوَابَهُ بِكَثْرَةِ اتِّبَاعِهِ الْآخِذِينَ عَنْهُ . . أَسْتَشْنِي وَأَخْبِرُ أَنَّهُ فِي زَمَانٍ لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لِمَا يَرِيدُهُ مِنْ نَشْرِ الْعُلُومِ وَإِظْهَارِ الْفَضَائِلِ ، بَلْ هُوَ فِي زَمَانٍ أَقْبَلَ أَهْلَهُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآخِرَةِ ، وَتَقَدَّمَتْ فِيهِ أَصْحَابُ الْأَمْوَالِ - وَلَوْ كَانُوا جَهْلَةً - عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ ، فَصَاحِبُ الْمَالِ عِنْدَهُمْ عَزِيزٌ مَكْرَمٌ مَقْبُولُ الْقَوْلِ ، وَأَمَّا قَلِيلُ الْمَالِ . . فَهُوَ الْحَقِيرُ الْمُسْتَقَلُّ الذَّلِيلُ الْمَهَانُ ، الَّذِي لَا تُسْمَعُ لَهُ كَلِمَةٌ .

[من الكامل]

ولله درُّ القائل :

إِنَّ الْغَنِيَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْخَطَا
وَإِذَا الْفَقِيرُ أَصَابَ قُلُوبَهُمْ
إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي الْأَمَاكِنِ كُلِّهَا
فَهِيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً
قَالُوا أَصَبْتَ وَصَدَّقُوا مَا قَالَا
أَخْطَأْتَ يَا هَذَا وَقُلْتَ ضَلَالَا
تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالَا
وَهِيَ السَّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا^(١)

وقالوا : إذا أفترق الرجل . . أتهمه من كان يأمنه ، وأساء به الظن من كان يحسنه ، وإذا أذنب غيره . . ينسب إليه ، ومن كان له . . صار عليه .

[من الكامل]

ولله درُّ القائل :

يَغْدُو الْفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدُّهُ
وَالنَّاسُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا

(١) الأبيات لأبي العيناء محمد بن القاسم الهاشمي في «ديوانه» (ص ٤٠) .

وَتَرَاهُ مَمْقُوتاً وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ وَيَرَى أَلْعَدَاوَةَ لَا يَرَى أَسْبَابَهَا
حَتَّى الْكِلَابُ إِذَا رَأَتْ ذَا بِيْزَةَ أَصْغَتْ إِلَيْهِ وَحَرَكَتْ أذْنَابَهَا
وَإِذَا رَأَتْ يَوْماً فَقِيراً عَارِياً نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَشَّرَتْ أُنْيَابَهَا^(١)

وقال عبد الملك بن صالح : ربّ حسب دفنه الفقير .

ولله درُّ القائل :

[من البسيط]

أَلْفَقْرُ يُزْرِي بِأَقْوَامٍ ذَوِي حَسَبٍ وَقَدْ يُسَوِّدُ غَيْرَ أَلْسِيْدِ أَلْمَالِ^(٢)

وقالوا : الفقر يخرس لسان الفطن عن حجته ، ويجعله غريباً في بلده .

وما أحسن ما قاله بعضهم :

[من الطويل]

وَلَا رَفَعَ لِلنَّفْسِ أَلدَّيْنَةَ كَأَلْغَنَى وَلَا وَضَعَ لِلنَّفْسِ أَلشَّرِيْفَةَ كَأَلْفَقْرٍ^(٣)

قاله في « غرر الخصاص » .

وكلام الناظم رحمه الله تعالى بالنسبة لما كان في زمانه ، وهو في آخر القرن السابع وأوّل الثامن ، وكان في الحقيقة زمان الخير والفضل والسيادة ، خصوصاً وكان فيه محدّثون وفقهاء وأصوليون ومتكلّمون ونحوهم من علماء الإسلام ، فما بالك بزماننا هذا الذي تقدمت فيه الجهلاء على الفضلاء ، والأشرار على الأخيار ، وأنقرضت فيه العلماء ، وأشتبه فيه الأمر ، وصار القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر ، وحظي فيه القواد والمتمسخرون ؟! كما قال الشاعر :

[من الخفيف]

قَدْ رُمِينَا مِنْ أَلزَّمَانِ بِسَهْمٍ قَدَّمَ أَلنَّذَلَ وَالْكَرِيمُ تَأَخَّرَ
مَاتَ مَنْ عَاشَ بِأَلْفَضِيلَةِ جُوعاً وَحَظِي مَنْ يَقُودُ أَوْ يَتَمَسَخَرُ

فلا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم ، إنّنا لله وإنّا إليه راجعون .

(١) الأبيات في « المستطرف » (٩٧/٢) منسوبة لابن الأحنف .

(٢) البيت لمنصور بن إسماعيل الفقيه كما في « عيون الأخبار » (٢٣٩/١) ، و« بهجة المجالس » (٢٠٣/١) ، و« محاضرات الأدباء » (٥٨٦/١) ، و« المستطرف » (٩٦/٢) .

(٣) البيت من غير نسبة في « روضة العقلاء » (ص ١٧٦) ، و« بهجة المجالس » (٢٠٩/١) ، و« المستطرف » (٩٧/٢) .

وفي « الجامع الصغير » : (قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مِّنْ تَرَكَ مِنْكُمْ عَشْرًا مَا أَمَرَ بِهِ . . هَلَكَ ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ مِّنْ عَمَلٍ مِنْهُمْ بِعَشْرِ مَا أَمَرَ بِهِ . . نَجَا » رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه)^(١) .

قال المناوي : (إِنَّكُمْ أَهْلِ الصَّحْبِ فِي زَمَانٍ [مُتَّصِفٍ] بِالْأَمْنِ وَعِزِّ الْإِسْلَامِ ، مَن تَرَكَ مِنْكُمْ فِيهِ عَشْرٌ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ . . هَلَكَ ؛ أَي : وَقَعَ فِي الْهَلَاكِ ؛ لِأَنَّ الدِّينَ فِيهِ عَزِيزٌ ، وَفِي أَنْصَارِهِ كَثْرَةٌ ، فَالتَّرِكُ تَقْصِيرٌ بِلا عِذْرٍ ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ يُضْعَفُ فِيهِ الْإِسْلَامُ ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الظُّلْمُ ، وَيَعْمُرُ فِيهِ الْفُسْقُ ، وَتَقَلُّ أَنْصَارُ الدِّينِ ، وَحِينَئِذٍ مَن عَمِلَ مِنْهُمْ - أَي : مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَنِ - بِعَشْرِ مَا أَمَرَ بِهِ . . نَجَا ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْدُورُ ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾) اهـ^(٢)

* * *

(١) « الجامع الصغير » (٥٢٤٢) ، والحديث أخرجه الترمذي (٢٢٦٧) ، والطبراني في « الصغير » (١٣٧/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣١٦/٧) ، وتمام في « فوائده » (٧٦) .
(٢) « فيض القدير » (٥٥٦/٢) .

كُلُّ أَهْلِ الْعَصْرِ عُمْرٌ وَأَنَا مِنْهُمْ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجُمَلِ

أي : جميع أهل العصر - أي : الدهر المعهود ، وهو عصره رضي الله تعالى عنه ، فما بالك بعصرنا - عُمر ، بضم الغين المعجمة ؛ أي : لم يجربِ الأمور ، وأصله الصبيُّ الذي لا عقل له ، ثم أُطلق على كلِّ مَنْ لا خير فيه ولا عقل له ولا رأي ولا عمل صالح .

ثمَّ إِنَّهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى نَصَّ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ عُمَرُ بِقَوْلِهِ : (وَأَنَا مِنْهُمْ) بعد دخوله في القضية الكلية ، وهي قوله : (كُلُّ أَهْلِ الْعَصْرِ عُمَرُ) تواضعاً لربِّه عزَّ وجلَّ ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ . . . رَفَعَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِتَرْكِ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْخَلْقِ بِقَوْلِهِ : (فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجُمَلِ) أي : أترك تفصيل الأشياء المجملة المجموعة ، وعليك بنفسك ، فأجتهد في خلاصها بالأعمال الصالحة ، ولا تنظر إلى عيوب غيرك ؛ لأنَّه تضييع للزمان فيما لا يعينك ، وَمِنْ حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ .

[من الطويل]

ولله درُّ القائل :

صُنِ الْعَرِضَ وَأَبْذُلْ كُلَّ مَالٍ مَلَكَتَهُ
فَإِنَّ أَبْذَالَ الْمَالِ لِلْعَرِضِ أَصْوَنُ
وَلَا تُطَلِّقَنَّ مِنْكَ أَلْسَانَ بِسُوءَةٍ
فَعِنْدَكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَيْنَاكَ إِنْ أَبَدْتَ إِلَيْكَ مَعَايِبًا
بِقَوْمٍ فَقُلْ يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ
وَعَاشِرٌ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِعٌ مَنِ اعْتَدَى
وَفَارِقٌ وَلَكِنْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ^(١)

قال بعضهم : إذا وجدتَ قساوة في قلبك ، وضعفاً في بدنك ، وحرماناً في رزقك . . . فأعلم أنك تكلمت بما لا يعينك ، فكلام الشخص فيما لا يعنيه يقسِّي القلب ، ويضعفُ البدن ، ويعسر أسباب الرزق .

(١) الأبيات من غير نسبة في « غرر الخصاص » (ص ٧٠) .

وروى أبو عبيدة عن الحسن أنه قال : (مِنْ علاماتِ إعراضِ الله عن العبد : أن يجعل شغله فيما لا يعنيه) .

ومرَّ حسان بن أبي سفيان بغرفة فقال : متى بُئيت هذه ؟ ثمَّ أقبل على نفسه وقال : تسألين عمَّا لا يعينك ، لأعاقبتك بصوم سنةٍ ، فصامها .

تَسَمَّة

في ضابط ما يعني وما لا يعني

فالذي يعني الإنسان : ما يتعلَّق بضرورة حياته في معاشه ؛ ممَّا يشبعه مِنْ جوع ، ويرويه مِنْ عطش ، ويستر عورته ، ويعفُّ فرجه ، ونحو ذلك ممَّا يدفع الضرورة ، دون ما فيه تلذُّدٌ وتنعم ، وما يتعلَّق بمعاده ممَّا فيه ثواب .

والذي لا يعني : هو ما لا تدعو الضرورة إليه ؛ مِنْ اللعب والهزل ، وكلِّ ما يُخلُّ بالمروءة ، والتوسُّع في الدنيا ، وطلب المناصب والرياسة ، وحبِّ المحمَّدة ، ونحو ذلك ممَّا لا يعود عليه منه نفع أخروي ، فإنَّه ضياع للوقت النفيس الذي لا يمكن أن يعوِّض فائتُهُ .
وقال بعضهم : ما لا يعنيه : هو ما يخاف فيه فوات الأجر ، والذي يعنيه : هو ما لا يخاف فيه ذلك .

وقال بعضهم : ما يعنيه : هو ما يعود عليه منه منفعة لدينه أو دنياه الموصلة لآخرته ، وما لا يعنيه عكسه ؛ وهو : ما لا يعود عليه منه منفعة لدينه أو دنياه الموصلة لآخرته ، بخلاف دنيا تقطعه وتفسد عليه آخرته . اهـ

وهذا آخر كلام الناظم رحمه الله تعالى

والحمد لله أولاً وآخراً

ولنتكلَّم على ثلاثة أبيات ليست مِنْ كلام الناظم لكنَّها مِنْ القافية والوزن ، تضمَّنَت الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه والسادة المتقدِّمين ، فأخترنا الكلام عليها ؛ تنميماً للفائدة ، بل هي الفائدة العظمى ؛ لأنَّه صلى الله عليه وسلم باب الله الأعظم ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية ، وهي هذه :

* * *

وَصَلَاةٌ وَسَلَامٌ أَبَدًا
لِلنَّبِيِّ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الدُّوْنِ

أي : ودعاء بخير وأمان من جميع الآفات ، ثابت كلُّ منهما أبداً - أي : دهرًا طويلًا ليس بمحدود - للنبي ؛ أي : كائنًا للنبي المصطفى - أي : المختار - خير - أي : أفضل - الدول : جمع دولة ؛ من لَدُنْ آدمَ إلى يوم القيامة . اهـ
والصلاة في اللغة : الدعاء بخير ، وهو المراد هنا .

وفي الشرع : أقوال وأفعال مفتوحة بالتكبير مختمة بالتسليم بشرائط مخصوصة .
والصحيح : أن الله تعالى يزيد نبيه رفعةً بصلاتنا عليه ، ويثينا نحن على الصلاة ، لكن لا ينبغي للمصلي أن يقصد نفع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما يقصد نفع نفسه .
والصلاة عليه صلى الله عليه وسلم مقبولة قطعاً ، ولا يدخلها رياءٌ بالنسبة للقدر الذي للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأما القدر الذي للمصلي . . فيدخله الرياء ويؤثر فيه .
وبالجملة : فالمصلي ينتفع بها ولو كان مرئياً ؛ لأنَّ الثواب الحاصل للمصطفى عليه الصلاة والسلام كاف في ذلك .

وجمع الناظم بين الصلاة والسلام ؛ خروجاً من كراهة أفراد أحدهما عن الآخر .
وقوله : (للنبي) بتشديد الياء مأخوذٌ من نبا ينبو : إذا علا وأرتفع ؛ لأنه مرفوع الرتبة على غيره ، أو بالهمزة مأخوذٌ من النبأ ، وهو الخبر ؛ لأنه مخبرٌ - بفتح الباء - أي : أخبره جبريل عن الله تعالى ، أو مخبرٌ - بكسر الباء - أي : الخلق .

فإن قلت : قد ورد النهي عن المهموز ؛ وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « لَا تَقُولُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا قُولُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ »^(١) أي : بالتشديد .

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٢٣١ / ٢) وتعقبه الذهبي فرده .

فجوابه : أنّ المهموز يطلق ويراد به الطريد ، ويطلق ويراد به المخبر ، فلمّا كان يُتوهمّ منه معنى الطريد . . نهاهم عنه أولاً ، ولكن لما كثُر الإسلام وشاع . . صار لا يُتوهمّ بهذا المعنى .

وهو : إنسان أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فكلُّ رسول نبيٍّ ولا عكس ، والكلام عليها شهير ، فلا نطيل بذكره .

* * *

وَعَلَى الْآلِ الْكِرَامِ الشُّعَدَا وَعَلَى الْأَصْحَابِ وَالْقَوْمِ الْأَوَّلِ (٧٩)

أي : وصلاة وسلام على آل ؛ أي : آل صلى الله عليه وسلم ، و(آل) عوضٌ عن الضمير .

وآله صلى الله عليه وسلم في مقام تحريم الزكاة : مؤمنو بني هاشم وبني المطلب ، وفي مقام المدح : كلُّ تقِيٍّ ، وفي مقام الدعاء : كلُّ مؤمن ولو عاصياً كما هنا .

وقوله : (الكرام) نعت (آل) أي : الأخيار ، جمع : كريم .

(السعدا) نعتٌ ثانٍ ، جمع : سعيد ؛ وهو : خلاف الشقي .

(وعلى الأصحاب) أي : وصلاة وسلام عليهم ، جمع صاحب ، ويجمع على :

صحب وصحابة أيضاً ، فـ(صاحب) ثلاثة جموع ؛ وهو : مَنْ اجتمع مؤمناً بنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ومات على ذلك ، والكلام عليه مشهور .

وصلاة وسلام أيضاً على القوم الأول ؛ أي : الجماعة السالفة من التابعين وتابعيهم

بإحسان ؛ كالأئمة الأربعة ، وتلامذتهم ، وكالشيخ الجنيد ، وأتباعه ، رحمهم الله ونفعنا بهم ، آمين .

والقوم - كما في « المصباح » - : جماعة الرجال ليس فيهم امرأة ، الواحد : رجل وامرؤ

من غير لفظه ، والجمع : أقوام ، سمووا بذلك ؛ لقيامهم بالعظائم والمهمات .

قال الصغاني : وربما دلَّ على النساء تبعاً ؛ لأنَّ قومَ كلِّ نبيٍّ رجالٌ ونساءٌ ، ويذكر القوم

ويؤنَّث ، فيقال : قام القوم ، وقامت القوم ، وكذلك كلُّ اسمٍ جمع لا واحد له من لفظه ؛

نحو : رهط ، ونفر . اهـ

فعلم من النظم : أنَّ الصلاة والسلام يجوزان على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

تبعاً ، وهو كذلك ، وأما استقلالاً . . فلا يجوز ، فيقال : اللهم ؛ صلِّ على النبيِّ وعلى

سيدي عبد الرحيم القناوي فقط ، ولا يَرِدُ قولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اَللّٰهُمَّ ؛ صَلِّ عَلٰى آلِ
بني اَوْفَى »^(١) ؛ لِأَنَّ مَنْ اَسْتَحَقَّ شَيْئًا . . له أَنْ يَخْصَّ بِهِ غَيْرُهُ .

وَأَعْلَمُ : أَنَّ مَقَامَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ ، وَمَقَامَ الصَّحَابَةِ :
التَّرَضِّي ، وَمَقَامَ مَنْ بَعْدَهُمْ : التَّرْحُّمُ ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ الْأُئِمَّةُ الْمُحَقِّقُونَ .

* * *

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٩٧) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٧٨) .

مَا نَوَى الرَّكْبُ بِعُشَاقٍ إِلَى
أَيْمَنِ الْحَيِّ وَمَا غَنَّى رَمْلُ

(ما) مصدرية ظرفية للصلاة والسلام على مَنْ ذُكِرَ ، و(نوى) بالواو مِنَ النِّيَّةِ ؛ وهي العزم ؛ أي : ما عزم وسار الركب ، جمع : راكب ، مثل : صحب وصاحب ، ويجمع أيضاً على : ركبان ، كما في « المصباح » .

وقوله : (بعشاق) متعلق بـ(نوى) جمع : عاشق ، وهو المفرط في المحبة ، ويطلق على الذكر والأنثى ، فيقال : رجل عاشق ، وأمرأة عاشق أيضاً ، كما في « المصباح » .

وقوله : (إلى أيمن الحي) متعلق بـ(نوى) ، و(أيمن) بفتح الميم أي : جهة اليمين كما في قوله صلى الله عليه وسلم : « الْأَيْمَنَ فَأَلْأَيْمَنَ »^(١) ، وأما بضم الميم . فهو اليمين^(٢) ، و(الحي) : هو القبيلة مِنَ العرب ، والجمع : أحياء ، وسميت القبيلة حياً ؛ لحياتها بالساكين فيها .

وقوله : (وما غنى) بتشديد النون ؛ أي : ترنم بالغناء ؛ أي : الصوت .

قال في « المصباح » : (والغناء - مثل كتاب - أي : الصوت ، وغنى بالتشديد : إذا ترنم بالغناء) .

وقوله : (رمل) بفتح الراء المهملة وفتح الميم : هو نوع مِنَ أنواع النغم ؛ كالرهاوي ، والحسيني ، والحجازي ، والعربي ، والرصد ، والسيكاه ، وما أشبه ذلك مِنَ أنواع الأهوية .

وفي قوله : (غنى رمل) : إشارة إلى بحر هذه القصيدة ، فهي مِنَ بحر الرمل ، كما تقدّم في صدر الكتاب .

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٢) ، ومسلم (٢٠٢٩) .

(٢) أي : جمع يمين ، وهو القسم .

خَاتَمَةٌ

[في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم]

روى أبو طلحة رضي الله تعالى عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يبرق ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما رأيتك كالיום أطيب نفساً منك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَمَا لِي لَا تَطِيبُ نَفْسِي وَقَدْ جَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّاعَةَ فَقَالَ لِي : مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً . . كُتِبَ لَهُ بِهَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَمُحِيتَ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ !؟ » (١) .

وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أخيط شيئاً في السَّحَرِ ، فسقطت الإبرة وأنظفأ المصباح ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأضاء البيت من ضياء وجهه ، فوجدت الإبرة فقلت : ما أضوأ وجهك يا رسول الله ! فقال : « يَا عَائِشَةُ ؛ أَلْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يَرِنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، قالت : فقلت : ومن الذي لم يرك يوم القيامة ؟ قال : « البخيل » ، فقلت : ومن البخيل يا رسول الله ؟ قال : « الَّذِي إِذَا ذُكِرَتْ عَنْدَهُ . . لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ » (٢) .

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً لَيْلَةً أَوْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ . . قَضَى اللَّهُ لَهُ مِئَةَ حَاجَةٍ ؛ سَبْعِينَ مِنْ حَوَائِجِ الْآخِرَةِ ، وَثَلَاثِينَ مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا ، وَبَعَثَ إِلَيَّ مَلَكًا يَدْخُلُ عَلَيَّ قَبْرِي ، فَيُخَبِّرُنِي بِأَسْمِهِ وَنَسَبِهِ ، فَأَكْتُبُهُ عِنْدِي فِي صَحِيفَةٍ بَيِّضَاءَ » (٣) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثَلَاثَةٌ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا لِلَّهِ »

- (١) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٣١١٣) ، وأحمد (٢٩/٤) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١٤٢٥) ، وبنحوه عند ابن حبان (٩١٥) ، والحاكم في « المستدرک » (٤٢٠/٢) .
- (٢) أورده بلفظه أبو سعد في « شرف المصطفى » (٣١٤) ، وجاء مسنداً بنحوه عند الأصبهاني في « دلائل النبوة » (١١٧) ، وابن عساکر في « تاریخ دمشق » (٣١٠/٣) .
- (٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٧٧٣) ، و« فضائل الأوقات » (٢٧٦) ، وابن منده في « فوائده » (٥٦) ، وابن بشكوال في « القرية » (١١٥) ، وابن عساکر في « تاریخ دمشق » (٣٠١/٥٤) .

ظَلُّهُ ، قيل : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : « مَنْ فَرَجَ عَن مَكْرُوبٍ مِنْ أُمَّتِي ، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي ، وَمَنْ أَكْثَرَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ . . لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا دَامَ أَسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ » (٢) .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ تَعْظِيماً لِحَقِّي . . خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكاً مِنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ ، أَحَدُ جَنَاحَيْهِ بِالْمَشْرِقِ وَالْآخَرُ بِالْمَغْرِبِ ، وَرَجُلَاهُ مَغْرُورَتَانِ فِي الْأَرْضِ السَّابِغَةِ ، وَعُنُقُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ : صَلِّ عَلَيَّ عَبْدِي كَمَا صَلَّيْتُ عَلَيَّ نَبِيِّ ، فَهُوَ يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٣) .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ وَكَلَّ بِقَبْرِي مَلَكَيْنِ ، فَلَا أُذْكَرُ عِنْدَ مُسْلِمٍ فَيُصَلِّي عَلَيَّ . . إِلَّا قَالَ الْمَلَكَانِ مُجِيبِينَ لَهُ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ، وَتَقُولُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَسَائِرُ الْمَلَائِكَةِ جَوَاباً لِلْمَلَكَانِ : آمِينَ ، وَلَا أُذْكَرُ عِنْدَ أَحَدٍ فَلَا يُصَلِّي عَلَيَّ . . إِلَّا قَالَ الْمَلَكَانِ : لَا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ، وَتَقُولُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَسَائِرُ الْمَلَائِكَةِ جَوَاباً لِلْمَلَكَانِ : آمِينَ » (٤) .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلَاةً أَكْثَرُكُمْ فِي الْجَنَّةِ أَرْوَاجاً » (٥) .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِئَةَ مَرَّةٍ . . تَزَحَّزَحَتِ النَّارُ عَنْهُ » (٦) .

(١) ذكره الإمام السخاوي في « القول البديع » (ص ٢٦٣) وقال : (ذكره صاحب « الدر المنظم » ، ولم أقف له على أصل معتمد ، إلا أن صاحب « الفردوس » عزاه لأنس بن مالك ، ولم يسنده ولده ، وعزاه غيره لـ « فوائد الخُلعي » من حديث أبي هريرة ، فالله أعلم) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٨٥٦) ، والخطيب في « شرف أصحاب الحديث » (ص ٣٥) و(ص ١١١) ، وابن بشكوال في « القربة » (٤٢) ، والسمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » (ص ٦٣) .

(٣) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (١١٢٤) ، وابن بشكوال في « القربة » (١٦) ، وعزاه السخاوي في « القول البديع » (ص ٢٥١) لابن شاهين في « ترغيبه » وقال : (وهو حديث منكر) .

(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٨٩/٣) ، والثعلبي في « تفسيره » (٦٢/٨) ، وعزاه السخاوي في « القول البديع » (ص ٢٥٢) إلى « أمالي الدقيقي » و« ابن مردويه » .

(٥) قال الإمام السخاوي في « القول البديع » (ص ٢٦٨) : (ذكره صاحب « الدر المنظم » لكنني لم أقف عليه إلى الآن) .

(٦) أخرج بنحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢٤٧/٢) ، ومن طريقه ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢٢٣/١) .

وروي : « أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . وَضِعَتْ حَسَنَاتُ الْمُؤْمِنِ وَسَيِّئَاتُهُ ، فَتَنْزِلُ صَحَائِفُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَبِيضُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ، فَتَرْجَحُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : هَذِهِ صَلَاتُكَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، ثَقَلْتُ بِهَا مِيزَانَكَ ، وَجَعَلْتُهَا لَكَ ذَخِيرَةً » (١)

[من الطويل]

ولله درُّ القائل :

لِأَحْمَدَ فَضْلٌ لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى وَلَيْسَ لَهُ فِي الدَّهْرِ حَدٌّ فَيُسْتَفْصَى
فَمَنْ كَانَ مِثْلِي مُذْنِباً وَمُقْصِراً فَجَاهُ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ جَبَرَ النَّقْصَا
فِيَا فَوْزَ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ مِنَ الْوَرَى فَذَاكَ بِثَقِيلٍ لِمِيزَانِهِ خُصَا (٢)

وروى جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَقَالَ : اللَّهُمَّ يَا رَبَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ؛ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، وَأَجَزَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ . . . أَتَعَبَ سَبْعِينَ كَاتِبًا أَلْفَ صَبَاحٍ وَلَمْ يَكُنْ لِنَبِيِّهِ حَقٌّ إِلَّا آدَاهُ ، وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ ، وَيُحْشَرُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ » (٣) .

وعن وهب بن مُنْبَهٍ رحمه الله تعالى : أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَنَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ . . . فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَنَظَرَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، فَرَأَى مَكْتُوبًا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ ؟ هَلْ تَخَلَّقَ خَلْقًا هُوَ أَعَزُّ عَلَيْكَ مِنِّي ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ؛ نَبِيًّا مِنْ ذُرِّيَّتِكَ ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ حَوَاءَ وَرَكَّبَ فِيهِ الشَّهْوَةَ . . . قَالَ : يَا رَبِّ ؛ زَوِّجْنِي بِهَا ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ادْفَعْ مَهْرَهَا ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ؛ وَمَا مَهْرُهَا ؟ قَالَ : أَنْ تَصَلِّيَ عَلَيَّ صَاحِبَ هَذَا الْاسْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ ، قَالَ : إِنْ فَعَلْتَ تَزَوِّجْنِيهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَصَلَّى آدَمُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِئَةَ مَرَّةٍ ، فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرَهَا ، فَزَوَّجَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا .

[من الكامل]

ولله درُّ القائل :

وَأَبُوكَ آدَمُ إِذْ رَأَى حَوَاءَ وَقَدْ زُفَّتْ بِأَنْوَاعِ الْحُلِيِّ وَالْجَوْهَرِ

(١) أخرج بنحوه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن بالله » (٨٠) .

(٢) الأبيات في « الروض الفائق » (ص ٤٠٨) .

(٣) أخرج بعضه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الطبراني في « الكبير » (١٦٥ / ١١) ، و « الأوسط » (٢٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٠٦ / ٣) ، وابن بشكوال في « القرية » (١٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٣٤ / ٨) .

صَلَّى عَلَيْكَ فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرَهَا وَالْحُورُ بَيْنَ مَهْلِلٍ وَمُكَبَّرٍ (١)

وروي : « أَنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَحَابِرِهِمْ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أَقْضِ حَوَائِجَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ كَثِيرًا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا ، فَخُذْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَدْخِلْهُمْ الْجَنَّةَ » (٢) .

وقال بعض الصوفية : كان لي جار مسرف على نفسه ، لا يعرف من سكره يومه من أمسه ، وكنت أعظه فلا يقبل ، وأمره بالتوبة فلا يفعل ، فلما مات . رأيت في المنام وعليه من حلل الجنة لباس الإعزاز والإكرام ، فقلت له : بم نلت هذه المنزلة وهذا المقام ؟ فقال : حضرت يوماً مجلس الذكر ، فسمعت المحدث يقول : مَنْ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورفع صوته . . وجبت له الجنة ، ثم رفع المحدث صوته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ورفع صوتي معه ، ورفع القوم أصواتهم ، فغفر لنا جميعاً في ذلك اليوم ، فكان نصيبي من هذه الصلاة أن جاد عليَّ بهذه النعمة (٣) .

[من الكامل]

ولله درُّ القائل :

إِنْ شِئْتَ مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ تَهْتَدِي صَلَّ عَلَى الْهَادِي الْبَشِيرِ مُحَمَّدٍ
يَا فَوْزَ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَحْوِي الْأَمَانِي بِالنَّعِيمِ السَّرْمَدِي
يَا قَوْمَنَا صَلُّوا عَلَيْهِ فَتَطْفَرُوا بِالْبُشْرِ وَالْعَيْشِ الْهَنِيِّ الْأَرْغَدِ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَأَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ يَغْفِرْ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ قَبْلَ الْغَدِ
وَيَخْصِكُمْ رَبُّ الْأَنْبَاءِ بِفَضْلِهِ بِأَفْضَلِ الْجَنَاتِ يَوْمَ الْمَوْعِدِ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَا لَاحَ فِي آفَاقِ نَجْمِ الْفَرْقَدِ

ومن فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : ما حكي أن امرأة كان لها ولد مسرف على نفسه ، وكانت تأمره بالخير وتنهيه عن الفحشاء والمنكر والقضاء والقدر غالب عليه ، فمات وهو مصرُّ على ما كان عليه ، فحزنت عليه أمه حزناً شديداً ، وظننت أنه مات

(١) القصة مع الأبيات في «الروض الفائق» (٤٠٨) .

(٢) عزاه الإمام السخاوي في «القول البديع» (ص ٤٦١) إلى الطبراني وضعفه ، ومن طريقه أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٨٠/٤) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٣٨/٥٦) .

(٣) «الروض الفائق» (ص ٤٠٩) .

على غير الملة ، فتمنت أنها تراه في النوم ، فرأته يعذب ، فأزدادت عليه حزناً ، فلما كان بعد مدة رأته وهو على هيئة حسنة وهو فرح مسرور ، فسألته عن حاله وقالت : يا ولدي ؛ إنني رأيتك تُعذب ، فبم نلت هذا الخير ؟ فقال : يا أماه ؛ أجتاز رجل مسرف على نفسه بالتربة التي أنا فيها ، فنظر إلى القبور ، وتفكّر في البعث والنشور ، وأعتبر بالموتى ، فبكى على زلته ، وندم على خطيئته ، وتاب إلى الله تعالى ، وعقد التوبة معه ألا يعود ، وفرحت لتوبته ملائكة السماء ، ثم إنه لما تاب وعلم الله صدق نيته . . تاب عليه ، فقرأ شيئاً من القرآن ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرّات ، وأهدى ثوابها لأهل التربة التي أنا فيها ، فقسّم ثوابها علينا ، فتابني من ذلك جزء ، فغفر الله لي ، وحصل لي من الخير ما ترين ، فأعلمي يا أماه أنّ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم نور في القلوب ، وتكفير للذنوب ، ورحمة للأحياء والأموات^(١) .

وقد قيل في بعض الرويات : إن للمصلين على سيّد المرسلين عشر كرامات :

إحداهنّ : صلاة الملك الغفار .

الثانية : شفاعة النبي المختار .

الثالثة : الاقتداء بالملائكة الأبرار .

الرابعة : مخالفة المنافقين والكفار .

الخامسة : محو الخطايا والأوزار .

السادسة : قضاء الحوائج والأوطار .

السابعة : تنوير الظواهر والأسرار .

الثامنة : النجاة من النار .

التاسعة : دخول دار القرار .

العاشرة : سلام الملك الغفار^(٢) .

(١) «الروض الفائق» (ص ٤٠٨) .

(٢) «الروض الفائق» (ص ٤١١) .

ورئي إنسان بعد موته وعليه حُلَّةٌ وعلى رأسه تاج مكلَّل بالجواهر ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وأكرمني وتَوَجَّني وأدخلني الجنة ، فقيل له : بماذا ؟ فقال : بكثرة صلاتي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم (١) .

وروي : أنَّ مسرفاً من بني إسرائيل لمَّا مات . . رموه ، فأوحى الله لموسى على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام : أن غسَّله وكفَّنه وصلَّ عليه ، فإنِّي قد غفرت له ، قال : يا رب ؛ وبم ذلك ؟ قال : إنَّه فتح التوراة يوماً فوجد فيها أسم محمد صلى الله عليه وسلم ، فصلَّي عليه ، فغفرت له بذلك (٢) .

ورأى بعض الصالحين صورة قبيحة في النوم فقال لها : مَنْ أنت ؟ قالت : أنا عمك القبيح ، قال لها : فبم النجاة منك ؟ قالت : بكثرة الصلاة على المصطفى صلى الله عليه وسلم (٣) .

وجعل بعض الصالحين كل ليلة على نفسه عدداً معلوماً يصله على النبيِّ صلى الله عليه وسلم عند النوم ، فأخذته عيناه ليلة ، فرأى النبيِّ صلى الله عليه وسلم داخلاً عليه ، فأمتلاً بيته نوراً ، فقال له : هات هذا الفم الذي يكثر الصلاة عليَّ أقبله ، قال : فأستحييت ، فأدرت له خدي ، فقبله ، فأنتبهت ، فإذا البيت يفوح مسكاً من رائحته صلى الله عليه وسلم ، وبقيت رائحة المسك في خدي نحو ثمانية أيام (٤) .

وحكي : أنَّ شخصاً كان يكثر الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فسئل عن ذلك ، فذكر : أنَّه خرج ومعه أبوه ، فبينما هو نائم في بعض المنازل وإذا قائل يقول : قم فقد أمات الله أباك وسوّد وجهه ، فأستيقظ ، فرآه كذلك ، فداخله منه رعب شديد ، ثم نام فرأى أربعة سودان محدقين بأبيه ، ومعهم أعمدة من حديد ، فأقبل رجل حسن الوجه فنحَّاهم

-
- (١) أخرجها ابن بشكوال في « القربة » (٥١) ، و« الصلة » (١٣٣/١) ، والمرئي عنده هو أبو العباس أحمد بن منصور الشيرازي الحافظ ، وعزاها في « القول البديع » (ص ٢٥٤) إلى النميري أيضاً .
- (٢) « القول البديع » (ص ٢٥٥) ، و« الدر المنضود » (ص ١٨٣) .
- (٣) « القول البديع » (ص ٢٥٥) ، و« الدر المنضود » (ص ١٨٣) .
- (٤) عزاه الإمام السخاوي في « القول البديع » (ص ٢٨١) لابن بشكوال ، وأورده المجد الشيرازي في « الصلوات والبشر » (ص ١٣١) ، والرائي هو محمد بن سعيد بن مطرف .

عنه ، ورفع الثوب عن وجهه ، ومسحه بيده ، ثم أتاني فقال : قم قد بيّض الله وجه أبيك ، فقلت : مَنْ أنت بأبي أنت وأمي ؟ قال : محمّد صلى الله عليه وسلم ، فكشفت الثوب عن وجه أبي ، فإذا وجهه أبيض ، فدفتته ، ثم ما تركت الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم^(١) .

اللَّهُمَّ ؛ صلِّ على سيّدنا محمّد الذي شرّفته على سائر الأنام ، ورفعته إلى أشرف محل ومقام ، وجعلته دليلاً إلى دار السلام .

اللَّهُمَّ ؛ فكما أمرتنا بالصلاة عليه . . بلغ اللهم صلّاتنا منّا إليه يا رب العالمين .

اللَّهُمَّ ؛ أحشرنا في زمرة ، وأجعلنا ممّن فاز بمتابعته ، وأتّم بشريعته ، وأقتدى بصحابته ، وأهتدى بسنته .

اللَّهُمَّ ؛ أوردنا حوضه ، وأرنا وجهه ، ولا تحرمنا شفاعته ، وأجمع بيننا وبينه في مستقرّ الرحمة والرضوان ، برحمتك يا ذا الجلال والإكرام ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

(١) أخرجه ابن بشكوال في « القربة » (٩٦) ، وانظر « الروض الفائق » (ص ٤١٠) ، و« الصلوات والبشر » (ص ١٣٠) .

قال مؤلفه الشيخ مسعود : وكان الفراغ من كتابته يوم الجمعة المبارك ، سلخ جمادى الثانية سنة (١٢٠٥ هـ) خمس ومئتين وألف من هجرة نبيِّ خُصَّ بالفضل والشرف ، على يد كاتبه وجامعه الفقير : مسعود بن حسن بن أبي بكر بن حسن بن بساط الحسني القناوي الشافعي ، غفر الله له ولوالديه ولمن دعا لهم وله بالمغفرة ، آمين^(١) .

* * *

(١) في خاتمة (أ) : (وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة الميمونة يوم الإثنين المبارك ، لانتني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأنور ، الذي هو من شهور سنة (١٢٧٣ هـ) ثلاثة وسبعين ومئتين وألف من هجرة من له العزُّ والشرف ، على يد أفقر العباد وأحوجهم إليه تعالى : أحمد بن يوسف تركي ، غفر الله له ولوالديه ولمن دعا لهم بالمغفرة ولكافة المسلمين ، آمين ، والحمد لله وحده) .

وفي خاتمة (ب) : (وكان الفراغ من كتابة هذا الشرح المبارك يوم الأربعاء المبارك ، الموافق أربعة أيام خلت من شهر جمادى الأولى ، الذي هو من شهور سنة (١٢٨١ هـ) إحدى وثمانين ومئتين وألف من هجرة من له العزُّ والشرف ، على يد أفقر الوريِّ وأحقر من ترى ، تراب أقدام الحضرة العلية : بدوي المرزوقي ، غفر الله له ، آمين ، وصلى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم) .

أَهْمُ مَصَادِرٍ وَمَرَجِعِ التَّحْقِيقِ (١)

- الأحاد والمثاني ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني (ت ٢٨٧هـ) ، تحقيق الدكتور باسم الجوابرة ، ط ١ ، (١٩٩١م) ، دار الراية ، السعودية .
- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج البخاري ومسلم في « صحيحهما » ، للإمام الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٤٣هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك عبد الله دهيش ، ط ٤ ، (٢٠٠١هـ) ، دار خضر ، لبنان .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان المسمى : « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقلها » ، للإمام الحافظ علي بن بلبان الفارسي المصري (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط ٣ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- إحياء علوم الدين وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار للعراقي (ت ٨٠٦هـ) ، لحجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٩٨٢م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .
- أخبار الحمقى والمغفلين ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، ط ٣ ، (١٩٧٩م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .
- أدب الإملاء والاستملاء ، للإمام الحافظ عبد الكريم بن محمد السمعاني (ت ٥٦٢هـ) ، عني به ماكس فايسنابيلر ، ط ١ ، (١٩٨١م) ، لبنان .
- الأدب المفرد ، لإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ٤ ، (١٩٩٧م) ، نسخة مصورة لدى دار البشائر الإسلامية عن طبعة المكتبة السلفية ، لبنان .

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، اسم المؤلف وتاريخ وفاته ، اسم المحقق ، رقم الطبعة ، تاريخ طبع الكتاب ، اسم الدار الناشرة ومقرها .

- الازدهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق الدكتور علي حسين البواب ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .
- أساس البلاغة ، للإمام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، ط ٣ ، (١٩٨٥ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .
- الاستذكار الجامع لمذهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه « الموطأ » من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، وثق أصوله الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، دار قتيبة ودار الوعي ، سورية .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، للعلامة علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، ط ١ ، (١٩٧٠ م) ، دار الشعب ، مصر .
- أسرار البلاغة ، للإمام العلامة عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت ٤٧٤هـ) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط ١ ، (١٩٩١ م) ، دار المدني ، السعودية .
- الإصابة في تمييز الصحابة ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .
- اعتقاد أهل السنة ، للإمام هبة الله بن الحسن اللالكائي (ت ٤١٨هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ، (١٤٠٢هـ) ، دار طيبة ، السعودية .
- الأعلام وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، للأديب الكبير خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي (ت ١٣٩٦هـ) ، ط ١٢ ، (١٩٩٧ م) ، دار العلم للملايين ، لبنان .
- أعيان العصر وأعوان النصر ، للعلامة المؤرخ الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق الدكاترة علي أبو زيد ونبيل أبو عمشة ومحمد موعد ومحمود سالم محمد ، ط ١ ، (١٩٩٨ م) ، دار الفكر ، سورية .

- الأغاني ، للعلامة الأديب أبي الفرج الأصفهاني ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، (١٩٦٩م) ، دار الشعب ، مصر .
- الأقاويل المفصلة لبيان حديث الابتداء بالبسملة ، للإمام محمد بن جعفر الشريف الكتاني الإدريسي الحسني (ت ١٣٤٥هـ) ، تحقيق محمد الفاتح الشريف الكتاني الحسني ومحمد عصام الشريف عرار الحسني ، ط ١ ، بدون تاريخ .
- اقتضاء العلم العمل ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط ٥ ، (١٩٨٤م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .
- إكمال المعلم بفوائد مسلم ، للإمام القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) ، تحقيق الدكتور يحيى إسماعيل ، ط ٢ ، (٢٠٠٤م) ، دار الوفاء ، مصر .
- الأم ، لإمام الدنيا محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ، تحقيق الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار الوفاء ، مصر .
- الأمثال ، للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش ، ط ١ ، (١٩٨٠م) ، دار المأمون للتراث ، سورية .
- الإيضاح في علوم البلاغة ، للعلامة محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، مكتبة الآداب ، مصر .
- البحر الزخار المعروف بمسند البزار ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو البزار (ت ٢٩٢هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .
- البداية والنهاية ، للإمام الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤هـ) .

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، للإمام العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ، تحقيق الدكتور حسين بن عبد الله العمري ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار الفكر ، سورية .

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، (١٩٦٤م) ، طبعة مصورة لدى المكتبة العصرية ، لبنان .

- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، ط ٢ ، (١٩٨١م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- البيان والتبيين ، لكبير أئمة الأدب عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، ط ٧ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- تاريخ أصبهان المعروف بذكر أخبار أصبهان ، للإمام الحافظ أحمد بن عبد الله المعروف بأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط ١ ، (١٩٩٠) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري ، ط ١ ، (١٩٨٧م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- تاريخ الخلفاء ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ٢ ، (٢٠٠٣م) ، دار صادر ، لبنان .

- تاريخ الطبري المسمى : « تاريخ الأمم والملوك » ، للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

- التاريخ الكبير ، لإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، عني به السيد هاشم الندوي ، بدون تاريخ ، دار الفكر ، لبنان .

- تاريخ بغداد ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ،
تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من
وارديها وأهلها ، للإمام الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر
(ت ٥٧١هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمري ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار
الفكر ، لبنان .

- تحفة المحتاج بشرح المنهاج ومعها حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي ، للإمام العلامة
أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) والشيخ عبد الحميد الشرواني
(ت ١٣٠١هـ) والشيخ أحمد بن قاسم العبادي (ت ٩٩٢هـ) ، ط ١ ، (١٣١٥هـ) ،
طبعة مصورة لدى دار صادر ، لبنان .

- التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد القرطبي
(ت ٦٧١هـ) ، تحقيق الدكتور الصادق محمد إبراهيم ، ط ١ ، (١٤٢٥هـ) ، مكتبة دار
المنهاج ، السعودية .

- تفسير ابن أبي حاتم ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد الرازي المعروف بابن أبي حاتم
(ت ٣٢٧هـ) ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، بدون تاريخ ، المكتبة العصرية ، لبنان .

- تفسير البغوي المسمى : « معالم التنزيل » ، للإمام الحافظ الحسين بن مسعود البغوي
(ت ٥١٦هـ) ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار
المعرفة ، لبنان .

- تفسير الخازن المسمى : « لباب التأويل في معاني التنزيل » ، للإمام علي بن محمد بن إبراهيم
البغدادي المعروف بالخازن ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- تفسير الطبري المسمى : « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ، للإمام العلامة محمد بن جرير
الطبري (ت ٣١٠هـ) ، عني به مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام ، ط ١ ،
(٢٠٠٢م) ، دار ابن حزم ودار الأعلام ، لبنان والأردن .

- تفسير الفاتحة الكبير المسمى : « البحر المديد » ، للإمام أحمد بن عجيبة الحسني التطواني (ت ١٢٢٤هـ) ، تحقيق بسام محمد بارود ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

- تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، (١٩٦٩م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- تفسير القرطبي المسمى : « الجامع لأحكام القرآن » ، للإمام المفسر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، (١٩٨٥م) ، لبنان .

- التفسير الكبير المسمى : « مفاتيح الغيب » ، للإمام المفسر فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ٣ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- تفسير النسائي ، للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) ، تحقيق صبري بن عبد الخالق الشافعي وسيد بن عباس الحلبي ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- تفسير مقاتل بن سليمان ، للإمام المفسر مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- تلخيص الحبير المسمى : « التمييز في تلخيص تخريج أحاديث شرح الوجيز » ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، عني به الدكتور محمد الثاني موسى ، ط ١ ، (٢٠٠٧م) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ١ ، (١٩٦٧م) ، وزارة الأوقاف ، المغرب .

- تنبيه الغافلين ، للعلامة الإمام نصر بن محمد السمرقندي (ت ٣٧٣هـ) ، تحقيق يوسف علي بديوي ، ط ٣ ، (٢٠٠٠م) ، دار ابن كثير ، سورية .

- تنزيله الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ، للعلامة الفقيه علي بن محمد ابن عراق الكناني (ت ٩٦٣هـ) ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق الغماري ، ط ٢ ، (١٩٨١م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأخبار ، للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط ١ ، (١٩٨٣) ، مطبعة المدني ، مصر .
- التواضع والخمول ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) ، عني به محمد عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٨٩م) ، لبنان .
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ويليهِ التذييل المرغوب من ثمار القلوب ، للعلامة اللغوي عبد الملك بن محمد المعروف بأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار البشائر ، سورية .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أحمد المعروف بابن رجب الحنبلي (ت ٧٥٩هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس ، ط ١٠ ، (٢٠٠٤م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- جامع بيان العلم وفضله ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط ١ ، (١٩٩١م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- الجامع لشعب الإيمان ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (٢٠٠٤م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، للأديب الفقيه المعافى بن زكريا الجريري (ت ٣٩٠هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، عالم الكتب ، لبنان .
- جمهرة أشعار العرب ، للشاعر محمد بن أبي الخطاب المعروف بأبي زيد القرشي (ت نحو ١٧٠هـ) ، عني به لجنة الدار ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .
- حاشية ابن عابدين المسماة : « رد المحتار على الدر المختار » ، للإمام الفقيه محمد أمين بن عمر الشهير بابن عابدين (ت ١٢٥٢هـ) ، تحقيق الدكتور حسام الدين فرفور ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الثقافة والتراث ، سورية .
- حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين للسنوسي وبهامشها شرح السنوسي على أم البراهين ، للعلامة محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت ١٢٣٠هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الفكر ، لبنان .
- حاشية الصبان على شرح الأشموني (ت نحو ٩٠٠هـ) على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني (ت ٨٥٥هـ) ، للعلامة الأديب اللغوي محمد بن علي الصبان (ت ١٢٠٦هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٩هـ) ، طبعة مصورة لدى انتشارات زاهدي ، إيران .
- الحلم ويليهِ كتاب التوكل على الله ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للإمام الحافظ أحمد بن عبد الله المعروف بأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) ، ط ٥ ، (١٩٨٧م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧هـ) لدى دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، مصر ولبنان .
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، للعلامة الشيخ عبد الرزاق بن حسن البيطار (ت ١٣٣٥هـ) ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، ط ٢ ، (١٩٩٣م) ، طبعة مصورة عن نشرة مجمع اللغة العربية بدمشق لدى دار صادر ، لبنان .
- الحماسة البصرية ، للعلامة صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٦هـ) ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- حياة الحيوان الكبرى ، للإمام الفقيه محمد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار البشائر ، سورية .
- خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب ، للعلامة عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، مكتبة الخانجي ، مصر .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، ط (٢٠٠٢ م) ، دار الفكر ، لبنان .
- الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود ، للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهيثمي (ت ٩٧٤ هـ) ، عني به بوجمة مكري ومحمد شادي عريش ، ط ١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار المنهاج ، السعودية .
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، عني به هاشم وأحمد الله ومحمد طه الندوي ، ط ١ ، (١٣٤٩ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن ، لبنان .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط ١ ، (١٩٨٨ م) ، دار الريان ، مصر .
- الدليل الشافي على المنهل الصافي ، للعلامة المؤرخ البخّانة يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ) ، تحقيق فهميم محمد شلتوت ، ط ٢ ، (١٩٩٨ م) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر .
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، للعالم البخّانة إبراهيم بن علي بن محمد المعروف بابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ) ، تحقيق الدكتور علي عمر ، ط ١ ، (٢٠٠٣ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .
- ديوان ابن الرومي ، للشاعر الكبير علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي (ت ٢٨٣ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، ط ٣ ، (٢٠٠٣ م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، مصر .

- ديوان ابن الفارض ، لسلطان العاشقين عمر بن علي الحَمَوِي المعروف بابن الفارض (ت ٦٣٢هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان ابن الوردي ، للإمام الأديب عمر بن مظفر الحلبي المعروف بابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد فوزي الهيب ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار القلم ، الكويت .

- ديوان أبي العتاهية ، للشاعر المكثّر إسماعيل بن القاسم بن سُويد المعروف بأبي العتاهية (ت ٢١١هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان أبي العيّناء ونوادره ، للشاعر محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان المعروف بأبي العيّناء (ت ٢٨٣هـ) ، تحقيق إنطوان القوال ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان أبي تمام ، لأمير البيان الشاعر حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام (ت ٢٣١هـ) ، عني به الدكتور محيي الدين صبحي ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان أبي فراس الحمداني ، للأمير الشاعر الفارس الحارث بن سعيد بن حمدان المعروف بأبي فراس الحمداني (ت ٣٥٧هـ) ، عني به عبد القادر محمد مايو ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار القلم العربي ، سورية .

- ديوان البوصيري ، للعلامة الشاعر المحب محمد بن سعيد البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط ٢ ، (١٩٧٣م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

- ديوان السري الرفاء ، للشاعر الكبير السري بن أحمد الكندي ، عني به كرم البستاني ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان الشافعي وحكمه وكلماته السائرة ، لإمام الدنيا محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ، جمع وضبط يوسف علي بديوي ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة دار الفجر ، سورية .

- ديوان الطغرائي ، للشاعر الوزير الأستاذ الحسين بن علي بن محمد الطغرائي (ت ٥١٥هـ) ، تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٩٧٦م) ، وزارة الإعلام ، العراق .
- ديوان جرير ، لشاعر عصره جرير بن عطية الحَظَفي (ت ١١٠هـ) ، ط ١ ، (١٩٩١م) ، دار صادر ، لبنان .
- ديوان ذي الرمة ، للشاعر الفحل غيلان بن عقبة بن مسعود المعروف بذي الرُّمَّة (ت ١١٧هـ) ، عني به أحمد حسن بسج ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- ديوان مجنون ليلى ، لشاعر الغزل المتيّم قيس بن الملوّح المعروف بمجنون ليلى (ت ٦٨هـ) ، عني به عدنان زكي درويش ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار صادر ، لبنان .
- الروض الفائق في المواعظ والرقائق ، للإمام الصوفي شعيب بن عبد الله المعروف بالحريفيش (ت ٨١٠هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٤م) ، دار المعرفة ، لبنان .
- روضة الطالبين وعمدة المفتين ، للإمام الحافظ يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، إشراف زهير الشاويش ، ط ٣ ، (١٩٩١م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، للإمام الحافظ محمد بن حَبَّان البُسْتِي (ت ٣٥٤هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد الرزاق حمزة ومحمد حامد الفقي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
- الزهد الكبير ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط ٣ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .
- الزهد والرقائق برواية المروزي ويليهِ زيادات رواية نُعيم بن حَمَّاد عليه ، للإمام الحافظ عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي (ت ١٨١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
- الزهد ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الزهد ، للإمام الحافظ هناد بن السري الكوفي (ت ٢٤٣هـ) ، عني به عبد الرحمن الغريوائي ، ط ١ ، (١٤٠٦هـ) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .
- الزواجر عن اقتراف الكبائر ، للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) ، عني به محمد خير طعمة حلبي و خليل مأمون شيحا ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار المعرفة ، لبنان .
- سبل السلام شرح بلوغ المرام ، للعلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني ، عني به محمد عبد العزيز الخولي ، ط ٤ ، (١٩٦٠م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر المسمى : « تاريخ المرادي » ، لمفتي الشام ونقيب أشرفها المؤرخ محمد خليل بن علي بن محمد الحسيني المرادي (ت ١٢٠٦هـ) ، ط ١ ، (١٣٠١هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدى دار البشائر الإسلامية ، دار ابن حزم ، لبنان .
- السنة ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو المعروف بابن أبي عاصم (ت ٢٨٧هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (٢٠٠٤م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- سنن ابن ماجه ، للإمام الحافظ محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .
- سنن أبي داوود وبهامشه معالم السنن للخطابي ، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- سنن الترمذي المسمى : « الجامع الصحيح » ، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق أحمد شاکر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، ط ١ ، (١٩٣٨م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- السنن الكبرى وبذيله الجواهر النقي لابن التركماني ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، بعناية السيد هاشم الندوي ، ط ١ ، (١٣٥٦هـ) ، طبعة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدکن لدى دار المعرفة ، لبنان .

- السنن الكبرى ، للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، (٢٠٠١هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- سنن النسائي (المجتبى) ومعه زهر الربى على المجتبى للسيوطي ، وبذيله حاشية الإمام السندي ، للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) ، ط ١ ، (١٣١٢هـ) ، نسخة مصورة لدى دار الكتاب العربي عن طبعة المطبعة الميمنية ، لبنان .
- سنن سعيد بن منصور ، للإمام الحافظ سعيد بن منصور (ت ٢٢٧هـ) ، تحقيق الدكتور سعد بن عبد الله آل حميد ، ط ٢ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصمعي ، السعودية .
- سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، إشراف شعيب الأرنؤوط ، ط ١١ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- السيرة النبوية ، للإمام عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار ابن كثير ، سورية .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، للإمام الفقيه عبد الحي بن أحمد المعروف بابن العماد (ت ١٠٨٩م) ، تحقيق محمود الأرنؤوط ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار ابن كثير ، سورية .
- شرح السنة ، للإمام الحافظ الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ) ، تحقيق سعيد اللحام ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، دار الفكر ، لبنان .
- شرح الصاوي على جوهر التوحيد ، للعلامة أحمد بن محمد المالكي الصاوي ، بدون تاريخ ، دار الإخاء ، سورية .
- شرح ديوان الحماسة ، للإمام العلامة يحيى بن علي الشيباني المعروف بابن الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٢٩٦م) ، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدى عالم الكتب ، لبنان .

- شرح ديوان المتنبي المسمى : « التبيان في شرح الديوان » ، للإمام الأديب عبد الله بن الحسين المعروف بأبي البقاء العُكْبَرِي (ت ٦١٦هـ) ، عني به مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، ط الأخيرة ، (١٩٧١م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- شرح فتح القدير للعاجز الفقير ، للإمام الفقيه محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بالكمال ابن الهمام (ت ٦٨١هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- شرح مشكل الآثار ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت ٣٢١هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط ١ ، (١٩٩٤م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- شرح مقامات الحريري ويليها رسالة مشتملة على انتقاد ابن الخشاب ، للأديب الكبير القاسم بن علي بن محمد الحريري (ت ٥١٦هـ) ، ط ١ ، (١٣٣٦هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الفكر ، لبنان .
- شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم برواية الإمام القدوة عبد الكريم بن هوازن القشيري ، للإمام الحافظ عبد الملك بن محمد الخرکوشي (ت ٤٠٦هـ) ، تحقيق الشريف نبيل هاشم الغمري ، ط ١ ، (٢٠٠٣م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .
- الشمائل المحمدية ومعه المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية للإمام الفقيه إبراهيم الباجوري (ت ١٢٧٧هـ) ، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، عني به الشيخ محمد عوّامه ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، نشره محققه ، لبنان .
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، للأديب المؤرخ البحّانة أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ، ط ١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدى المؤسسة المصرية العامة ، مصر .
- الصحاح المسمى : « تاج اللغة وصحاح العربية » ، للعلامة اللغوي الإمام إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٨هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- صحيح ابن خزيمة المسمى : « مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ، للإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت ٣١١هـ) ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، ط ٣ ، (٢٠٠٣م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

- صحيح البخاري المسمى : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية العثمانية) ، للإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

- صحيح مسلم المسمى : « الجامع الصحيح » ، للإمام الحافظ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- صفة الصفوة ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، صنع فهرسه عبد السلام هارون ، ط ٢ ، (١٩٩٢م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- الصَّلَات والبُشْر في الصلاة على خير البشر صلى الله عليه وسلم ، للإمام اللغوي محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) ، محمد نور الدين الجزائري وآخرون ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار القرآن ، سورية .

- الصلة وهو ذيل على « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي ، للمؤرخ البَحَّاثَة خلف بن عبد الملك المعروف بابن بَشْكُوَال (ت ٥٧٨هـ) ، عني به إدارة إحياء التراث ، ط ١ ، (١٩٦٦م) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر .

- الصمت وآداب اللسان ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق أبو إسحاق الحويني ، ط ١ ، (١٤١٠هـ) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- الضعفاء ومن نسب إلى الكذب ووضع الحديث ومن غلب على حديثه الوهم ومن يتهم في بعض حديثه ومجهول روى ما لا يتابع عليه وصاحب بدعة يغلو فيها ويدعو إليها وإن كانت حاله في الحديث مستقيمة ، للإمام الحافظ محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العُقَيْلي (ت ٣٢٢هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصمعي ، السعودية .

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ، غني به محمد جمال القاسمي ، ط ١ ، (١٩٩٢م) ، طبعة مصورة عن نشرة القاسمي سنة (١٣١٣هـ) لدى دار الجيل ، لبنان .

- طبقات الشافعية الكبرى ، للإمام القاضي عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي المعروف بتاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، ط ١ ، (١٣٩٦هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

- طبقات الصوفية المسمى : « الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية » والمعروف بالطبقات الكبرى ، ويليه « إرغام أولياء الشيطان بذكر مناقب أولياء الرحمن » المعروف بالطبقات الصغرى ، للإمام العلامة محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت ١٠٣١هـ) ، تحقيق محمد أديب الجادر ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار صادر ، لبنان .

- الطبقات الكبرى المسماة : « لواقح الأنوار في طبقات الأخيار » ، للإمام المجدد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني (ت ٩٧٣هـ) ، بعناية الشيخ أحمد سعد علي ، ط ١ ، (١٩٥٤م) ، طبعة مصورة عن نشرة مصطفى البابي الحلبي سنة (١٩٥٤ م) لدى دار الفكر ، لبنان .

- الطبقات الكبير ، للإمام الحافظ المؤرخ محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط ١ ، (٢٠١م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ (ت ٣٦٩هـ) ، تحقيق عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي ، ط ٢ ، (١٩٩٢م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ، للإمام العارف بالله عبد العزيز الدريني (ت ٦٩٤هـ) ، حققه الدكتور محمد حسني مصطفى ، ط ١ ، (٢٠٠٣م) ، دار القلم العربي ، سورية .

- عارضة الأحوزي لشرح صحيح الترمذي ، للإمام القاضي محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي المالكي (ت ٥٤٣هـ) ، ط ٢ ، (١٣٥٤هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .

- العزيز شرح الوجيز ، للإمام الفقيه عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعي (ت ٦٢٣هـ) ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- العظمة ، للإمام العلامة عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ (ت ٣٦٩هـ) ، تحقيق رضاء الله بن محمد المباركفوري ، ط ٢ ، (١٩٩٨م) ، دار العاصمة ، السعودية .

- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق خليل الميس ، ط ١ ، (١٤٠٣هـ) ، لبنان .

- العين ، للإمام اللغوي الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي ، ط ٢ ، (١٤٠٩هـ) ، مؤسسة دار الهجرة ، إيران .

- عيون الأخبار ، للإمام القاضي عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدِّينَوْرِي (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط ١ ، (١٩٣٠م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

- غر الخصائص ، للأديب المشهور جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي المشهور بالوطواط (ت ٧١٨هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ .

- الغريبين في القرآن والحديث ، للإمام اللغوي أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١هـ) ، تحقيق ودراسة أحمد فريد المزيدي ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

- غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم ، للعلامة المؤرخ الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، ط ٢ ، (١٩٩٠م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الفتاوى الحديثية ، للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٣ ، (١٩٨٩م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- الفتاوى الفقهية الكبرى وبهامشها فتاوى محمد بن أحمد الرملي ، للإمام العلامة أحمد بن محمد ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) ، (١٩٨٣م) ، دار الفكر ، سورية .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مكتبة الغزالي ، سورية .
- الفرج بعد الشدة ، للإمام القاضي المحسن بن علي التنوخي (ت ٣٨٤هـ) ، تحقيق عبود الشالجي ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .
- الفروق المسمى : « أنوار البروق في أنواء الفروق » ، للإمام أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي المشهور بالقرافي (ت ٦٨٤هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد سراج والدكتور علي جمعة محمد ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار السلام ، مصر .
- فضائل الأوقات ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق عدنان عبد الرحمن القيسي ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، مكتبة المنارة ، السعودية .
- الفقيه والمتفقه ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٢هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط ٢ ، (١٤٢١هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .
- الفوائد ، للإمام الحافظ تمام بن محمد الرازي (ت ٤١٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٤١٢هـ) ، مكتبة الرشد ، السعودية .
- فوات الوفيات والذيل عليها ، للعلامة المؤرخ الأديب محمد بن شاکر الکتبي (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٧٣م) ، دار صادر ، لبنان .
- الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، للعلامة أحمد بن غنيم النفراوي المالكي (ت ١١٢٥هـ) ، تصحيح لجنة من رجال العلم ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الفكر ، لبنان .

- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للإمام العلامة محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت ١٠٣١هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٣٥٧هـ) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- القرية إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم ، للمؤرخ البَحَّاثَة خلف بن عبد الملك المعروف بابن بَشْكُوَال (ت ٥٧٨هـ) ، تحقيق سيد محمد سيد وخلاف عبد السميع ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيق صلى الله عليه وسلم ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ، تحقيق محمد عوامة ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، مؤسسة الريان ، السعودية .

- الكامل في التاريخ ، للإمام المؤرخ علي بن محمد بن محمد المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ، حققه الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، ط ٢ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- الكامل في ضعفاء الرجال ، للإمام الحافظ عبد الله بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ) ، تحقيق يحيى مختار غزاوي ، ط ٣ ، (١٩٨٨م) ، دار الفكر ، لبنان .

- الكامل ، لإمام العربية محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المُبَرِّد (ت ٢٨٥هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- الكبائر ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، بدون تاريخ ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للعلامة المحدث إسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٣ ، (١٣٥١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- الكشف والبيان المسمى : « تفسير الثعلبي » ، للإمام المفسر أحمد بن محمد الثعلبي (ت ٤٢٧هـ) ، تحقيق الشيخ أبو محمد بن عاشور ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٣م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .
- لامية ابن الوردي مع تخميسها لابن الملاح ، للعلامة الأديب ابن الملاح ، بدون تحقيق ، (١٩٦٨م) ، مكتبة الحضارة ، سورية .
- لسان العرب ، للإمام اللغوي محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٢م) ، دار صادر ، لبنان .
- لسان الميزان ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، عني به الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .
- لطائف اللطف ، للعلامة اللغوي عبد الملك بن محمد المعروف بأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، تحقيق الدكتور عمر الأسعد ، ط ٢ ، (١٩٨٧م) ، دار المسيرة ، لبنان .
- لطائف المنن والأخلاق و بهامشه كتاب لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ، للإمام المجدد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني (ت ٩٧٣هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، دار الحكمة .
- المتمنين ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، للإمام الأديب نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، (١٩٩٩م) ، المكتبة العصرية ، لبنان .
- المجروحين من المحدثين ، للإمام الحافظ محمد بن حبان البُستي (ت ٣٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .
- مجمع الأمثال ، للعلامة الأديب البَحَّاثَة أحمد بن محمد بن أحمد الميداني (ت ٥١٨هـ) ، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار صادر ، لبنان .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للإمام الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٦م) ، طبعة مصورة لدى مكتبة المعارف ، لبنان .
- المجموع شرح المذهب ، للإمام الحافظ يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، دار الفكر ، لبنان .
- المحاسن والمساويء ، للإمام الأديب إبراهيم بن محمد البيهقي ، (١٩٨٤م) ، دار بيروت ، لبنان .
- مداراة الناس ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١م) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، للإمام العلامة المحدث عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت ٧٦٨هـ) ، ط ١ ، (١٣٣٧هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن لدى دار الكتاب الإسلامي ، مصر .
- المراسيل ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله مساعد الزهراني ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار الصميعة ، السعودية .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، للمؤرخ البحّثة علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، تصحيح شارك بلا ، ط ١ ، (١٤٢٢هـ) ، انتشارات الشريف الرضي ، إيران .
- المستدرك على الصحيحين وبذيله تلخيص المستدرك للحافظ الذهبي ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بالحاكم (ت ٤٠٥هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٣٣٥هـ) ، نسخة مصورة لدى دار المعرفة عن طبعة دائرة المعارف النظامية في الهند بحيدر آباد الدكن ، لبنان .
- المستطرف من كل فن مستظرف ، للأديب الخطيب محمد بن أحمد الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ) ، عني به الدكتور مفيد قميحة ، ط ١ ، (١٩٨٣م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- مسند أبي داوود الطيالسي ، للإمام الحافظ سليمان بن داوود بن الجارود المعروف بأبي داوود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ) ، ط ١ ، (١٣٢١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .
- مسند أبي يعلى الموصلي ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى المعروف بأبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ٢ ، (١٩٨٩م) ، دار المأمون للتراث ودار الثقافة العربية ، سورية .
- مسند إسحاق بن راهويه ، للإمام الحافظ إسحاق بن إبراهيم المروزي (ت ٢٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الغفور البلوشي ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، مكتبة الإيمان ، السعودية .
- مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرنؤوط ، ط ١ ، (١٩٩٥هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي ، للإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار المغني ، السعودية .
- مسند الروياني ، للإمام الحافظ محمد بن هارون الروياني (ت ٣٠٧هـ) ، عني به أيمن علي أبو يمان ، ط ١ ، (١٤١٦هـ) ، مؤسسة قرطبة ، مصر .
- مسند الشاميين ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٩م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- مسند الشهاب المسمى : « شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب » ، للإمام القاضي محمد بن سلامة القُضاعي (ت ٤٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٥م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- مسند عبد بن حميد ، للإمام الحافظ عبد بن حميد بن نصر الكشي (ت ٢٤٩هـ) ، عني به صبحي البدري السامرائي ومحمود خليل الصعيدي ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة السنة ، مصر .

- المسند ، للإمام الحافظ الهيثم بن كليب الشاشي (ت ٣٣٥هـ) ، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله ، ط ١ ، (١٤١٠هـ) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .
- مصارع العشاق ، للحافظ الأديب جعفر بن أحمد المعروف بالسَّرَّاج القاري (ت ٥٠٠هـ) ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .
- المصنف ومعه الجامع للإمام معمر الأزدي ، للإمام الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط ٢ ، (١٩٨٣م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، لبنان .
- المصنف ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ) ، تحقيق محمد عوامة ، ط ١ ، (٢٠٠٦م) ، دار القبلة ، السعودية .
- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى) ، للإمام العلامة علي بن محمد الهروي المعروف بملا علي القاري (ت ١٠١٤هـ) ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧هـ) ، ط ٥ ، (١٩٩٤م) ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، سورية .
- معجم الأدباء المسمى : « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ، للإمام الأديب ياقوت بن عبد الله الحَمَوِي (ت ٦٢٦هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، مؤسسة المعارف ، لبنان .
- المعجم الأوسط ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، (١٩٨٥م) ، مكتبة المعارف ، السعودية .
- معجم البلدان ، للإمام الأديب ياقوت بن عبد الله الحَمَوِي (ت ٦٢٦هـ) ، عني به المستشرق وستنفيلد ، ط ٢ ، (١٩٩٥م) ، دار صادر ، لبنان .
- معجم السَّفر ، للإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السَّلْفِي (ت ٥٧٦هـ) ، تحقيق عبد الله عمر البارودي ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، دار الفكر ، لبنان .
- معجم الشيوخ (المعجم الكبير) ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق الدكتور محمد الحبيب الهيلة ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة الصديق ، السعودية .

- المعجم الصغير ومعه غنية الألمي للعظيم آبادي ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، ط ١ ، (١٩٨٣ م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
- المعجم الكبير ومعه الأحاديث الطوال ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- معجم المؤلفين ، للأستاذ المؤرخ عمر رضا كحالة (ت ١٤٠٨هـ) ، عني به مكتب تحقيق الدار ، ط ١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- المغازي ، للقاضي المؤرخ محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) ، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مؤسسة الأعظمي للطبوعات ، لبنان .
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، للإمام عبد الله بن يوسف الأنصاري المعروف بابن هشام (ت ٧٦١هـ) ، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مؤسسة الصادق ، إيران .
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني المنهاج ، للعلامة الفقيه الشيخ محمد بن محمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧هـ) ، اعتنى به محمد خليل عيتاني ، ط ١ ، (١٩٩٧ م) ، دار المعرفة ، لبنان .
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٢ ، (١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .
- مكارم الأخلاق ويليهِ أخلاق العلماء للحافظ الآجري ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط ١ ، (٢٠٠٢) ، مكتبة دار البيان ، سورية .
- مناقب الشافعي ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، ط ١ ، (١٩٧١ م) ، دار التراث ، مصر .

- المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار الفكر ، لبنان .

- منهاج الطالبين وعمدة المفتين ، للإمام الحافظ يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، عني به محمد محمد طاهر شعبان ، ط ١ ، (٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ، لحجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ، عني به بوجعة عبد القادر مكري ، ط ١ ، (٢٠٠٦م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، للعلامة المؤرخ البحّاث يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أمين ورفاقه ، ط ١ ، (١٩٨٤م) ، الهيئة العامة للكتاب ، مصر .

- الموضوعات ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، عني به توفيق حمدان ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الموطأ ، لإمام المدينة مالك بن أنس بن مالك بن نافع الأصبحي (ت ١٧٩هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- النجم الوهاج في شرح المنهاج ، للعلامة الفقيه محمد بن موسى بن عيسى الدميري (ت ٨٠٨هـ) ، عني به اللجنة العلمية للدار ، ط ١ ، (٢٠٠٤م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، للعلامة المؤرخ البحّاث يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، ط ١ ، (١٩٦٣م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للحافظ المؤرخ الأديب أحمد بن محمد بن يحيى المعروف بالمَقْرِي (ت ١٠٤١هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، دار صادر ، لبنان .
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، للعلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) النويري ، بدون تحقيق ، (١٩٢٣م) ، مطبعة دار الكتب المصرية .
- نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ومعه حاشية العلامة علي الشبراملسي (ت ١٠٨٧هـ) وحاشية العلامة أحمد الرشيد (ت ١٠٩٦هـ) ، للإمام العلامة محمد بن أحمد الرملي (ت ١٠٠٤هـ) ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، للإمام الحافظ اللغوي المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق محمود الطناحي وطاهر الزاوي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، للعلامة السيد عبد القادر بن شيخ العيدروس (ت ١٠٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد حالو ومحمود الأرنبوط وأكرم البوشي ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار صادر ، لبنان .
- هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين من كشف الظنون ، لعالم الكتب الباحثة إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي (ت ١٣٣٩هـ) ، ط ١ ، (١٣٦٤هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، للإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، المكتبة التوفيقية ، مصر .
- الوافي بالوفيات ، للعلامة المؤرخ الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ٢ ، (١٩٩١م) ، دار فرانز شتاينر ، ألمانيا .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، للإمام المؤرخ أحمد بن محمد ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) ،
تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، (١٩٦٨م) ، دار صادر ، لبنان .
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، للعلامة اللغوي عبد الملك بن محمد المعروف بأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ، ط ١ ، (١٩٨٣م) ،
دار الكتب العلمية ، لبنان .

* * *

مُحْتَوَى الْكِتَابِ

| | |
|----|--------------------------------------|
| ٧ | بين يدي الكتاب |
| ١١ | عناية العلماء بـ «لامية ابن الوردي» |
| ١٤ | ترجمة الإمام ابن الوردي |
| ١٩ | ترجمة الإمام القنائي |
| ٢٠ | وصف النسخ الخطية |
| ٢٢ | منهج العمل في الكتاب |
| ٣١ | منظومة «نصيحة الإخوان ومرشدة الخلآن» |

* * *

| | |
|----|--|
| ٣٧ | «فتح الرحيم الرحمن في شرح نصيحة الإخوان» |
| ٣٩ | مقدمة الكتاب |
| ٤٠ | الشعر تعتريه الأحكام الخمسة |

١- إغْتَزِلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْفَزْلَ وَقُلِ الْفَضْلَ وَجَانِبَ مَنْ هَزَلَ

| | |
|----|-------------------------|
| ٤١ | المرأة قسيم الدنيا |
| ٤٢ | ومنهن الصالحات القانتات |
| ٤٥ | لغة البيت |
| ٤٦ | أذواق في وصف المحبة |
| ٥٠ | علامات المحييين |

- هو الفصل ليس بالهزل ٥١
 مزاحه عليه الصلاة والسلام حتى دوماً ٥١

٢- وَدَعِ الدُّكْرَى لِأَيَّامِ الصَّبَا
 ٣- إِنَّ أَهْنَا عَيْشِيَةٌ قَضَيْتَهَا
 فَلِأَيَّامِ الصَّبَا نَجْمٌ أَقْلُ
 ذَهَبَتْ لَدَائِهَا وَالْإِنَّمُ حَلُّ

- لغة البيت ٥٣
 خمس ما قُرِنَ بالصغائر إلا وصيرتهن من الكبائر ٥٣
 فائدة: في استحباب تدارك ما فات بالتوبة ٥٤
 فائدة: فيما ورد من الأخبار في فضل طول عمر المؤمن ٥٦

٤- وَأَتْرِكِ الْغَادَةَ لَا تَحْفَلِ بِهَا
 تُنْسِ فِي عِزٍّ وَتُرْفَعُ وَتُجَلِّ

- لغة البيت ٥٨
 هل رَغِبَ الناظم بترك الزواج؟ ٥٨
 فائدة: في بيان الغاية من الزواج ٥٩
 دعاء الولد مفيد مطلقاً، صالحاً كان أو فاجراً ٦٠

٥- وَأَلِّهِ عَنِ آلِهِ لَهْوٍ أَطْرَبَتْ
 وَعَنِ الْأُمْرَدِ مُرْتَجِّ الْكُفْلِ

- لغة البيت ٦٢
 حكم استعمال آلات الملاهي ٦٢
 يكره غناء المرأة ويحرم أذنانها وعله ذلك ٦٣
 فائدة: في سبب زغرودة المرأة إذا حصل لها سرور ٦٣
 حكم استعمال الطبل ٦٣

- ٦٣ حكم النظر إلى الأُمرد
- ٦٤ عقاب قوم لوط ومن درج دريهم
- ٦٩ فائدة: في بيان سبب إحداث اللواط
- ٧٠ خاتمة تتعلق بهذا المحل
- ٧٠ طريقة المُطاوعة
- ٧١ فخلف من بعدهم خلف
- ٧٢ تمة: في وظيفة البدايات والنهايات مع بعضهم البعض

٦- إِنْ تَبَدَّى تَنْكَسِفُ شَمْسُ الضُّحَى
وَإِذَا مَا مَاسَ يُزْرِي بِالْأَسَلِ

٧- زَادَ إِنْ قَسَّاهُ بِالشَّمْسِ سَنَاءً
وَعَدَلْنَاهُ بَعْضِنِ فَأَعْتَدَلْ

- ٧٤ الغرض من البيتين
- ٧٤ معنى (ماس) عند الشارح
- ٧٥ فتنته فطرت كبده
- ٧٦ المقصود من كلام الناظم

٨- وَأَفْتَكِرُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ اللَّذِي
أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدُ أَمْرًا جَلَلًا

- ٧٧ راقب العواقب
- ٧٨ تنبيه: في الفرق بين الجَلَل والجَلَل
- ٧٨ فائدة: في معاني الهوى
- ٧٩ مغالبة الهوى

٩- وَأَهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتَىٰ كَيْفَ يَسْعَىٰ فِي جُنُونٍ مِّنْ عَقْلٍ

- ٨١ معنى البيت
- ٨١ تعريف الخمرة ومراحل تحريمها
- ٨٤ أم الخبائث
- ٨٥ عشر خصال مذمومة لشارب الخمر
- ٨٧ فائدة: في بيان حكم شرب الدخان
- ٩٢ فائدة: في بيان حكم أحاديث نقلت في شرب الدخان

١٠- وَأَتَّقِ اللَّهَ فَتَقْوَىٰ اللَّهِ مَا جَاوَزْتَ قَلْبَ أَمْرِي إِلَّا وَصَلُ

- ٩٤ معنى البيت
- ٩٤ أمثلة من المأمورات والمنهيات

١١- لَيْسَ مَن يَقْطَعُ طُرْقًا بَطْلًا إِنَّمَا مَن يَنْقِي اللَّهَ الْبَطْلُ

- ٩٦ من هو البطل؟
- ٩٦ ما قيل في التقوى
- ٩٨ التقى أكرم الخلق عند الله تعالى

١٢- صَدَّقِ الشَّرْعَ وَلَا تَرْكَنْ إِلَيَّ رَجُلٍ يَرْضُدُ بِاللَّيْلِ زُحْلُ

- ١٠٠ معنى البيت
- ١٠٠ فائدة: في بيان ماهية الدين والملة والشريعة

- هل خُصَّص الحكم بزحل؟ ١٠١
- أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقهر المنجمين ١٠٢
- بعض الأحاديث الواردة في النهي عن تصديق المنجمين ١٠٣
- الكهانة ثلاثة أضرب ١٠٤

١٣- حَارَتِ الْأَفْكَارُ فِي قُدْرَةِ مَنْ قَدَّ هَدَانَا سُبُلَنَا عَزَّ وَجَلَّ

- معنى البيت ١٠٥
- أصل دخول الجنة برحمة الله تعالى ١٠٥
- لغة البيت ١٠٧
- المصنوعات علوية وسفلية ١٠٧
- أقرب العجائب إليك نفسك التي بين جنبيك ١٠٨

١٤- كَتَبَ الْمَوْتُ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ قَلَّ مِنْ جَمْعٍ وَأَفْنَى مِنْ دَوْلٍ

- معنى البيت ١١٠
- تنبيه: في بيان مادتين لغويتين ١١٠
- فائدة: في بيان دول الإسلام ١١١
- فائدة: في ذكر ما جاء عن الموت وهوله ١١٣
- حديث البراء المشهور في ذكر أهوال القبور ١١٥
- لم نكره الموت ١١٧
- حكاية عجيبة للحارث بن نبهان ١١٩

١٥- أَيْنَ نُمْرُودُ وَكُنَعَانُ وَمَنْ مَلَكَ الْأَرْضَ وَوَلَّى وَعَزَلَ

- معنى البيت ١٢٣
- الحديث عن كنعان ١٢٣
- الحديث عن نمرود وقصته مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ١٢٤
- فائدة: في الأمر بقتل الوزغ ١٢٧
- ملك الأرض أربعة ١٢٨

١٦- أَيَنْ عَادُ أَيَنْ فِرْعَوْنَ وَمَنْ رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ

- معنى البيت ١٢٩
- الحديث عن عاد وقصتهم مع سيدنا هود عليه السلام ١٢٩
- الحديث عن فرعون وقصته مع سيدنا موسى عليه السلام ١٣٣
- قتل موسى عليه السلام للقبطي وفراره إلى أهل مدين ١٣٨
- كليم الله تعالى ١٣٩
- بين سبعين ألف ساحر ١٤٢
- الحديث عن الأهرام ١٤٤

١٧- أَيَنْ مَنْ شَادُوا وَسَادُوا وَبَنَوْا هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلُلُ

- لغة البيت ١٤٧
- انظاماس الرسوم والمعالم ١٤٨

١٨- أَيَنْ أَرْبَابُ الْحِجَا أَهْلُ اللَّهِى أَيَنْ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأَوَّلُ

- الحديث عن موت الصالحين ١٤٩

١٩- سَيُعِيدُ اللَّهُ كُلاً مِّنْهُمْ وَسَيَجْزِي فَأَعْلًا مَا قَدْ فَعَلَ

- معنى البيت ١٥٠
وصف أرض المحشر ١٥٠
الجمع بين الأخبار الواردة في تبديل أرض الحشر ١٥٢
فائدة: في الأرض المبدلة ومكان الحشر ١٥٤

٢٠- أَيُّ بَنِيَّ أَسْمَعُ وَصَايَا جَمَعَتْ حِكْمًا خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ الْمَلَلِ

- لغة البيت ١٥٦
فضيلة الأمة المحمدية ١٥٧
ما أكرم الله به الأمة المحمدية ١٥٩

٢١- أُطْلِبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ

- معنى البيت ١٦١
تنبيه: فيما يجب طلبه من العلوم ١٦١
الأعضاء كالأغنام السائمة وصاحبها راعيها ١٦٣
قدر الصلاة عن البخاري رحمه الله ١٦٣

٢٢- وَأُحْتَفِلُ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلٍ

- معنى البيت ١٦٤
تعريف الدين ١٦٤

٢٣- وَأَهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ يَعْرِفِ الْمُطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَدُنْ

١٦٦ معنى البيت

١٦٦ لذة طلب العلم عند طلابه

١٦٧ من عرف الغاية هانت عليه الوسيلة

٢٤- لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

١٦٩ معنى البيت

١٦٩ فضل طلب العلم

١٧٢ الجلوس بين يدي عالم فيه سبع كرامات

٢٥- فِي أَرْذِيَادِ الْعِلْمِ إِزْغَامُ الْعِدَا وَجَمَالُ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ

١٧٤ معنى البيت

١٧٦ فائدة: في بيان جملة من الأخلاق ينبغي للعالم أن يتحلى بها

٢٦- جَمَلِ الْمَنْطِقِ بِالنَّحْوِ فَمَنْ يُحْرَمَ الْإِعْرَابَ بِالْمَنْطِقِ أُخْتَبِلَ

١٧٨ معنى البيت

١٧٨ علم النحو وما يتعلق به

١٧٩ معاني كلمة (النحو)

٢٧- وَأَنْظِمِ الشُّعْرَ وَلَازِمِ مَذْهَبِي فَاطَّرَاخُ الرَّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقْلُ

لغة البيت ومعناه ١٨١

٢٨- فَهَوَ عِنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا أَحْسَنَ الشُّعْرَ إِذَا لَمْ يُتَيَذَّلْ

معنى البيت ١٨٢

الشعر أرفع الفنون قدراً ١٨٣

بيان المراد من قول الإمام الشافعي: (ولولا الشعر بالعلماء يزري) ١٨٤

٢٩- مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى مُشْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلْ

لغة البيت ومعناه ١٨٥

كلما اقترب الساعة .. قلَّ الأختيار وازداد الأشرار ١٨٦

٣٠- أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ قَطَعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقُبْلِ

معنى البيت ١٨٧

حكم تقبيل اليد ١٨٧

حكم القيام ١٨٧

٣١- إِنْ جَزْتَنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي رَفِّهَا أَوْ لَا فَيَكْفِينِي الْخَجَلُ

معنى البيت ١٨٩

- ١٨٩ كُنْ فِي غِنَى عَنِ النَّاسِ
- ١٩٠ لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً

٣٢- أَعَذَّبُ الْأَلْفَاطِ قَوْلِي لَكَ (خُذْ) وَأَمْرُ اللَّفْظِ نَطْقِي بِهِ (لَعَلْ)

- ١٩١ معنى البيت
- ١٩١ وإذا سألت . . فاسأل الله تعالى
- ١٩٢ الطمع يذهب العلم

٣٣- مُلْكُ كَسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةً وَعَنِ الْبَحْرِ اجْتِزَاءً بِالْوَشْلِ

- ١٩٣ لغة البيت ومعناه
- ١٩٣ الزهد هو أصل المحبة بين العبد وربّه
- ١٩٤ نبيّ عبد

٣٤- إِعْتَبِرْ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ تَلَقَّاهُ حَقّاً وَبِالْحَقِّ نَزَلَ

- ١٩٥ معنى البيت
- ١٩٥ رفعت الأقلام وجفت الصحف

٣٥- لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ وَلَا مَا فَاتَ يَوْماً بِالْكَسَلِ

- ١٩٦ معنى البيت
- ١٩٦ وعلى العبد السعي والطلب
- ١٩٧ الإيمان هو رأس المال

٣٦- اِطْرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا تَخْفِضُ الْعَالِي وَتُعْلِي مَنْ سَفَلَ

- ١٩٨ معنى البيت
 ١٩٨ الدنيا دار غرور
 ١٩٩ في وصف الدنيا
 ٢٠٠ أكرموا عزيز قوم ذل
 ٢٠١ الدنيا سجن المؤمن
 ٢٠٢ أيهما أفضل الدنيا أم الآخرة؟
 ٢٠٤ أسافل رفعتهم الدنيا
 ٢٠٤ زياد بن سمية
 ٢٠٥ المراد بالعراقيين
 ٢٠٨ الحجاج بن يوسف الثقفي

٣٧- عِيشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَخْصِيلِهَا عِيشَةُ الْجَاهِدِ بَلْ هَذَا أَذَلُّ

- ٢١١ معنى البيت
 ٢١٣ فائدة: في ضرب مثال لغفلة أهل الدنيا

٣٨- كَمْ جَهُولٍ وَهُوَ مُثْرٍ مُكْثِرٍ وَعَلِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِالْعِلَلِ

- ٢١٥ لغة البيت ومعناه

٣٩- كَمْ شَجَاعٍ لَمْ يَتَلْ مِنْهَا الْمُنَى وَجَبَانَ نَالَ غَايَاتِ الْأَمَلِ

- معنى البيت ٢١٧
- فائدة: في تعريف الشجاع وذكر بعض من عرف بذلك ٢١٧
- ذكر من عرف بالشجاعة ٢١٨

٤٠- فَأَتْرِكُ الْحَيَلَةَ فِيهَا وَأَتَّئِدُ إِنَّمَا الْحَيَلَةُ فِي تَرْكِ الْحِجَلِ

- معنى البيت ٢٢٠
- كِلِ الْأَمْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ٢٢١

٤١- أَيُّ كَفٍّ لَمْ تُفِدْ مِمَّا تُفَدُ فَرَمَاهُ اللَّهُ مِنْهُ بِالسَّلَنِ

- لغة البيت ومعناه ٢٢٢
- أبو حنيفة يرد شهادة بخيل ٢٢٣
- في وصف مائدة بخيل ٢٢٤
- أشهد أنه لحم ولي! ٢٢٥

٤٢- لَا تَقُلْ أَصْلِي وَفَضْلِي أَبَدًا إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلَ

- معنى البيت ٢٢٦
- فهل ينفع شرف النسب؟ ٢٢٧

٤٣- قَدْ يَسْوَدُ الْمَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَبِحُسْنِ السَّبْكِ قَدْ يُنْفَى الزَّغَلُ

- معنى البيت ٢٢٩
- حسن التشبيه في هذا البيت ٢٢٩

٤٤- وَكَذَا أَلْوَزْدُ مِنَ الشُّؤْكِ وَمَا يَطْلُعُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلٍ

- معنى البيت ٢٣٠
قالوا في النرجس ٢٣١
فائدة: في بيان ما بقي من الأمثلة التي ساد فيها الشيء على أصله ٢٣٢

٤٥- مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَيَّ نَسَبِي إِذِ بَأَبِي بَكَرٍ أَتَّصَلُ

- معنى البيت ٢٣٤
الحديث عن أمير المؤمنين أبي بكر رضي الله تعالى عنه ٢٣٤
كيف استخلف الناس أبا بكر رضي الله عنه؟ ٢٣٧

٤٦- قِيمَةُ الْإِنْسَانِ مَا يُحْسِنُهُ أَكْثَرَ الْإِنْسَانِ مِنْهُ أَوْ أَقَلُّ

- لغة البيت ومعناه ٢٤٠
كيف تكون الرتب في الجنة لأصحابها؟ ٢٤١

٤٧- أَكْتُمِ الْأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنَىً وَاكْتَسِبِ الْفُلْسَ وَحَاسِبِ مَنْ بَطَلَ

- لغة البيت ٢٤٢
للفقراء إذا صبروا ثلاث خصال ٢٤٢
الفقر قسمان ٢٤٤
أيهما أفضل: الفقر أو الغنى؟ ٢٤٤
معنى كون أكثر أهل النار من النساء ٢٤٥

- أيهما أفضل : الاكتساب أم التوكل ؟ ٢٤٦
- خير المكاسب ٢٤٨
- خصال إن كانت في التاجر . . . افتقر في الدارين ٢٤٩
- الناس في الكسب على خمس مراتب ٢٥٠

٤٨- وَأَذْرَعُ جَدًّا وَكَدًّا وَأَجْتَنِبُ صُحْبَةَ الْحَمَقَى وَأَرْيَابِ الْخَلَلِ

- لغة البيت ٢٥١
- من هو الأحمق ؟ ٢٥٢
- من أصناف الحمقى ٢٥٥
- الحديث عن أرباب الخلل ٢٥٦

٤٩- بَيْنَ تَبْذِيرٍ وَبُخْلِ رُثْبَةٌ وَكِلَاهُمَا هَلْدَيْنِ إِنْ دَامَ قَتْلُ

- معنى البيت ٢٥٨
- آفة الجود السرف ٢٥٩
- تنبيه : في بيان أن صرف المال في وجوه الخير ليس تبذيراً ٢٦٠
- علي بن موسى الرضا رضي الله عنه يفرق ماله كله ٢٦١

٥٠- لَا تَخُضْ فِي سَبِّ سَادَاتِ مَضَوَا إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ لِلزَّلِّ

- معنى البيت ٢٦٢
- الذَّبُّ عن أعراض الصحابة رضي الله عنهم ٢٦٢
- فيما أجابوا عن كلمة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٦٣
- فيما أجابوا عن الإمام مالك رحمه الله تعالى ٢٦٣

- ٢٦٤ فيما أجابوا عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى
- ٢٦٤ فيما أجابوا عن العارف أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى
- ٢٦٥ فيما أجابوا عن الجنيد رحمه الله تعالى
- ٢٦٥ فيما أجابوا عن الحلاج رحمه الله تعالى
- ٢٦٥ فيما أجابوا عن حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى
- ٢٦٦ فيما أجابوا عن إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالى
- ٢٦٦ فيما أجابوا عن عمر بن الفارض رحمه الله تعالى

٥١- وَتَعَاوَلْ عَنِ أُمُورٍ إِنَّهُ لَمْ يَقْزُبِ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ

- ٢٦٩ معنى البيت
- ٢٦٩ ستر الأولياء
- ٢٧٠ أرباب الأحوال
- ٢٧١ حفظ حرمة العلماء

٥٢- لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدِّهِ وَإِنْ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ

- ٢٧٣ معنى البيت
- ٢٧٣ عداوة إبليس تغني عن كل عداوة

٥٣- مِلْ عَنِ النَّمَامِ وَأَهْجُرْهُ فَمَا بَلَغَ الْمَكْرُوهَ إِلَّا مَنْ نَقَلَ

- ٢٧٤ معنى البيت
- ٢٧٤ من هو النمام؟
- ٢٧٥ النمام شر من الساحر

- ٢٧٦ مراد الناظم من المنام، والحديث عن الغيبة
- ٢٧٩ جواز الغيبة في ستة مواطن

٥٤- دَارِ جَارٍ أَلْدَارِ إِنْ جَارَ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَخْلَى أَلْتَقَلُّ

- ٢٨١ معنى البيت
- ٢٨٢ الوصاية بالجار
- ٢٨٣ حق الجار على الجار
- ٢٨٤ ثلاثة خصال حسنة في الجاهلية وأهل الإسلام أولى بها
- ٢٨٤ تمام حسن الجوار
- ٢٨٦ تتمه: في معنى لطيف مستفاد من حديث الأمر بإكرام الجار

٥٥- جَانِبِ السُّلْطَانِ وَأَحْذَرُ بَطْشَهُ لَا تُخَاصِمَ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

- ٢٨٧ لغة البيت ومعناه
- ٢٨٨ من خالط السلطان.. افتتن
- ٢٨٩ وقوف العالم بباب السلطان مذلة

٥٦- لَا تَلِ الْحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا رَغْبَةً فِيكَ وَخَالَفَ مَنْ عَدَلُ

- ٢٩٠ معنى البيت
- ٢٩٠ فرار من الولاية

٥٧- إِنْ نِصَفَ النَّاسِ أَعْدَاءُ لِمَنْ وَلِيَ الْأَحْكَامَ هَذَا إِنْ عَدَلَ

- لغة البيت ومعناه ٢٩١
- الملك يبقى على الكفر والعدل ولا يبقى على الجور والإيمان ٢٩١

٥٨- فَهُوَ كَالْمَخْبُوسِ عَنِ لِدَاتِهِ وَكِلَا كَفَيْهِ فِي الْحَشْرِ تُغْلُ

- لغة البيت ومعناه ٢٩٣
- مرارة الولاية وعاقبة صاحبها الجائر ٢٩٤
- خصال الملك الحسنة ٢٩٥
- الملك والدين توأمان لا قوام لأحدهما إلا بالآخر ٢٩٥
- شيئان إن صلح أحدهما صلح الآخر: السلطان والرعية ٢٩٦

٥٩- إِنَّ لِلتَّقْصِ وَالْإِسْتِثْقَالِ فِي لَفْظَةِ (الْقَاضِي) لَوْعْظًا وَمَثَلٌ

- معنى البيت ٢٩٧
- الترهيب والترغيب في القضاء ٢٩٨
- أبو حنيفة يمتنع من القضاء ٢٩٩

٦٠- لَا تُسَاوِي لَذَّةَ الْحُكْمِ بِمَا ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِطَا الشَّخْصُ أَنْعَزَلَ

- معنى البيت ٣٠٠
- القضاة ثلاثة ٣٠٠
- قلوا؛ فإن الشياطين لا تقبل! ٣٠١
- من حماقات القضاة ٣٠٢
- ذكاء إياس ٣٠٣

٦١- فَأَلْوِيَاثُ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ ذَاقَهَا فَالْهُمُّ فِي ذَاكَ الْعَسَلِ

- معنى البيت ٣٠٥
عاقبة مروان بن محمد ٣٠٥
الحديث عن السفاح ٣٠٦
حاصل قصة الإمام زيد رضي الله عنه ٣٠٩

٦٢- نَصَبُ الْمُنْصَبِ أَوْهَى جَسَدِي وَعَنَائِي مِنْ مُدَارَاةِ السَّفَلِ

- لغة البيت ٣١٠
تممة: في ضبط وضابط السفلة ٣١٠
عاقبة الغدر ٣١١

٦٣- قَصْرِ الْأَمَالِ فِي الدُّنْيَا تَفْزُ فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلِ

- معنى البيت ٣١٣
الأمل مذموم إلا للعلماء ٣١٣
ذكر الموت هو المعين على قصر الأمل ٣١٤
أثر زيارة القبور ٣١٥

٦٤- إِنْ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلِ

- لغة البيت ومعناه ٣١٨

معنى الشرح في قوله سبحانه: ﴿يُشْرِحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ ٣١٩

٦٥- غِبْ وَرُزْ غِيْبًا تَزِدُ حُبًّا فَمَنْ أَكْثَرَ التَّرْدَادِ أَضْنَاهُ الْمَلَلُ

لغة البيت ومعناه ٣٢١

ثواب الزيارة ٣٢٢

أدب الزيارة ٣٢٣

من جهالات العوَاد ٣٢٣

٦٦- خُذْ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَتْرِكْ غِمْدَهُ وَأَعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلِّ

معنى البيت ٣٢٥

فضيلة الجهاد في سبيل الله ٣٢٦

من خرج غازياً . فعليه بعشر خصال ٣٢٧

العبر للبوطن لا للظواهر ٣٢٨

٦٧- لَا يَضُرُّ الْفَضْلَ إِقْلَالُ كَمَا لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفَلِ

لغة البيت ومعناه ٣٣٠

أسماء ساعات النهار ٣٣٠

٦٨- حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجْزٌ ظَاهِرٌ فَأُغْتَرِبَ تَلَقَّ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلٌ

لغة البيت ومعناه ٣٣١

فوائد الغربة ٣٣١

الحث على طلب الرفعة بالجد والاجتهاد ٣٣٢

٦٩- فِيمُكِّثِ الْمَاءَ بِيَقَىٰ آسِنًا وَسُرَىٰ الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ أَكْتَمَلُ

لغة البيت ومعناه ٣٣٤

الطغرائي وابن الوردي يشتركان في توصيف المعنى ٣٣٤

٧٠- أَيُّهَا الْعَائِبُ قَوْلِي عَابِثًا إِنَّ طِيبَ الْوَرْدِ مُؤَذِّبٌ بِالْجَعَلِ

لغة البيت ومعناه ٣٣٦

وصف الحرباء ٣٣٧

٧١- عُدَّ عَنْ أَشْهُمِ لَفْظِي وَأَسْتَتِرُ لَا يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ نُعْلٍ

لغة البيت ومعناه ٣٣٩

في محاكاة هذا المعنى عند الشعراء ٣٣٩

٧٢- لَا يُعْرَظُّكَ لِيْنٌ مِنْ فَتَىٰ إِنَّ لِلْحَيَّاتِ لِيْنًا يُعْتَزَلُ

لغة البيت ومعناه ٣٤١

الناس أربعة أقسام ٣٤٢

٧٣- أَنَا مِثْلُ الْمَاءِ سَهْلٌ سَائِعٌ وَمَتَىٰ سُخِّنَ آذَىٰ وَقَتَّلُ

معنى البيت ٣٤٤

دعا الصلحاء ولم يجابوا؟! ٣٤٤

٧٤- أَنَا كَالْخَيْرِ زُورٍ صَعْبٌ كَسْرُهُ وَهُوَ لَيْنٌ كَيْفَمَا شِئْتَ أَنْتَلَّ

معنى البيت ٣٤٥

الناظم من أهل التوكل على الله تعالى ٣٤٥

٧٥- غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنْ يَكُنْ فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الْأَجَلْ
٧٦- وَاجِبٌ عِنْدَ الْوَرَى إِكْرَامُهُ وَقَلِيلُ الْمَالِ فِيهِمْ يُسْتَقَلْ

معنى البيت ٣٤٦

وصف أهل الزمان ٣٤٧

٧٧- كُلُّ أَهْلِ الْعَصْرِ عُمُرٌ وَأَنَا مِنْهُمْ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجَمَلْ

معنى البيت ٣٤٩

مداواة قسوة القلب ٣٤٩

تتمة: في ضابط ما يعني وما لا يعني ٣٥٠

الكلام على أبيات ثلاثة ليست من كلام الناظم لكنها من القافية والوزن

٧٨- وَصَلَاةٌ وَسَلَامٌ أَبَدًا لِللَّيِّ الْمُصْطَفَى خَيْرِ الدُّوَلْ

معنى البيت ٣٥١

تعريف الصلاة ٣٥١

٧٩- وَعَلَى الْأَلِّ الْكِرَامِ الشَّعَادَا وَعَلَى الْأَصْحَابِ وَالْقَوْمِ الْأَوَّلِ

- ٣٥٣ لغة البيت ومعناه
٣٥٣ حكم الصلاة والسلام على غير الأنبياء

٨٠- مَا نَوَى الرُّكْبُ بِعُشَاقٍ إِلَىٰ أَيْمَنِ الْحَيِّ وَمَا غَنَّى رَمَلٌ

- ٣٥٥ لغة البيت ومعناه

خاتمة

في فضل الصلاة على النبي ﷺ

- ٣٥٦
٣٦٠ للمصلي عليه - عليه الصلاة والسلام - عشر كرامات
٣٦٢ خاتمة الكتاب على مؤلفه الرحمة والسلام
٣٦٥ أهم مصادر ومراجع التحقيق
٣٩٣ محتوى الكتاب

شرح أمية ابن وردى

شرح مفيد رائع لـ «لامية ابن
الوردى» الحكيمية، الجامعة لطاقة من
الآداب الحسنة السنية، والسائرة أبياتها
حكماً بديعة أثرية.

والشارح هو العلامة القناوي
الشافعي، عَلم متبحر وفقه متضلع،
حشد في «شرحه» هذا من الأبحاث
الفقهية والفوائد البهية ما يسرُّ عين الناظر،
فضلاً عن إبراز لطيف المعاني في هذا
«النظم»، وتحليلته بالآثار الشريفة،
والأقوال البديعة، والأبيات الأخاذة.

وقد عني الصغار والكبار بحفظ «لامية
ابن الوردى»، والاستشهاد بأبياتها بين
الفينة والأخرى، فكان هذا الشرح خير
منجد في تجلية مكنون معانيها؛ لما تحلَّى
به الشارح رحمه الله من زهد وورع ونفَس
تناغم مع أبياتها.

نسأل الله سبحانه وتعالى دوام التوفيق
والقبول.



دار الفقه والدراسات الإسلامية

ISBN 978-9953-498-13-3



9 789953 498133